لاهوتُ الغَلَبَة

التأسيس الديني للفلسفة السياسية الأميركية

محمود حيدر

لاهوتُ الغَلَبَة

التأسيس الديني للفلسفة السياسية الأميركية

دار الفارابي

الكتاب: لاهوتُ الغَلَبَة (التأسيس الديني للفلسفة السياسية الأميركية)
المؤلف: محمود حيدر
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: **دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان**
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: info@dar-alfarabi.com
www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 2009
ISBN: 978-9953-71-395-5

© **جميع الحقوق محفوظة**

يصدر بالتعاون مع مركز دلتا للصحافة والأبحاث المعمَّقة
بيروت ـ الصنائع ـ بناية الاتحاد الوطني (الأونيون)
الطابق 3 ـ مقابل غرفة الصناعة والتجارة ص.ب. 5748/ 113
هاتف: 762 540 3 1 00961

تباع النسخة الكترونياً على موقع:
www.arabicebook.com

قالت لي، من قبل أن ينكشفَ الغطاء:
ٱذكرني بكلماتٍ منكَ، عند كلِّ وقفة..
فإني هنالك على السمْعِ والنظر،
ولا تظننَّ أن الترابَ حجاب...

إلى الوالدة في منازل القرب

مدخل

● لو كان لنا أن نتبيَّن لأميركا صفة ما، لَصَعُب البيان، واتَّسع حقل التوصيف. بعضهم يرى إلى أميركا بوصفها قضية فينومينولوجية[1]. أي أنها البلد الذي ظهر على خارطة العالم كاستثناء لا يشبه سواه. وبعضهم وجد فيه خلاصة الحداثة وما بعدها. وآخرون ممن أُخذوا فيه، لم يروا اليه إلا بصفة كونه مقولة ميتافيزيقية حطَّت على الأرض البكر لتصنعَ للعالم خلاصَه من الإثم، ثم لتستنقِذَهُ من هبوب الجاهلية.

لم تستقر المقالة الأميركية على توصيف واحد. والفرادة التي خُلعت عليها، من أهلها ومن عدوِّها، جعلتها مقالة مفتوحة على التأويل. فبقدر ما تبدو المقالة الأميركية بسيطة، هي مركبة. وهي واضحة بنسبة ما يكتنفها الغموض. وكلما تسامت على الجغرافيا والتاريخ ومملكة الاستحواذ، كان لها في التفاصيل والصغائر قضايا، قد يصبح العالم كله بسببها على حافة القيامة.

تبدو أميركا يوم ولادتها كمرآة مكتظة بالمفارقات. لا منطق للعالم من دونها. أو من دون أن يكون لهذا العالم بها صلة الربط، والشرط، والإصغاء، ثم ليكون له معها مكانة ومقامٌ وجدوى. حقٌ لها أن تَجْمَعَ المتفرِّقَ، وتفرِّقَ المجتمِع. ثم لتستأنف الجَمْعَ والفِرْقَة حيثما شاءت لها عقيدة القضاء والقدر. لم تفصل الفلسفة السياسية الأميركية بين الديني والقومي، ولا بين الليبرالي والايديولوجي، ولا بين أميركا وبقية العالم. كل شيء ـ حسب خرائطها

---

(1) Phénoménologie: «الظاهراتية»: (دراسة الظاهرات كما تبدو بصرف النظر عمّا وراءها من حقائق).

المعرفية ـ يتعيَّن داخل الأوعية المتصلة، المرصودة والمقدّرة للإستثناء الأميركي. وحين تبلغ الايديولوجيا الأميركية أقصاها، سنرى كيف آلت عمليات التوظيف الى نشوء ما يسمى بـ «الدين الجديد» . حيث يتوحَّد الدين والقومية، وتتوثَّق هوية الاستيطان في ما أسماه لاهوت التأسيس بـ ارض «اسرائيل الجديدة».

أميركا هي العالم، العالم هو أميركا.. هذه ليست مجرد أطروحة للإستخدام الايديولوجي. انها الايديولوجيا الأميركية في حدِّها الاقصى. فإن عالمية أميركا هي قضية عقائدية، من قبل أن تكون شأناً متعلقاً بالحاجة إلى الإنتشار الجيو - استراتيجي.

شعور أميركا بنفسها اليوم، هو شعورها نفسه يوم وضع مؤسِّسوها الأوائل مهمتهما العظمى، بما هي أمة مبعوثة للبشرية. فلسوف تظهر الصور، كما لو أننا بإزاء أمة لمَّا تزل في طور التأسيس. من ابراهام لينكولن الى جورج بوش، الكلمات التي ترسلها الى العالم، هي هي. وخُطَبُ استعظام الذات هي نفسها. وكل الذين اعتمروا البيت الابيض من الجمهوريين والديموقراطيين، ما كان لهم أن يفارقوا لغة لا ترى إلى العالَمِينَ إلا كـ«أغيار» لا سبيل لهم ان يبلغوا نعمة الخلاص.

من لا يجد الحال على مثل هذا النحو، فليتذكّر كلمات الكاتب الأميركي هرمان ملفيل التي رفعت بارانويا[2] الاستعلاء، والقوة، وتقديس الدماء، حدّ الجنون: «لا نستطيع إراقة قطرة واحدة من الدم الأميركي من دون أن يُراق دمُ العالم كله. دَمُنا نحن أشبه بطوفان الأمازون. إنه دمٌ مؤلَّف من مئات التيارات النبيلة المترافدة في مجرى واحد. نحن لسنا أمة، بمقدار ما نحن عالم. فما لم نكن قادرين على أن نزعم أن العالم كله هو لأبينا وسيدنا، مثل ملك إبراهيم، يبقى نَسَبُنا ضائعاً في الأبوة الكونية الشاملة».

على هذه الروح تتكئ الايديولوجيا الإميركية. هي روح رسولية يشترك فيها

---

(2) paranoïa: (ذّهان هذياني).

السياسي والديني، والغيبي والأرضي من دون تفاوت ولا منقَطَع. وهي روح لا تزال مستمرة وسارية في الزمان والمكان منذ عهد الاستيطان. ولو نحن قرأنا وثيقة ماي فلاور لعام 1620لرأينا كيف شبّه أول حاكم لبوسطن مدينته بالقدس الجديدة.

بعد قرون سينكشف الخطاب الأميركي عن رسولية مزعومة لا تفاجئ احداً. إذ على الأميركيين كما صرَّح احد الشيوخ (جس هلمز عام) 1996 «حمل مشعل الأخلاق السياسي والعسكري في قانون القوة، كما عليهم أن يصبحوا قدوة للشعوب».

لقد بدأت أميركا بالايديولوجيا لتؤسس الدولة بالفكرة. ثم لتحيي فكرة الأمة بالعقيدة. حتى جورج بوش الذي دخل مغامرته الكبرى ليخوض حربين عالميتين بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001، سوف يحفر في سرِّ الإشكال ويقول: «لا يوجد عرق أميركي بل عقيدة أميركية فقط».

كثيرون من مؤرخي سياسة أميركا الخارجية قرأوا المسارات «الأخلاقية» و«التهذيبية» لهذا البلد فأدرجوا هذا الدور ضمن ديالكتيك الهيمنة. وحين دخلت الولايات المتحدة زمناً آخر في مطالع القرن الحادي والعشرين، كان عليها أن تتهيَّأ لعالم راح يجري بسرعة بيِّنة باتجاه الفراغ. ثم كان عليها أن تملأ هذا الفراغ بأي ثمن. حتى لا تغدو هي نفسها تائهة في فضاء العدم. لكنها، وهي تفعل ذلك، لم تلبث أن امتلأت بعالم يكتظ بفوضاه، ويمنحها أعداء تؤسس على عداوتهم المفترضة زمنها الجديد.

* * *

مسعى هذا الكتاب هو تظهير حاضرية الدين في تشكيل الهندسة العامة للأطروحة الأميركية بأحيازها الايديولوجية، والثقافية، والإقتصادية، والسياسية، والاستراتيجية. ولسوف يتبيَّن للقارىء كم لمساحات الفعل اللاَّهوتي المسيحي البروتستانتي من أثرٍ مبيّن في نشوء أميركا. فعلٌ يمكن معه القول، إن هذه

الأخيرة إنما هي ظاهرة دينية بامتياز. ووفاقاً لهذا المسعى، بسطنا كتابنا على مدخل عام، وسبعة فصول، وخاتمة.

في المدخل العام عرضنا الى المضامين الإجمالية لهذا الكتاب. مبيِّنين المتَّكآت الدينية والفلسفية والايديولوجية التي ساهمت في ولادة الاستثناء الأميركي التاريخي. بما هو استثناء يقوم على بناء دولة وأمة ذات طابع رسالي كوني، وغايته الإحاطة بالعالم على قواعد الغَلَبة والسيطرة المطلقة. وبذلك مهَّدنا إلى الأطروحة المركزية لعَمَلنا هذا وهي البحث في مقومات الظاهرة الأميركية بوصفها ظاهرة دينية ما بعد إمبرياليَّة.

ولقد فصَّلنا هذه الأطروحة ضمن الفصول السبعة والخاتمه، على النحو التالي:

الفصل الأول: «طبائع أميركا الأولى -فلسفة الولادة»: وهو فصل يحكي قصة ولادة أميركا. ويعرض إلى الإيمان الديني كعامل حاسم و مكوِّن في بلورة فلسفة الولادة وتظهيرها. كما يمهِّد للعناصر التأسيسية التي نشأت عليها الأطروحة الأميركية من خلال بيان الدور الذي اضطلعت فيه النخب الطهرانية الإنكليزية بصيغتها الأميركية، لجهة بلورة ديانة عملية من سماتها، جمع اللاَّمتناهي الديني، إلى الخرائط التفصيلية لبناء العالم الجديد.

وبهذا المعنى، مثلاً، لم يكن كريستوفر كولومبوس سوى الرمز الدال على طبيعة هذه الديانة التي سوف تؤسس ما يمكن وصفه بـ «اللاَّهوت الأرضي». اي ذاك اللّاهوت المنبسط على مساحة الأرض الجديدة المكتشفة. لذا سنجد أنه عندما قرَّر كولومبوس ركوب البحر والمضي في مغامرته الكبرى كانت الإيمانية المسيحية حاضرة بقوة في عقله وقلبه. في حين لم يَحُل شَغَفُهُ بالعلم والحداثة، دون انتسابه الروحي إلى العالم الميثولوجي القديم. فهو سليل أسرة يهودية تحولت الى المسيحية، لكنه مَعَ ذلك كان مسيحياً وَرِعاً، وأراد أن يكسب العالم كله من أجل المسيح.

إنطلاقاً من رمزية هذا الحادث التاريخي، وجدنا أن نضع السياق المنطقي لفلسفة الولادة الأميركية. ولاحظنا أن التطور المعقَّد للحركة الدينية في مجتمعات المستوطنين الأميركيين الاوائل، أدى إلى نشوء مفارقات لا سابق لها

في الحضارات الحديثة. فهناك منطقة معرفية ولدت من الرحم الحار للمسيحية البروتستانتية، وسيكون لها أثر حاسم في الفلسفة السياسية لأميركا المعاصرة. عنينا بها «البراغماتية» او «المذهب العملي». حيث تُظِهرُ الوقائع أن نشوء هذه المنطقة المعرفية جرى وسط حقل ديني وثقافي وسياسي شديد الإنفعال باسئلة الزمان والمكان.

ثم بَيَّنا أن الجدل الديني في احقاب أميركا الأولى، لم يكن مفارقاً لسيْريَّات الإجتماع والسياسة والفكر: كل حركة او جماعة دينية كان لها حظٌ ما، في الحراك المشترك بين الديني والدنيوي. بل أكثر من ذلك فقد كان ثمة ضربٌ من علاقة تداولية يتكامل فيها الميتافيزيقي مع العلماني، رغم خطوط الإحتدام فيما بينها ضمن سياق الصراع على تشكيل الدولة، والمجتمع، والمؤسسات، وموقعية الدين والإيمان الديني في هذا الصراع.

ولقد أظهرت فلسفة الولادة، على ما قوربت في الفصل الأول، أن الطريقة الأميركية قامت على الجمع بين شيئين متعاكسين، هما التديُّن والحرية. حيث كان لدى الأميركيين الأوائل المشبعين بفنون تسييل الميتافيزيقا داخل قنوات السياسة والإقتصاد وأنماط الحياة الأخرى، القدرة على ممارسة إجراءات الوصل والفصل بين العلمانية والدين، كلما اقتضت شرائط مشروعهم الحضاري ذلك.

الفصل الثاني: بعنوان: «أميركا بما هي دولة دينية- مثلث الأصولية والليبرالية والإنجيلية». بسطنا في هذا الفصل التأسيسات الدينية للظاهرة. وعرضنا إلى الأصولية والليبرالية والإنجيلية كمكوِّن مثلث الإضلاع للتيارات الدينية الرئيسية في التاريخ الأميركي. الاَّ أننا ركَّزنا بصفة محورية على المرجعية البروتستانتية، التي لم تكن في الحقيقة سوى «الدين المسيحي الجديد» الذي سيؤسس للميتافيزيقا الثقافية والسياسية للأمة الناشئة. ولسوف نرى أن مجمل الظواهر والفرق والطوائف الدينية، إنما هي وليدة الحراك الإجمالي للتجديد البروتستانتي، الذي حدث داخل الكنيسة المسيحية الكاثوليكية، إثر حركة

الإصلاح في القرن السادس عشر. كما تناولنا التحولات التي شهدتها حركة الإصلاح البروتستانتي: من هيرمينوطيقا[1] فيه أيضاً، الكتاب المقدس، إلى تماهيها وتكيُّفها مع الحداثة، وصولاً إلى الجدل العميق والمعقَّد في العلاقة بين التديُّن والعلمنة. حيث اضأنا على واحدة من أبرز مفارقات التجربة الأميركية في هذا المجال، وهي الزواج العجيب بين العلمانية والدين. مع الإشارة الى الدور الوازن الذي لعبه الدين في ولادة اول جمهورية علمانية في العصر الحديث.

الفصل الثالث: جاء تحت عنوان «فلسفة المكان- مفارقات النزعة القومية الأميركية» وفيه إضاءات على النزعة القومية في أميركا وعناصرها المكوِّنة. وظهر لنا أن المكان (الأرض لساكنيها الجدد) ينبسط كعنصر مؤسس في الفلسفة السياسية الدينية الأميركية. وهو حاضر وحضور العين في مجمل مكوِّناتها. فلا تغادر الجغرافيا التي حلَّ فيها المهاجرون، مقاصدها الرسالية، وأبعادها الميتافيزيقية. وبهذا المعنى لا يعود المكان مجرد حيِّز أرضي تنعقد على مهاده عناصر الإجتماع التاريخي بين المستوطنين، بل انه سيتحول إلى قلعة مقدسة تفيض بما فيها من فضائل على العالم كله. وإذا كان لنا أن نقرأ أميركا فلسفياً، فقد لَفَتَنا ما ذكره هيغل بشأنها، لجهة قوله، انها ظاهرة ترقَّت في أيامه إلى رتبة مقوِّم من مقوِّمات جغرافية الروح الذي يتحكم في بنية الإنسانية كلها. ومن وجهٍ آخر غير منفصل يظهر التاريخ الأميركي كمشهد ايديولوجي متصل الأطوار والأحقاب. فلسوف يتبدى لنا كما لو أن معرفة تاريخ الولايات المتحدة يفترض بالضرورة الفهم العميق للنزعة القومية، التي تكوَّنت بشكل أساسي على قواعد تمتزج فيها تلك النزعة بالعقيدة الدينية، ثم ليشكلان معاً البناء الايديولوجي للتاريخ الأميركي.

وعلى سبيل الإشارة لا الحصر، فقد شكلت عقيدة «المصير الظاهر»، او «القدر المتجلِّي» حقلاً معرفياً خصيباً لتوليد عناصر تسديد إضافية للوعي القومي الأميركي. حيث ضاعفت هذه العقيدة من الرغبات الجامحة للتوسع والإحتلال.

---

(3) Herméneutique: تفسيري، تأويلي، منهج في الفهم متعلّق بالكتب المقدّسة.

ولقد أشرنا إلى واحدة من المفارقات اللاَّفتة في القومية الأميركية، وهي أنه في الوقت الذي تعد هذه الكلمة (القومية) بغيضة وغير مستحبة في الثقافة السياسية، فإن أميركا تسجل أعلى نسبة من بين دول العالم في استظهارات الفخر القومي لدى شعبها.

الفصل الرابع: وفيه تأصيل لمعنى أميركا الإسرائيلي. أي للجذور اللاَّهوتية والفلسفية التي اتَّكأ عليها المؤسسون الأوائل لصوغ البناء المعرفي للأطروحة الأميركية. سَعَيْنا في هذا الفصل إلى بيان المشترك المعنوي للنشأتين الأميركية والإسرائيلية، بما هو مشترك يقوم على بعدين محوريَّين يُظهران وحدة المصدر، والسلوك، والممارسة، والغاية:

البعد الأول: السمة الإستيطانية لكل من الولادتين، وذلك على القاعدة التي تقول بوجوب إحلال شعب لا أرض له، في أرض لا ينبغي لمن يقنطها أن يكون له أرض.

البعد الثاني: السمة اللّاهوتية التوراتية، التي تُبرِزُ الوجه الميتافيزيقي للظاهرتين الأميركية والإسرائيلية. مع ما لهذا الوجه من أثرٍ حاسم في ترسيخ الطابع الرسالي لكل منهما. وبالتالي جعل كل سلوك وممارسة ينطلقان من «حقَّانية» مزعومة للشعب المختار، وبأن ما يفعله هذ «الشعب» هو حق يستمد مرجعيته المتعالية من الأمر الإلهي ومقاصده.

ولسوف نبيِّن ايضاً أن حضورية الدين في تكوين الولادة الأميركية، لم تنأَ عما نجده في المثال المعاصر للدولة اليهودية في فلسطين. ولذا أمكننا القول، إنّ الظاهرتين جاءتا من نفس واحدة. وستؤولان إلى غاية واحدة، ومصير متشابه.

الفصل الخامس: ويتناول «فلسفة الحرب»، بما هي واحدة من أبرز مكّونات التجربة التاريخية الأميركية. عَرَضْنا إلى هذا المكوِّن من وجه كونه سَمْتاً لاهوتياً، وسياسياً، واستراتيجياً لسلوك أميركا منذ نشوئها. ولأن «فلسفة الحرب» هي بالنسبة للتجربة التاريخية الأميركية، على مثل هذا القدر من السعة والشمول، فقد ترتب عليها منظومة قيمية وأخلاقية وتربوية، خلاصتها، النظر

إلى الحرب كحامل حضاري مآله استنقاذ العالم كله من ظلمة الجاهلية. ولقد جاءت تطبيقات هذه المنظومة في الحقول الأميركية لتبرهن على مدى موقعية الحروب فيها، بوصفها حروباً مقدسة. لاسيما وأنها اكتست على الدوام رداءً لاهوتياً ورسالياً غَمَرَ الممارسات الحربية بدفء كلماته على مدى خمسمائة عام متواصلة.

وعلى قوام التأويل الفلسفي لماهية الحرب، سوف يتكثّف تعريف الأصل الروحي لأميركا، بأنه «الحرب ضد السكان الأصليين». أي أن اصل أميركا، هو الحرب ضد الساكن الأصلي. وذلك يعني أن الحرب قد تبدَّل معناها الفقهي الكلاسيكي تبدلاً مذهلاً. فهي لم تعد «نزاع الأضداد» حسب هرقليدس، ولا هي «مرضٌ مدني» حسب أفلاطون، ولا ضرباً من «الصيد البشري» كما عند اريسطو، أو هي «فضيلة» على المقصود الماكيافيللي، او «هيمنة بشر ما على الآخرين» على ما يقرر هوبز، أو «مواصلة سياسة الدولة بوسائل أخرى» حسب كلاوسفيتز، الخ. . .

إن فلسفة الحرب في الظاهرة الأميركية هي خلاف كل هذا، وإنْ كانت تحوي في ثناياها كل تلك التعريفات على الجملة. إنها فلسفة تبدو وكأنها مكتفية بذاتها. فهي تقوم على حكم ميتافيزيقي يقضي بنفي وإقصاء ما يخالفه، باعتبار فعله فعلاً إلهياً لا شِيَةَ فيه.

الفصل السادس: سيجيء تحت عنوان «الفوضى الدائمة، أو التمرينات الأخيرة للمحافظين الجدد» وفيه استقراء للتحولات التي شهدتها الاستراتيجيات الأميركية العليا مع وصول تيار المحافظية الجديدة إلى السلطة في السنوات الأولى من القرن الواحد والعشرين.

لكن المهمة الإجمالية التي سينفرد بها هذا الفصل، هي الإضاءة على تطبيقات الفلسفة السياسية والدينية للمحافظين الجدد، بوصفها تمثيلاً لطور متقدم في مدارج لاهوت الغَلَبة. فستبدو الولايات المتحدة في هذا الطور أدنى إلى مرآة تعكس اكثر افصاحات الإمبريالية الدينية عن نفسها وعن مقاصدها الخارجية.

ولسوف نركِّز تبعاً لذلك، على الحلقة الأكثر استدعاءً للسجال، وهي تلك التي شاع الكلام عليها بما سمي بـ «نظرية الفوضى الخلاَّقة». فالمعروف عن هذه النظرية انها وجدت ديناميتها الفعلية إثر منعطف الحادي عشر من إيلول(سبتمبر) 2001. وهي نظرية متأتِّية من لاهوت سياسي يفترض وجود خطر وشيك من عدوٍ يتهدد أميركا في كل لحظة. كما يقوم على افتراض الاّ يكون التهديد حاصلاً بالضرورة من جانب دولة، او منظمة إرهابية بعينهما. يكفي أن يتم تصوُّر مثل هذا التهديد او توقعه على سبيل الظن، حتى يؤخذ القرار بشن حرب.

ولكي تأخذ فلسفة الفوضى الخلاَّقة سيْريَّاتها التطبيقية، عكف كثيرون من ايديولوجيي «لاهوت الغَلَبَة» على وضع هندسة معرفية شاملة تسوِّغ لحروب الإحتلال والسيطرة. ولعل نظرية الفوضى التي شكَّلت إحدى أهم المنجزات المعرفيَّة لهؤلاء إنما تعني في حقيقتها السعي الإستباقي نحو تفكيك المواقع والجغرافيات، التي يُتصوَّر او يُظن أنها تشكل مصادر تهديد لأمن أميركا ومصالحها ونفوذها في أي نقطة من العالم.

ولئن كانت نظرية الفوضى تتأسس نظرياً على ثنائية التفكيك والتركيب، فذلك يعني أن اللاَّهوت الاستراتيجي الأميركي بصيغته الراهنة لم يعد يأتيه اليقين إلا وسط عالمٍ تكون الفوضى فيه سبيلاً لإعادة تشكيله على نصابٍ يوافق المهمة الأميركية في منظورها الديني.

الفصل السابع: ويتناول نقد أحد أهم المآلات المنطقية المعاصرة لـ«لاهوت الغلّبة». حيث شهدت مسارات الحروب الأميركية على العالم، ذورة احتدامها في أواخر القرن الماضي، وبدايات القرن الواحد والعشرين.

في هذا الفصل عرضنا إلى الجدل الداخلي حول الإخفاقات التي تعرضت لها حروب أميركا في ميادين الجغرافيات العربية الإسلامية بعد زلزال الحادي عشر أيلول/ سبمتر 2001.

ولقد اتخذنا من كتابات عدد من المفكرين الاستراتيجيين الأميركيين زوايا نظر نقدية لبيان طبيعة المراجعات التي عكف عليها هؤلاء في رؤية السلوك

الإجمالي للفعاليات الأميركية المتأخرة، ولا سيما فعاليات حقبة المحافظين الجدد.

من أهم المفكرين الذين عرضنا إلى رؤاهم في هذا الفصل، صمويل هانتنغتون، زبيغنيو بريجنسكي -فرانسيس فوكوياما -هنري كيسنجر بالإضافة إلى مواقف عدد ممن يُنسبون إلى تيار المحافظية الأميركية الجديدة.

في الخاتمة التي جاءت تحت عنوان «أميركا بما هي إمبريالية دينية»، توليفٌ اجماليٌ مكثـَّف لأبرز متَّكآت التأسيس الديني لفلسفة أميركا السياسية. فلو شئنا تصدير الخاتمة لبسطناها على مقاربة خلاصتها النظر الى أميركا بوصفها إمبريالية دينية.

كان لا مناص لنا من أن نأخذ بهذا التوصيف؛ ذلك لأننا بإزاء ظاهرة عالمية شديدة التعقيد، بحيث يتخذ الدين فيها عاملاً تأسيسياً في نشأتها وتطورها اللاحق. وكذلك في تسويغ لاهوت الغَلَبَة كمقدس فلسفي، سياسي وثقافي وايديولوجي يؤلف الرداء التاريخي المميز لحضورية أميركا في العالم.

* * *

تلك محاولة للتعرُّف إلى الأطروحة الأميركية.. عسى أن نكون أفلحنا، ولو بقدر ما، مما يُومَّلُ من مقاصد هذا العمل.

محمود حيدر
خريف 2008
Email: mahmoudhaidar327@gmail.com

الفصل الاول

طبائع أميركا الاولى

فلسفة الولادة

عندما قرر كريستوفر كولومبوس ان يركب البحر ويمضي في مغامرته الكبرى لاكتشاف أميركا، كانت الإيمانية المسيحية حاضرة بقوة في وجدانه. ذاك أن شغف كولومبوس بالعلم، لم يَحُل دون انتسابه الروحي الى العالم الميثولوجي القديم. فهو سليل اسرة يهودية تحولت الى المسيحية، ويبدو انه كان لديه اهتمام «بالقبالة»، اي بالتراث الصوفي في اليهودية. لكنه كان مسيحياً وَرِعَاً، واراد ان يكسب العالم من أجل المسيح. وجلُّ آماله تمثلت بتأسيس قاعدة مسيحية عند وصوله الى الهند، وكانت غايته المركزية العمل من أجل فتح القدس عسكرياً. في هذه المرحلة كان الاوروبيون قد بدأوا رحلتهم الى الحداثة؛ الاّ انهم لم يكونوا حداثيين تماماً بالمعنى الذي يُفهم من كلمة الحداثة. فالاساطير المسيحية كانت لا تزال تعطي معنى لاستكشافاتهم العلمية والعقلانية.

لقد أوضحت رحلة كولومبوس ان سكان اوروبا كانوا على شفا عالم جديد. كانت الآفاق تتسع، بينما هم يدخلون عوالم لا مخططات لها جغرافياً، وثقافياً، واجتماعياً، واقتصادياً، وسياسياً. إلاّ أنهم ظلوا على يقين من أن انجازاتهم هذه سوف تجعلهم سادة الارض. بيد أن للحداثة، مع ذلك، جانباً اكثر قتامة. فإسبانيا المسيحية كانت واحدة من اقوى الممالك في اوروبا واكثرها تقدماً. وكان فرديناند وايزابيلا يختبران عملية إنشاء إحدى الدول المركزية الحديثة التي طفقت تظهر ايضاً في اجزاء اخرى من العالم المسيحي. لم يكن في وسع مملكة كهذه ان تتسامح مع المؤسسات ذات الحكم الذاتي

التي تُسيّر ذاتياً مثل نقابة الحرفيين Guilds، او مع هيئة أهلية، او مع التجمع اليهودي الذي يعود الى الفترة القروسطية.

ومعلوم أن توحيد إسبانيا الذي اكتمل بفتح غرناطة تبعه تطهير عرقي أدى الى فقدان اليهود والمسلمين اوطانهم. كانت الحداثة - بالنسبة للبعض- قوة محفِّزة، محرّرة وساحرة. بينما خَبِرَها آخرون كقوة قهرية غازية ومدمّرة. وقد استمر هذا النموذج عندما كانت الحداثة الاوروبية، تمتد الى انحاء اخرى من الارض. ذلك ان برنامج التحديث كان تنويرياً. وفي نهاية المطاف سوف يُعلي مثل هذا البرنامج، قِيَماً انسانية، لكنه في الوقت ذاته كان عدوانياً ايضاً. فمن خَبِرَ الحداثة على أنها هجمة اساساً، سوف يصبح اصولياً في القرن العشرين. وفي أواخر القرن الخامس عشر لم يكن باستطاعة الاوروبيين التنبّوء بفداحة التغيُّر الذي دشّنوه. وطوال السنوات الثلاثمائة التالية لن تحوِّل اوروبا مجتمعها سياسياً واقتصادياً فقط، بل هي ستنجز ثورة ثقافية ايضاً. وستغدو العقلانية العلمية نظاماً راهناً وحاضراً في صميم تلك الحقبة. وستطرد تدريجياً عادات العقل والقلب القديمة. ومهما يكن فإنه ينبغي النظر بعناية خاصة الى الطريقة التي كان الناس فيها يختبرون العالم. و لا سيما في حقبة ما قبل الحداثة. ففي جنوب اسبانيا مثلاً، كان الطلاب والمدرِّسون يناقشون بحماسة بيِّنة، الافكار الجديدة التي قدمتها النهضة الايطالية. وقياساً على ذلك، يمكن القول إن رحلة كولومبوس كانت امراً محالاً من دون اختراعات مثل البوصلة المغناطيسية، او من دون امتلاك احدث ابتكارات علم الفلك. وبحلول عام 1492م كانت العقلية العلمية الغربية قد اصبحت كفوءة بشكل أخاذ، وصار الناس يكتشفون اكثر مما كانوا عليه من قبل، قيمة - ما اسماه الإغريق- اللوغوس- الذي كان يتوصل دائماً الى شيءٍ ما جديد[1].

---

(1) Logos: العقل الأول (كائن يفصل بين الخالق والكون في الأفلاطونية الحديثة). كلمة الله.

(1) كارين آرمسترونغ- النزعات الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام- ترجمة محمد الجورا- دار الكلمة- دمشق 2005 (ص 19).

في الحقبة التي شهدت نزول الاوروبيين على شواطيء العالم الجديد، المسمَّى أميركا كانت سماتُهم القومية قد بلغت تمامها، وكان لكل منهم شخصيته المميزة. ولمَّا أن بلغوا تلك الدرجة من التحضُّر التي تحمل الإنسان على النظر في ذات نفسه، نقلوا الينا صورة أمينة لآرائهم وعاداتهم وقوانينهم، وبدا الأمر كما لو أننا نريد أن نعرف أُناس القرن الخامس عشر مثلما نعرف أُناس زماننا هذا. لذلك راحت أميركا تُظهر للعيان، ما حجبه جهل العصور الأولى وبربريتها عن أبصارنا. هكذا يقول المؤرخ الفرنسي الكسس دوتوكفيل في سياق رؤيته إلى الصورة التي ظهرت فيها التأسيسات الاولى لأميركا. لقد رأى ان المهاجرين الذين قَدِموا في حقبِ مختلفة، لاستيطان الارض التي يتألف منها اليوم الاتحاد الأميركي، كانوا مختلفين عن بعضهم في اكثر من وجه. إذ لم يكن غَرَضُهُم واحداً، كما كانوا يتدبَّرون شؤون حكم انفسهم وفق مبادىء مختلفة. ومع ذلك كان ثمة قواسم مشتركة بين هؤلاء الناس جميعاً، كما كانوا يحيون في ظروف مماثلة. . . ويقدّم دوتوكفيل اضاءةً في غاية الاهمية حين يشير الى رابط اللغة بوصفه أقوى الروابط التي تجمع بين الناس، واكثرها دواماً. هنا الجميع يتكلمون اللغة نفسها، فقد كانوا ابناء الشعب نفسه. ونظراً لظروف ولادتهم في بلدٍ طالما عصفت به صراعات الأحزاب، وفي بلدٍ كان على الزمر المتنازعة فيه، ان تضع نفسها على التتالي، تحت حماية القوانين. ولكون تربيتهم السياسية هي نتاج تمرُّسِهم بتلك المدرسة الشاقة، لم يكن مستهجناً ان يغلِّبوا مفاهيم الحقوق، ومبادىء الحرية الحقيقية، أكثر مما كانت تفعل غالبية شعوب اوروبا. وفي حقبة الهجرات الاولى، كانت الحكومة البلدية، تلك النواة الخصبة للمؤسسات الحرة، قد غدت راسخة في العادات الانكليزية، ومعها أدخِلَتْ العقيدة القائلة بسيادة الشعب، الى صُلبِ عهد أسرة تيودور (Tudor) المالكة[2].

---

(2) الكسس دوتوكفيل- عن الديمقراطية في أميركا- ترجمة بسام حجَّار- معهد الدراسات الإستراتيجية- بغداد- بيروت الطبعة الأولى 2007 (ص61).

كان المهاجرون، او الحجّاج، كما يحلو لهم ان يسمّوا انفسهم، ينتمون الى تلك الطائفة الانكليزية، التي لتقشّف مبادئها اطلقت على نفسها اسم الطهرانية. والمعروف أن النزوع الطهراني لم يكن مذهباً دينياً فحسب، بل غالباً ما كان يتطابق، في عدد من الأوجه، مع النظريات الديمقراطية والجمهورية الأشد مغالاة. وهذا ما ألَّب على الطهرانيين حكومة وطنهم. أما الذين تأذّت مبادؤهم الصارمة جرّاء السلوك اليومي للمجتمع الذي عاشوا في كنفه، فإنهم راحوا يبحثون عن ارض بربرية ومعزولة تماماً عن العالم، حيث يكون متاحاً لهم ان يحيوا فيها كما يشاؤون وأن يعبدوا ربّهم بحرية[3].

معنى الجغرافيا الناشئة

كان الإسبان والبرتغاليون هم أول من استوطنوا القارة الأميركية. حدث ذلك قبل نحو قرن من عبور الإنكليز المحيط الاطلسي متوجهين إلى البلاد الجديدة. في نهاية القرن السادس عشر سجَّل ريتشارد هاكليوت في اعماله المعروفة «الرحلات الكبرى، ورحلات واكتشافات الأمة الانكليزية»، الوضع الصعب الذي مرّ به الاقتصاد البريطاني. وحثَّ مواطنيه على الاستثمار في ما وراء البحار، والإفادة من مصدر المواد الأولية الذي من شأنه السماح لهم بالاستغناء عن المواد التي تبيعها اسبانيا بسعر ذهبي. زد على ذلك فإن من شأن إقامة مستوطنات جديدة، ان يمكّن من تقديم حل للمشاكل الاجتماعية. ثم إن إرسال الفئات الاكثر إقلاقاً وشَغَباً لاستيطان الاراضي المكتسبة حديثاً، كان من شأنه كذلك التخلص منها بسهولة، مع تشجيع التنمية بتجارة مزدهرة بين أميركا وانكلترا، ونشر الكلام الطيب في هذه الاماكن البرية. ولقد كان إدخال «البريّين» في الدين القيِّم الوحيد من شأنه ايضاً وأيضاً، ان يكسر ممانعتهم، او ان يزوِّد العملية بجرعةٍ من الوعي الصحيح[4].

---

(3) ألكسيس دوتوكفيل، المصدر نفسه (ص68).

(4) المصدر نفسه، (ص69).

على هذه السَيْريَّة[5] من تشكّل حَيَوَاتِ الساكنين الجدد للأرض الجديدة، أخذ نصابُ الزمن ينبسط امام الاطروحة الأميركية المتنامية. غير أن مثلَ هذا النصاب لم يكن ليجري دائماً على صراط الاستقامة. فلقد وقع الساكنون الجدد في حقول الاختبار الصعب منذ المراحل الابتدائية لوجودهم في الأرض الموعودة.

كان على المستوطنين ان يمروا في تجربة مصالحة مع الأرض التي حلّوا فيها للتّو. ولم يكن امامهم الاّ الدخول في ما يشبه العبور البرزخي الشاق من طور الغربة الى طور السكينة. ولسوف ينبغي لهم ان ينشئوا زماناً غير الزمان الذي سبق مجيئهم الى أرض الميعاد. وان يعيدوا هندسة المكان على قياس الأحلام التي غالباً ما تتصور الامكنة على تمام المدن الفاضلة. وهكذا لم يكن ليُفتح بابُ الكلام على أميركا بوصفها «مدينة فوق جبل»، إلا في سياق جعل الجغرافيا تمثيلاً واقعياً للإيمان الديني.

لكن الاطروحة الأميركية ستواجه، تبعاً لمهمتها التأسيسّة مشكلة الوصل والفصل بين زمان ومكان انصرما الى غير رجعة، وزمان ومكان ينبغي لهما ان يؤلِّفا بداية تاريخ جديد.

لنرَ إذاً، على أية أشرعة ستنطلق هذه الاطروحة من أجل تشييد «مدينتها الفاضلة»؟

لم تنجح الثقافة الأميركية، حتى في اكثر أطوارها امتلاءً بالعظمة في التخلص من عقدة الاحساس بالاستلاب حيال مصدرها الاوروبي. لاينافي هذا الواقع حقيقة كون أميركا مستعمرة تؤسس استقلالها، وتتحرك باتجاه اقامة كيان رئيسي من تلقاء نفسها. وبحسب مؤرِّخي النشأة الأميركية، أن هذه النشأة، مرَّت في سلسلة من التغيّرات التي سبقت من نواح شتى، تأسيس الاستقلال الثقافي لكثير من الأمم الناهضة. وسنرى تبعاً لهذا الإحساس كيف سعى المؤسسون الاوائل الى تأكيد الأصالة السياسية والثقافية للإطروحة الأميركية.

(5) نقصد منها الحركة الجوهرية في الاجتماع البشري. وسيكون لنا مجال آخر في تعريف هذا المصطلح، وتفصيله وبيان دلالته المعرفية والفلسفية. (المؤلف)

لقد حاولوا منذ البداية صياغة سياسة خارجية واضحة ومتميزة. وكان ذلك في سياق صراع مع البلد الأم بريطانيا بقصد إظهار هويتهم المخصوصة. لذا سيعلنون بنبرة عالية انّ لأميركا فنانيها، ومفكّريها، وعلماءَها، وكتّابها، تماماً مثلما أنّ لديها زعماءها السياسيين. ثم أنّ زخم الكلام على الهوية بلغ حدّاً سيحمل كثيرين على التعامل معه بشيء من السخرية. إذ إنّه رغم امتلاك أميركا لقادتها السياسيين والثقافيين، ورغم العظمة التي ربما ظهروا فيها على المسرح المحلي، فإنهم بالمنظار الأكبر للتاريخ ظلّوا مخلوقات صنعتها الثقافة الاوروبية. اما أصالتهم فمرجعها البعيد، الى جهودهم في تكييف الأفكار القديمة مع البيئة الجديدة. وعلى ما يبيّن مؤرخو النشأة الاولى، فقد كانت أميركا نفسها اختراعاً اوروبياً. ورغم ان تطورها كان من إنجازها، فإن المواد التي صُنع منها المزيج الجديد هي في الغالب ابتكارات الاجيال السابقة من الأوروبيين. وإذا كان صحيحاً اشتمال الطهرانية، والتنوير، والرومانسية الأميركية على جوانب أصالة، فالصحيح ايضاً هو ان الأفكار والنظريات المعنية جاءت من مكان آخر(6).

لحظة تكوين الهوية

لم يكتف هذا التحليل التاريخي بهذا القدر من إحالة الثقافة الأميركية الى مصدرها الأول. وإنما ذهب بعضهم الى ما يتعدى ذلك. فقد رأى أن اهم حقيقة يمكن جلاؤها في تأسيسات الحضارة الأميركية الحديثة، هي أنها انطلقت من انكلترا كحركة دينية وسياسية ثورية. وقد برهن اقتران الخلفية البريطانية بالوسائل السياسية والغايات الدينية، قدرته على الحياة في ارض مقفرة، وبالتالي قدرته في الهيمنة على جغرافية واسعة. والى هذه الأصول تنسب الخصائص الجوهرية للسلوك الاقتصادي ومحاولات الإبداع الأميركي. ومع ان هذه الخصائص غالباً ما كانت تُجابَه بالتحدي، فقد اثبتت قدرتها على ابتكار وسائل

(6) روبرت م- كروندن- موجز تاريخ الثقافة الأميركية- ترجمة مازن حمّاد- مراجعة احمد يعقوب المجدوبة- الدار الأهلية للنشر والتوزيع- الإردن- 1995 (ص15).

تعبير بديلة، مكنَّها من إرساء طابع ثقافي، تم قبوله لدى معظم الإتجاهات على انه «طابع ثقافي أميركي» حتى في فترات متقدمة من القرن العشرين(7).

منذ البدايات الاولى للإستيطان الانكليزي فيما وراء البحار، سعى المستوطنون نحو تكوين هوية خاصة ومستقلة عن هوية الجغرافيا الأم. وبحسب المؤرخين فإن الإرهاصات الاولى لولادة الحضارة الأميركية بدأت في عهد الملكة اليزابيت الاولى في انكلترا. وكانت العقود الأخيرة من القرن السادس عشر فترة فوضى دينية شديدة في تلك البلاد. وقد أيَّد البروتستانت في منطقة لندن الملكة الجديدة. غير أن جيوب الولاء للروم الكاثوليك كانت لاتزال مستمرة في المناطق الأقل كثافة سكانية من البلاد. وقد وافقت الملكة ومعظم مواطنيها على ان دين الملك يجب ان يكون دين الدولة. ولكن احداً لم يعرف على وجه التحديد الحد الذي يمكن ان يذهب اليه بعض المواطنين في معارضة الملك الذي يعتنقون مذهبه. ولم تكن اليزابيت نفسها مهتمة كثيراً باللاَّهوت. وكانت ترغب - فوق كل شيء - بالاحتفاظ بالعرش، فيما كرّست فنون الحكم لصالح النقاء المذهبي. وكانت على استعداد للتساهل إزاء قدر معين من المعارضة طالما كان ذلك من شأنه ان يبدّد الحماس الثوري. ويبدو ان الملكة كانت تعلم بحدسها ان الشعب البريطاني لا يعتبر تقليدياً - شعباً مذهبياً-، وانه اذا تُرك لشأنه، فلن يؤيد في العادة، تحدياً قوياً يوجه الى السلطة الشرعية. وفيما يتعلق بالاستيطان الأميركي المستقبلي، فإن نقَّاد الملكة من الجناح اليساري كانوا الأكثر اهمية. فهؤلاء هم الذين اقتنعوا بأن حركة الاصلاح الديني لم تذهب الى مدى كافٍ. وهم ايضاً الذين اعتبروا أن تساهل اليزابيت يشكِّل تلاعباً خطيراً في خطة الله على الارض. وكانوا يعثرون في كل مكان على بقايا الكاثوليكية الروحية، ويبدون رغبتهم في تطهير الأمة من تعاليم الكنيسة ونفوذها الشعائري والسياسي. وبسبب من هذه الرغبة في اجراء المزيد من تطهير الكنيسة، وُصِفَ هؤلاء الراديكاليون بأنهم «بيوريتانيون»، أي «طهرانيون». وهؤلاء لم يكونوا مجموعة خارجة تماماً عن نطاق الشرعية، فقد

(7) روبرت م- كروندن، المصدر نفسه (ص15).

بقي بعضهم قريباً من العرش، وتمتَّع آخرون بنفوذ في الحكومة وفي دوائر الطبقة الاجتماعية العليا. ولأنهم كانوا يمارسون قدراً من الحنكة، فقد كان بإمكانهم التكلم والتصرّف كما يشاؤون، الى حد بعيد. وربما كان الواحد منهم يخسر موقعاً في الجامعة، او منبراً مؤاتياً لإعلان انشقاقه. ولكن احكام السجن او الاعدام كانت نادرة، ولا تلجأ السلطة اليها الا إزاء المتحمسين المستعدين لتحويل انفسهم الى شهداء. كان الطهرانيون يحملون في داخلهم جرعة زائدة من الاحتجاج على سلوك الملكة المركب من السياسة والدين. لكنهم سيعبِّرون عن احتجاجهم شيئاً فشيئاً من خلال التحول الى كتلة ايديولوجية لها رؤاها واستراتيجياتها في النظر الى الدين والمجتمع والدولة. كانت جامعة كامبردج مركزاً للمشاعر الطهرانية في حوالي العام 1650. حيث دأب المحاضرون على القول في مواعظ المناسبات، إن الله كان دقيقاً في الكتاب المقدس حول ما يجب ان تكون عليه الحكومة والكنيسة. فلم يُرِد الله حكومة كتلك الموجودة في انكلترا التي يحكم الملك فيها من خلال أساقفة تمّ تعيينهم. فقد أراد الله بنية كنسية مشيخية تقوم على اساس ان تنتخب كل مجموعة مستقلة قساوستها، ثم ينتخب هؤلاء القساوسة بدورهم زعماء للكنيسة ككل. وبعد ذلك يستطيع هؤلاء الزعماء ان يقرروا اسس العقيدة الكهنوتية، ويؤمِّنوا للكنيسة برمتها وحدة تنظيمية. ومثل هذا الترتيب سيؤدي بالطبع الى التخلص من الاساقفة المعيّنين من جانب الملكة، والتخلص بالتالي من سلطانها على شؤون الكنيسة. وبالنظر الى الدور المركزي المحتمل لتلك الكنائس في الحياة اليومية للناس، فان النموذج المشيخي من الحكم الكنسي سيوفّر ايضاً نوعاً من الفيتو المحلي على إجراءات الحكومة المركزية[8]. مع ذلك فإن الأمور لم تتوقف عند هذا الحد. فسيكون للإتجاه اللاَّهوتي الناشىء دوره الفاعل في إحداث نقلات فعلية في الزمنين السياسي والاجتماعي. لذا لم تبقَ الطهرانية في انكلترا مجرد مشاعر. فقد راحت تُظهر احتجاجها الديني والسياسي على نظام الملكة بوسائط أخرى. إذ من قبل ان تنتقل الى الاراضي الجديدة في أميركا شقَّت الطهرانية سبيلها

(8) المصدر نفسه- (ص17).

نحو التبلور كهوية حضارية. جرى ذلك على الرغم مما واجهه الوعَّاظ الذين طالبوا بمثل هذه التغيّرات. فقد عانوا ما يكفي من الاضطهاد، الى الحد الذي جعلهم يحسون بمشاعر الشهادة، من دون ان تكون هناك ضرورة لسجنهم او نفيهم او إعدامهم. لقد ازدهرت الطهرانية سراً، وولَّدت في بعض الأحيان افكاراً فريدة لم يعد احد قادراً معها على ممارسة السلطة الكهنوتية، كما ان احداً لم يكن يتولى مسؤولية مؤسسة قائمة بالفعل. ولذا سيؤدي ذلك الى نمو افكار ذات طبيعة انشقاقية. ولأن الكتاب المقدس برأي الطهرانيين غير دقيق ورمزي، فقد اثبت القراء غير المتعلمين قدرتهم على قراءته بأساليب متنوعة ومثيرة للدهشة. ولم يكن الزعيم القادر على سحر الجمهور محتاجاً الى اكثر من اعلان اختلافه مع عقيدة تقليدية، والعثور على بضعة اتباع، لتنشأ على يديه حركة هرطقة جديدة. وكانت الفئة الرئيسة من «الطهرانيين»، وهي الأكثر أهمية بالنسبة للحضارة الأميركية، غير راغبة في هجران الكنيسة التقليدية. وهؤلاء هم انفسهم من سُمُّوا بـ «اللاّإنفصاليين». والى يسار ذلك كانت هناك مجموعة من «الإنفصاليين» الذين صرحوا برغبتهم في هجران الكنيسة وانشاء تجمعهم الخاص والمستقل. وقد رغب الانفصاليون الذين كانوا يُعرفون ايضاً بـ «المستقلين» في تحديد الانتماء الى عضوية الكنيسة بشكل اكثر حزماً، بحيث يقتصر على اولئك القديسين الذين حققوا تحولاً اصيلاً في مجال اعتناقهم للمذهب الجديد. لقد أرادوا كذلك ان تتمتع كنائسهم المحلية بأكبر قدر من الاستقلالية عن المشيخات الكنسية او عن اية قيود أخرى، لتحقيق اقصى ما يمكن من الاستقلال الذاتي المحلي. ولو اتجهنا اكثر نحو اليسار، سوف نجد مجموعات من الراديكاليين، كل لها زعيمها ومذهبها. وكانت مستعمرة ويليام برادفورد في بلايموث واحدة من اشد تلك المجموعات. واثبت بعضها، كمجموعة المعمدانيين في رود آيلاند. والصاحبيين (الكويكرز) في بنسلفانيا، انها اكثر اهمية بكثير في أميركا مما كان يمكن لها ان تكون في انكلترا. وقد أمكن من خلال هذه النزاعات الدينية تسجيل أسبقيات مهمة للمنجزات الأميركية الابداعية في مجالات الفنون. كانت «الخطبة الدينية» هي اول واهم شكل من اشكال الفن في المستعمرات.

وهكذا نأى فن الوعظ بنفسه عن اذواق المسيحي العادي في انكلترا. واتقن بضعة وعّاظ انغليكانيين امثال لانسلوت، آندروز، وجون دون، أسلوب بلاغة منمّقاً، ومتأنقاً، ومليئاً بالتشبيه، والظرافة، والاستعارات اللفظية. وكانوا يتكلمون حول سلطة الكنيسة او التاج، او يعيدون سرد قصة المسيحية. على أن أي دارس حديث، سوف يبقى متأثراً بعمق ادائهم المعرفي. أما بالنسبة لعضو عادي، وغير متعلم في الكنيسة، فإن مثل هذا الاداء كان بلا معنى. ولهذا دأب «الطهرانيون» على المطالبة بعودة الوعّاظ الى اسلوب يستطيع الجمهور العريض فهمه[9].

التأسيس الطهراني لأميركا

بعد قليل من الوقت، سوف يبدو بوضوح ان التأسيس الديني لأميركا اخذ من جانب الطهرانية طريق التبشير. حتى لقد ظهرت الصورة كما لو أن الوعّاظ يقومون بترسيخ ديانة جديدة. كان عليهم ان يبتكروا اساليب تجعل من مهمتهم المقبلة قضية رسالية مركبة امتزجت فيها الهوية مع العقيدة ثم مع المصلحة.

لكن سَيْريّات التأسيس الديني للأطروحة الأميركية لم تنفصل عن مقدماتها الانكليزية وظهوراتها في البلاد الجديدة. كان ثمة وصلٌ وطيد بين المقدمة والظهور، على الرغم من الرغبة الجامحة بالانفكاك من جانب نخبة المهاجرين الاوائل والسعي لتشييد المكان الخاص بهم. ولكي نستطيع بيان جدلية الوصل والانفكاك هذه، من المفيد إلقاء الضوء على الطهرانية بنموذجيها الإنكليزي والأميركي:

أولاً- الطهرانية الإنكليزية

لقد جرى التعبير عن «الافكار الرئيسة» فيما يتعلق ببزوغ الأمة الأميركية ليس فقط من خلال التماهي مع الشعب العبراني، بل ايضاً من خلال الطهرانية

(9) المصدر نفسه- (ص18).

الانكليزية. ومن أجل فهم هذه العملية تذكر الباحثة الفرنسية والاستاذة في جامعة باريس الرابعة (السوربون) نيكول غيتان بعض الوقائع حول أصولها. منها أن تربُّع الملكة اليزابيت الأولى على العرش عام 1558، خلفاً للملكة الكاثوليكية ماري تيودور، أعاد إحياء الأمل لدى الكالفينين [نسبة إلى اللّاهوتي البروتستانتي الكبير كالڤن] الذين كانوا يطمحون إلى إنكلترا بروتستانتية. ولم يكن نشر «قانون التوحيد» (عام 1559) الذي يعطي الملكة السلطة العليا الكنسية، دون البابا، إلا لإرضاء طموحهم هذا. وعلى العكس، فإن النشرة التي أُعيد النظر فيها «بكتاب الصلاة» (برييربووك) المستوحى من الإصلاح، والذي كان في الأصل قد نشر في عهد هنري الثامن شكل سبباً في إقلاقهم. ذلك لأن طقوساً كاثوليكية ما تزال حية فيه، مثل تبادل الخواتم خلال مراسم الزواج، والاحتفال بالقديسين، او ارتداء حلة القداس في أثناء المراسم الدينية. بالإضافة الى إلغاء الصلاة من أجل الخلاص جرّاء ظلم اسقف روما (البابا). إن كل هذه التفاصيل انطوت على أهمية كبيرة، حيث بدأ الأساقفة المحيطون بالملكة بالعصيان. ولمَّا صار أن احدهم في وضع اكثر نضجاً، مثل جون كنوكس، عمد إلى كتابة رسالة هجاء بعنوان «الصوت الاول في بوق يوم الدينونة ضد «فوج النساء الفظيع». وفي عام 1564 ارادت الملكة ان تضع حداً للجدل فانفجرت الازمة؛ ورحنا نشهد تكون حزب طهراني أخذ يتحول شيئاً فشيئاً الى قوة سياسية ودينية. لقد ارادت الملكة ان تستفز العاصين لكي تدفعهم الى وعي مدى محدودية فكرهم. ولكن هؤلاء فضَّلوا التراجع، على الاقرار بهزيمتهم وصرحوا يومئذٍ: «إذا أراد الأمير أن يأخذ القرار ويأمرنا بما لم يأمرنا به الله . . فعلينا إذاً، أن نرفض القيام بما يفرضه الأمير»[10].

سوف تمضي الحركة الطهرانية الانكليزية مسافات إضافية باتجاه التبلور

---

(10) نيكول غيتان- نشأة النزعة القومية الأميركية ومصادرها- مجلة «مدارات غربية«- العدد السابع- صيف 2005- ترجمه جورجيت حداد- العنوان الأصلي للمقال: Genese et Sources du Nationalisme Americain.

الذاتي، من دون ان تكف عن مواجهة النظام الملكي. وعلى هذا النحو سنرى كيف تطورت الأمور تحت حكم جاك الأول (1603- 1625)، حيث تعددت متطلبات الطهرانية، وأدّت الى نزاعات مضاعفة. كانت مطالبهم الأساسية تهدف الى الغاء «كتاب الصلاة» والتراتبية الكهنوتية. وقد أخذواعلى «الاصلاح» الإنغليكاني كونه يبتعد كثيراً عن الروحية الكالفينية، ذلك لانهم كانوا يرون اليه انه اصلاح غير متشدِّد بشكل كاف. وهكذا حصل انقسام بين المؤمنين الذين انشقّوا، الى مجموعتين. البروتستانت (التقليديون) والطهرانيين. ثم تفاقمت الأمور عندما أيد الملك جاك الأول البروتستانتيين الذين كانوا يرغبون في الحفاظ على ممارسة النشاطات الرياضية يوم الأحد. بينما اعترض الطهرانيون الذين كان يدعمهم البرلمان، على ذلك بشكل قاطع.وبنتيجة احتدام السجال نشر الملك وثيقة، تلك التي سميت بـ «كتاب الرياضة»، واكد فيها على قناعاته وسلطته. مستثيراً بهذا رد الشاعر والمناظر الانكليزي الكبير ميلتون (1608- 1674) الذي اتهم الأساقفة «بنزع الناس من افكارهم الاكثر جدية والأكثر تقشفاً. ثم الإلقاء بهم في دوامة الألعاب والسكر والرقصات المختلطة» إلا أن الطهرانيين لم ييأسوا، وكتبوا عريضة جمعت تواقيع ألف وزير من وزراء العبادة تطالب ببعض الحقوق، وبالأخص بحُرية تفضيل العِظات على حساب الأناشيد والموسيقى. لكن السجال بين النظام الملكي والتيار الطهراني سيسلك مسارات متعرِّجة من البرودة والإحتدام. وذلك بسبب من التعقيدات التي واجهت الحلول والتسويات بين الطرفين.

لقد نظَّم الملك مؤتمر هابتون كورت في 14 كانون الثاني/يناير عام 1406 من أجل تنسيق وتنظيم الاختلافات في وجهات النظر. ولمَّا لم يتوصل الى ذلك، رفض الرضوخ لمطالب الطهرانيين. اما ما يتعلق بالتراتبية الكنسية فقد ظلت عبارة الملك «لامطران، لاملك، لانبيل» محفورة في الذاكرة. أي أنه لإلغاء ولاية الأسقف كان لا بد من الغاء الملكية وطبقة النبلاء. وبعد فترة طويلة من الهدوء، عاد الجدل ليشتعل من جديد عندما برزت مسألة زواج الامير تشارلز، الابن الثاني للملك جاك الأول من أميرة اسبانية كاثوليكية. فكانت ردة

فعل البرلمان أن دوَن عريضة رماها الملك في أثناء جلسة رسمية ممزقاً الصفحة التي كتبت عليها. ثم منع الملك طبع واستيراد الكتب الدينية، لتأخذ الأزمة شكل معركة ايديولوجية. وبعد زواج تشارلز الأول الذي لم يقترن بأميرته الإسبانية، بل بشقيقة الملك لويس الثالث عشر هنرييت ماري، كثَّف الطهرانيون من نضالهم. ومنذ تربع الملك الشاب على العرش عام 1625 اعتمد سياسة قمعيّة، حين لم يتمكن من الاتفاق مع البرلمان أقدم على حلّه عام 1629، واتخذ مطران كانتربيري، وليام لود مستشاراً له. فقد لجأ هذا الأخير الى إجراءات تعسفية ضد الطهرانيين المناهضين له. وبالفعل فقد تعرض هؤلاء لاضطهادات شتى، الى درجة أن قُطِّعت آذان معظمهم، أو تم نفيهم. فقامت صدامات بين الطهرانيين ومؤيدي الملك وأدت الى حرب أهلية أُسِرَ خلالها الملك، وجرى إعدامه عام 1649 ومستشاره لود. ثم ألغى الجنرال الطهراني المنتصر كرومويل الملكية وأعلن الجمهورية. ليؤسِّس الطهرانيون بعدئذٍ الكنيسة الجديد، في انكلترا، القائمة على تعاليم اللّاهوتي جون كالڤن[11].

ثانياً- الطهرانية الأميركية

قرر الطهرانيون في مراحل القمع الأكثر قسوة أن يهاجروا الى أميركا. ولكن على أرض العالم الجديد تغير وجه الطهرانية. وحيث لم تكن هذه الأخيرة بالنسبة للناقد الادبي منكن في الثلاثينيات، سوى الخوف المسيطر، فالأمر ليس كذلك بالنسبة لبيري ميلر الخبير في الشؤون الدينية في الولايات المتحدة الأميركية الذي اعلن: «إذا لم نوافق أبداً على الطهرانية لا يمكن ان نفهم أميركا»[12].

يعتقد ميلر ان الطهرانية هي نوع من الفلسفة، او هي نوعٌ من قانون للقيم أدخل الى «إنكلترا» الجديدة من جانب المستوطنين الاوائل في بداية القرن

(11) نيكول غيتان، المصدر نفسه.

(12) Winthrop Hudson/ Nationalism and Religion(1) in America. New York, Harpers and Row. 1970- p.55.

السابع عشر. وبعد ذلك أصبحت أحد العناصر الدائمة في الحياة والفكر الأميركيين. في حين يعتبر أن تأثيرها على المجتمع كان راجحاً حيث امتد الى ما بعد المرحلة الاستيطانية، مضيفاً انها في كل الميادين الناشطة دمغت الحضارة الأميركية بلونها الخاص، تحديداً في تطلعاتها الأكثر عمقاً. ومهما يكن من أمر، فلكي نفهم كيف تطورت الطهرانية الانكليزية لتأخذ شخصيتها الأميركية، وَجَبَت معرفة أن نمطي التفكير هذين ينتميان الى الاصل البروتستانتي نفسه، وان الطهرانيين الانكليز والأميركيين كانوا يتفقون على عدد كبير من المواضيع. في الأساس كانت حركاتهم تضم اشخاصاً مثقفين قاموا بدراسات جامعية، ويعارضون بشدة ما كانوا يدعون «بالرؤيا المباشرة»، التي تعني كل اشكال التواصل المباشر مع الله. وإن إرادة الله لا تتجلى إلا في عنايته. ومن هنا ظهر شعار قرن الوفرة الشهير.

وأياً تكن عوامل الجمع، والإلتقاء، فضلاً المرجعية المشتركة بينهما، فإن أحداثاً وتطورات أدت الى توتير علاقات الطهرانيين الإنكليز والأميركيين. من بينها قضية هوتشنسن التي أثارت ضجه كبيرة في المرحلة الإستيطانية. وفي ما يُروى حول هذه الحادثة، ان هتشنسون وصلت مع زوجها قادمة من انكلترا الى ماساشوستس عام 1634. ومنذ اللحظة التي استقرت فيها داخل الطائفة الطهرانية المحلية، راحت تعارض الحاكم جون وينثروب. لقد دافعت هذه المتمردة عن فكرة أن وجود علاقة «انصهارية» مع المسيح هي فكرة ممكنة جداً. الأمر الذي اعتُبر نوعاً من الإهانة التي وجِّهت الى الفكر الطهراني الذي لم يسَعْهُ القبول بتصوّر من هذا النوع في العقيدة المسيحية. لقد حوكمت هوتشنسن وأدينت، وتم ابعادها مما اضطرها للإقامة في رودآيسلند، وهي مأوى الذين لم يكن باستطاعتهم القبول بالتشدد الطهراني[13].

ثم وقع حدث آخر يتعلق بروحية ويليامز، وهو الشخصية المعروفة في العالم الطهراني. والذي لعب دوراً كبيراً في انكلترا كما في أميركا. بعد ان

(13) نيكول غيتان، مصدر سبقت الإشارة اليه.

تلقى ويليامز دروسه في جامعة كمبريدج اختار الدخول في الرهبانية الانغليكانية. ثم وجد نفسه يتماهى شيئاً فشيئاً والروح الطهرانية عندها هاجر الى أميركا. الا أنه حين وصل الى بوسطن رفض ان ينتمي الى الرهبانية، مدافعاً عن فكرة ان السلطة القضائية يجب ان تتميز عن السلطة الدينية. فضلاً عن ذلك، فقد اهتم بمصير، الهنود وثار في وجه نزع ملكياتهم، حتى أدت به مطالبه هذه الى النفي عام 1635 تماماً كما حصل مع آن هتشنسون. فبعد ان استقبله الهنود، لجأ الى رود آيلند حيث اسس ما أسماه مدينة «العناية الإلهية»، وأنشأ فيها ديانة جديدة هي «المعمدانية». إلا أنه سيتخلى عنها في نهاية حياته، معلناً ان أية كنيسة مكونّة لا تتمتع بأية شرعية. الى ذلك تضاف قضية جد مهمة في هذا المجال، هي قضية ساحرات «سالم» المعروفة من الجميع، والتي كان لها وقع كبير في نهاية القرن السابع عشر. لاسيما وانها تلقي الضوء على الطابع القسري للعقلية الطهراوية في انكلترا الجديدة. لقد انتظم الطهرانيون الأميركيون الأوائل المخلصون لمعتقدهم في طوائف دينية، على رأسها قسيس لم يكن يتبع لأية سلطة أسقفية. والكنيسة التي هي مركز الحياة السياسية والاجتماعية كانت تجمع اعضاء يتمتعون بحقوق المواطن. وأما الدخول في الطائفة فقد كان يستتبع مراسم كاملة قوامها بنوع خاص، الإعتراف العلني والانتخاب من قبل «أبرار» الرهبانية. في هذه المرحلة التي كان الدين والسياسة مترابطين بصورة مبهمة، أخذت الطهرانية تستخدم القضاة في الغالب لإدانة من تعتبرُهم مهرطقين. ولكن مع مرور الزمن خفَّفت الفضائح، والانشقاقات، ووصول مهاجرين جدد، من التشدد الديني، والأخلاقي، للطهرانية الأميركية. وفي نهاية القرن التاسع عشر جرى التخلي عن النظام الثيوقراطي ليظهر التسامح الديني شيئاً فشيئاً.

يوضح ما جرى، انه عندما اختار الكونغرس في 11 كانون الأول/ديسمبر عام 1783 للاحتفال بمعاهدة السلام مع بريطانيا، تعجب المحترم جون رودجر في نيويورك عندما قال: «إن العناية الإلهية حققت شيئاً كبيراً لعنصرنا. فباحتفالنا بالثورة اليوم قدمت لنا ملجأ لكل الأمم المضطهدة في الأرض».

وأما جملة وينثروب «ان العالم كله يتطلع إلينا»، فقد استُخدمت تكراراً

لتؤكد على مسؤولية الأميركيين تجاه العالم. في حين كانت هذه العبارات الشهيرة تذكر بدور أميركا بصفتها نموذجاً لكل الأمم. ذلك أنه في تلك الحقبة كان ثمة الكثير ممّن يؤمنون بأن مثال أميركا سيكون معدياً، و أن الأمم ستنتهي الى تقليده[14].

ثقافة الحرب الأهلية

في عام 1642، كانت انجلترا قد أنهكتها حرب أهلية. هي نفسها الحرب التي أدت الى إعدام الملك تشارلز الأول في عام 1649، وتأسيس جمهورية بزعامة البرلماني المتطهر أوليفر كرومويل. وعندما أعيدت الملكية الى إنجلترا عام 1660 كان البرلمان قد ضيَّق سلطتها. فالمؤسسات الديمقراطية التي كانت تنهض في الغرب ثمنها الآلام والدماء. اما الثورة الفرنسية فهي كانت اكثر كارثية. حيث تلاها عهد رعب وديكتاتورية عسكرية قبل ان يتمكن نابليون من إحلال النظام. والمعلوم ان تركة الثورة الفرنسية للعالم الحديث ذات وجهين: لقد نمّت من وجه، المثل العليا المتسامحة حيال الحرية، والمساواة، والأخوة، لكنها تركت من وجه ثانٍ، ذكرى رعب دولة شريرة، وهذه الذكرى كانت مؤثّرة كذلك.

على مدار حرب السنوات السبع في المستعمرات الأميركية (1756-1763) تنازعت بريطانيا وفرنسا على الممتلكات الإستعمارية. وتصاعدت أوزار هذه الحرب على طول الساحل الشرقي الأميركي. الأمر الذي أدى الى حرب الاستقلال (1775- 1783) وتأسيس أول جمهورية علمانية في العالم الحديث. صحيح انه كان يولد في الغرب نظام اجتماعي أكثر عدالة وتسامحاً، لكن ذلك لم يتحقق الا بعد انقضاء قرنين من العنف.

لم تكن الثقافة الدينية بمنأى عن هذه التطورات. وسيبدو ذلك بوضوح من خلال معاينة إجمالية للمشهد. فقد ظهر أن الناس في حالات الاضطراب

---

(14) المصدر نفسه.

والفوضى يلجأون الى الدين، لكن البعض سيجد ان أشكال الإيمان القديمة لم تعد تجدي في الظروف الجديدة. اما حركات المعارضة فقد سعت الى قطيعة مع الماضي، فوصلت - بشكل غير متناسق - الى شيء ما جديد. ففي انجلترا القرن السابع عشر - أي بعد الحرب الأهلية، بشَّر كل من جاكوب باوثملي Bauthumely، ولورانس كلاركسون (1667 -1615) Clarkson بإلحادية ناشئة. لقد جادل باوثملي في كتابه «جوانب الله المضيئة والمظلمة» 1650. رائياً أ«ن الله كان مجسداً في البشر بدلاً من يسوع، وأن الإلهي موجود في جميع الأشياء حتى في الخطيئة». أما في كتاب «العين الواحدة» الذي كتبه كلاركسون فقد كانت الخطيئة مجرد نزوة بشرية، والشر إلهام من الله. لكن أبتسر كوب (1672 -1619) Abiezer Coppe وهو معمداني راديكالي، فقد خرق جهاراً المحرمات الجنسية واللعنة. لقد اعتقد أن المسيح الزائف The Mighty Leveller، سوف يعود ويزيل هذا النظام المنافق المتعفن الحالي عن بكرة أبيه. وفي الوقت ذاته كانت هناك نزعة مناقضة في المستعمرات الأميركية. من أبرز اصحابها جون كوتون (1652 -1585) Cotton وهو واعظ بيوريتاني معروف حطَّ رحاله في ماساتشوستس في عام 1635، وكان يرى أن اعمال الخير لا ثواب لها، وأن الحياة الفاضلة لا جدوى منها، وأن باستطاعة الله ان ينقذنا من دون هذه القواعد التي وضعها الإنسان. أما تلميذته التي سبق واتينا على ذكرها آني هتشنسون (1643 -1590) Hutchinson فقد زعمت أنها تلقت إحياءات شخصية من الله، وشعرت ان لا حاجة لقراءة الإنجيل، او القيام بأعمال الخير. ربما كان هؤلاء المتمردون يحاولون التعبير عن إحساسهم الحديث التكون، وان القيود القديمة ما عادَت تنطبق على العالم الجديد، فالحياة كانت تتغير بعمق كبير. إذ في مرحلة التجديد المستمر، لم يكن هناك مفر من أن يسعى البعض الى وضعية استقلالية وإلى ضربٍ من تجديد أخلاقي وديني[15].

(15) كارين آرمسترونغ- النزعات الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام- مصدر سبقت الإشارة اليه (ص 94).

في الآن نفسه، وبالتزامن مع هذا الحراك، حاول آخرون التعبير عن المثل العليا للعصر الجديد بطريقة دينية. وبرز الى الساحة جورج فوكس (1624-1691) وهو مؤسس «جمعية الأصدقاء» ليطلق حركة تنوير غير مماثلة للتنويرية التي تحدث عنها بإفاضة الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط لاحقاً. هذه الحركة هي نفسها ما أطلق على اتباعها «الكواكرز» او «الصاحبيون»(16). وكان لها حضور مؤثر في الحركة المتمادية للإصلاح الديني البروتستانتي.

كان على أنصار حركه الكواكرز Quakers ان يبحثوا عن نور داخل قلوبهم، وقد علمهم فوكس «الاستفادة من فهمهم الخاص من دون إرشاد من أي شخص أخر». اعتقد فوكس ان الدين - في عصر العلم يجب أن يكون «تجريبياً»، ومتنوعاً، من خلال تجربة شخصية، ومن دون مؤسسة سلطوية. «جمعية الأصدقاء» هذه تبنَّت، ورعت المثل الأعلى الديمقراطي الجديد. كل البشر عندها متساوون، ويجب ألا يخلعوا قبعاتهم احتراماً لأي إنسان من غير المتعلمين من الرجال والنساء. كما يجب ألا يكترثوا لرجال الدين الحائزين على شهادات جامعية، لكن ينبعي عليهم، في المقابل، ان يكوِّنوا آراءهم الخاصة بهم. لعل من ابرز الرموز الناشطة في تلك الحركة يذكر المؤرخون جون ويزلي (1703- 1793) Wesley حاول تطبيق الطريقة، والنظام العلمي على الروحانية. أما أتباعه «الطرائقيون» فقد اتبعوا نظاماً صارماً في الصلاة، وقراءة الإنجيل، والصوم، وحب الناس. لقد رحب ويزلي- مثلما فعل كانط - بفصل الإيمان عن العقل، وأعلن ان الدين ليس معتقداً في الرأس، بل هو نورٌ مقذوفٌ في القلب. وقد سادت مناخات ثقافية عارمة في مراحل التأسيس،

---

(16) كان الصاحبيون (QUAKERS) في الأساس مجموعة دينية متطرفة منشقَّة تعود جذورها إلى القرن السادس عشر. وما زال الجدل يحتدم حول طبيعة الأيام الأولى لنشوء هذه الطائفة، ولكنها ظهرت بشكلها المعروف والحقيقي في شخص جورج فوكس في الأربعينات من القرن السابع عشر. ثم تطورت هذه المجموعة خلف قيادة ويليام بن في الستينات من ذلك القرن وما بعد ذلك. وكانت الطهرانية ذات تأثير قوي على التجربة الفردية لقلب الإنسان وهي تشق طريقها نحو السمو، وكان الصاحبيُّون هم المجموعة التي حملت هذا الإتجاه إلى ذروته.

مؤدَّاها ان البنية العقلانية والتاريخية في المسيحية قد اصبحت معوَّقة ومعرقِلة في الأزمنة الحديثة: هذا الأمر سوف يدفع الرجال والنساء دفعاً الى اعادة النظر بممارستهم الدينية، وذلك بإجبارهم «على النظر داخل انفسهم، والاهتمام بالنور الساطع في قلوبهم». وبالطبع لا يتوقف الأمر عند هذا الحد، فلقد ادت هذه التحولات الى مزيد من الاضطرابات في الإيمان الرسمي المسيحي. وبذلك انقسم المسيحيون الى أكثر من خط: فقد اتبع بعضهم المتفلسفين، وجرَّب آخرون نزعة صوفية مبسَّطة.. بعضهم مضوا يعقلنون إيمانهم، بينما تخلى كثيرون عن العقل كله. لقد شكل هذا تطوراً مقلقاً وبارزاً في المستعمرات الأميركية. لعل من آثاره البارزة، نشوء النزعة الأصولية في الولايات المتحدة في نهاية القرن التاسع عشر. ومنها أن معظمِ المستعمرين - عدا بيوريتانيو إنجلترا الجديدة - باتوا غير مكترثين بالدين. وبحلول نهاية القرن السابع عشر بدت المستعمرات وكأنها «معَلْمَنة» تماماً. لكن ما أن حلت بداية القرن الثامن عشر حتى استيقظت طائفة «دِنومينيشن» البروتستانتية فأصبحت المسيحية أكثر رسمية في العالم الجديد، مما كانت عليه في العالم القديم. حتى الطوائف المنشقة مثل «الكواكرز»، و«المعمدانيين» و«برسبيتريانز» التي رفضت أصلاً سلطة رجال الدين، وشددت على الحق في اتباع مساراتها الخاصة، عقدت اجتماعات في فيلادلفيا، وأبقت عينها مفتوحة على التجمعات المحلية، وأشرفت على رجال الدين، وقدرت الواعظين، وأبدت اشمئزازها من الهرطقة. ونتيجة لهذه المركزية ازدهرت هذه الطوائف الثلاث، على قاعدة مركزية حداثية لكن غريبة، فازداد أتباعها بشكل متسارع جداً. وفي الوقت ذاته تأسست الكنيسة الأنغليكانية في ميرلاند، وابتنت كنائس جميلة أحدثت تغيراً في سماء نيويورك وبوسطن، وتشارلستون. وبينما كان هناك انتقال الى الضبط «المركَزَة»، كان هناك أيضاً رد فعل حماسي على هذا «القيد المُعَقْلَنْ». لقد رأى الدين المحافظ - دائماً - الميثولوجيا والعقل مكملين لبعضهما البعض، وأن كلاً منهما سيكون الأسوأ من دون الآخر. كانت هذه هي الحالة في المسائل الدينية، حيث سُمح للعقل أن يلعب دوراً هاماً، ولو كان دوراً مساعداً. لكن الميل الجديد نحو تحييد العقل،

او طرحه في بعض الحركات البروتستانتية الجديدة (بالإمكان إرجاع هذا التأثير الى لوثر) أدى الى ضربٍ من لاعقلانية مزعجة.[17]

من هم الكواكرز أو «الصاحبيون»؟

لقد سمي «الكواكرز» بهذا الاسم لأنهم كانوا في بدايتهم يعبرون عن فرحهم الديني بحماسة شديدة لدرجة أنهم كانوا - في أغلب الأحيان - يرتعشون، يعوُون Howl، ويزعقون، ويجعلون الكلاب تنبح - كما قال أحد المراقبين- والماشية تجري مذعورة، والخنازير تصرخ» كما يصفهم المؤرخون. أما الكالفينيون الراديكاليون الذين عارضوا ما اعتبروه «الديانة البابوية»، والكنيسة الأنغليكانية، كانت لديهم روحانية متطرفة صاخبة. لكن ولاءاتهم الدينية «المولودة ثانية» كانت تعكس اطمئناناً في أغلب الأحيان. وقد تعرَّض كثيرون لألم الشعور بالذنب والخوف. لقد كانوا رأسماليين صالحين، وعلماء فاضلين. لكن تأثيرات النعمة Grace كانت تتلاشى، حيث عانى البيوريتانيون (الطهرانيون) من انتكاسة مَرَضِيَّة، فكانوا يسقطون في حالات إحباط مزمن، وفي احيان معينة كانوا ينتحرون[18].

كان الصاحبيون (QUAKERS) في الأساس مجموعة دينية متطرفة منشقَّة، تعود جذورها إلى القرن السادس عشر. وما زال الجدل يحتدم حول طبيعة الأيام الأولى لنشوء هذه الطائفة، لكن المعلومات التاريخية تُرَجِّح ظهورها بشكلها المعروف والحقيقي في شخص جورج فوكس في الأربعينيات من القرن السابع عشر. ثم تطورت خلف قيادة ويليام بن في الستينات من ذلك القرن وما بعد ذلك. وكانت الطهرانية ذات تأثير قوي على التجربة الفردية لقلب الإنسان وهي تشق طريقها نحو السمو. كان الصاحبيُّون هم المجموعة التي حملت هذا الإتجاه إلى ذروته. وخلال انتفاضتهم على كل ما هو بابوي (كاثوليكي) مثل

---

(17) كارين آرمسترونغ، المصدر نفسه- (ص95).

(18) كروندن، مرجع سبقت العودة اليه- (ص58).

الرداء الكهنوتي، والفنون، والإحتفالات، والمواعظ المُحْكَمة، والموسيقى، ركَّزوا على مبدأين لهما صلة ببعضهما. لقد فصلوا بشدة بين الإنسان السلبي تماماً، وبين الله صاحب القدرة الكليَّة الحقَّة. وطبقاً للنمط الكالفيني، ركَّز الصاحبيون على الهوة الشاسعة بين الإنسان والله، وانكروا فائدة المواثيق الدينية الطهرانية. كذلك، ركزوا على الفرق بين ما هو جسدي وما هو روحي، وانكروا قدرة المدارك الحسيَّة، أو دراسة الطبيعة على إطلاع الإنسان على أي شيء يخص الله، إذ لا تستطيع ذلك إلا الروح الداخلية للمسيح. وهم بهذا يكونون قد قللوا من أهمية الكتاب المقدس والمواعظ المدروسة. فالمسيح موجود في القلب أكثر من كونه مُضمَّن في التاريخ أو في كتاب. وتشابهت أفكارهم تشابها شديداً مع أفكار آن هتشنسون التي كنا أتينا على أفكارها الثورية الإصلاحية في سياق هذا الفصل. غير أن فوكس الذي ظهر في لندن باديء الأمر كباحث عن الحقيقة، ثم تحول إلى «صاحبِّي» معروف، فقد تمحورت أفكاره الإيمانية على «النور الداخلي» الذي يستطيع الإنسان من خلاله العثور على الله. وحثَّ الناس على تجاهل المناصب والكهنوت والكنائس. كما دعاهم إلى التخلي عن السخف ونبذ اللاَّمساواة الإجتماعية والممارسات الظالمة. وفي الخمسينيات من القرن السادس عشر، عمل أتباعه على تخليص اللغة من التمايزات الطبقية، ورفضوا حلف الإيمان، و تجنبوا استخدام الأسماء الوثنية للدلالة على الأيام أو الشهور. ولاعتقادهم بأن لا أحد أفضل منهم، فإنهم كانوا يرفضون رفع قبعاتهم إجلالاً للآخرين. ورغم أنهم اعتبروا الحكومات والكنائس بحكم الساقطة، فقد رفض الصاحبيون حمل السلاح لمهاجمتها أو الدفاع عنها. وكانوا يشبهون «الطهرانيين» في نظرتهم إلى المسائل الجمالية، كما شعروا بالإهانة جراء التحرر الناشيء عن ملهاة عصر النهضة، والإقبال على قصائد الحب، فعارضوا كل الفنون التي لا يركِّز العقل فيها على امور خالدة[19].

---

(19) كروندن- المصدر نفسه (ص61).

هنا تجدر الإشارة إلى ثلاثة منجزات واضحة حقَّقها الصاحبيون. فعلى عكس «الطهرانيين»، تمكن «الصاحبيون» من بناء علاقة جيده مع الهنود. وكان بن نفسه يتعامل معهم بعدل، وثمة وفرة من الدلائل التي تظهر ان حالة من الود قد سادت بين الأجناس، وهي حالة غالباً ما افتقدتها العلاقات الأميركية اللاَّحقة على طول الحدود. ومن الناحية الدينية، فقد عطل جوٌّ من الرفض المهذب- بسبب عدم القدرة على الإستيعاب- محاولات إقناع الناس باعتناق مبادىء «الصاحبية». وقد حقق مستوطنون آخرون، مثل الموراف (Moravians) في فترات لاحقة نجاحاً أكبر في هذا المجال.

في تلك اللحظات كانت قضية العبودية أكثر أهمية. وشهدت الحقبة التي عاش فيها جون وولمان (1720- 1772) مفكر الصاحبيين الأول بعد بن، اهتمام الطائفة الكبير بالعبيد، والتزامها المتزايد بتحريرهم. وقد ورث «الصاحبيون» مشكلة العبيد، حيث كان الإتجار بهم، سائداً في ذلك العصر، وقليل من الناس كانوا يحتجّون على وجودهم في بنسلفانيا ونيوجرسي المجاورة. ولكن منذ إيام جورج فوكس الأولى التي أثار فيها شكوكهم حول ما اذا كان من اللّائق الإحتفاظ بأناس في الأسر، وهذا الموضوع أخذ يُطرح بتكرار في اجتماعات الصاحبيين. على حين ثبت ان من السهولة بمكان ان يسجل المرء اعتراضه على المتاجرة بالعبيد، ولكن امتلاكهم كان قضية أكثر تعقيداً. فكثير من الصاحبيين ورثوا العبيد او تزوجوا ملاّك عبيد. وأسهمت قوانين الإرث في صعوبة تحريرهم. كما أن بعض الأراضي الشاسعة كانت غير قابلة للتشغيل من دون الاستعانة بهم. وعلى غرار العديد من الصاحبيين، فقد كان وولمان يمقت الحلول الوسط في القضايا الأخلاقية، من منطلق ان المسيحي الجيد لا يتساهل إزاء الخطيئة. وتحت إلحاحه، أمكن الوصول باجتماعات الصاحبيين إلى نتيجة قوامها ان انه لابد من تحرير العبيد. ولكن بحلول عام 1758 بات الصاحبيون الذين لا يعملون لتحقيق ذلك الهدف، مهددين بالطرد من الطائفة. وهكذا، وكما حدث غالباً في سنوات لاحقة من

التاريخ الأميركي، فقد كان شخص أو أكثر يخرج بفكرة إصلاحية ويسعى لإقناع إحدى المجموعات الدينية بتبنّيها. ثم تبدأ المجموعة بالدفاع عن هذه الفكرة إلى ان تثير مناقشاتها الرأي العام فتنشأ بالتالي قضية سياسية. وعلى هذا النسق ظلت العبودية تطرح قضاياها وأسئلتها على المجتمع في تلك المنطقة لفترة قصيرة من الزمن إلى أن اختفت بالقانون. في حين أدى انتشار الحرية هناك، الى الحرب الأهلية في وقت لاحق[20]. وهذه نقطة إشكالية سوف تبسط نفسها ضمن مساحات النقاش بين المؤسسين حول ماهية الدستور الديمقراطي، وشكل ممارسته اللاَّحقة في المجتمع والدولة.

«البراغماتية» بوصفها لاهوتاً سياسياً

مع التطور المعقَّد للحركة الدينية في مجتمعات المستوطنين الأميركيين الأوائل سوف تنشأ مفارقات لا سابق لها في الحضارات الحديثة. فهناك منطقة معرفية ولدت من الرحم الحار للمسيحية البروتستانتية، وسيكون لها أثر حاسم في الفلسفة السياسية لأميركا المعاصرة. إنها «البراغماتية»، أو «المذهب العملي» ـ حسب التوصيف المستمد من الأخلاق البروتستانتية ـ. لكن الحجة في مثل هذا التوصيف هي ان المذهب البراغماتي يتخذ من النتائج العملية معياراً لتحديد صحة الأفكار أو بطلانها. وتظهر الوقائع على الجملة ان نشوء البراغماتية الأميركية جرى وسط حقل ديني وثقافي وسياسي مكتظّ بأسئلة المكان والزمان.

لكن ظهور المصطلح في البيئة الثقافية الأميركية، سوف يعبر زمناً معقداً وطويلاً وعسيراً من قبل أن يرى نور الولادة. فقد اجتمع نخبة من أكبر المفكرين في الولايات المتحدة الأميركية لدراسة إحتمالات تطورات العالم المستقبلية، ودور أمتهم الفتية، وتطلعاتها لتسلم الريادة ووجوب إستخلافها

---

(20) كروندن- المصدر نفسه (ص61).

للإمبرياليات المتهالكة، وتحديد مصير بلدهم في العالم. من أبرز منظِّري البراغماتية تشارلز ساندر بيرس، وشونسي رايت، ووليم جيمس وهو عالِم طبيعي وفيلسوف وعالِم نفساني، وأوليفر وندل هولز وهو محام ومنظِّر تشريعي، وجون فيسك المؤرخ المعروف، والمؤرخ فرانسيس أبوت من كبار رجال اللّاهوت. وكان محور الحلقة الفكرية، هو الجواب على السؤال التالي: كيف يمكن أن تصبح الولايات المتحدة الأميركية، «الإمتداد الحصري للإمبرياليات الأوروبية السابقة» وذلك من خلال وضع إطار فكري لبرامج بعيدة المدى على جميع الأصعدة الثقافية والفكرية والتربوية والفنية. (وكانت هذه هي المرحلة الأولى للذرائعية الأميركية من الناحية التنظيرية).

تمخض عن هذه الندوة توصيات بقيت في الأرشيفات المتخصصة في المعاهد والجامعات، وقد لخَّصها المؤرخ الأميركي جون فيسك في كتابه «أفكار أميركية في السياسة». ثم صاغها على شكل قصة خيالية تقع أحداثها في باريس، حيث اجتمع ثلاثة مغتربين أميركيين في حفل عشاء، وقدم المتحدثون أنخاب بلدهم العظيم فقال اولهم: «إليكم نخب الولايات المتحدة الأميركية التي تحدها أميركا البريطانية شمالاً، وخليج المكسيك جنوباً، والمحيط الأطلسي شرقاً والباسيفيك غرباً. . . ».. وقال الثاني «لا يا صاح: إنك تنظر نظرة محدودة للغاية.. إذ يجب علينا ونحن نعيد حدود بلدنا أن ننظر الى المستقبل العظيم، الذي يشير اليه «المصير الظاهر»أو «القَدَر المتجلِّي» للجنس الأنغلوساكسوني، (ويلاحظ هنا حتمية التحالف البريطاني - الأميركي في كل العمليات العسكرية مستقبلاً) ويكمل قائلاً: هاكم نخب الولايات المتحدة الأميركية التي يحدُّها القطب الشمالي، شمالاً، والقطب الجنوبي، جنوباً، وشروق الشمس شرقاً، وغروبها غرباً. فثارت زوبعة من التصفيق تحية لهذه النبوءة الطموحة. وهنا انبرى متحدث ثالث من أقصى القاعة وهو أميركي تبدو عليه حكمة وصراحة وهدوء راعي البقر الآتي من الغرب البعيد. فقال هذا الأميركي الغيور، «إذا كان لنا أن نضع التاريخ بماضيه وحاضره، ونضع موضع

الإعتبار «مصيرنا الواضح».. إذاً فلماذا نحصر أنفسنا داخل هذه الحدود الضيقة التي عيَّنها رفيقانا.. إليكم نخب الولايات المتحدة التي يحدُّها الفجر القطبي شمالاً وتقدم الإعتداليين جنوباً، والعماء البدائي شرقاً، ويوم الدين غرباً»[21].

هذا هو الحلم الأميركي كما حدَّده المفكرون الأميركيون مؤسسو «النادي الميتافيزيقي الأميركي» منذ العشرينيات من القرن التاسع عشر. على هذا النحو ستنشأ الفلسفة البراغماتية كحصيلة جهد مشترك لهؤلاء الرجال، كلٌ في مجال تخصصه ثم قولبوها في نظام شمولي، يشمل اللاَّهوت، والتاريخ، والتربية، والإقتصاد، وعلم النفس والفلسفة، حيث أعاد صياغتها تشارلز بيرس، ضمن خلاصة مؤدَّاها أن الفكرة قد تكون حقاً بالنسبة لغيري... وقد تكون صادقة الآن، وباطلة في موقف آخر، على ضوء المصلحة الذاتية. ومن ثم فعلينا أن نعيش اليوم مع الفكرة التي نراها صادقة الآن، وأن نكون على استعداد بأن نسلِّم يقيناً بزيفها ما دامت تعارض مصالحنا. أما حجر الزاوية في هذه الفلسفة كما يقدِّمها وليم جيمس فقوامُهُ ما يلي:

ـ إنكار الحقيقة الموضوعية التي تتميز بوجودها المستقل عن الذات والخبرة البشرية، وتنعكس في وعينا عن طريق الحواس.

ـ إنكار للضرورة الموضوعية العلمية.

ـ الإيمان بأن الوجود هو اعتقاد، والنجاح هو معيار الحكم على الحق والباطل.

ورغم أن الأدلة عليها كانت شحيحة، فقد بدأت البراغماتية تترسخ عبر اجتماعات متفرقة كان يعقدها «النادي الميتافيزيقي» في الحرم الجامعي لـ (هارفارد) في منطقة بوسطن في خلال العقدين الأولين من القرن التاسع عشر. وكان العضو الأهم في المجموعة هو تشارلز ساندر بيرس نجل بروفيسور

---

(21) شوقي رياشي - البراغماتية الأميركية- حين يغدو انتصارها على العالم أشد إيلاماً - اسبوعية «الشمس»- العدد التاسع والأربعون- السبت 4 آب/أغسطس 2007.

الرياضيات والفلك في هارفارد. ومن بين الأعضاء الرئيسيين، كان هنالك ويليام جيمس نجل مفكر تأثر بسويدنبورغ وكان صديقاً لـ (إمرسون) وأوليفر ويندل هولمز الإبن، نجل كاتب وطبيب معروف. وكما استذكر بيرس بعد سنوات، فانهما التقيا في اوائل السبعينات من القرن التاسع عشر واتفقا على ان واجبهما الأساسي هو تطبيق التعريف الذي وضعه (بين) (Bain) حول الإيمان، بأنه «الشيء الذي يكون المرء مستعداً لتنفيذه». ومن خلال هذا الطرح الذي قدمه فيلسوف بريطاني فإن البراغماتية «ليست اكثر من نتيجة طبيعية». لا بد من الإشارة، هنا، إلى أن الجو كان مليئاً بالعلم واللاأدرية في آن معاً، حين كانت الميتافيزيقية في حال تراجع، واما اسم النادي فكان ينمُّ عن سخرية مقصودة، حيث سمِّي «النادي المعادي للميتافيزيقية»، وهو اسم اكثر دقة في الواقع. وكما اشار بيرس في وقت لاحق، فإن افكاره الاولى كانت مقتبسة، حيث ان معظم أعضائه كانوا بريطانيين في توجهاتهم، رغم انه هو نفسه عَبَرَ بوابات الفلسفة عن طريق الفيلسوف كانط[22].

لقد سقطت البراغماتية المبكرة جراء الآلام الوطنية التي سببتها الحرب، وبالتالي التوسع الإقتصادي الذي اعقب ذلك. وهكذا لم يعش أحدٌ العقد السادس من القرن التاسع عشر من دون ان تكون لديه أسئلة جادة حول طبيعة الديمقراطية الأميركية وقيمة الاتحاد. ورغم ان الحرب قد سوَّت قضايا سياسية واجتماعية فإنها لم تسوِّ قضايا فكرية، الى حد ان الكثير من الشخصيات الفكرية المرموقة أحست بالإنزعاج لتأثيرات أعمال التجارة والبناء الكبيرة، واخلاقيات الداروينية الإجتماعية على بلادهم. وأدى الجشع المعيب لشخصيات مثل آندرو كارنيجي وجون د. روكفلر، والفساد الصريح الذي اجتاح ادارة غرانت في واشنطن، الى إجراء مراجعات نظرية جدية في طبيعة الديمقراطية، والمجتمع، وفي مكانة أميركا من خطط الله لهذا الكون. فالبلاد التي كانت في

(22) كروندن- مصدر سبق ذكره- (ص201).

معظمها من الطبقة الوسطى راحت تتجه نحو انقسامات طبقية خطيرة. وكانت البراغماتية هي إحدى المحاولات التي استهدفت مواجهة تلك القضايا. فقد استندت على الدعوة إلى التخلي عن الأفكار التي لا تسفر عن أي نتائج، كما دعت إلى إسقاط الاخلاقيات التي لا تأثير لها على الحياة العادية للمواطن، وسعت لإقناع الناس بأن ما يفكر به المرء، ويُقْدِمُ عليه هو أمر مهم، وان الأميركيين لا يحتاجون الى تدريب فلسفي فني شامل ليعيشوا حياة ذات معنى. في هذه اللحظات كان الأوروبيون غارقين في أنظمة طبقية وميتافيزيقية لا تتلاءم والديمقراطية الأميركية، الأمر الذي حفَّز البراغماتيين لبذل الجهود من أجل الوصول الى جملة إجراءات تستطيع إنهاء تلك الأنظمة[23].

أركان الإيمان «البراغماتي»

كان بيرس أول من صاغ الأفكار البراغماتية في إطار عام، وذلك في سلسلة مقالات لمجلة (Populat Science Monthly) في أواخر السبعينات من القرن التاسع عشر. ومن بين مقالاته المهمة ذات التأثير الواسع والتي ساهمت في تطور البراغماتية، «تثبيت الإيمان» (Fixation of Belief) و«كيف نجعل أفكارنا واضحة» (How to Make our Ideas Clear). ابتدأ بيرس عمله في مجال العلوم الطبيعية والنفسية، مستخدماً عبارات مثل «عادة» و«عمل» لمحاربة أية معطيات مسبقة قد يختبر المرء على أساسها كلمة «إيمان». وتحدث عن كيفية تغير الأفكار العلمية، وكيف ان أي إيمان لا يستطيع الصمود طويلاً بمفرده. ودافع عن الرأي القائل، إنه إذا تغيرت الأفكار العلمية مع الوقت، فإن جميع أشكال الإيمان معرضة هي الأخرى إلى الريبة والشك. فإذا اعتقد شخص ما بصحة شيء، فإنه سيشعر بالإرتياح إزاء الفكرة التي هو بصددها، وتصبح بالتالي عادة لديه، ويتصرف إزاءها آلياً من دون ان يشك في افتراضاته. لكنه إذا ما

---

(23) المصدر نفسه- (ص202).

شك في شيء، فإنه سيشعر بالإنزعاج وعدم الراحة. ذلك بأن الناس على فطرتهم لا يحبون ان تعتريهم الشكوك، وهم مستعدون لعمل أي شيء للتخلص من الشك والعودة الى العادات التي رافقت إيمانهم[24].

الشك، إذن، يحفِّز الناس الى السعي نحو تحقيق الإيمان حيث يتوقف الإحساس بالضيق. وهذا الكفاح من أجل تحصيل الإيمان هو ما اسماه بيرس بـ «البحث». فالناس يتطلعون حولهم ويحاولون إيجاد حلول، وعندما يعثرون على حل، يحسون بالإرتياح ويوقفون عملية البحث ويقتنعون بتحقيق الإيمان الجديد. وهكذا فقد حدد بيرس أربع وسائل لتحقيق الإيمان هي: التماسك، أي الإنكار العنيد لأي معلومات قد تغير الأفكار القائمة؛ والسلطة، أي التوجه نحو مؤسسة مثل الكنيسة؛ والاستنتاج المسبق؛ واخيراً أسلوب العلم أو الحقيقة الذي يفضله بيرس.

يفترض هذا الأسلوب ان «يكون الاستنناج النهائي لكل انسان هو نفسه، أو ان يتوحد الاستنتاج بصورة مؤكدة إذا ما أتيح لعمليات البحث ان تتواصل بشكل كاف». ولتحديد هذا الموقف بكلمات أبسط فإن هناك - حسب بيرس - أشياء حقيقية، تعتبر صفاتها مستقلة تماماً عن آرائنا إزاءها. وهذه الحقائق تؤثر على حواسنا طبقاً للقوانين العادية، وبرغم ان نظرتنا الى الأمور قد تختلف من شخص الى آخر من خلال تفسير قوانين المدارك، فإننا قادرون على معرفة حقيقة الأمور، كما ان أي شخص ذي خبرة وتعقل كافيين إزاءها، سيجد انه متجه نحو الإستنتاج الأوحد الصحيح. وهكذا بدأت البراغماتية كإنكار لأنواع معينة من البحث. وهي تقول ان المرء لا يستطيع ببساطة ان يتوقف عن الإستماع، ويتسلح بحقائق خالدة ومثبتة، أو يأخذ شيئاً من السلطة المؤسسية. فالشخص الذي يبحث في أمر ما، يمكنه أن يشق الطريق العلمي، ويتعامل مع الحقائق بعقل مفتوح، ويطلب من شخص آخر أن يقوم بالمهمة، بنفسه للتأكد من جدواها. فهذا الشخص يكون قد حقق الإيمان عندما قبل بعادة جديدة،

(24) المصدر نفسه- (ص203).

ومسلك جديد. ولذلك، فإنك عندما تسأل شخصاً كهذا ماذا تعني فكرة ما، فإن الجواب سيكون وصفاً للعادات التي تنتج عنها، إذ أن ما يعنيه شيء ما هو العادات التي يطورها[25].

من تلك النقطة اتجه بيرس الى فكرة «التحول». وهي الفكرة الكاثوليكية القائلة ان الخمر والخبز اللذين يقدَّمان في العشاء الربَّاني هما حقاً جسد المسيح ودمه، أو أنهما كانا كما يصر معظم البروتستانت يرمزان فقط الى جسد المسيح ودمه، ويكوِّنان بالتالي وسيلة لتذكُّر تضحياته. وطالما ان جدلاً كهذا لا يغير في المسلك، وطالما أنه لم يغير من عادات المسيحيين بطريقة أو بأخرى، فإن الجدل يصبح آنئذٍ بلا معنى. ولقد توصل بيرس الى استنتاج سجله بكلمات يرجع اليها البراغماتيون منذ ذلك الحين. فقد رأى أنَّ من المستحيل ان تكون في عقولنا فكرة لها علاقة بأي شيء باستثناء التأثيرات المفهومة والمحسوسة. ذلك ان فكرتنا حول أي شيء، هي فكرتنا حول تأثيراتها المحسوسة، وان أي رأي آخر هو خداع للنفس. فالفكر - عند بيرس - له معنى فقط عندما يكون هذا المعنى مرتبطاً بالأداء، وقد أضاع الكاثوليك والبروتستانت أوقات بعضهم بعضاً في التجادل حول قضية اتفقا على أهمية تأثيرها عند الممارسة.

وهكذا فإن البراغماتية أكدت على النتائج، وعلى العمل بدلاً من التفكير. ومن خلال إدراك أهميتها من قبل المفكرين الملتزمين بعمق، بنظرة علمية الى الكون. فقد عملت البراغماتية على التقريب بين نظريات العلم والتجربة، وبين المسلك الديمقراطي العام. وأبلغت الناس ان معظم النتاج الفكري للماضي الاوروبي هو مجرد فتات كلام لا قيمة له في بلد مزدهر. فالكنيسة الرسمية لا حق لها بعد الآن بأن تفرض آراءها على أي مواطن، مثلما لا يحق لأي حكومة ارستقراطية ان تفرض الضرائب. وكما ان أميركا كانت دولة في طور التشكُّل، كذلك كان الأمر بالنسبة للأفكار والحقائق التي غدا بمقدور أي شخص ان يمارسها ويساهم فيها حسب رغبته. وأضحى الأميركيون مبتكرين

(25) كروندن- المصدر نفسه- (ص204).

وقادرين على التكيُّف، وقد أخذت ابتكاراتهم وتكيُّفاتهم تأخذ شكل مواقف فلسفية. حيث لم يختف الله من الكون، بل إنه - حسب النظره البراغماتية،- اتخذ موقفاً تجريبياً من الحياة الإنسانية، ويريد من مخلوقاته أن تعمل على صياغة قيمها في عالم الحظ[26].

جدلية الميتافيزيقي- العلماني

لم يكن الجدل الديني في مرحلة التأسيس مبايناً للإجتماع والسياسة والفكر. كل حركة او فرقة دينية كان لها حظٌ ما في الحراك المشترك بين الديني والدنيوي. بل اكثر من ذلك، فقد كان ثمة ضربٌ من علاقة تداولية يتكامل فيها الميتافيزيقي مع العلماني، رغم خطوط الإحتدام المديدة في سياق الصراع على تشكيل الدولة والمجتمع والمؤسسات وموقعية الدين والإيمان الديني في هذا الصراع.

لكن لابد من الإشارة هنا، إلى أن الوضوح التاريخي لمصطلح العلمنة يتوقف على التسليم بأن واقع اوروبا خلال القرون الوسطى وفي كثير من جوانبه كان يقوم فعلياً وذات يوم على نظام تصنيفي يقسم الدنيا الى مملكتين او نطاقين متباينين «ديني» و«زمني». والفصل بين هاتين المملكتين ضمن هذا النوع من التقسيم الخاص غير المألوف تاريخياً بين المقدَّس والدنيوي، لم يكن بالتأكيد مطلق التباين كما اعتقد دوركهايم دائماً. فقد شابَهُ الكثير من الغموض، والمرونة، والخلط، وغالباً من الإلتباس الصريح بين حدوده الفاصلة. ولعل الأنظمة العسكرية هي مثال واضح على ذلك. أما ما يجب إدراكه فهو أن الثنائية قد تمأسست في كل أنحاء المجتمع، بحيث «تَهَيْكَل» الحيِّز الإجتماعي بحد ذاته بصورة ثنائية. لذا كان لا بد لوجود «سيفين»: سيف روحي وسيف زمني، يزعم كلّ منهما امتلاك مصدره الكاريزماتي المستقل - أي شكل من أشكال السيادة المزدوجة المتمأسسة - وهو ما قد يؤدي بالضرورة إلى الكثير من

(26) المصدر نفسه- (ص206).

التوتر والنزاع المفتوح، فضلاً عن المحاولات الرامية لإلغاء هذه الثنائية من خلال تصنيف أحد هذين النطاقين تحت خانة النطاق الآخر. ولقد كانت نزاعات «التكريس» المتكرِّرة هي التعبير الصريح عن ذلك التوتر الحاضر على الدوام. فكانت المزاعم الثيوقراطية للكنيسة والقادة الروحيين بالتقدم على الحكام الزمنيين، وبالتالي، باحتكار الهيمنة المطلقة، و حقِّ النظر في الأمور الزمنية كذلك، تقابل بمزاعم القيصر وبابوية الملوك من أجل تجسيد السلطة المقدَّسة بواسطة الحقِّ الإلهي.

وهكذا تأسست بنية ثنائية مماثلة، تضمنت المجال والنزعة نفسيهما للتوتر والنزاع الفكريين مع الجامعات الناشئة في القرون الوسطى، حيث أصبح الإيمان والعقل أساسين معرفيين منفصلين ولكن متوازيين، يفضيان افتراضياً إلى حقيقة واحدة هي الله. وعلى هذا المستوى كذلك، أثارت المطالبة اللّاهوتيَّة بالسلطة المطلقة مطالب مضادة لها، أولاً من جانب الفلسفة العقلانية الذاتية التي رفضت تبعيتها للاهوت، وثانياً من جانب العلم الحديث الذي أكَّد مطالبته بأن يُصار إلى تصنيف كتاب الطبيعة، إلى جانب كتاب الوحي، سبيلين منفصلين ولكن متساويين معرفيَّاً، إلى الله[27].

مع ذلك كان لا بدَّ من تمييز التقسيم البنيوي لـ «هذا العالم» إلى نطاقين منفصلين، «ديني» و«زمني»، وإبقائه منفصلاً عن تقسيم آخر بين «هذا العالم» و«العالم الآخر». وإلى حدٍّ كبير، يعتبر الإخفاق في الإبقاء على الفصل بين هذين التقسيمين مصدراً لسوء التفاهم في السجالات القائمة حول العلمنة. قد يرى بعضهم أنَّه لا يوجد «عالمان» بكل ما للكلمة من معنى، بل ثلاثة عوالم فعلياً: مكانيَّاً، ثمة «العالم الآخر» (السماوات) و«هذا العالم» (الأرض). ولكن «هذا العالم» نفسه خضع للتقسيم إلى عالَم ديني (الكنيسة) وعالَم زمني

(27) خوسيه كازانوفا- الأديان العامة في العالم الحديث- المنظمة العربية للترجمة ومركز دراسات الوحدة العربية- بيروت 2007- ترجمة: قسم اللغات الحية في جامعة البلمند- (ص28).

(SAECULUM). زمانيًّاً، نصادف التقسيم الثلاثي عينه بين زمن الله الأبدي، والزمن الدهري - التاريخي، وهذا التقسيم انشطر بدوره إلى زمن الخلاص المقدَّس - الروحي، كما يمثِّله التقويم الكنسي، والزمن الدهري (SAECULUM). و تجسيد هذا التقسيم الثلاثي كنسياً من خلال التمييز بين «الكنيسة غير المرئية» الماورائية (الشركة المقدَّسة) و«الكنيسة المرئية» (كنيسة روما الواحدة، المقدَّسة، الجامعة، الرسولية) والمجتمعات الزمنية. أما سياسيًّاً، فثمة مدينة الله المتسامية (ملكوت السماوات) وتجسيدها المقدَّس على الأرض من خلال الكنيسة (المملكة البابويَّة)، ومدينة الإنسان (الامبراطوريَّة الرومانيَّة المقدَّسة و كل الممالك المسيحية). وفي إطار الفئات التصنيفيَّة الزمنيَّة الحديثة، بوسعنا القول إنَّه كان ثمَّة واقع طبيعي وواقع فوق طبيعي. إلا أن الحيِّز فوق الطبيعي انقسم بدوره إلى واقع فوق طبيعي لا تجريبي بحد ذاته، وتجسيده الرمزي المقدَّس في الواقع التجريبي. وبالتالي، يجوز لنا القول إن المسيحية السابقة للحداثة في أوروبا الغربية كانت تقوم على نظام تصنيفي ثنائي ومزدوج: فمن جهة، تبرز الثنائية بين «هذا العالم» و«العالم الآخر». ومن جهة أخرى، تتجلى الثنائية ضمن «هذا العالم» بين نطاق «ديني» ونطاق «زمني». وعلاوة على ذلك، تتوسَّط بين هاتين الثنائيتين الطبيعة «الأسرارية» للكنيسة التي تقع في الوسط، وتنتمي بصورة متزامنة إلى العالمين وتستطيع، بالتالي، التوسُّط قدسيًّاً بينهما. وبالطبع، فقد قام هذا النظام التصنيفي فقط على مزاعم الكنيسة، وتمكن من بناء الواقع على هذا الأساس ما دام الناس يسلّمون بهذه المزاعم. وفي الحقيقه، كان من شأن هذا التسليم أيّاً كانت أسبابه، والذي يزعم تفوق الحيِّز الديني على الحيِّز الزمني، أن يسيطر على النزاعات التي تدخل في صلب مثل هذا النظام الثنائي[28].

مع ذلك، سنجد قراءة أخرى، تحاول أن تعثر على مخارج منطقية لهذا اللقاء المستحيل بين الديني والعلماني.

---

(28) كازانوفا- المصدر نفسه- (ص209).

لنبدأ اولاً بإعادة توصيف المعنى قبل إجراءات التطبيق على الحالة الأميركية:

تعني العلمنة، بوصفها مفهوماً، المسار التاريخي الفعلي الذي ينهار بموجبه انهياراً تدريجياً هذا النظام الثنائي ضمن «هذا العالم». وكذلك ستنهار بموجب المسار العلماني المشار اليه، بُنى الوساطة المقدَّسة بين هذا العالم والعالم الآخر، إلى الدرجة التي يختفي فيها النظام التصنيفي القروسطي بكامله، ثم ليُستبدل بأنساق جديدة من الهيكلة المكانية للنطاقين. ولعل الصورة المعبِّرة التي ذكرها ماكس فيبر عن «انهيار جدران الدير» لهي أفضل تعبير بياني عن إعادة «الهَيْكَلة» المكانية الجذرية تلك. فالجدار الفاصل بين المملكتين الدينية والزمنية داخل «هذا العالم» ينهار، والفصل بين «هذا العالم» و«العالم الآخر»، حتى الآن على الأقل، يظل قائماً. ولكن، ومن الآن فصاعداً - أي مع الظاهرة الأميركية - سوف يكون هنالك عالم واحد، و «هذا العالم»، هو العالم الزمني، ولكن مع وجوب وضرورة أن يجد الدين فيه موقعه الخاص. ولئن كانت المملكة الدينية تبدو سابقاً كأنها الواقع الجامع الذي وجدت المملكة الزمنية ضمنه موقعها الخاص، فقد أضحى النطاق الزمني هو الواقع الجامع الذي يجب أن يتكيف معه النطاق الديني. وتقوم المهمة التحليلية لنظرية العلمنة تحديداً على دراسة الأنساق التصنيفية والتمايزية الجديدة الناشئة ضمن هذا العالم الزمني الواحد، والموقع الجديد الذي سوف يحتله الدين ضمن هذا النظام التمايزي الجديد، إن كان الدين يحتل فيه موقعاً أصلاً[29].

اختراقات العلمنة

لكن كيف بدت تظاهرات الجدل ضمن ثنائية الديني-العلماني في أميركا؟

لاشك أن ثمة أوجُهَ شَبهٍ كثيرة في سيْريَّات التنوير الذي شهدته اوروبا وأميركا. ولقد بات معروفاً كيف ثار المثقفون ضد لاعقلانية وعنف عهد ما بعد

(29) كازانوافا- المصدر نفسه- (ص30).

الإصلاح في اوروبا، وكيف ركّزوا على الأساليب التي يستطيع من خلالها الإنسان أن يصبح اكثر ميلاً نحو الكمال عبر استخدام العقل لتطوير المجتمع. وبالتالي كيف أصرَّ هؤلاء على أنه ليس من داعٍ حتى يكون الله غامضاً ومجهولاً إلى الحد الذي يعتقده الكثير من المسيحيين، وأن الدراسة العلمية للطبيعة يمكن ان تكشف الحقيقة بخصوص المسائل الدينية. ومن وجه إضافي، لم يكن الملوك والقساوسة ليستحقوا احترام الإنسانية، ما لم يستطيعوا إيصال الأسس العاقلة لأعمالهم الى الناس، كما أن الأهواء الشخصية لم تعد طريقة مقبولة لإدارة الكنيسة او الدولة. واصبحت الحرية والمعرفة والإنسانية هي المحكّات؛ فالناس يجب أن يكونوا احراراً، ويجب أن يستعملوا حريتهم للحصول على المعرفة، ويجب أن يستعملوا المعرفة لتطوير المجتمع[30].

في اوروبا، كان الفكر التنويري شأناً خاصاً يثار في قاعات الإستقبال، وفي المراسلات الشخصية، حيث أن أي هجوم معلن على ملك اوروبي يمكن ان يؤدي إلى فرض الرقابة، او إلى النفي او السجن. وفي أميركا كان الملك بعيداً جداً وكذلك أسقفه. اما رجال الدين المحليون ورجال الأعمال والأكاديميون والمهنيون، فقد كانوا في الغالب مستنيرين، إضافة الى أن امتداد حالة التنوير والمؤسسة نفسها كان متناسقاً، وكان الوعّاظ الطهرانيون هم اول من أعلن عن أفكار جديدة لجمهور المثقفين. ورغم ان الجزء الأكبر من جمهرة المواطنين بقي انجيلياً غير مدرك تماماً للتيارات السائدة، فإن الإنجيليين والزعماء العلمانيين كانوا قادرين على مشاركة بعضهم البعض القيم والأهداف نفسها مع تباين ما يتم التركيز عليه، تماماً مثلما استطاع توماس جيفرسون وآرون بار اقتسام التذكرة الرئاسية نفسها. والذين كتبوا اعلان الاستقلال والدستور كانوا شخصيات عامة، فلن يكون بينهم سجناء او اعضاء في طبقة مثقفة معزولة عن مجتمعها[31].

---

(30) روبرت كروندن- مصدر سابق- (ص62).

(31) كروندن- مصدر سابق- (ص63).

كانت أميركا في استنارتها اكثر عملية وأقل غموضاً. فالاوروبيون أمثال اسحق نيوتون، وفرانسيس بيكون، وجون لوك قاموا بمعظم التفكير الفني اللازم للإصلاح الديني والسياسي. وهكذا فإن الجدل الطويل والغامض الذي دار حول عصر التنوير في اوروبا، لم يكن له تأثير كبير على أميركا. وفهم الأميركيون الضرائب الانجليزية والتدخل العسكري على أنها أعمال استفزازية، ولم يفكروا بعمق في الموضوع إلى أن اضطروا لتبرير تمردهم بعد عام 1763. وفي غضون وقت قصير، وبصورة ملفتة، اوجدوا العلم السياسي الذي ساعد في تغيير نظرة الجماهير البعيدة جداً عن أميركا إلى حكومة ذلك البلد. وبالمقابل، فقد ساعدت أميركا الاوروبيين في توفير مكان لأساطيرهم. فالخيالات والمُثُل تحتاج في الغالب إلى مكان معقول لإطلاق جذورها. ولقد كانت أميركا هي الملعب المطلوب للخيال الأوروبي. ولم يكن هناك ارستقراطية حقيقية او ملك في أميركا، كما لم تكن ثمة كنيسة ثابتة حتى أواسط القرن الثاني عشر، على غرار الكنائس الاوروبية. كان بإمكان الأميركيين أن يكبروا ويعيشوا حياة تتسم بالعقلانية والفضيلة لأن مجتمعهم لم يلجأ إلى قمعهم. وفي هذا الإطار، لعب بنيامين فرانكلين دوره الأساس، إذ أنه كان في نظر أعداد لا تحصى من الاوروبيين الذين لم يقابلوا أميركياً قط، والذين لم تكتب لهم زيارة ذلك البلد، الإنسان المجسِّد لأحلامهم. فهذا الرجل العاقل الذي يتحدث لغة الناس بحكمة وطيبة، وصاحب الإبتكارات العلمية، كان مؤسسة قائمة بذاتها، لا مجرد شخص من لحم ودم. وقد دخلت فلسفته الى تعبيرات «الصاحبيين»، كما أثَّر في كل من حوله لاعباً دوره ببراعة منقطعة النظير. كان بنجامين فرانكلين بالنسبة للمثقفين الاوروبيين بمثابة الجدار العازل ضد تفاهات الحياة الأرستقراطية، والبرهان على أن التحرر من الكهانة يجلب الفضيلة والتقدم. وعندما ظهر اخيراً هو والشاعر فولتير معاً، التقى عصر التنوُّر الجديد بعصر التنوُّر القديم، في واحدة من تلك اللحظات سريعة الزوال التي جسَّد التاريخ كمالها وجمالها في آن معاً: فها هما الرجلان الذكيان المسنان، والمحبان للأساطير يثيران خيال الجمهور على أرض الواقع. كانت العقلانية هي أسطورة العصر الكبرى،

وقدمت أميركا قديسين الى العالم، بل أنها - وهذا ما يثير الدهشة - نصَّبتهم في مراكز عامة مهمة. كذلك، فقد كان التنوير الأميركي مشوباً بالوطنية أكثر مما كان عليه في اوروبا. ففي اوروبا، سيأخذ كل من الفلسفة والأدب والعلم طابعاً عالمياً، فالامم عادة ما كانت تخضع لسيطرة ملوك غير عقلانيين. ولكن أميركا كانت جديدة ومتحررة إلى درجة انه كان بمقدور الأميركي ان يوفِّق بيُسرٍ بين بلده، و أفكار حول الديمقراطية والعقلانية والطبيعة وطيبة الله. وكانت أميركا هي المكان الذي يمكن لأمور من هذا النوع ان تحدث فيه، بل إنها كانت تحدث بالفعل. وعلى هذا النسق، فإن مواقف فكرية مثل حرية العبادة، والحق في المثول امام محاكم مشكَّلة من النبلاء، او حق التصويب ارتبطت بـ «الطريقة الأميركية» التي حصلت على مباركة دينية. وبالمقارنة، فإن مثل هذه الأفكار لم تكن ذات ارتباط بالكنديين والأستراليين الذين استوطنوا أميركا في اوقات لاحقة، وتجنبوا الكثير من القضايا التي اثيرت في القرن الثامن عشر. وقد استقر هؤلاء في الغالب بمساعدة الأمن أو الجيش أو الحكومة، وارتبطت معاني الحرية والإزدهار لديهم ببلدهم الأم، إي انكلترا، ولم يكن للدين أو للثورة مكان على الإطلاق ضمن هذا المفهوم[32].

الجمع بين مفارقتين: التديُّن والحرية

نَمَت الطريقة الأميركية كنسقٍ جديد يجمع في فضائه ما فرَّقه التنوير في اوروبا. كان لدى الأميركيين المشبعين بفنون تسييل الميتافيزيقا في مجال السياسة، والإقتصاد والإجتماع، القدرة على ممارسة إجراءات الوصل والفصل بين العلمانية والدين كلما اقتضت شرائط مشروعهم الحضاري ذلك.

لقد أظهرت شواهد التجربة ان العملية الحضارية الإنغلو- أميركية، جاءت بفعل تضافر مكوِّنين اثنين شديدي التمايز، ولطالما كانا في حال عداء مستحكم

(32) كروندن- مصدر سابق - (ص64).

هما: حسُّ التديَّن وحسُّ الحرية. ولكن التجربة في أميركا - على ما يبيِّن كثيرون - أفلحت في الوصل بينهما، وفي مزجهما على نحو مذهل. واللاَّفت - كما يلاحظ المؤرخ والمفكر الفرنسي الكبير الكسس دو توكفيل - ان منشئي انكلترا الجديدة (أميركا) كانوا، من أعتى «المتشيِّعين» ومن أشد «المجدِّدين» حماسة في الوقت نفسه. وحين كانت صلاتهم الوثيقة ببعض المعتقدات الدينية تقيِّدُهم، كانوا في الوقت نفسه متحررين من كل الأفكار السياسية المسبقة. من هنا أمكن مشاهدة نزعتين مختلفتين، ولكن غير متعارضتين، لا يشق على الباحث او المؤرخ ان يقع على آثارهما في الأعراف العامة والتقاليد، كما في القوانين[33].

وهكذا ظهرت الصورة على تمام وضوحها- كما يحلِّلُها دوتوكفيل في كتابه «عن الديمقراطية في أميركا» (De la Democratie en Amerique) - إذ بدل أن تفسد احداهما الأخرى، تتوافق هاتان النزعتان المتناقضتان في الظاهر. وتبدوان قابلتين لكي تسدِّد إحداهما الأخرى.

الدين عند دوتوكفيل - يرى في الحرية المدنية دُربةً نبيلة لملَكَات الإنسان. مثلما يرى في العالم السياسي ميداناً اعدَّه الخالق لجهود العقل. والدين الطليق وذو السلطان في دائرته، الراضي بما حُبيَ به من مكانة، يُدرك ان مملكته راسخة الأسس، فلا تسود إلاّ بقواها الخاصة، وهي تسيطرُ بلا سندٍ على الألباب. وأما الحرية فإنها ترى في الدين رفيق كفاحاتها، وانتصاراتها، ومهد طفولتها، والمنبع الإلهي لحقوقها. وهي تعتبر الدين وقاية للأعراف والتقاليد. مثلما ترى الأعراف والتقاليد ضمانة للقوانين وعربون ديمومتها. ومع ذلك، فما غاب عن بال دوتوكفيل، ان مثل هذا الجمع بين أمرين متعاكسين ومفارقين، لم يستطع ان يسبر أغوار التفاوتات الطبقية والإجتماعية، وحتى المعرفية التي حكمت الأزمنة الأميركية المتواترة. وحسبه أن يرى تبعاً لذلك، ان اللوحة التي

---

(33) الكسس دوتوكفيل- عن الديمقراطية في أميركا- مصدر سبقت الإشارة اليه- (ص85 و 87).

يشكلها المجتمع الأميركي، هي لوحة مكسوَّة بطبقة ديمقراطية، وتحت هذه الطبقة تلوح بين الفينة والفينة ألوان الأرستقراطية القديمة[34].

مهما يكن من شيء، فلكي نفهم جيداً أميركا اليوم، ينبغي اولاً إدراك أهمية الدين، وأهمية البروتستانتية المسيحية في تكوين المثل الأعلى الثقافي الأميركي. ولسوف تتضاعف مثل هذه الأهمية متى عرفنا ان إنكليز أميركا انطلقوا من فكرة ان مجتمعهم سيكون معروفاً كونياً. وهذا يعني ان المستعمرين الإنكليز الذين حطّوا الرحال في انكلترا الجديدة، ثم باتوا بعيدين عن العالم، في حين وضعوا نصب أعينهم ان يؤسسوا لبلد سيكون مثلاً يحتذى به لأوروبا كلها. عند القرن الثامن عشر سوف يشكل هذا المثل الأعلى الديني تعبيراً للعالمية البروتستانتية. ولأسباب لا حصر لها فإن الأميركيين الذين أخفوا مسافة لأنفسهم ليكونوا بمنأى عن هذه العالمية في نهاية القرن السابع عشر، هم أنفسهم الذين تمثّلوا رسالة التنوير. وللدلالة على هذا، لم يكن روسو، على سبيل المثال، معروفاً في أميركا عام 1770، في حين كان مونتسكيو يشكل مرجعاً يسهم في إرساء حقوق الإنسان في ايطاليا. و مع أن من الصعب فهم هذا التحول من المسيحية المتديّنة الى المسيحية التنويرية، الا أنه كان موجوداً بالفعل. ومنذ اللحظة التي أصبح فيها هذا التحول حقيقياً مع أنشاء الجمهورية الأميركية، برزت ظاهرة في غاية الأهمية. عنينا بها مسألة العبودية، التي لم يكن احد على الإطلاق يتحدث عنها قبل حرب الإستقلال. لقد غدت هذه المسألة حاضرة في كل مكان داخل المجتمع الأميركي. من هنا ستدور الأسئلة الكثيفة مدار هذا المركَّب العجيب من التديُّن والعلمانية، الذي سوف يصل شيئاً فشيئاً الى بلورة ما يسمى بـ «الدين المدني». اما عن ماهية وطبيعة العلمانية الأميركية التي ستتمخض عن هذا التركيب، فغالباً ما تُحال الإجابة الى دائرة الكلام على تغاير المسارات المجتمعية في كل من أميركا واوروبا. فلقد حصل في خلال العام 1830 ثورة ثقافية جديدة في أميركا، حيث كانت المرحلة

(34) دوتوكفيل- المصدر نفسه- (ص89).

الاولى متمثّلة في نشوء جمهورية أميركية ستبدو من الآن فصاعداً علمانية. تلا هذه الثورة حقيقة أن الأميركيين الذين كانوا في خلال الأعوام 1830- 1840 لا يزالون يعتبرون أنفسهم قبل 1770 مجرد طوائف آتية من الريف الإنكليزي، باتوا يشعرون بأنهم حقاً أميركيون، ثم راحوا يبتدعون صورة مخصوصة لما هو أميركي. ثم أنتجوا أدباً ذا بعد عالمي لتصدير هذه الرؤية الجديدة. وعلى ما يتبيَّن للمفكر الفرنسي باتريس هيفونيه، فإنه لا يمكن لأميركي إلا ان يكون ديمقراطياً وعصامياً أيضاً في مرحلة الولادة والتكوين. ويقرر أنه في ذلك الوقت تم ارساء دعائم فكرة أن أميركا ديمقراطية. اما اوروبا، وفرنسا على وجه الخصوص، فستظل تعتبر بلاداً تحنُّ إلى الأرستقراطية. وعلى ما يلاحظ هيفونيه، فإن الفرنسيين يخضعون للدولة، وهم ليسوا بطليعيين ولا بعصاميين، ولا يفقهون شيئاً في الفردية. ذلك ان فردية الفرنسيين مشوهة الشكل وملتوية. ويقفون على هامش المجتمع، في حين ان الأميركي يؤثِّر في المجتمع وعليه. وتحت هذا المنظور - يضيف - فإن المواطن الأميركي ليس في حاجة للدولة التي يرى فيها عدواً له، او أنها آلة لجباية الضرائب تمنعه من القيام بتحقيق طموحاته[35].

تلك مفارقة أخرى سوف نأتي على النظر في فضاءاتها المعرفية وتفصيلها في الفصول اللاَّحقة. اما الفصل الذي يلي فسيُخصَّص للبحث في سيريَّات فعل المسيحية البروتستانتية في التأسيس الديني للأطروحة الأميركية.

(35) باتريس هيفونيه- من حوار اجرته معه مجلة «إيستوريا» الباريسية عام 2005- أيضاً يمكن مراجعة تعريب د. منصور حديفي لهذا الحوار المنشور في مجلة «مدارات غربية» - العدد السابع- صيف 2005.

الفصل الثاني

أميركا بما هي دولة دينية

مثلث الأصولية والليبرالية والإنجيلية

لو كان ثمة من توصيف انثرو - فلسفي للنشأة الأميركية، لآلَ الأمر، إلى ما يشبه اليقين، بأن أميركا، دولة دينية بامتياز. ليس يعني هذا، أن تؤخذ دينية أميركا على مواصفات الدولة الثيوقراطية التقليدية. لكن مدار الكلام هنا، يسري على جهة الاستثناء. فلو حملنا هذا التوليف على محمل استقراء هذه المنطقة المعرفية بالذات، لظَهَرَ أمامنا حدُّ الاستواء. هذا الحدُّ الذي منه وعليه سوف يمكن لنا فهم المشترك التكويني للظاهرة الأميركية بما هو مشترك، للدين والفلسفة السياسية فيه المبتدأ والخبر.

لنعاين إذاً، التأسيسات الإجمالية للظاهرة الدينية في أميركا، أو على الأصح معاينة أميركا بوصفها، في هذا المضمار، أطروحة دينية...

ثلاثة تيارات

تضمنت التقاليد الدينية للولايات المتحدة، والتي بدأت في القرن السادس عشر، متزامنة مع الإصلاح الديني في انكلترا واسكتلندا، مفاهيم ومبادئ ووجهات نظر عالمية متباينة ومتعددة. غير أن ما ظهر منها، وكان له التأثير المباشر والقوي يمكن بيانه في ثلاثة تيارات:

- التيار التقليدي الملتزم وهو ما اصطُلح على تسميته بالأصولي.
- التيار التقدمي الملتزم بالتقاليد الأخلاقية، وهو المعروف بالمسيحي الليبرالي.
- التيار الواسع الانتشار، والمعروف بالإنجيلي التقليدي.

لقد اتفق معظم المشتغلين في معرفة البنية الدينية لأميركا، على عدم جواز التفريق او الفصل بين التيارات الثلاثة المذكورة. وهذا يعود برأيهم إلى أن معظم المسيحيين الأميركيين يمزجون بين المبادئ الدينية والاجتماعية التي تحملها التيارات البروتستانتية والأفكار المسيحية الأخرى، مع اهتمام بسيط بمدى تناسقها وتناغمها. إلا أن الوصف العام، أو الصورة الشاملة لكل تيار ديني من هذه التيارات،وتأثيراتها على دور الولايات المتحدة في العالم، سيجعل من السهل تقييم التغيير الذي أحدثه التبدل في ميزان القوى الدينية، وتأثير ذلك على البلاد وسلوكها.

ولو نحن مضينا في جلاء المشهد الديني المثلث الأركان في أميركا، لتبيّن لنا ذلك من خلال توجيه الضوء على مواصفات كل من هذه التيارات ولا سيما في الجانبين اللّاهوتي والثقافي...

أولاً: التيار التقليدي الأصولي: وهو تعبير عن التقاء مجموعات متنوعة، إما بسبب التعريفات المختلفة لمصطلح الأصولي، أو تمشِّياً مع الطابع اللاّمركزي والشخصية المتميزة للبروتستانتية الأميركية. وعلى وجه العموم لا يوجد طرف يملك صلاحية التعريف عن ماهية الأصولية، وعما تؤمن به. ومع ذلك يذهب بعض الباحثين إلى أن مصطلح الأصولية على الطراز الأميركي ينطوي على ثلاث خاصيَّات:

الخاصِّية الأولى: رؤية متقدمة حول إلهام وسلطة الإنجيل.

الخاصِّية الثانية: العزم القوي على الدفاع عن الإيمان التاريخي بالبروتستانتية، وخصوصاً لدى احتدام المواجهة مع الكنيسة الكاثوليكية، فضلاً عن الأسباب والعوامل المؤثرة الأخرى المتأتِّية من جانب العلمانيين، ومؤيّدي الحداثة، وبالطبع من جانب غير المسيحيين.

الخاصِّية الثالثة: الاعتقاد بأن على المؤمنين أن ينأوا بأنفسهم عن العالم غير المسيحي.

ولقد لوحظ أن بالإمكان حضور الأصوليين داخل المجموعات المسيحية

البروتستانتية المحافظة كافة. حيث تبيّن أن بعض المجموعات المهيمنة المعتبرة إنجيلية، مثل: الكنيسة المعمدانية الجنوبية، وكنيسة ميسوري اللوثرية، التي تعتبر أقلية، يمكن أن يطلق عليها بحق صفة أصولية.

هناك أيضاً، المجموعات الأصولية الأخرى المهيمنة، مثل الكنيسة الكالڤينية المشيخية التقليدية، والتي تعتبر أصغر من مثيلاتها الإنجيلية والليبرالية، لا سيما وأن الأصوليين يرغبون في ان تكون مجموعاتهم صغيرة ونقية وصافية وصارمة وملتزمة بالمبادئ، خلافاً لتلك المنظمات الكبيرة التي تتداخل فيها أفكار ووجهات متعددة. بالإضافة الى هذا فإن التجمعات الأصولية تفضِّل أيضاً، أن تحافظ على استقلاليتها بعيداً عن التجمعات الكبيرة ذات الهيكلية المهيمنة. وقد عكف كثيرون، ممن هم خارج هذا الإطار الأصولي، على الظن، أن الأصولية هي ضد حركة الفكر والعاطفة. لكن من الصحيح القول هنا، إن الكثيرين من الأميركيين البروتستانت المحافظين، يعلقون أهمية كبيرة على الخبرة الشخصية. الروحية والعاطفية. غير أن المائز الطفيف بين الأصوليين والإنجيليين،ليس في كون الأصوليين أكثر عاطفية في إيمانهم واعتقادهم، بل في كونهم أكثر تشدداً في طريقة ممارسة معتقداتهم وتطبيق أفكارهم بالكامل وصولاً إلى بلوغ خلاصتها المنطقية.

وإذا كان ثمة مساحة مقارنة لبيان الفرو قات العقائدية بين الأصوليين والإنجيليين، فقد نجد ذلك في ما ذهبت إليه أبحاث كثيرة حول اهتمام الأصوليين أكثر من الإنجيليين بالعمل على تطوير نظرة ثابتة وشاملة عن العالم من وجهة نظر مسيحية، ومن ثم العمل على تطبيقها بشكل تدريجي. إلاّ ان هناك شيئاً ثابتاً لدى الأصوليين يشكل عنصر الرفض المشترك مع الإنجيليين، وهو نظرية التطور الداروينية. فقد ثبت لديهم من خلال التجربة أن الإنجيل هو دليلهم المعصوم عن الخطأ، وأن نظرية داروين تتناقض مع ما جاء في الإنجيل.

لذا فإن هناك شيئاً آخر مختلفاً يبدو بحاجة لتطويره بشكل كامل (كما يعتقد بعض الأصوليون)؛ وهو ما يعنون به، البحث عن خيار علمي حول موضوع (الخلق من وجهة نظر علمية)، ووضع كتب مدرسية للمناهج التربوية، والضغط على المدارس لتدريس هذه الكتب، تحت طائلة التهديد بسحب التلاميذ من المدارس التي ترفض ذلك. مع العلم أن المؤسسات التي يسيطر عليها الأصوليون:(الحركة المعمدانية المستقلة، وجامعة بوب جونز) لا تعتبر مراكز دافئة وحاضنة لاستقبال من يعالج هذه القضايا الدينية المقدسة، ولكنها غالباً ما تستضيف علماء غير تقليديين[1].

في خلال القرن العشرين الماضي، وقع الأصوليون في حالة من العزلة والتشاؤم بسبب سلسلة الهزائم السياسية والفكرية التي لحقت بهم خلال عقدي العشرينيات والثلاثينيات. وهذه - على ما يلاحظ المؤرخون المعاصرون- حالة غريبة عن التوجهات المتفائلة التي عاشتها الحركة البروتستانتية الأميركية في خلال القرن التاسع عشر. فلقد كان من تأثير هذا التراجع ان اتخذ الأصوليون توجهاً دفاعياً، وانصرفوا إلى إعادة النظر والتدقيق في عقائدهم، بطريقة مشابهة لتلك التي طبعت المذهب النوراني الكالفيني الذي انطلق مبكراً في (نيو انجلند). إذ يحمل الأصوليون - كما النورانيون - نظرة قاتمة ؛ ويرون بأن هناك فجوة واسعة جداً بين الأرواح القليلة التي اختار الله إنقاذها، وتلك الكثيرة التي قدر الله لها ان تذهب الى الجحيم. لقد سعى الكالفينيون (نسبة الى اللاَّهوتي الإصلاحي جون كالڤن) لإنشاء تجمع ديني يضم (الميثاقيين او الوطنيين الاسكتلنديين، وحزب كيرك) في سكوتلندا؛ وفي انكلترا خلال فترة حكم أوليڤر كرومويل، وكذلك في نيو انجلند، حيث جرى كل هذا في خلال القرن السابع عشر. وخلال القرون الثلاثة الماضية أصبحت فكرة بناء وإقامة

(1) وولتر راسل ميد - (اميركا.. دولة الله) - (U.S. God's Country) دورية فورين أفيرز (Foreign Affairs) عدد أيلول/ سبتمبر تشرين الأول/ اكتوبر 2006.

الدولة الدينية، اقل جاذبية وإمكانية بالنسبة للمتشددين من الأصوليين. ولم تكن فقط المتغيرات الديموغرافية (السكانية) وحدها هي السبب. ولنتخيل هنا، الظروف الصعبة التي يعانيها الأصوليون لتشكيل أكثرية. ثم إن التجربة السابقة لهذه التجمعات ترينا أيضاً، كيف أن الأجيال اللاَّحقة من المؤمنين غالباً ما كانت تفقد الحماسة التي كان يتمتع بها المؤسسون. لقد خرج الأصوليون من هذه التجربة بحزن عميق وحكمة أكبر، لذا راحوا يعتقدون أن الجهد الإنساني لبناء عالم أفضل بات يملك فرصاً ضئيلة في النجاح. وهم يتفقون مع ما قاله المبشر الأميركي الذي عاش في القرن التاسع عشر (دوايت مودي) عندما ألحَّ عليه البعض ليركز على النشاط السياسي، فأجاب: "إنني أرى هذا العالم كسفينة مثقوبة، ولقد أعطاني الله قارب نجاة وقال لي: مودي،سوف أنقذ معك من يمكنك إنقاذه. . . "[2].

ومهما يكن الأمر، فإن الأصوليين ملتزمون بالرؤية التنبؤية لنهاية العالم ويوم الدينونة. وكما يشرح الكتاب المقدس، فإنهم يؤمنون بأن النبوءات القاتمة والسيئة الواردة في المخطوطات العبرية واليونانية، هي نفسها التي وردت في الكتاب المقدس، والتي تروي الأحداث الكبرى الرهيبة التي ستسدل الستار على تاريخ البشرية. ويقولون إن الشيطان وحلفاءه من البشر سيقومون بالانتفاضة الأخيرة ضد الله ونخبته من المؤمنين الذين سيتعرضون لاضطهاد فظيع، ولكن المسيح سيتمكن من إخضاع أعدائه وسيفتتح عهداً جديداً في الأرض كما في السماء.

التيار الليبرالي

يرى التيار المسيحي الليبرالي أن جوهر المسيحية هو في تعاليمها الأخلاقية وليس في مبادئها التقليدية. وإذا عدنا إلى القرن السابع عشر سنرى كيف أن

(2) وولتر راسل ميد -المصدر نفسه.

هذا الشكل من التفكير المسيحي هو الذي عمل على تخليص الدين من الأساطير. أي بما يفصل ما بين (النوى (الإلهام الأخلاقي) و(القشرة الأسطورة). على حين يشكك الليبراليون المسيحيون بالتعقيدات التي ارتبطت بطبيعة المسيح ومفهوم معنى الثالوث. وهي التعقيدات التي تطورت سحابة القرون الأولى لإنشاء الكنيسة. كما أنهم لا يبدون حماسة في قبول مختلف القصص والأحداث كما وردت حرفياً في الكتب المقدسة؛ مثل قصة خلق العالم في سبعة أيام، وجنة عدن، وطوفان نوح، وغيرها.. ويمتد هذا التشكيك أيضاً، ليصلً إلى الرواية التي تتحدث عن عودة المسيح بجسمه من بين الأموات، فضلاً عن سائر المعجزات الأخرى التي تُنسب إلى المسيح. وبدلاً من الإيمان بأن المسيح كان ذا طبيعة غير عادية، يراه المسيحيون الليبراليون معلماً أخلاقياً رفيع المستوى، تستحق تعليماته وممارساته أن تتَّبع طوال الحياة. وغالباً ما كانت توجه هذه الأفكار نحو الفقراء. ولكن، لتوضيح بعض الخطوط التاريخية لتجربة التيار الليبرالي، لا بد من الإشارة إلى أن الكنيسة التوحيدية التي ينتمي إليها الليبراليون دخلت أراضي الولايات المتحدة في عام 1794 بواسطة عالم اللّاهوت الانجليزي جوزيف بريستلي. لقد كان بريستلي صديقاً مقرباً من الرئيس بنيامين فرانكلين، وكان له تأثير ديني مباشر على الرئيس توماس جيفرسون، وذلك بالرغم من أن كلاً من فرانكلين وجيفرسون كانا يحضران القداس الكنسي في الكنيسة (الأسقفية). لقد دفعت الأفكار الداروينية والانتقادات الموجّهة للكتاب المقدس، إلى التساؤل عن مدى الدقة الحرفية للقصص الواردة في الكتاب المقدس، فانتشرت الليبرالية بشكل واسع داخل التيار البروتستانتي.. بما في ذلك الكنائس، (المشيخية) النظامية، والمعمدانية الأميركية، والأسقفية، واللوثرية والتجمعية. والتي ينضوي تحتها نخبة المواطنين الأميركيين من الاقتصاديين، والمفكرين، والشخصيات الاجتماعية.

ومع أن المسيحيين المحافظين يُعتبرون من التقدميين خارج التيار

المسيحي، إلا أن المسيحيين الليبراليين يعتقدون بعمق انهم يمثلون جوهر البروتستانتية. فالإصلاح من وجهة نظرهم يعدّ الخطوة الأولى على طريق استعادة جوهر المبادئ والقيم المسيحية. لقد استطاع المصلحون الأوائل أن ينأوا بالكنيسة من بيع صكوك الغفران والأفكار الأخرى المتعلقة بالطهارة، والعذاب، والعصمة البابوية، ومبدأ التحول. وفي مهاجمتهم بعض المبادئ الأساسية كالثالوث، والخطيئة الأساسية، ووجود الجحيم، يعتقد الليبراليون المسيحيون اليوم انهم ببساطة يتبعون المبادئ البروتستانتية. ويذهب الباحثون إلى ملاحظة قضية معرفية ذات أهمية خاصة في هذا الصدد وهي، أن الليبرالية المسيحية تفرق بين المسيحيين وبين غير المسيحيين بحدة اقل من سائر المجموعات البروتستانتية الأميركية الأخرى. كما يؤمن المسيحيون الليبراليون بأن المفهوم الأخلاقي والمبادئ الأخلاقية واحدة في كل أنحاء العالم. فالبوذيون، والمسيحيون، والهندوس، واليهود، والمسلمون، وحتى الأشخاص غير المؤمنين، من الممكن أن يتفقوا على ما هو الصحيح وما هو الخطأ. ويعتقدون أن كل ديانة تملك تصوراً حول جوهر الحقيقة الأخلاقية. كما أن الفكرة أو المبادئ القائمة على أن الكنيسة هي عبارة عن مجتمع غير عادي يتمتع أعضاؤه بميزات خاصة، لا تلعب إلا دوراً صغيراً في المجتمعات الكنسية المسيحية الليبرالية. وبسبب من هذه الاجتهادات واجهت الليبرالية المسيحية في السنوات الأخيرة من القرن العشرين وبداية القرن الجاري العديد من التحديات أهمها ما يلي:

1- اتجاه الليبرالية البروتستانتية للتحول في العلمانية. فأتباع هذه الكنيسة يتبعون تعاليمها وصولاً الى باب الكنيسة فقط. وبالتالي فإن هيمنة تيارها آخذة في الاضمحلال.

2- قليلاً ما يشارك الليبراليون المسيحيون، أو أنهم ينخرطون في القضايا الدينية، ولكنهم قد ينخرطون في معالجة القضايا البيئية، أو يشاركون في

نشاطات متعلقة بحقوق الإنسان، وهذه نشاطات غالباً ما تأخذ دورها في المجتمع العلماني.

3- يخسر الليبراليون المسيحيون دورهم التقليدي كدعاة لتعميق الإيمان في المجتمع، بابتعادهم عن الكنيسة الكاثوليكية من خلال مواقفهم من القضايا المتعلقة بالإجهاض والشذوذ الجنسي، وعن اليهود عبر تخفيف دعمهم لإسرائيل.

4- هذه التيارات الدينية تركز بشكل متزايد على قضايا مثل حقوق الشاذين جنسياً، كما تستهلكها الصراعات الداخلية، ممّا يجعلها اقل قدرة على التأثير على كامل المجتمع الأميركي(3).

الإنجيليون والخط المعتدل

للوهلة الأولى يوحي الربط بين التيار الإنجيلي وخط الاعتدال كأن التيارين سابقي الذكر ينزاحان إلى ضفاف التطرف في الثقافة الدينية البروتستانتية. غير أن الحفر المعرفي في نشأة التيار الإنجيلي سوف تفيدنا في جلاء حقيقة هذه المفارقة.

الإنجيليون في الواقع هم ثالث التيارات الدينية البروتستانتية في الولايات المتحدة. إنهم يقفون وسط خط التجاذب بين الأصوليين والليبراليين. فهم يشاركون الأصوليين لبّ معتقداتهم، ولكن أفكارهم حول العالم تأثرت بشكل ملحوظ بالتوجه المتفائل المتوطّن داخل المجتمع الأميركي. وعلى الرغم من وجود تنوعات لاهوتية مهمة داخل هذه المجموعة، فلا يزال يُنظر إلى الكنيسة المعمدانية الجنوبية بصفة كونها صاحبة اكبر تيار إنجيلي في الولايات المتحدة،

(3) المصدر نفسه اقتبسها وولتر راسل في سياق دراسته المشار إليها آنفاً تحت عنوان "أميركا.. دولة الله".

وهي تضم ما يقارب 3.16 مليون عضو، وبهذه الموقعية يُرى إليها باعتبارهااكبر تيار بروتستانتي. أما التيار الإنجيلي الثاني فهو تجمع الكنائس الافرو - أميركي، ويشمل الكنيسة المعمدانية الوطنية في الولايات المتحدة، ومؤتمر الكنائس المعمدانية في الولايات المتحدة، حيث يضم كل تجمُّع منها ما يقرب من 5 مليون عضو. وهناك «كنيسة الله المتجسد في المسيح الافرو - أميركية، والتي تضم 5.5 مليون عضو. وهي من اكبر الكنائس التي يهيمن عليها العرق الأسود، وهناك أيضاً «كنيسة التجمع من اجل الله» التي تنمو بسرعة والتي تضم حوالي 7.2 مليون عضو. وهذه الأخيرة تتميز بعدم وجود غالبية من العرق الأسود بين أعضائها. بينما كنيسة ميسوري اللوثرية التي تضم حوالي 5.2 مليون عضو فهي الثانية من حيث هيمنة العنصر الأبيض على أعضائها. وفي هذا الصدد يشبه الإنجيليون البيض الأصوليين من حيث تجمعهم ضمن مجموعات ومنظمات صغيرة تدعى المنظمات المؤيدة للكنيسة»، «كالتجمع الصليبي من اجل المسيح»، و«حافظي الوعد»، و«الخبراء في ترجمة الإنجيل». كما يشبه الإنجيليون الأصوليين من نواح عديدة، ليس فقط من ناحية التعاليم الأخلاقية، بل إنهم يولون قدراً كبيراً من الأهمية للتوجّهات والعقائد المسيحية. وبالنسبة للإنجيليين والأصوليين معاً، فإن تركيز الليبراليين على ترجمة المبادئ الأخلاقية إلى معتقدات مفادها أن العمل الصالح والتطبيق المناسب للمبادئ الأخلاقية هو الطريق إلى الله يعتبر خيانة لرسالة المسيح.

إن مبرر هذا الاعتقاد يعود إلى أن المفهوم أو المعتقد القائم على فكرة الخطيئة، يجعل الإنسانية عاجزة تماماً عن الالتزام بأي من المبادئ الأخلاقية أو سواها. فبالنسبة إليهم، وحده الإيمان بعقيدة صلب المسيح وقيامته من بين الأموات بإمكانها أن تنقذ الإنسانية. كما يعلق الإنجيليون أيضا أَهمية كبيرة على الفرق بين هؤلاء الذين أُنقذوا (saved) وبين أولئك الذين لم يتم لهم ذلك بعد. وتماماً مثل الأصوليين، يؤمن الإنجيليون بأن الإنسان الذي يموت من دون أن يعلن قبوله وإيمانه بتضحية المسيح أو الاعتراف به كمخلص سيهلك يوم

الحساب،وسوف يبقى بعيداً عن الله إلى الأبد. ثم إنهم يوافقون الأصوليين على أن الذين لم يتم إنقاذهم ولم يتحقق خلاصهم بالإيمان، غير قادرين على القيام بأي عمل جيد من تلقاء أنفسهم.

وأخيراً، فإن معظم الإنجيليين، وليس جميعهم بالطبع يشاركون الأصوليين في رؤيتهم لنهاية العالم. وعلى المستوى الفعليّ، فإن كل الإنجيليين يؤمنون بأن كافة النبوءات الواردة في الكتاب المقدس سوف تتحقق، والغالبية منهم توافق الأصوليين على العقيدة القائلة بمبدأ الألفية): وهي عقيدة تعني الإيمان بأن المسيح سوف يعود وسيباشر في تحقيق النبوءة القائلة بأنه سوف يؤسس مملكة السلام التي ستحكم العالم، وسيدوم حكمها ألف عام. لذا فإن كل المحاولات الإنسانية لبناء عالم يعمه السلام قبل عودته سوف تفشل على حد زعمهم. ومع ذلك فإن من الصعب توقع مواقف الإنجيليين، فالصدمة التي أحدثتها الاستطلاعات الأخيرة والتي أظهرت أن الغالبية العظمى من الأميركيين يرفضون نظرية التطور، دفعت بالمفكرين والصحفيين الأميركيين إلى الاستعداد لشن هجوم شامل على العلوم الداروينية، ولكن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث بعد. فلطالما رفض المجتمع والرأي العام الأميركي النظرية الداروينية، ولكن ما زالت هناك ولايات أميركية مثل آلاباما، ميسيسيبي، وكارولينا الجنوبية تضم جمهوراً مسيحياً كبيراً وناشطاً، ولا تزال الجامعات الحكومية فيها تدرس علم الفلك، وعلم الجينات، والجيولوجيا، وعلم الوراثة من دون الالتفات إلى الآراء الدينية المتعلقة بخلق الكون، كما لا تزال حكومة الولايات المتحدة على دعمها لأنجح المؤسسات والمجتمعات العلمية في العالم. وعلى عكس ما هي عليه حال الأصوليين، لا يستنكر الإنجيليون هذا التناقض، كما إنهم لا يرغبون في العمل على تغييره. وقد دفعت البراغماتية التي تتميز بها الثقافة الأميركية، ممزوجة بما يمكن أن يسمى الأصوات المناهضة للفكر، بالتوجه أو بالتيار الديني الإنجيلي إلى إيجاد نوع من التسامح الديني الواسع، وهو أمر رفضه

البعض واعتبره منفّراً وغير مقبول. نشير هنا إلى أنه في القرن السابع عشر عارض اللّاهوتي المتزمت هارفرد الأفكار الفلكية للعالم كوبرنيكس، ولكن الإنجيليين الأميركيين اليوم قادرون على ترك مساحة واسعة تمر من خلالها التناقضات بين النظريات الدينية. ولعل ما لا يعجب الإنجيليين هو ما يطلق عليه البعض لقب (علمي): " وهو ما يعني المحاولة لتعليم نظرية التطور، أو أي موضوع آخر بطريقة ما تؤدي الى رفض ونقض وجود الخالق وإنكار أفعاله" . وبينما يزعم الإنجيليون أنهم الأكثر تفاؤلاً فيما يخص تحقيق تقدم على المستوى الأخلاقي، فإن الأقلية الإنجيلية التي تؤمن بعودة المسيح لتحقيق النبوءة، يقرُّون أن هذه العودة سوف تتم بعد أن يعم السلام العالم لمدة ألف عام. يؤمنون ايضاً بأن هذه العملية من الممكن أن تستمر حتى يصل المجتمع الإنساني إلى حالة من القداسة: وهذا ما تفضي إليه فكرة أن التطور الديني للأفراد والمجتمعات سيتراكم ليؤسس مملكة السلام من خلال عملية التطور والتحسن التدريجي. والإنجيليون بهذا يتفقون مع ما يراه الليبراليون في هذا الخصوص. ففي الواقع، غالباً ما وحّد الليبراليون والإنجيليون جهودهم في العديد من القضايا المتعلقة بالشؤون الإنسانية والأخلاقية على المستويين المحلي والدولي خلال مراحل التاريخ الأميركي المتعاقبة. وبالرغم من أن المجموعة الغالبة التي تؤمن بعودة المسيح لتحقيق مملكته ليعم السلام الأرض، اقل تفاؤلاً حول إمكانية نجاح جهود كهذه، إلا أن الإنجيليين الأميركيين غالباً ما يُظهرون تفاؤلاً حول إمكانية تحسين الواقع الإنساني على المدى القصير لما فيه خير الإنسانية. ولسوف نجد ما يضيء على ذلك، في الكتاب الذي نشره عام 2005، المبشر الأميركي المحافظ ريتشارد لاند تحت عنوان (تخيل، الله بارك أميركا): حول كيفية تحقيق هذا الأمر، وكيف يمكن أن يكون ذلك. في كتابه المشار إليه، يعرض المبشر لاند النظرة الإنجيلية المتفائلة ويبررها فيقول: "أنا اعتقد بأنه سيكون هناك صحوة كبرى أخرى في بلادنا، بل سيكون ثمة يقظة على امتداد

انتشار الأمة؛ فالنصوص والمخطوطات تقول لنا إن لا احد منا يعرف على وجه الدقة أو التحديد اليوم أو الساعة المحددة لعودة المسيح. إلا أننا لا نملك الحق في أن نتخلى عن العالم ونتركه على حالته المزرية والتعيسة، لا شيء في هذه النصوص التي بين أيدينا تدعونا إلى تجاهل هذا الواقع والعيش في (غيتوات) مسيحية منعزلة، وعدم العمل على تحويل العالم إلى المسيحية"[4].

الأصولية و"مَسْحَنَة العالم"

لم يكن كلام المبشّر المحافظ ريتشارد لاند في الدعوة إلى "مسحنة العالم"، تصريحاً عفوياً حول أمر يعتقده ويدعو إليه. بل هو على ما يبدو تمثيل فعلي لمناخات أصولية تمتد جذورها لتشمل خارطة دينية واسعة في أميركا.

ينتمي الكلام على "مَسْحَنَة العالم" في الغالب إلى المناخ التبشيري الأصولي المتطرف، وتحديداً إلى ما يسميه الباحثون بـ"الرؤيويين". (أي أولئك الذين يؤمنون بحرفية سفر الرؤيا في نهاية العهد الجديد).

جاء في استطلاع للرأي، يورده الخبير في الشؤون الأميركية د. غسان غصن[5] نقلاً عن مجلة (تايم) وشبكة (سي.إن.إن) اللتين أجرتا هذا الاستطلاع عام 2002، أن نحو ستين في المئة من الأميركيين مؤمنون بأن النبوءات في سفر الرؤيا سوف تتحقق. ولذا تأتي كلمة (Appocalypse) ومعناها «دمار العالم ونهايته» مرادفة لكلمة (Revelation). ـ بحسب هذه النبوءة ـ ينتهي هذا العالم، وهذا الزمان عندما يعود المخلص ابن الله ليحمل البررة الصالحين - المسيحيين المولودين من جديد - إلى الجنة، ويلقي بالخطأة الآثمين (بقية شعوب العالم) في نار جهنم الابدية.

---

(4) المصدر نفسه.

(5) غسان غصن، الخطر الأميركي الأشد، تسييس الدين أم تديين السياسة - مجلة "شؤون الأوسط"، العدد 118 ربيع 2005.

وعلى الرغم من تعدّد اللّاهوتيات والطوائف الدينية الأميركية واختلاف رؤاها التفصيلية حيال كثير من القضايا المستقبلية، فإنها على الجملة منسجمة حول اصطفائية الأطروحة الأميركية. أي النظر إلى موقعية أميركا التاريخية بوصفها موقعية ريادية تستلهم من الميتافيزيقا الدينية المتعالية مرجعيتها اللّاهوتية. ويشير الباحثون في هذا المجال، إلى أفكار اللّاهوتي الانغلو - إيرلندي جون نيلسون داربي الذي عرض أطروحات دينية في القرن التاسع عشر قوامها، التفسير الحرفي للكتاب المقدس، ولا سيما لجهة تقديم ترتيب زمني حول نهاية العالم. أو ما يسميه المؤرخون الفكرة التدبيرية الالهية لشؤون العالم.

مؤدى هذه الفكرة أن التدبيريين يربطون تلك الترتيبات الزمنية بأحداث راهنة، من مثل أن عالم اليوم يعيش في دوار خارج عن السيطرة. وكما يقول التبشيري الانتهائي (اي نهاية الزمن) جون هاغي راعي كنيسة كورنر ستون (حجر الزاوية) في تكساس، أنه "في كل أنحاء الأرض، سوف تتفجّر قبور المتجدِّدين ويحلِّق ساكنوها إلى السماء، ويرى التدبيريون أنه في أعقاب "الإصعاد" (هو تعبير استعمله غصن ليدل على إيحائه بالقدرة الذاتية للإرتقاء. وأكثر من ذلك لأن هذا التعبير مرتبط دينياً بصعود المسيح إلى السماء) يعيش غير المؤمنين المتروكين على الأرض، ومثلهم ستة مليارات من البشر الآخرين، فترة سبع سنوات في معاناة لا تحتمل تسميها بعض الترجمات العربية للكتاب المقدس: الضّيِقة العظيمة Great tribulation. وتبلغ هذه الفترة ذروتها مع ظهور المسيح الدجّال anti-chris، ونشوب المعركة الفاصلة بين الله والشيطان، أو بين قوى الخير وقوى الشر: «هرمجدّون». اذ بعد انتصار الخير يرسل المسيح الحقيقي جميع اللّامؤمنين إلى دركات جهنم الحارقة ثم يعيد تخضير الكوكب، ويحكم بسلام مع اتباعه ألف عام[6].

---

(6) غسان غصن - المصدر نفسه.

الطوائف الأخرى لا تفارق مثل هذه العقيدة القائلة بنهاية الزمان. وذلك بسبب كونها ملتزمة بما يتفرع عنها، ولا سيما لجهة دور أميركا في التسريع من وتائر الزمن الانقضائي، من خلال احتواء العالم وتهيئته لظهور المسيح المخلِّص. وعلى النسق إياه، والاعتقاد نفسه، لم يستطع التدبيريون احتكار أسواق التفسير الانقضائي للدهر. فهناك طائفة أقل عدداً لكنها أقوى نفوذاً على الصعيد السياسي، يسمىّ معتنقو مبادئها: إعاديّي البناء Reconstruction وأيضاً السياديين Dominionists، فهؤلاء لا يبنون إيمانهم بعودة المسيح على أساس النبوءات الكتابية، وإنما على أساس الفعالية السياسية. ففي رأيهم أن المجيء الثاني للمسيح لن يحدث قبل أن يهيء العالم مكاناً له.

يرى "الإعاديون" أن الخطوة الأولى لتهيئة العودة، هي "مسحنة" الولايات المتحدة، ومن ثم العالم. فأحد كبار منظريهم، جورج غرانت، يقول أن "النية الرئيسة للسياسات المسيحية هي ضمان الغلبة على الأرض - على الرجال، والأسر، والمؤسسات، والبيروقراطيات، والمحاكم، والحكومات - لملكوت المسيح. ويتفق الأميركيون المناهضون والمعادون لمثل هذه المبادئ على أن الحركة المعروفة باسم اليمين "المسيحي" أو "المتدين" تُمثّل أكبر خطر منفرد على قضية الفصل بين الدين والدولة؛ لأن منظمات هذه الحملة اللاّهوتية - الايديولوجية الشرسة، وقياداتها، جاهدة في سعيها إلى فرض الآراء المسيحية الأصولية- بإجراءات حكومية (وتشريعية، وقضائية) - على جميع الأميركيين، وتالياً على قطاعات كبيرة في العالم. فتحقيق السيادة المسيحية يتطلب إلغاء الفصل الدستوري بين الدين والدولة؛ وإنهاء جميع البرامج الاجتماعية الحكومية، لكي تتولىّ الكنائس هذه الرّعاية. يقول غرانت إنّ "فتح العالم هو ما كلّفنا المسيح بإنجازه. علينا اكتساب العالم بقوة الانجيل، وعلينا بأي شيء أقل من ذلك"؛ إذ فقط عندما يتم الفتح الشامل، يمكن للمسيح أن يعود. ووفقاً لما يقوله غلين شيرر Scherer في المجلة البيئية غرست، وبل مويرز في كلية هارفرد للطب، فإن الانقضائيين والتنبؤات بانتهاء العالم تتردد - بأسلوب أو

بآخر - عبر ما يقرب من 2000 محطة إذاعية مسيحية، و 250 محطة تلفزيونية مسيحية. وتجني كبريات هذه المحطات، كما يتبين، مئات الملايين من الدولارات كل عام؛ من خلال التبرعات . . . والمبيعات[7].

"طوائف" اليمين الأميركي

إذا كان اليمين الايديولوجي الأميركي قد بلغ توتره الأقصى مع المحافظين الجدد في أواخر القرن العشرين وبدايات القرن الحالي، فمن الضروري عدم اختزاله ضمن هذه الطائفة الايديولوجية بالذات. نقول ذلك على الرغم من المشتركات الجوهرية التي تجمع التيارات والاتجاهات المختلفة لليمين الأميركي بأطواره التاريخية المتعاقبة.

لقد كُتِبَ الكثير في التأسيسات السياسية والفكرية والفلسفية لليمين الأميركي. غير أن الكتابات التي صدرت وسط الزحام الكثيف لحقبة المحافظين الجدد ستقارب الخريطة الإجمالية لتموضعات اليمين واتجاهاته الرئيسية.

يرسم دوغلاس مايسي، وهو أستاذ علم الاجتماع بجامعة برنستون الأميركية، في كتابه الذي صدر عام 2005 بعنوان "عودة كلمة السلام: رؤية ليبرالية للقرن الجديد خارطة إجمالية لأصول وفصول وتعيُّنات اليمين الأميركي"، ويقسمه إلى جماعتين رئيستين:

الجماعة الأولى: تضم قوى اليمين الرئيسة أو الأصولية.

والجماعة الثانية: تضم القوى المتحالفة مع - أو المتسلقة إلى - اليمين الأميركي الأصولي سعياً الى السلطة.

تتميز القوى اليمينية الأصولية - وفقاً لرؤية مايسي - بإيمانها القوي بأفكار ايديولوجية معينة مما يجعلها ترفض الأميركيين غير المؤمنين بأفكارها، كما

(7) المصدر نفسه.

ترفض النظر والتدقيق في مدى صحة هذه الأفكار، على الرغم مما قد يعتريها من سطحية وتطرف في بعض الأحيان. وتتميز هذه القوى بقدر من الانتقائية، فعلى سبيل تركز الجماعات المسيحية المتديِّنة بشكل واضح على قضايا الأخلاق الشخصية والاجتماعية، في الوقت الذي تتحالف فيه مع النخب الأميركية الثرية، ما يجعلها تغض الطرف عن قضايا العدالة الاجتماعية، وزيادة الفجوة بين الفقراء والأغنياء في الولايات المتحدة، ودور النخب الثرية ذاتها في نشر ثقافة الانحلال الأخلاقي. ويضم تحالف القوى الأميركية الأصولية خمس جماعات رئيسة.

أولها الجماعات الدينية، والتي تمثلها جماهيرياً منظمات اليمين المسيحي وقياداته المعاصرة مثل فرانكلين جرام، وبات روبرتسون، وجيري فالويل، ويمثلها بعض السياسيين المؤمنين بأفكار تلك الجماعات، ومن أشهرهم جون اشكروفت وزير العدل الأميركي في إدارة جورج دبليو بوش.

يرى مايسي أن الجماعات الأصولية الدينية بدأت في تنظيم أوضاعها سياسياً منذ أوائل الأربعينيات من القرن العشرين، الأمر الذي مكَّنها من اعتلاء مكانة سياسية متميزة ابتداءً من ثمانينيات القرن إياه، ولئن كانت بعض الكتابات المتميزة مثل كتاب" امة اليمين قوة المحافظين في أميركا" - الصادر في منتصف العام 2005 يرى أن قوة اليمين المسيحي هي في تراجع سياسي منذ أواخر التسعينيات بسبب سيطرة القيادات الدينية التقليدية عليها، من أمثال روبرتسون، وجرام وفالويل، وبسبب محدودية تأثيرها على أصوات الناخبين الأميركيين. وهو ما يشير إليه موري فريدمان مؤلف كتاب "ثورة المحافظين الجدد: المثقفون اليهود وصياغة السياسة العامة" حين يرى أن منظمات اليمين المسيحي لا تستطيع تغيير سوى 15 بالمئة؟ من أصوات الناخبين الأميركيين تجاه المرشحين السياسيين، ولكن فريدمان عاد ليؤكد أن قوة اليمين المسيحي ما زالت كامنة في الجنوب الأميركي، وداخل الحزب الجمهوري. وكذلك فيما

يتعلق بالسياسة الأميركية تجاه إسرائيل على الرغم من تراجعها على الساحة السياسية الأميركية العامة منذ أواخر التسعينيات.

الجماعة الأصولية الثانية - وفقاً لتقسيم دوغلاس مايسي - هي الجماعات المتشددة في مساندة الرأسمالية القائمة على السوق الحر، والحد من تدخل الدولة، ويمثلها مفكرون مثل ميلتون فريدمان الأستاذ السابق في جامعة شيكاغو الأميركية ومراكز أبحاث مثل معهد هوفر.

الجماعة الثالثة، وتضم الأصوليين الدستوريين، وهم مجموعة من النشطاء والقانونيين الساعين لإعادة تفسير القوانين الأميركية بشكل يحد من دور الدولة في السيطرة على الاقتصاد، وعلى الأملاك العامة.

الجماعة الرابعة، وتضم المحافظين الجدد بايديولوجيتهم النخبوية، وسعيهم لإعادة صياغة السياسة الخارجية الأميركية لفرض رؤيتهم للعالم، وموقفهم المتشدد من انتشار الليبرالية على المستويات الأخلاقية والاجتماعية والثقافية داخل المجتمع الأميركي. وينبغي هنا الإشارة إلى الوصف المتميز الذي يحتويه كتاب ميلتون فريدمان لتيار المحافظين الجدد كتيار فكري نشأ في أميركا منذ خمسينيات القرن الماضي، حيث يتعرض فريدمان بشكل مفصل للأسباب الفكرية التي دعت إلى ظهور وتطور أسلوب تفكير المحافظين الجدد، وعدد كبير من كتّابهم. وعلاقة هؤلاء الكتّاب بالتيارات الفكرية الأخرى، وبهذا يخرج فريدمان بالمحافظين الجدد إلى ساحة فكرية جديدة تختلف كثيراً عن الكتابات الإعلامية التي تركز عليهم كمجموعة محدودة من الساسة الساعين إلى اختطاف السياسة الأميركية من الداخل.

الجماعة الخامسة، وتضم أصحاب الاتجاه التحرري، مثل مركز أبحاث كاتو، وكذلك الناشط الجمهوري المعروف جروفر نوركيست وأصحابه، الذين يطالبون بخفض الضرائب، والحد من دور الدولة إلى أقصى حدود ممكنة.

أما بالنسبة للجماعات المتسلقة على التحالف اليميني الأصولي، فهي تضم النخب الثرية المستفيدة من خفض الضرائب، والجماعات العنصرية المعادية لحركة الحقوق المدنية في الولايات المتحدة. وهنا يرى مايسي أن العقود

الثلاثة الأخيرة شهدت نمو التحالف بين الأصوليين والأثرياء والعنصريين، وهو تحالف نجح في بناء شبكة هائلة من المنظمات المعنية بالشؤون العامة لمساندة أفكار وسياسات اليمين الأميركي[8].

المرجعية التبشيرية

لعل قراءة إجمالية في البعد الاعتقادي لكل من الأصوليين والليبراليين والإنجيليين وما يتفرع عنهم من طوائف ومجموعات، تشير إلى استوائها ضمن حقل مرجعي واحد على الصعيد الثقافي واللّاهوتي. عنينا به المرجعية التبشيرية.

فالولايات المتحدة ترى إلى نفسها دائماً على أنها أمة تحمل رسالة إلى كل الأمم. وبهذا المعنى يمكننا الحديث عن التبشيرية. وهي كلمة تحمل دلالة دينية، وتعود إلى فكرة خلاص البشر والإنقاذ. ويشعر الأميركيون مستندين إلى دعائم دينية أن عليهم دائماً أن ينخرطوا في رسالة كونية "لإنقاذ" العالم من العنف والإرهاب، مقدمين أنفسهم كضمانة لحاجة أساسية هي الحرية. فالحرية التي ناضل الشعب الأميركي من أجلها تشكل جوهر الديمقراطية نفسه الذي يرفعه كنموذج كوني. يشير الى هذا المدّعى، نص التصريح التالي للسيناتور جس هلمز عام 1996: "على الولايات المتحدة الأميركية أن تقود العالم، حاملة "مشعل الأخلاق" السياسية والعسكرية في الحق والقوة، وأن تكون مثلاً لكل الشعوب". إلى هذا القول أيضاً نقرأ تصريح الرئيس جورج بوش في خطابه في 23 أيلول/سبتمبر عام 1999، في شارلستون، كارولينا الجنوبية، عندما أعلن: "أن أحد أهدافنا الكبرى يجب أن يكون نشر التأثير السلمي

(8) علاء بيومي - هل يبقى اليمين الاميركي موحّداً - مجلة "وجهات نظر" - العدد الرابع والثمانون - كانون الثاني/يناير القاهرة 2006.

الأميركي عبر العالم وعبر الزمن." هذه الدعوة التبشيرية كما لاحظنا كانت دائماً موجودة ضمنياً في السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأميركية. فالخيال الجماعي الأميركي يخفي فكرة أن أميركا قد اختارتها العناية الإلهية من اجل مصير خاص جداً. وكما يشير كونراد شيري الأستاذ الأميركي المعروف والمتخصص في المسائل الدينية في جامعة أنديانا، فإن هذا الشعور الشديد العمق يستيقظ في الولايات المتحدة مرتين في السنة. المرة الأولى عندما يجري الاحتفال بيوم الذكرى، والمرة الثانية يوم الشكر. في يوم الذكرى يكرر الشعب الأميركي من خلال الخطابات فكرة التضحية الخلاصية. فالأميركيون الذين ضحّوا بحياتهم، قاموا بذلك باسم الحرية ضد الظلم والقهر. لذا فإن هذه التضحيات بالنسبة إليهم لم تذهب سدى "إنها تفيد في تقديس المهمة الإلهية للحفاظ على الحرية. هذا الاحتفال يعيد إلى الذاكرة الاعتقاد بأن على الولايات المتحدة مهمة يجب إتمامها باسم الحرية". بل عليها ألا تتوانى عن هذا الواجب المقدّس. بينما عيد الشكر هو يوم القيام بالشكر، لإحياء ذكرى الغلة الوفيرة الأولى التي حصل عليها الطهرانيون بعد سنة واحدة من قدومهم. وفي كل الأحوال، فإنهم احتفلوا بذاك اليوم مع الهنود الذين استقبلوهم. هذان اليومان المخصّصان لإحياء الذاكرة الجماعية يظهران الدور التبشيري للولايات المتحدة. وهو الدور الذي يعود بشكل رئيس إلى المراجع التوراتية التي تشكل جزءاً مكملاً لكل خطاب تنصيب رئيس جديد أو سواها من الاحتفالات الرسمية الوطنية. يمكننا أيضاً الكلام على دور الواعظين مثل بيلي غراهام الذي كانت تُخَصَّص له غرفة في البيت الأبيض خلال حكم سبعة رؤساء. حتى لا ننسى الجملة القائلة "نؤمن بالله" المدونة على الدولار الأميركي(9).

(9) Conrad Cherry. God's New Israel. Religious Interpretations of American Destiny.The University of North Carolina Press. Chapel Hill and London, 1998.P4.

يظهر أيضاً تمجيد القيمة الكبيرة للبعد الروحي في "إعلان الاستقلال" الذي يشير إلى "قوانين الطبيعة وإله الطبيعة"، ويؤكد أن "الخالق وهب جميع الأميركيين بعض الحقوق التي لا يجوز التصرف بها"، ويتضرع إلى "الديَّان من أجل استقامة نوايا الأميركيين"، ويبجِّل الثقة المتينة بحماية العناية الإلهية. إن الفكرة التبشيرية التي تتضمنها عقيدة "المصير الظاهر" أو «القدر المتجلِّي» - وهي عقيدة سنأتي على تعريفها وتفصيلها في الفصل الثالث من هذا الكتاب - حاضرة بشكل قوي في قلب المؤسسات الأميركية نفسها. إن هذه "الديانة" التي تجمع بين الزمني والروحاني عبر التجربة الأميركية، تمتد أيضا إلى ما بعد الحدود، أي إلى الساحة الدولية. ولمقاربة أصل هذا الموقف تجاه الأمم الأخرى، يفسِّر كونراد شيري في كتابه "إله إسرائيل الجديدة" أن الشعب الأميركي بتماهيه مع شعب الله المختار قد التزم بتاريخه. وهكذا تصبح الثورة الأميركية شبيهة بالتحرر من المساوئ التي فرضتها أوروبا المتهورة. والحرب الأهلية، قد تتطابق مع امتحان وضعه الله ليختبر قوة وثبات "الاتحاد"، ضمن هذا السياق - كما يلاحظ شيري- يصبح الرئيس جورج واشنطن شأن النبي موسى مخلص الشعب، المعين لقيادة هذا الشعب نحو أرض الميعاد. بينما يمثل لينكولن صورة المسيح في الذاكرة الجماعية، "الذي نذر نفسه بصورة مأساوية من أجل مصير أمة موحدة والذي شمل موته كل التضحيات التي كانت فداء لهذا المصير القومي". يضيف كونراد "إن هذا التماهي بالشعب المختار، الذي يستند إلى الأحداث التوراتية كنماذج مثالية، تقاسمته كل الجماعات الدينية. وإن الفوارق انصهرت في ما يبدو في نوع من ديانة قومية حيث المراجع الدينية المنبثقة من التقليد التوراتي تعترف بها بشكل كامل كل الطوائف. لقد استطاع شيري بجمعه بين السياسي والديني على هذا النحو أن يتحدث عن ديانة مدنية ولكنه يؤكد أن لهذا النوع من التيوقراطية حدوداً ونقاط ضعف أهمها: أن الديانة المدنية، التي تصبح جزءاً مكملاً للثقافة، كأية ديانة

أخرى يخشى دائماً" أن تؤدي إلى تقديس فضائل المجتمع وتجاهل مساوئه.. والواضح أن وضع أميركا الحالي كقوة عظمى عالمية، يضاعف من هذا الخطر[10].

إلى ذلك، يحدد المؤرخ كلينتون روسيتر (1870-1917) الدور التبشيري للولايات المتحدة فيقول: "إن المهمة الأميركية يمكنها بالطبع أن تتوافق مع موقف سليم أكثر فيما يتعلق بالتعاون الدولي". ويضيف: يجب التحرر من "هذه الأوهام التبشيرية" التي دفعت العالم إلى الاعتقاد بأن الأميركيين هم المخلّصون. إن "التعاون الدولي يستدعي نوعاً من الانفتاح على الخيارات والتسويات. فالأزمات التي نجمت عن السياسة الخارجية كدّرت سماء أميركا التي آمنت طويلاً بالطابع الاستثنائي لمصيرها". وفي الحقيقة لا يمكن أن تقوم قوة أمة ما على الإيمان الديني بالرغم مما كان يؤكد ذلك أرزاستيلز، رئيس جامعة يال عام 1783 في قوله: "سنصبح أمة، وأمة كبيرة جداً عندما يرفع الرب إسرائيل الأميركية أعلى بكثير من أمم الأخرى في العدد والمجد والشهرة". كذلك الأمر لا يمكن قيامة أي أمة أن تستند إلى طروحات القسيس ليمان بيتشر في القرن التاسع عشر حين ذهب إلى "أن أميركا هي العناية الالهية التي قُدِّر لها أن تفتح طريق الانعتاق الأخلاقي والسياسي للعالم"، مضيفاً أن "الألفية" ستبدأ "في أميركا حيث أن تقدم الحريات المدنية سيهيء "طريق الرب"[11].

وعلى أية حال، فلئن كانت التبشيرية هي إحدى أبرز مكوّنات التاريخ الأميركي، فهي تبقى فرعاً للأصل اللاّهوتي الذي منه ستولد تلك الكثرة الهائلة من المذاهب والتيارات والفرق الدينية.

---

(10) كونراد شيري - المصدر نفسه.

(11) نيكول غيتان - نشأة النزعة القومية الأميركية ومصاردها مجلة "مدارات غربية- "العدد لسابع - صيف 2005- ترجمة جورجيت حداد.

البروتستانتية هي الأصل

لم تكن البروتستانتية الخارجة من مسكنها الإنكليزي سوى "الدين المسيحي الجديد" الذي سيؤسس للميتافيزيقا الثقافية السياسية لأميركا. ولسوف نرى أن مجمل الظواهر الدينية هي وليدة الحراك العام للتجديد البروتستانتي الذي حدث داخل الكنيسة المسيحية الكاثوليكية. وبهذا المعنى الذي نقصده يتبيَّن لنا أنّ البروتستانتية هي الأصل الذي ستتفرع منه مجمل أحياز وتلاوين الثقافة الدينية الأميركية فيما بعد.

لنرَ الآن كيف ظهرت مفارقات الإصلاح البروتستانتي، والكيفيات التي حفر فيها هذا الإصلاح مساراته في الأزمنة العالمية المتعاقبة، وبخاصة في الزمان الأميركي.

لعل السمة المميزة في عمل اللّاهوتيين والمفكرين البروتستانت، هي نزعتهم المتناقضة بين الثورية والمحافظة. ومع ذلك فقد كانوا رجال عصرهم الذي كان عصر تحوّل تاريخي على غير صعيد، وفي غير حقل. وعلى ما تجد الباحثة الأميركية كارين آرمسترونغ في كتابها "النزعات الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام"، فإن عملية التحديث غالباً ما تكون سبباً لقلق كبير. حيث يشعر الناس معها بفقدان التوجه والضياع بينما عالمهم يتغيّر. ولذا، فلا يستطيعون رؤية الاتجاه الذي يأخذه مجتمعهم، لكنهم يستشعرون تحوله البطيء في أشكال وأساليب غير متماسكة. وبينما تتداعى الميثولوجيا القديمة التي أعطت بنية ومعنى لحياته تحت تأثير التغير، فإنهم يمرون بمرحلة ضياع هوية وحذَر ويأس ما يؤدي الى الشلل. ذلك أن المشاعر الأكثر شيوعاً هي العجز، والخوف من الإبادة اللذين يتخذان في ظروف متطرفة - أشكال عنف. وتلاحظ آرمسترونغ أن بعضاً من هذه المشاعر تجدها عند مارتن لوثر (1483-1556) رائد الإصلاح البروتستانتي - حيث كان في بداية حياته فريسة لحالات إحباط مؤلمة. لم يكن باستطاعة الشعائر والممارسات الدينية القروسطية مثلاً، ان

تلامس ما اسماه "الحزن" الذي جعله يشعر بالرعب من الموت. فقد كان يتخيله كانقراض كلي، وعندما كان يتملكه هذا الرعب القاتم، لم يكن باستطاعته تحمل قراءة المزمور التسعين الذي يصف تلاشي الحياة البشرية، ويصور الناس وقد حل عليهم غضب الله وعنفه. لقد رأى لوثر - طوال حياته - الموت كتعبير عن غضب الله. وهذا عائد إلى أن لاهوت التعبير من خلال الدين يرى أن الكائنات البشرية غير قادرة أبداً على أن تساهم في خلاصها، بل هي تعتمد كلياً على رحمة الله. فعن طريق إدراك عجزهم يصبح بالإمكان إنقاذ البشر. وهكذا، فلكي يهرب من احباطاته انغمس لوثر ـ حسب تحليل آرمسترونغ ـ في نشاط محموم. مصمِّماً على فعل أي خير كان يستطيعه في هذا العالم. لكن موجة من الحقد كانت تجتاحه أيضاً. كان ساخطاً على البابا، والأتراك، واليهود، والنساء، وكذلك على الفلاحين المتمردين. وهذا السخط نموذجي، وينطبق على مصلحين آخرين في أيامنا هذه. تخصيصاً على هؤلاء الذين صارعوا ألم العالم الجديد، والذين طوَّروا ديناً حب الله فيه متوازن مع حقد عارم على كائنات بشرية أخرى[12].

ولو كان لنا متابعة سيريِّة نشوء وتبلور الثقافة الدينية في أميركا، لوجدنا كيف سيحضر الاحتجاج على سلطان الكنيسة الكاثوليكية الرسمية كظاهرة سلبية في التاريخ الأميركي.

هناك مصلحان بروتستانتيان آخران هما جون كالڤن (1509-1564) وهولدريش زفينغلي (1484-1531) سوف يجدان ضالّتهما في العودة إلى السلف، أي إلى ينابيع التراث المسيحي، ليكتشفا هويتهما الذاتية. لقد مرّ زفينغلي شأن لوثر بتجربة وجودية وضعتهما في حقل من الشك والعجز عن رؤية الحقيقة الدينية. جرى ذلك من قبل أن يتمكنا من شق السبيل نحو رؤية دينية

(12) كارين آرمسترونغ - النزعات الاصولية - في اليهودية والمسيحية والاسلام - ترجمة محمد الجورا - دار الكلمة - دمشق 2005 - ص 81.

جديدة جعلتهما يشعران أنهما وُلِدا من جديد. كانا مقتنعين أن ليس بوسعهما القيام بأي شيء يساعدهما في خلاصهما، وأنهما كانا عاجزين أمام أسئلة الوجود البشري. وكان عليهما إعادة خلق عالمهما الديني باللجوء أحياناً إلى إجراءات متطرفة، وحتى إلى العنف، كي يجعلا دينهما يحاكي ظروف العالم الجديدة، وهو عالم كان ملتزماً بشكل اقتحامي، ولا رجعة عنه، باتجاه تحول جذري[13].

ظهرت حركة الإصلاح البروتستانتي إذاً، كعملية احتجاج على السلطة الدينية للكنيسة الكاثوليكية. وأظهرت أعمال المصلحين الفكرية واللّاهوتية العناصر الاجمالية لثقافة الاحتجاج هذه. فلقد عكسوا في الواقع التحولات التاريخية الجارية، مثلما فعل كثيرون من رجالات عصرهم ممن ينتمون إلى تيارات فكرية وفلسفية ولاهوتية سعت إلى نقد ثقافة العصر الغربي الوسيط. ففي تركهم الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، قام المصلحون البروتستانت بإعلان واحد من أبكر إعلانات الاستقلال التي ستشكل علامة بارزة في التاريخ الغربي من تلك الحقبة. فالروح العامة الجديدة كانت تتطلب الاستقلال الذاتي والحرية التامة. حيث يجب أن يكون الناس أحراراً في قراءة كتبهم المقدسة، وتفسيرها من دون سيطرة عقابية من جانب الكنيسة. لقد انتقد لوثر كتب "الهرطقة" وقال بوجوب حرقها، وكان زفنغلي وكالڤن على استعداد لقتل المنشقين. لكن الوجه الأكثر دلالة هنا، هو ذاك الذي يكمن في التذكير بأنه في هذا العصر العقلاني بالذات بدأ الفهم الرمزي القديم للدين يشقُّ سبيله إلى الانهيار. وهذا ما أوضحه هؤلاء المصلحون الثلاثة. أولئك الذين كان الرمز عندهم يرتبط بحقيقة الإلهي. وكان الرمز والمقدس متلازمين لا ينفصمان. وفي الحقبة القروسطية خَبِرَ المسيحيون المقدس في بقايا رفات القديسين، ورأوا أن خبز القربان المقدس، والخمر، مماثلان للمسيح بطريقة صوفية. و بعد ذلك سوف يعلن

(13) كارين آرمسترونغ - المصدر نفسه ص 82.

المصلحون ان بقايا القديسين كانت أصناماً، وان القربان المقدس هو رمز فحسب، وان القداس لم يعد إعادة تمثيل للتضحية بيسوع. لقد بدأ المصلحون بالحديث عن أساطير الدين، وكأنها مجردإعادة شعارات، وأظهرت الحماسة التي كانت تعم أتباع المصلحين أن كثيرين من مسيحيي أوروبا قد بدأوا يفقدون أيضاً انحيازهم الأسطوري[14].

هيرمينوطيقا الإصلاح

جاءت ولادة حركة الـتأويل في الإصلاح الديني البروتستانتي كتمثيل نموذجي للثورة الهيرمنيوطيقية التي ستعمّ اللاَّهوت المسيحي بأبعاده وتياراته المختلفة. أدت هذه الحركة في ألمانيا إلى تحريك ثورة التأويل الكبرى على نحو غير مسبوق في تاريخ الكنيسة. ولا مناص من التذكير في هذا الحيِّز، أن البعد التاريخي للثورة التأويلية يعود إلى الصراع الديني الذي شهدته المجتمعات الأوروبية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادي. فقد مرّت أوروبا بأوقات عصيبة جداً شهدت فيها اضطرابات شديدة، و كان موضوع الخلاص في الحياة الآخرة يشغل بال الأوروبيين. ثم بدأت إرهاصات الاحتجاج على الكنيسة الرسمية تظهر من دائرة التأويل العقائدي. ففي تعاليم العقيدة الكاثوليكية كما هو معروف، أن الإنسان يمكنه أن ينال الخلاص من خلال الإيمان بالله، والقيام بالأعمال الصالحة، وعيش حياة مستقيمة فاضلة، والاحتفاء بالأسرار الإلهية. غير أن من أبرزالدواعي التي أدت إلى حركة الاحتجاج على السلطة الكنسية، قيام رجال الدين في الكنيسة الكاثوليكية ببيع صكوك الغفران للمؤمنين الذين كانوا يخشون العقوبة الأخروية، حيث في شراء صك الغفران وعدٌ بتقصير

(14) كارين آرمسترونغ - المصدر نفسه ص (82).

مدة العقوبة من خلال الاستفادة مما زعموا أنه "خزينة الحسنات" التي تكدّسها" أعمال المسيح والقديسين الصالحة. ومن خلال تركيزها على الطقوس، وحثِّ المؤمنين على القيام بالأعمال الصالحة، وبيعها لصكوك الغفران، اكتسبت الكنيسة الكاثوليكية في القرون الوسطى سلطة وازنة على المجتمع استغلها المسؤولون الكنسيون وأساءوا استخدامها، مما أدى إلى تبلور نزعة تحريرية ظهرت على شكل احتجاجات سوف تنتهي إلى نشوء الحركة الإصلاحية. و كان القس الألماني مارتن لوثر (1483-1546) والفرنسي جون كالڤن (1509- 1564) وهو محام تحوّل فيما بعد إلى عالم لاهوتي، هما أول من وضعا إطار الأفكار والتوجُّهات الإصلاحية اللّاهوتية في ذلك الوقت.

ويمكن تكثيف هذه التوجهات والأفكار التي تشكل عمارة الهرمينوطيقا الإصلاحية على الوجه التالي:

مؤدى أفكار مارتن لوثر:

- الله معبود محب، أو بعبارة أكثر شيوعياً "الله محبة" يبسط رحمته لتشمل البشر الخاطئين.

- الخلاص يكون بفعل الإيمان فقط، والإيمان "منحة إلهية مجانية" للمخطئين.

- القدرة على الحياة، حياةً مستقيمة، لا يمكن أن تكون سبباً للخلاص، بل هي من نتائجه، فحين يؤمن الرجل أو المرأة بعقيدة الخلاص، يصبح السلوك الأخلاقي ممكناً. وهي الفكرة المعروفة ب: "التبرئة الإلهية من خلال الإيمان وحده" - يؤكد لوثر على أن الكنيسة ورجال الدين ليسوا منزّهين أو معصومين عن الخطأ، وأن النصوص المقدسة هي وحدها التي لا يمكن أن يداخلها خطأ .

- تقول الكنيسة الكاثوليكية إن"... الخلاص لا يأتي عن طريق الكنيسة ورجالها، وهؤلاء هم عبارة عن مجموعة ذات امتيازات خاصة، و لديهم مكانة

خاصة عند الله، أو مدخلاً خاصاً عليه، في حين أن لوثر يعتقد بأن كل إنسان لديه السلطة التي يدّعيها الكهنة لأنفسهم. وعرفت هذه الفكرة فيما بعد بـ"كهانة كل المؤمنين"[15].

أما مؤدى أفكار جون كالڤن على الوجه التالي:

الله هو السيّد الملهم، العليم بكل شيء، والقوة المسيطرة في تاريخ البشرية التي ستنتصر على الشيطان في النهاية. وكان كالڤن يؤمن أنه من أجل تحقيق هذا النصر، اختار الله أشخاصاً معينين ليكونوا وكلاء له ويرشدوا الناس إلى مملكته السماوية. وهؤلاء الأشخاص- القديسون أو المختارون أو المصطفون- كتب الله لهم الخلاص الأبدي في الجنة. - يمكن للإنسان أن يعرف ما إذا كان هو نفسه من بين هؤلاء المصطفين أم لا من خلال مجاهدة نفسه والتصرُّف كقديس. وكان كالڤن يرى بأن الله ينتظر ممن اصطفاهم أن يخدموا صالح المجتمع، من خلال العمل الذي لا يفتر في صنعة، أو حرفة، أو مهنة ما في العالم. وبالتالي فإنه على عكس تركيز الكنيسة الكاثوليكية على الأعمال الصالحة، ركَّز كالڤن على فضيلة العمل نفسه، وكان يرى أن النجاح في تحقيق الانضباط الذاتي، وضبط أو تمالك النفس، وإحلال النظام في حياة الفرد والمجتمع بأسره، هي مؤشرات على أن الإنسان يمكن أن يكون فعلاً من بين المصطفين. - وعلى عكس لوثر الذي كان يرى أن على المسيحيين أن يقبلوا النظام الإجتماعي الذي كان سائداً، دعا كالڤن المسيحيين لأن يكونوا ناشطين، ويعيدوا تشكيل المجتمع والحكومة تطبيقاً للقوانين الإلهية كما سُنّت في الكتاب المقدّس. ثم إنه لم يكتف باجتهاداته النظرية، فقد حوّل كالڤن مدينة جنيف السويسرية إلى كومنولث مقدّس، حيث كان المصطفون يقنّنون سلوك وأخلاقيات الجميع، وأصبحت جنيف فيما بعد مركزاً للإصلاحيين الذين كانوا

---

(15) محمد عارف زكاء الله - الدين والسياسة في أميركا - مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت - 2007 ص 26.

يتقاطرون إليها من مختلف أنحاء العالم. وكان جون كالڤن يودّ لو تصبح هذه المدينة نموذجاً يطبق في أوروبا كلها. وهو على عكس لوثر الذي كان يكتب بشكل أساسي للألمان، كان كتاب كالڤن **"مبادىء الديانة المسيحية"** موجّهاً إلى كل المسيحيين في العالم(16).

الهرمينوطيقا البروتستانتية والحداثة

بقدر ما شكل الإصلاح البروتستانتي عبر لوثر وكالڤن، حالة تماهٍ مع الحداثة، فقد أطلق في الوقت عينه أزمنة من النزاعات المتمادية مع الكنيسة الكاثوليكية. لقد كانت هرمينوطيقا الكتاب المقدس محور هذه النزاعات، وإحدى أبرز تجلياتها. ولأن العملية التأويلية للنصوص الإنجيلية لم تكن لتأخذ مداها إلا في إطار التفاعل مع الواقع التاريخي لغرب الحداثة، فقد جاءت حصائِدُها متأثرة على نحو بيّنٍ بالعوامل السياسية، والثقافية، والايديولوجية، والاقتصادية، الناجمة عن الصراعات التي شهدتها المجتمعات الغربية الداخلة للتو في فضاء التحديث. ربما لهذا سيجد الدارسون لحقبة صعود الحركة البروتستانتية في التقدم التقني، وبالتحديد في اختراع المطبعة مساهمة جدية، ولو جزئية، في إنجاح مشروع مارتن لوثر الهرمينوطيقي. فلقد بدا بوضوح لهؤلاء أن التحولات في الهرمينوطيقا الدينية ترافقت مع التطورات في التكنولوجيا، ذلك لكون الأخيرة تُغيّر بفعالية العالم الذي تعيش فيه، والطرق التي يُدرك بها. إذ مع الطباعة تحقَّقَ توسيع مجال اليد البشرية، وتم الدخول في العالم الحديث. وبفضلها أصبح باستطاعة لوثر ولأول مرة، كمحاضر جامعي، أن يعتمد على وضع نُسَخٍ موحدة، ومتوفرة للإنجيل أمام تلاميذه. لم

---

(16) المصدر نفسه ص 27.

تعد الكتب عرضة للتباين بفعل الأخطاء الناجمة عن نسخ المخطوطات، إذ مهما كانت درجة الحذر، فالكل يعلم كم هو سهل حصول الأخطاء في نسخ نص من النصوص مكتوبٍ باليد. مع الطباعة كذلك، لم يعد هذا الأمر من الحالات الممكنة، حيث غدا كل نصّ في الإنجيل مطابقاً لنصوص النسخ الأخرى. وإلى هذا، فقد أصبحت الكتب متوفرة بنحو واسع ومتزايد، ولم تعد مقتصرة على نُسَخٍ فردية وقيّمة محتجزة في الكنائس أو في المكتبات. أما النتيجة من كل ذلك، فهي انتشار التعلّم، حتى بين الناس ذوي الوسائل المتواضعة والمعرفة المحدودة، وهكذا بدأ تعلّم الإنجيل باللغات الأم كالإنكليزية، والألمانية، والفرنسية، وغيرها. وحسب التأويلية اللوثرية فقد أصبح الإنجيل بعد الثورة التكنولوجية ملك كل إنسان، حتى في وظيفته العامة. لقد صار بإمكانه الابتعاد عن تعقيدات الدراسة، وتقييدات الكهنوت. ومع ذلك يبقى الاستعجال في إصدار حكم ما أمراً غير جائز. فلوثر كان عالماً قروسطياً بذات القدر الذي كان فيه مصلحاً. بل أكثر من ذلك فثمة من وجد لوثر لاهوتياً قروسطياً بامتياز، حين رفض تدريجياً القراءات الرمزية، والتشبيهية، معلناً أنها "ليست سوى قُمامة". علماً أنه لم تكن أي من أغراض لوثر تشبه أغراض توما الأكويني، ذلك أن اهتمامات رائد الإصلاح الحديث في المسيحية كانت منصبّة على إطلاق الحرية للإنجيل في التفاعل مع تجربة القارىء الذاتية، لا على تثبيت وترسيخ لاهوت الكنيسة كما فعل توما[17].

وبحسب لسفة التأويل عند لوثر، أن القارىء يواجه النص لوحده من دون تدخّل الكنيسة أو لاهوتها. كما يسعى لتجنب تعدد المعاني في النص. وفي محاضراته في جامعة وتنبرغ (1514-1513) أصرّ لوثر على أن يكون لكلّ تلميذ

(17) ديفيد جاسبر - مقدمة في الهرمينوطيقا- ترجمة وجيه قانصو - الدار العربية للعلوم ومنشورات الاختلاف -بيروت 2007 - ص (86-87).

نسخة عن الإنجيل كمرجع خاص به. وكانت نصيحته لتلاميذه هي التالية: "التجربة ضرورية لفهم الكلمة، التي لا تتحصل بمجرد تكرارها أو معرفتها، بل بأن تعاش أو تُحسّ. وإذاً، فالكلمة المفتاح -عند لوثر كما يبيّن مؤّولوه- هي التجربة، لا معرفة اللّاهوت أو تعاليم الكنيسة. ولذا فهو لم يقرأ الإنجيل كوقائع تاريخية، وإنما كانت قراءته كريستولوجية وذاتية. أي تلك القراءة التي تنتمي إلى ذلك النوع من اللّاهوت الذي يختص بيسوع المسيح من حيث هو إله وإنسان. ولذا فقد نحا لوثر نحواً استقرائياً يتغيّا من ورائه فهم ماهية الله بالنسبة للإنسان. علماً أن قراءة الإنجيل كوقائع تاريخية، كانت من الاهتمامات اللاحقة على زمانه، وبالتالي لم تتحول هرمينوطيقا الإنجيل إلى حالة أساسية وذات وزن، إلا في القرن الثامن عشر. وبتعبير أبسط يمكن القول إن القراءة اللوثرية للنص المقدس قامت على قاعدة هرمينوطيقية مؤداها أن كلمات الإنجيل هي كناية عن خطاب المسيح الموجّه إلى القارىء نفسه. إلاّ أن لوثر، على الرغم من شغفه البيِّن بالهرمينوطيقا، فقد آثر التنبيه إلى وجوب التهيُّؤ والاستعداد قبل أي قراءة تأويلية للإنجيل المقدس. وهكذا راح يدعو قارىء النص إلى التزوّد بفهم تاريخي واضح عن أصول النص ومؤلفه، مثلما يدعو المفسرين إلى الاعتراف بمحدودية فهمهم للنص، واحتمال أن يسيئوا هذا الفهم. ويبدو واضحاً من التأسيسات الأولى لتأويلية لوثر أن ما عرضه من مبادىء وقواعد وآليات لا يرمي إلى بلوغ نتائج حاسمة ويقينية، بل إلى تقديم مفاتيح معرفية لإدراك مقاصد الإنجيل المقدس. وهو في ذلك يخالف ما درج عليه أتباعه من بعده، لا سيما التيار اللوثري المتأخر الذي أخذ يميل باتجاه الأصولية الإنجيلية والإيمان المطلق بإلهامات النص الحرفي. ربما يعود سبب ذلك، لا إلى انشقاق أو انحراف عن تعاليم وآراء المؤسس،بقدر ما يعود إلى أن هذه التعاليم والآراء قد خضعت هي نفسها لعملية تأويلية ذات أبعاد وقراءات متعددة. ومما يضاعف من هذا الاحتمال أن حقبة لوثر شهدت من جانب آخر دعوة إلى وجوب تثبيت مبدأ "حصرية النص المقدّس" بقوة. والداعي إلى ذلك الحجة القائلة بعدم

الحاجة إلى أية مرجعية أخرى. حيث أن النص المقدّس يفسر نفسه بنفسه، والنص يفسر النص، وهو مرجع ومصدر كل التفاسير[18].

وللتدليل على دعوة لوثر هذه يذكر الباحثون ما جاء على لسانه من أن "حجر الرحى الحقيقي في الحكم على جميع الكتب، هو ما إذا كان يُطلب فيه المسيح أم لا". مثلما فعلت النصوص الدينية في إظهار وتعريف المسيح[19].

بعد لوثر سوف تبدأ مرحلة تالية من حركة الإصلاح البروتستانتي مع جون كالڤن. سوى أن ما يتبدى من القراءة التاريخية لهذا الأخير، أنه لم يفارق لوثر في جوهر التعامل مع النص المقدس. بل عمد إلى استئناف الهرمينوطيقا الدينية تبعاً لمعطيات وشروط تطورات الحداثة..

يُعتبر جون كالڤن شخصية الإصلاح الثانية بعد لوثر. ولكونه متمرساً كمحام، فقد كان ذهنه أكثر تنظيماً من لوثر كما يزعم البعض. ومع قطع النظر عن مزايا تيَّاره الأصولي الذي عُرف فيما بعد بالكالفينية، فقد كان كالڤن أكثر تكيُّفاً مع التعاليم الإنسانوية كالتي وجدناها عند إيراسموس. كانت قراءة كالڤن للإنجيل تقوم على أرضية الإنعكاس العقلاني والفهم الذاتي، والحس المشترك، وقد أكد ذلك بقوله: "بدون معرفة أنفسنا، فإن معرفة الله لن يكون لها مكان". ورغم أن فردانية القارئ عند كالڤن هي أقل مما كانت عند لوثر، إلا أن القارئ عند كالڤن، وفي خلال تفسيره للإنجيل، يجلب إلى النص خياله الخلاّق ولكن داخل سياق المجتمع. وفي حين كان لوثر يبدأ بتفسيرات كريستولوجية للإنجيل، كان كالڤن، بذهنه القانوني، يعتمد على التفسير الذي توفّره "شهادة الروح القدس الباطنة". وحين كان لوثر يعطي الحق للجميع في فهم الإنجيل، كان كالڤن يصر على أن الإيمان وفهم كلمات الإنجيل لا يُمنحا لأيٍ كان. وهكذا فقد تيسَّرت لكالڤن أيضاً دائرته الهرمينوطيقية المغلقة. وهي

(18) جاسبر- المصدر نفسه ص (89).

(19) المصدر نفسه، ص90.

الدائرة التأويلية التي اختزلها ناقد حديث هو كريستوفر إلوود، بالتساؤل التالي: "كيف نعلم أن الله يتكلم في النص المقدس؟ ثم يجيب: نعلم ذلك لأننا نختبر كلام الله في النص المقدس. بمعنى أننا نتأكد أن النص هو كلمة الله عندما يشهد لنا روح الله أن هذا هو كلام الله. (. . .) ويبدو كالڤن - بحسب هذا التوصيف- كما لو أنه يقع في جدل دائري غير مقصود. إذ أن محاولة تأسيس سلطة الإنجيل عبر مراكمة، أو حشد البراهين، واللجوء إلى معايير من خارج كلمة الله، يعني أننا نخلق سلطة أخرى، أعلى من النص المقدس. سلطة نعتمد عليها لنثق بأن ما نسمعه في أثناء قراءتنا للإنجيل هو من الله. ولكن بالنسبة لكالڤن فإن النص المقدس لا يحتاج إلى أي برهان خارجي . ولقد كان له السّبق في طرح قضية هرمينوطيقية كبيرة. وهي أنه وضع الإنجيل في سياق تاريخي. إذ سيكون على القارئ أن يستكشف ليس ليس ما في ذهنه فحسب، ولكن أيضاً ما يوجد داخل ذهن وعقل مؤلف الإنجيل[20]. بمعنى أن يستكشف القارئ ظروف كتابة النص التي سبقت تشكُّل اللّاهوت وسلطة الكنيسة.

لاهوت "القضاء والقدر"

لم تبقَ أفكار جون كالڤن محصورة في قلاع مغلقة. بل هي ستجد لها من علماء الاجتماع من يتولى تسييلها في مجال التفاعل السياسي والاقتصادي. ولعل أبرز من سيتولى هذه المهمة هو عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر (1864- 1920) . الذي يُنظر إليه كأحد أبرز وارثي الهرمينوطيقا الكالفينية. لكن أهمية الأفكار التي وضعها فيبر تعود إلى أنه مضى بعيداً في تأويل مذهب كالڤن، ليبيّن أن الأخلاق البروتستانتية المرتكزة على لاهوت القضاء والقدر، سيكون لها الأثر الكبير في ولادة الرأسمالية. لا سيما لجهة ما ينطوي عليه

(20) جاسبر، المصدر نفسه، ص93.

مخزونها العَقَدي والإيماني من قدرة على تربية كائن بشري من نوعية خاصة، صفاته الزهد، والتوفير، والاستثمار. وعند هذه النقطة المفصلية بالذات يشير الفيلسوف الفرنسي ريمون آرون، فيما كان يدرس أفكار ثلاثة من علماء الاجتماع الذين ظهروا في نهاية القرن التاسع دوركهايم وباريتو وماكس فيبر) إلى أن الأفكار التي قدّمها هؤلاء، تنطوي على آراء حول العلاقات بين العلم والدين، وبين الفكر العقلاني والشعور، وفي الوقت نفسه، تبعاً لما يقتضيه الفكر العلمي، ولما تقتضيه الناحية الاجتماعية من ثبات ووفاق.

وإذا كان علم اجتماع الدين قد نما بصورة لافتة في خضم الاحتدام بين قوانين الكنيسة والثورة الصناعية في تطوراتها المتعاقبة، فذلك يعود إلى الشعور الحقيقي بحضورية الدين في السياق التاريخي للنمو الرأسمالي. ربما كان من أهم العلامات الفارقة في مشاغل علماء اجتماع الدين، أن ماكس فيبر قدّم الإسهام الكبير في دراسة الدين واللاّهوت من وجهة نظر علم الاجتماع. فالمسألة التي احتلت المكانة المركزية في اهتماماته، وفي جميع مؤلفاته، هي مسألة القيادة السياسية للبورجوازية الألمانية. ففي نهاية القرن التاسع عشر، كانت ألمانيا قد أنجزت ثورتها البورجوازية، ولكن هذه الثورة كانت ذات مميزات نوعية خاصة. فمن جهة، جاءت هذه الثورة متأخرة جدّاً عن البورجوازيات الأخرى، الهولندية، والإنكليزية، والفرنسية. ومن جهة أخرى، لم تكن البورجوازية الألمانية تضطلع بدور قيادي من الناحية السياسية. وعليه، فإن المهمة التي كانت تطرح نفسها، تكمن في الوصول إلى قيام البورجوازية بالاضطلاع بدور حقيقي في قيادة ألمانيا من الناحية السياسية. علماً أن هذه الطبقة الاجتماعية كانت تعاني من عجز فاضح عن قيادة العملية المشار إليها بشكل يتوافق مع مقتضيات قدراتها كقوة كبرى. وهذا يعود وفقاً لبعض الدراسات المعاصرة، إلى الأسباب التالية:

أولا: "افتقار ماضيها إلى التجربة السياسية". فبالاستناد إلى هيغل، على

الأقل، كان المنظّرون ذوو البصيرة الأكثر نفاذاً في رؤية التحولات الألمانية قد أدانوا عجز البورجوازية عن إنجاز ثورتها بما هي، في الوقت ذاته، ثورة تحتاج إليها ألمانيا من حيث هي أمة..

ثانياً: هذا النقص في التجربة السياسية [لمدة قرن كامل، جعل ماكس فيبر يعتقد بأن الثورة البورجوازية في ألمانيا كان يجب أن تتم في القرن الثامن عشر، أسوة بفرنسا، علماً بأن هذه الثورة قد تمت في البلاد المنخفضة، وإنكلترا في نهاية القرن السابع عشر] لم يكن من الممكن اجتنابه عن طريق "عملية تثقيف سياسي" خلال عقد واحد. لأن المطلوب كان عملاً من النوع الشاق والشديد الإلحاح..

ثالثاً: وصلت قيادة الثورة البورجوازية، في نهاية المطاف إلى يد "رجل عظيم" هو بسمارك، "الأمر الذي لا يشكل، على الدوام، أفضل الوسائل لتحقيق التثقيف السياسي"، وهذا ما يسميه ماكس فيبر ب"الإرث البسماركي"، أي الثورة التي ينبغي أن تُستكمل عبر إمساك دفتها من جانب البورجوازية. غير أن ألمانيا لم تتخلّص من تأخرها السياسي إلاّ بعد هذا الحدث..

رابعاً: يكمن مشروع ماكس فيبر بشكل أساسي في تثقيف البورجوازية الألمانية سياسياً لكي تتمكن من الاضطلاع بمهمتها القيادية، ولكي تتمتع بالقدرة على طرح مصالح الأمة الدائمة في امتلاك القوة الاقتصادية والسياسية قبل أي اعتبار آخر[21].

نستطيع ملاحظة آثار المرحلة الأولى من مشروع ماكس فيبر في مجمل دراساته في مجال علم الاجتماع الديني. فالواقع أن فيبر يرجع بشكل دائم إلى لوثر وإلى التقَوِيَّة الألمانية، ويؤكد على تفضيلها للناحية الشعورية في التقوى، وعلى إعراضها عن توخي التماسك في عملية العقلنة، وهي الأمور التي

---

(21) روباين دري، لاهوت الهيمنة، الجذر الديني، الفلسفي لليبرالية الجديدة، مجلة "مدارات غربية"، العدد الثالث أيلول/سبتمبر-تشرين أول/اكتوبر 2003. ترجمة جاد مقدسي.

انعكست برأيه على البورجوازية، وجعلتها عاجزة عن المضي قُدُماً بمشروعها إلى مآلاته النهائية. ومن هنا جاء، بنظره، ضعف تلك البورجوازية التي انتظرت أن يأتي آخرون للقيام بثورتها بدلاً منها. ومن خلال دراسته للرأسمالية، يكتشف ماكس فيبر أن المسيحية تشكل واحداً من العوامل المكوّنة الأساسية فيها. وهي بلغة المقولات الفيبرية تشكّل واحدة من متغيراتها الأساسية. والحقيقة أن جميع كتابات فيبر العديدة والعميقة والواسعة حول الدين، بوجه عام، والمسيحية بوجه خاص، إنما كانت محاولات لتقعيد الرأسمالية على أسس علمية وكاملة إلى أقصى حد ممكن. ففي كتابه "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية" يسعى فيبر لإثبات أخلاق خاصة بالبروتستانتية الزهدية. فقد كان ذلك، عنده، ضرورياً لأجل تأمين قدرة الرأسمالية الغربية على النمو. أما في كتابه "الخلق الاقتصادي في الأديان العالمية"، فإنه يبحث عن الكيفيات التي شكلت من خلالها أديان عالمية، كالكونفوشيوسية، والطاوية، والهندوسية، والبوذية حواجز أمام ظهور رأسمالية عقلانية شبيهة برأسمالية الغرب، وكيف أن اليهودية القديمة كانت، على العكس من ذلك، نقطة انطلاق عملية العقلنة التي ستبلغ ذروتها في الرأسمالية الحديثة.

وعلى ما يلاحظ دارسو الأطروحات الفيبرية، فإن ولادة الرأسمالية في القرن السادس عشر، تيسَّرت فقط، بفضل تراكم مسبق اقتضى شحنة من العنف المرعب. فالكائنات البشرية التي تتحرك انطلاقاً من مصالحها يمكنها أن تقترف أعمالاً عنيفة في منتهى القسوة ضد نظرائها. والتاريخ يذكّرنا بذلك باستمرار. ولكن البشر لا يمكنهم الاعتراف أمام أنفسهم بأن ما يفعلونه غير إنساني، وغير عادل، ويشكل انتهاكاً للحقوق الأساسية للأشخاص الآخرين، بل إنهم يحتاجون إلى تسويغ ذلك، وإضفاء الشرعية عليه أمام أنفسهم أيضاً. ويشير هؤلاء إلى أن هذه المسألة هي نقطة مركزية للحكم على المسلكيات الإجتماعية. ولكن أحداً لا يأخذها في الاعتبار بما فيه الكفاية. إذ إن مقاربة هذا الموضوع تتم عادة تحت عناوين الايديولوجيا أو "الشرعنة" كمفهومين

لتسويغ تلك المسلكيات أمام الآخرين. وهذا يشكل جانباً مهماً وأساسياً بلا أدنى شك، إلاّ أنَّه ليس الجانب الوحيد الذي ينبغي علينا أن نأخذه في الحسبان، ذلك أن التسويغ أمام الذات يشكّل جانباً مساوياً للآخرين في الأهمية إذا لم نقل أكثر. وهكذا فإن أحداً لا يمكنه أن يتحمّل لفترة طويلة ارتكاب أفعال إجرامية، كالمجازر الجماعية، إذا لم يكن يمتلك مسوغات، وقناعات قوية وعميقة. بهذا المعنى، يُعزى تشكُّل أطروحة ماكس فيبر حول ضرورة تكوُّن روح للرأسمالية، إلى الأخلاق الكالفينية الزهدية، وهو ما يُعبّر عن حقيقة عميقة يعكسها الكثيرون بالإشارة إلى أن العنف الذي اقتضاه تراكم الرساميل، والذي كان شرطاً مسبقاً لولادة الرأسمالية، ما كان من الممكن له أن يُمارس، إلاّ من قبل أشخاص تسكنهم قناعة عميقة بأن ما يقومون به هو واحدٌ من المهام الأكثر أهمية وتعالياً في التاريخ. ولهذا السبب كان الدين حاضراً للوفاء بالمطلوب. بل أكثر من ذلك فقد كان حاضراً ليقول للرأسمالي بأنه "مقدَّر لك" أو بأنك مرصود لاستكمال عملية الخلق التي تركها الخالق من دون أن ينجزها بشكل كامل. وعلى ذلك أصبح التوسع في بناء المصانع، والتوفير، والاستثمار العقلاني والمنهجي، وكذلك إخضاع الأشخاص الآخرين بما فيهم النساء والأطفال للعمل المنهك، إكمالاً لعملية الخلق التي بدأها الله نفسه، وتمجيداً لله، وتحقيقاً للغاية التي من أجلها خلق الله العالم والإنسان[22].

مثل هذا التوصيف لاجتهادات ماكس فيبر سوف يسوقنا إلى تعميق النظر في اللحظة المعرفية التي شهدت تحويل الميتافيزيقا البروتستانتية إلى قوة روحية في نمو الرأسمالية المؤسسة لأميركا. لعلّ ذلك أيضاً ما يستدعي إيلاء أهمية مضاعفة للتأويل الكالفيني الذي أخذ به ماكس فيبر وبنى عليه جلّ أطروحاته. فالكالفينية بسعيها إلى تسييل الحد الأقصى للكتاب المقدّس في الزمن البشري، منحت أتباعها مساحة تأويلية واسعة جدّاً ليجعلوا النص المقدس حاضراً حضوراً

(22) المصدر نفسه.

عيانياً في ولادة المشروع الرأسمالي والدولة المركزية المهيمنة. ربما لهذا سنرى كيف لعب لاهوت القضاء والقدر الكالفيني، وفقاً لمقولات فيبر، دوراً مهماً في ولادة الرأسمالية، حيث يقرر هذا اللّاهوت أن الخلاص يكون مقدَّراً للبعض والعقوبة للبعض الآخر، بفعل القضاء الإلهي الأبدي، وأن أحداً لا يمكنه تغيير هذا القضاء. ولمّا كان هذا الأمر يصعب تحمّله بالنسبة لشخص جدّي في إيمانه، وجد اللّاهوت الكالفيني سبيلاً للالتفاف على هذه الصعوبة عبر القول إن القضاء لا يمكن تغييره، ولكن الشخص يمكنه أن يرى علامات تدله على ما هو مقدر له من الخلاص أو العقاب. فإذا كان هذا الشخص يمتلك رأسمال فيوظفه بطريقة "عقلانية ومنهاجية" ثم يأتيه النجاح، فإن هذا النجاح يكون علامة دالَّة على الخلاص.

ومهما يكن من أمر فإذا كان فيبر معروفاً على الأخصّ في دراسته المشهورة حول "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية" (1905). فإن هذا العمل يقع في إطار مجموعة تحليلات مطوّرة حول الروابط بين الاقتصاد والدين. وهي تحليلات يُظهر فيبر من خلالها، أهمية ما للمعتقدات الدينية من تأثيرات اقتصادية، سواء كانت تلك المعتقدات متأتِّية من الكونفوشيوسية، أو الطاوية، أو الهندوسية، أو البوذية، أو اليهودية القديمة. أما بالنسبة إلى فيبر هنا، فلا ينحصر الأمر بأطروحته حول أن البروتستانتية، هي أساس الرأسمالية، بل بإظهار التقارب بين نوع معيّن من البروتستانتية هو الكالفينية المتزمّتة التي سادت بشكل خاص في القرنين السابع عشر والثامن عشر من جهة، وروح المبادرة من جهة أخرى. فالمتزمت - على ما يبيِّن عارفو فيبر- يقتنع بأن المرء لا يتوصل إلى الخلاص من خلال مجهودٍ إنساني، أي من خلال "الأعمال"، بل أن الله وحده يعفيه عبر مرسومه المتعذّر سبره؛ كما أنه يرفض وساطة الكهنة والكنيسة، لذلك فهو مشغول بمعرفة إذا ما أنقذ أم لا. وعندئذٍ سيبدأ بتفسير نجاحه الدنيوي، أي تطور مؤسسته بشكل خاص، على أنه مباركة إلهية، وبأن ذلك برهان قاطع على أنه ينتمي إلى فئة المختارين. إن العمل المنتظم والمنهجي

لزيادة الثروات يشكّل دعوة إلهية حسب فيبر، بحيث لا يقتصر الأمر على جمع الثروات للتمتع بها والاسترخاء في الفخامة، بل على حياة التقشف والعمل الدؤوب أيضاً. ويشرح فيبر أن هذه الحالة الفكرية شجعت على التراكم الرأسمالي، ودفعت تطوّر الإقتصاد المنهجي قدماً. في الواقع، إن المنهجية هي المعيار الذي يميز الرأسمالية الغربية من غيرها من الرأسماليات. فاعتبار العمل واجباً دينياً، وممارسة التقشّف في الحياة في المجتمع والتصرّف وفق منهج مهني، هي أمور تشكّل عناصر روح الشعب التي شجّعت إلى جانب عوامل أخرى تطوّر الرأسمالية الغربية. وهكذا فإن فيبر يظهر بحزم وزن العوامل الثقافية، والدينية بشكل خاص، في انبثاق نوع معين من السلوك الاقتصادي من دون إنكار أهمية العوامل المادّية.

اللّاهوت النقدي: "أمركة الإيمان"

كان لفلسفة الاحتجاج على الكنيسة الكاثوليكية العالمية حجَّتها القوية في تسويغ معركتها الشاقة مع الإيمان المُمَأْسس. ووجدت أن تحول الإيمان إلى أمر خاص وفردي، لا يدل على نقص أو تراجع في التديّن، بل على العكس فإنه يشير إلى ارتفاع منسوبه لأنه يمنح الأفراد حرية الاتصال المباشر، ومن دون أية واسطة بالله. وفي حين شكل هذا التحويل للإيمان من الجماعة (الكنيسة) إلى الفرد قضية مأزقية لدى اللّاهوت الكاثوليكي الرسمي،فإنه فتح أمام الفهم البروتستانتي للمسيحية أفقاً واسعاً لزرع الحيوية في الجغرافيا الدينية الأميركية. لقد اخذ تأويل ظاهرة الإيمان الخاص أو الفردي الناجم من الاعتراض على المؤسسة الدينية، بالحجة التي تقول إن انحسار الكنيسة كمؤسسة يمكن ان يكون علامة على تقوية التديّن. ومما يرد في هذا الشأن أن الكنيسة كانت وسيطاً ضرورياً بين الله والإنسان في مرحلة فقر الإنسان الروحي، وعدم الإدراك التاريخي. فقد قدمت (الكنيسة) نظاماً جامداً للسلوك، وحين ذوت رأى البعض

في تحلل قيودها اذناً بالانحراف. بينما رأى آخرون في ذلك بداية لعلاقة أكثر مباشرة وشخصية داخل طقوسية مع الله. ومن جانب آخر فقد دلّ هذا على ظهور استجابات دينية تعددية إلى درجة كبيرة من النِحَل والحلقات وجماعات المؤمنين،و كان لكل منها شكل مختلف في التعبير عن إيمانها، ناهيك عن شكل من القداسة اكثر خصوصية حتى داخل الكنيسة الكاثوليكية. وإذا كان بالنسبة إلى معظم الناس أن الكنيسة المنظمة سوف تستمر في كونها المرفأ الرئيسي، فقد بدا بالنسبة الى الكثيرين في المقابل، أن التعبير عن العلاقة بالله يتم بشكل أكثر فردية بكثير مع الاحتفاظ باحتياجاتهم الفكرية والنفسية الخاصة. ويشير بعض المؤرخين في سياق تحليلهم لمسارات المسيحية والحداثة، إلى شعبية تيار دي شاردان فوجدوا أنها كانت إحدى العلامات على كيفية شعور عصرنا بالحاجة الى الجمع بين الصوفية والعلم، وبين الإيمان القلبي والمعرفة بالعلم المادي. أما الانزياح إلى هذا القدر من مساحة الرؤية فإنه يعود إلى استنتاج إجمالي مؤداه: أن تطور ظواهر التصوف إلى أقصى درجة في أعلى المجتمعات تقنية لم يكن أمرا عارضاً، أو مجرد مصادفة. بل على العكس فلا بد - بحسب هذه النظرة - من توقع أن هذه الظواهر ستستمر في الزيادة، وهذا ما يشير إليه خضوع حياة الإنسان الدينية الجديدة للتكنولوجيا(23).

لقد ترافقت الحداثة الغربية، كما هو معروف مع تحوّل انطلق مع هيمنة العقل، وكان يرنو إلى استيعاب شامل للآمعنى. لقد كان جلياً في هذا التحول تراجع الآفاق العتيدة للايديولوجيا المميّزة للزمن ما بعد الحداثي. فالقرن الطويل"، التاسع عشر، اللّيبرالي والبورجوازي، الذي انطلق مع الثورة الفرنسية، وانختم بتراجيديا الحرب العالمية الأولى، سوف يفسح في المجال لما سُمِّيَ بـ"القرن الخاطف". أي القرن العشرين المتميّز بالشموليات

(23) زبيغنيو بريجنسكي - بين عصرين - أميركا والعصر التكنوتروني - ترجمة محجوب عمر - دار الطليعة - بيروت - الطبعة الاولى 198 ص. 105

الايديولوجية، والمتلخّص في سقوط جدار برلين سنة 1989م. لذا جرى تصوير هذا المنعرج من جانب ماكس هوركهايمر، وتيودور. و آدورنو في مستهل مؤلفهما "جدل عصر الأنوار" بإن التنوير، في معناه الفكري الموسع، وفي طبيعة تطوراته المتواصلة، يتقدّم بشكل دائم نحو تخليص الناس من مخاوفهم ليجعلهم سادة أنفسهم. غير أن الأرض المنارة -برأيهم- لم تلبث حتى تنفتح بشكل عام على فجيعتها الهائلة"[24].

لكن تطور الحداثة الغربية بحسب المفكر واللاّهوتي الإيطالي المعاصر برونو فورتي، يبدو متداخلاً. من ناحية، كانت هذه الحداثة تستلهم تطلّعات مشاريع التحرّر، التي تسعى إلى جعل الإنسان غاية تاريخه لا وسيلة له، عبر تخليص الشعوب المستغلة وتحرير الطبقات المضطهدة. وبهذا المعنى، رسمت الحداثة التنويرية تطلعات إنسانية شكّلت أهدافاً مصيرية. ومن ناحية أخرى، بدا أن الزمن الذي انطلق مع التنوير هو زمن عنف ايديولوجي، حيث انساقت الأنظمة الشمولية التاريخية في اقتراف آثامه. ففي سياق تفسير الكل وإعطائه معناه، تطلعت الايديولوجيا إلى احتواء الواقع بمجمله. ذلك إلى حد إرساء معادلة تامة بين المثالي والواقعي، ضاق فيها الفضاء لاستيعاب المخالف والمعارض. لذلك جاءت التعبيرات الايديولوجية التاريخية فظّة وعنيفة، وذلك يعود لما استلزمته من حشر للواقع ضمن قدرات الوعي المطلقة للمفهوم. فصار حلم الشّمول شمولية، وأنتج الهوس بالعقلانية الايديولوجية أزمته الذاتية. هذا الواقع سوف يصوِّره اللاَّهوتي الإنجيلي ديتريش بونهوفر، الذي قضى سنة 1945 ضحية البربرية الايديولوجية للقومية الاشتراكية، في محتشدات فلو سنبورغ بقوله: " لقد صار سيّد الآلة عبداً، وأمست الآلة عدواً للإنسان. وثارت

---

(24) برونو فوري، المسيحية المعاصرة، رؤية لاهوتية في الايمان والايديولوجيا. مجلة "مدارات غربية" بيروت، العدد الثالث، أيلول/سبتمبر - تشرين الاول/أوكتوبر 2004. ترجمة عز الدين عناية.

الخليقة ضد بارئها، كأن ما يحصل هو ردّ مميز عن الخطيئة الآدمية، فتحرّر الجماهير انتهى إلى رعب المقصلة، والقومية أدّت إلى الحرب، كما قاد مثال التحرّر المطلق الإنسان إلى الدمار الذاتي[25].

ضمن هذا المسار ظهرت أزمة العقل التنويري في أوروبا، بالتلازم مع فشل الأنظمة الشمولية الايديولوجية، مما افسح في المجال أمام ولادة ما سمّي بثقافة ما بعد الحداثة، ثمن لتدخل من فورها في ثنايا ثقافات الغرب. هذه الثقافة كانت ردّة فعل حقيقية على اليقينيات الايديولوجية، الأمر الذي هيّأ الأجواء للتخلي عن عنف الفكرة الشمولي، فإذا ما كان لكل شيء معنى داخل الايديولوجيا، فمع الفكر الكسول الما بعد حداثي لا شيء يبدو له معنى كما يقرِّر متابعو حوادث ذلك الزمن. حيث نظروا إليه على أنه زمن الغرق والسقوط. إذ استبدلت الحماسة الأيديولجيا بالوهن. في حين كشفت الأزمة الحادة عن وجه السقوط. وذلك ما أشار إليه بونهوفر ذاته، متأمّلا في دراما الوعي الأوروبي التي عاشها في شخصه. فقد توارت الثقة في الحقيقة، وعوّضتها سفسطة الدعاية. كما اختفى الإيمان بالعدالة، وصار يعلن الصدقية أيا كان. فكيفما كانت حالة زمننا ـ على ما يلاحظ بونهوفر ـ فهي تعكس زمن السقوط الحقيقي"[26].

أميركا الشمالية: اللّاهوت العملي

لئن جاء اللّاهوت النظري في أوروبا، رداً على سياقات التفتيت والانهيار، من خلال استعادة الفكر جرأته المنهجية بشأن طرح الأسئلة، فهو في الجانب الآخر من شمال العالم، أي في أميركا الشمالية، احتل اللّاهوت العملي مرتبة الصدارة. فأزمة الايديولوجيا في القارة العتيقة سوف تترافق مع انتعاشة غامضة

(25) برونو فورتي، المصدر نفسه.

(26) برونو فورتي المصدر نفسه.

للنموذج الأميركي. ذلك النموذج الذي يضيق ذرعاً بفردانية الحقوق على حساب الضعفاء، أي غير القادرين على تلبية حاجاتهم الأساسية منها والأولية. فإذا كان اللّاهوت الأسود، (Black theology) (جايمس كوين) قد دفع قدماً، وعلى ضوء رسالة العدالة والتحرر الإنجيلية، الوعي بكرامة الشعوب الملونة وقضاياها، فإن اللّاهوت النسوي لا يطالب بالتساوي الشامل والثنائي بين الرجل والمرأة فحسب، بل ينادي أيضاً بإلغاء الأحكام الجنساوية في الحياة الاجتماعية المدنية والحياة الكنسية. يرشح هذا الوعي دائماً، من تطلع نحو تحوير جذري للأسس اللّاهوتية للوجود المسيحي، انطلاقاً من صورة الله، التي لا تزال رهينة الثقافة الذكورية. فمطلب الحث للعودة إلى لغة استيعابية، توظف في الكتاب المقدس وفي اللّيتورجيا، والتي من شأنها أن تساهم في إلغاء ذلك التمييز الجنساوي، إنما هو مطلب ينطوي على إيحاء بأصالة تلك القضايا الحيوية وثرائها. كما لا ينبغي أن تخفي حدّة الأصوات ومظاهر العنف، الأسباب الإيجابية للإلهام الديني والروحي في جوانب كبرى من تلك المقاربات. فهي حاضرة، حين يتجذّر الفكر في قراءة مستجدة للذاكرة: داخل التاريخ الرسمي، المدوّن من طرف المنتصّرين. فهناك سعي لكشف الواقع المحتجب والمقموع للطرف الأنثوي. إذ الأنساق الاجتماعية الثقافية والاقتصادية، التي تطوّرت عبر الزمن في الغرب، قد رهنت المرأة داخل حالة من الخضوع والاستغلال، كما سخَّرَتْها لحاجات الذّكر ورغباته. لذلك وجدنا كيف يظهر اللّاهوت النسوي في صيغة نظرية نقدية تحررية للجموع البشرية وليس للشق الأنثوي فحسب. إنه لاهوت يسعى لإصلاح صورة الألوهية الذكورية، بغرض إعانة الذكر، على هدى المسيح، للإقرار بالمكوّنات الأنثوية في كيانه، حتى تعبر المرأة عن ذاتها كشخص، لأن الثنائي إنسانيان بحسب صورة الله المتجلية فيهما، وهو ما يجد دعماً قوياً له في سفر التكوين[27].

وإلى جانب هذه "اللّواهيت" العملية الناشئة جراء احتياجات واقعية،

(27) فورتي، المصدر نفسه.

ومعاناة ضاربة في القدم، تبرز أهمية الأعمال النقدية التي أجراها عدد من المؤمنين العاملين من أجل المساواة والسلم في أميركا. إذ تتجلّى أزمة الوعي الأميركي في الحاجة لتجديد اليقينيات البسيطة باتجاه مرجعيات قوية، لمواجهة النتائج السلبية لثورة العوائد الحادثة مع الستينيات والسبعينيات، مثل بلّية مرض فقدان المناعة الذي ساهم حقاً في تسريع هذا السياق. لذلك لا يبدو من المثير للعجب انبعاث الأصوليات، وتشيؤ الوعي الديني بفعل استخدامات الإعلام التجارية لما سمي بـ "Shopping for God in America"، وجاذبية بعض المواقع الأصولية حتى داخل الكنائس التقليدية أيضاً. وعلى الجملة، فإن هناك من يرى حاجة لتأمل لاهوتي منهجي عميق يقدر على تخطي مخلفات النفعية. ربما من هذا المحل السجالي بالتحديد، يبدو لافتاً تطور عمل صائغ مانفستو العلمنة الأميركية، هارفي كوكس. فمن مواقفه في "المجتمع العلماني" سنة 1965 إلى "الدين في المجتمع العلماني" سنة 1984، هناك تأكيد لا على ضرورة الدين، بل على أطروحة كون المجتمع ككل هو ظاهرة دينية. أما إسهامات المعرفة المعمّقة بالكتاب المقدس، فإنها لا تبدو مؤثرة بشكل فاعل على السياقات الجارية، وعلى الجدل الأخلاقي الموسع. كما هو الشأن أيضاً في إسهامات بعض كبار المفكّرين المستقلين مثل افري دولس ودافيد تراشي الكاثوليكيين، وجيوفري واينرايت الإنجيلي. فما يظهر من تحدي التحول في المسيحية الأميركية، هو في جزء كبير منه لا يزال رهن الاختبار[28]. وفي مجرى توصيف تطوّر السَيْريّة الدينية في الولايات المتحدة، ربما أمكن الكلام عن خصوصية التدين البروتستانتي، على الرغم من الاندماج متعدد الثقافات والمتنوِّع الاتجاهات الإيمانية. هذه الخصوصية سوف يعرِّفُها بعض الباحثين اللّاهوتيين بما يمكن صياغته بـ"أمركة الإيمان". وهي تلك الناجمة أصلاً من اللّاهوت النقدي للمسيحية المُمأسسة. منشأ هذا المفهوم يعود إلى حيوية

---

(28) John Winthrop A Modell of Christian Charity (1630), Boston.

الذاكرة الجماعية الأميركية التي ظلت مطبوعة بالأساطير التأسيسية، ثم اندرجت على الجملة ضمن ايديولوجية دينية. فالمستوطنون الأوائل كانوا يطمحون إلى النموذج المثالي نفسه. وعلى الرغم من أن البروتستانتية انقسمت إلى رعيّات كثيرة بعد سنوات، فذلك لم يمنعها من اعتبار نفسها "شعب الله المختار" الجديد الذي أرسل إلى أرض الميعاد، وقُدّر له يلهب دور المخلص. ولو عدنا قليلاً إلى الذاكرة التاريخية لرأينا الأمثلة الكثيرة. من ذلك ما تشهد عليه فكرة جون ونثروب الذي سيصبح الحاكم الأول لانكلترا الجديدة حين أعلن لرفاقه المسافرين معه عام 1630 على متن سفينة "اربلا":

«سوف نصبح كمدينة على قمة جبل، أنظار الشعوب جميعها ستتجه نحونا، فإذا كنا غير مخلصين تجاه إلهنا في المهمة الموكولة إلينا، وبالتالي اضطر الرب لحرماننا من العون الذي يمنحه لنا حالياً عندها سوف نصبح مهزلة وأضحوكة العالم بأسره». كما يشهد على هذا أيضا بعد عدة عقود ما جاءت به فكرة القس كوتون ماتر (1663 - 1728) لتستلهم المصادر نفسها: " إنني اكتب روائع الديانة المسيحية التي فرَّت من فساد أوروبا نحو شواطئ أميركا.. والتي انتشر شعاع عنايتها الإلهية في الصحراء الهندية"[29]. وهكذا يبدو إن الإرث الثقافي الأميركي مطبوع بصورة مهيمنة بتأثير هؤلاء الطهرانيين الذين فروا من أوروبا العجوز التي أصابها الانحطاط. فالرجوع في الزمن هو إذن ضروري للإحاطة بمختلف المبادئ الدينية التي هي في أساس حضارة الولايات المتحدة. من دون معرفة التطور التاريخي للطهرانية التي ولدت في بريطانيا، والتأثير الذي مارسته على الولايات المتحدة يغدو من الصعب بمكان أن نفهم فرادة التفكير الأميركي.

---

(29) Cotton Mather, Magnalia Christ americana, cité, dans Histoires des Americains de Daniel Boortin, Paris, Laffont, 1991. P. G.

العقيدة كسلوك سوسيو - سياسي

لم تبقَ العقيدة والإيمان الدينيين في التجربة التاريخية الأميركية ضمن علياء التجريد. كان على المؤسسين الأوائل ومن خَلَفَهُم فيما بعد، ان يبذلوا جهوداً استثنائية من اجل تسييل الاعتقاد في ثنايا الزمن السياسي والاجتماعي والاقتصادي. ولعل هذا الجانب هو احد ابرز المزايا التي أسست للاختلاف بين الأطروحتين الأميركية والأوروبية. إن هذا الربط الوثيق بين العقيدة والسياسة سوف يُنتج ما يمكن وصفه بالميتافيزيقا السياسية للولايات المتحدة، حيث تظهر الايديولوجيا هنا كتجلٍ فريد للتجربة التاريخية في ما وراء المحيطات.

والحال، فقد كان يجري استيطان أميركا، في سياق ايديولوجي، ثنائي القطب. ما كان يطلبه ايديولوجيا الاستيطان هو الاغتناء، وكذلك تمجيد الإنجاز الإلهي، من خلال المشاركة فيه. فقد أضاف المستوطنون الى "جوعهم للأرض"، وهشاشة ظروفهم، الإرادة الصوفية لدى شعب يزعم انه مختار: إرادة بناء مجتمع جديد وأصيل، صار بعد حين يوزّع عِبَرَهُ على بقية العالم. لقد كتب المؤرخ الأميركي دانيال بورستين يقول: "لم يكن شعب أكثر يقيناً من سيره على الصراط المستقيم من "جمعية سكروبي"، التي استلهمت البارقة الأكثر إشراقاً. فأعضاء هذه الجمعية هم من أتباع طُهرانية نقية ومتشددة، رحلوا ما بين 1608 و1609، لاجئين إلى هولندا. كانوا "كالڤينيين"، حملوا في حقائبهم مدونة عقيدية متشددة، ورؤية متشائمة، مبنية على الاقتناع بالوجود الكلي للخطيئة، وأيضاً على اليقين أن أحداً غير جدير بالانضمام إلى متَّحدهم، حقاً، ما لم يكن مصطفىً لذلك. لقد تحول الاعتقاد الديني لدى هذه الفئة من المستوطنين إلى سلوك سياسي واجتماعي في غاية الصرامة.إنهم مسكونون بيقين، يبدو معه كل فعل يقومون به تجسيداً لأمرٍ إلهي. ففي كل مدن إنكلترا الجديدة، لا يشك احد في انه من عند الله. والمرجع المطلق هو التوراة الذي استخرجوا منه "الموشور" أو "التلمود" الذي من خلاله يقرأون الواقع. ويرى كل من أعضاء

الجمعية ان الشعب الجديد، هو "شعب الله" فكل خصم أو كل مخالف للأنموذج يُعدّ عدواً لله، ويعامَل على هذا الأساس، فلا شيء يحدث بدون مشيئة الله، أو بفعل الشيطان(30).

هذا الشعور بتجسيد حقيقة سياسية واجتماعية بلا حدود، مدعوة إلى فرض نفسها في كل مكان، إنما يتجلى في كل أعمال الأمة الأميركية حتى اليوم. وهي حقيقة لا تخطئ ـ على حد هذا الدعم ـ ذلك لأن الله يؤيدها. وكل موقف معاد لها يكون غير قابل للفهم، فيُدمغ بدمغة اللاَّشرعية. ولقد كان العقاب على كل تقصير في حق الأرثوذكسية، منذ أيام المؤسسين، هو طرد المرتكب من داخل الجماعة. فمن لا يحب أن يبني "صهيون الجديدة" فعليه أن يرحل "ولن يُسمح له بأي انشقاق". ربما من هنا جاءت المقاربة للمشاكل، تهذيبية على الدوام. ومثلما كانت العظة، علامة التعبير الطهراني في القرن السابع عشر، صار على كل موقف أميركي رسمي ان يكون موضوع خطاب لاحق، علني وإعلامي، عن القيم الشهيرة، لأنها بديهية ومشتركة بين الخطيب وجمهوره. على ذلك النحو يتقاطع اغلب المؤرخين الأميركيين حول الاعتراف بأن أسلوب حياة انكلترا الجديدة، من عادات تقشفية، وبساطة في اللغة الموجهة نحو العمل، ومعالم ايديولوجية، هو بمثابة تصور أولى لطريقة "الحياة الأميركية" في العصور التالية. لكن المضمون اخذ يتكثف. ومثال ذلك فكرة التجمعية، تلك الفكرة القائلة بأن الرابطة التي تربط الناس المشتركين في عدد من الاعتقادات، إنما تخلق تصوراً ديناميكياً للعلاقات الاجتماعية. من شأن هذا التصوّر أن يميزهم عن أولئك الذين لا يشاركونهم تلك الاعتقادات. وعلى هذا النحو يتشكّل روح "المنتدى" الذي نكتشفه في منظمات مثل "الحلف الأطلسي" و"السبعة الكبار" أو "مجلس امن الأمم المتحدة". وإلى هذا هناك

---

(30) ميشال بوغنون – موردان – اميركا التوتاليتارية – ترجمة خليل أحمد خليل- دار الساقي – بيروت - لندن. ص 126

سمة أخرى للتصور الطهراني تقدمها شرعية قانونية موجهة. فمن الاعتقادات المشتركة وأسلوب الحياة، تنبثق قوانين سينبغي تكييفها، تالياً، مع الوقائع اليومية. على سبيل المثال، لم يجد طهرانيو انكلترا الجديدة أية صعوبة تعترض الربط بين التعاليم التوراتية التي كانت تحكم تصرفاتهم وبين التشريع الانكليزي الذي كان يشكل الإطار التعاقدي لحياتهم. لذا أقاموا بينهما نَسَباً وحسباً، مناسبين لكنهما لا يخلوان من انحياز. فالتصور الذي يتضمن تطبيقاً كهذا لمدونة قانونية على الأعمال التطبيقية، هو من مصدر مشترك مع ذلك التصور الذي أجاز لتشريع الولايات المتحدة، خصوصاً منذ «مذهب مونرو» (1823)، أن يفسّر الوقائع الدولية في ضوء مصلحة الولايات المتحدة وحدها[31].

العلمانية المتديِّنة

قد تكون المفارقة في المشهد التاريخي لحضورية الدين في القيامة الأميركية هو الزواج العجيب بين الدين والعلمانية. لقد لفت دانييل بيل الانتباه إلى ضرورة وجود علاقة متعالية تربط بين الأفراد بما فيه الكفاية، ليصبحوا قادرين، في حال الضرورة على تقديم التضحيات الضرورية بأنانيتهم. تلك "العلاقة المتعالية" أي الدينية يجب أن تحتل الموقع المخصّص للعقلانية، وهي ستعطي الشعوب معنى التضحيات التي ستطلبها منهم الليبرالية الجديدة. في حين يُظهر كثيرون حماسة، ليس فوقها حماسة لدى الحديث عن موقع الدين في النضال خلال المرحلة الليبرالية الجديدة. وفي حين يرى البعض في الدين "اليهودي المسيحي" مصدر "الرأسمالية الليبرالية" بالذات، ويبدون أسفهم لأن الكنائس تحولت اليوم إلى ما يشبه المؤسسات الخاصة والطوعية مما أفقدها الدعم العام، وجعلها عاجزة عن مواجهة خصومها. يذهب آخرون إلى أبعد من ذلك

(31) روبن دري - استناداً إلى مايكل نوفال في كتابه الصادر بالاسبانية وأوردها في كتابه الذي صدر بالانكليزية عام 1994 تحت عنوان:

Theology of hegonomy and the spirit of new capitalist Liberalism

مثل مايكل نوفال ليصوغوا لاهوتاً حقيقياً للرأسمالية الديمقراطية هو، كالثالوث المقدَّس: ثلاثة نظم في نظام واحد: اقتصاد تسيطر عليه السوق، وتنظيم سياسي يحترم الحقوق الفردية في الحياة، ومجموعة من المؤسسات الثقافية التي تحركها مُثُل الحرية والعدالة للجميع. وإذ تنطلق "الرأسمالية الديمقراطية" من أعالي الثالوث على ما يبيِّن ايديولوجيو اللقاء الحميم بين الدين والليبرالية العلمانية - فإنها تعود وتنزل نحو التواضع والتجسد، وتصبح واقعية لأنها تعلم أنه "إذا كان الله قد أحبّ إلى أبعد الحدود أن يتعذَب ابنه الحبيب، فلماذا يجنبنا نحن العذاب؟ وإذا كان الله لم يرسل فيالق الملائكة لتغيير العالم من أجل ابنه، فلماذا نحلم بتغيير مفاجئ. لذا فالرجاء المسيحي - بحسب هؤلاء - هو رجاء واقعي، ومستعد لمواجهة القسوة والظلام، ومتيقِّظ تجاه قوى الضلال والخطيئة، وبشكل مشابه فإن دياسبورا الشعب اليهودي، معسكرات الإبادة في القرن العشرين مَنَحَا هذا الشعب غريزة واقعية عميقة، وجعلاه مستعداً لما هو أسوأ، لأن غياب الأوهام هو شكل راق من أشكال الوعي اليهودي والمسيحي[(32)].

يجد هذا التصدير الفلسفي - اللّاهوتي حجته في التأويل المسيحاني لجدلية الألم والتجسد. ويندرج ذلك في ما يقوله مفكرو البروتستانتية الكالفينية، من أن الحجة المتمثّلة في التجسد تكمن في احترام العالم كما هو، والاعتراف بحدوده ونواحي ضعفه، وكذلك جوانبه اللاعقلانية، وقواه الشريرة، ورفض الاعتقاد بالوعد القائل بأن العالم سيتحول الآن، أو في المستقبل إلى جنة الله على الأرض. حتى الصراع الشرس الذي يخوضه الجميع في السوق الرأسمالية التي تودي بشكل مستمر بحياة ما لا يحصى من البشر، يجد تبريره اللّاهوتي الكامل في الأمثال الإنجيلية الذكية. أفلم يسبق القديس بولس "الرأسمالية الديمقراطية" بقرون طويلة، حينما دعا المؤمنين إلى التنافس، وإلى أن يكونوا متنافسين"؟

(32) المصدر نفسه. يراجع أيضاً روبن دري - الجذر الديني - الفلسفي لليبرالية الجديدة - مجلة "مدارات غربية" بيروت، مصدر سبقت الإشارة إليه.

وهكذا يخلص هذا النوع من التفكير الذي يشكل أحد الأسس الكبرى لخصوصية فهم الدين في أميركا، إلى النتيجة التالية: إذا كان التراكم يتطلب في البداية زهاداً ومستثمرين تربُّوا بشكل منهجي على اللّاهوت والدين الكالفيني - كما يبيِّن ماكس فيبر - فإننا نحتاج اليوم إلى أشخاص أنانيين إلى أقصى حد، وقادرين على خوض "حرب الكل ضد الكل" لتحل جميع العذابات التي تفرضها الذات الأنانية. وهؤلاء الأشخاص هم الذين يتم تشكيلهم بواسطة هذا النوع من اللّاهوت[33].

إن هذه المفاهيم التي تحولت إلى ضربٍ من الاعتقاد الديني، سوف تفضي إلى مفارقات ذات دلالة عميقة في التأسيس للجمهورية الأميركية. وهو ما تشير إليه الباحثة كارين آرمسترونغ وهي تعرض إلى حضور الدين في العملية السياسية والدستورية لأميركا الأولى. وحسب آرمسترونغ أن الدين لعب دوراً رئيساً في ولادة أول جمهورية علمانية حديثة. ولكن بعد أن وضعت الولايات المستقلة دساتيرها سوف يظهر نوع من التناقض. إذ لم يرد فيها ذكر الله إلا عَرَضاً. ففي عام 1986 نقض توماس جيفرسون الاعتراف بالكنيسة الأنغليكانية في فرجينيا، وصرّح إلى الإعلام أن الإكراه في مسائل الدين كان "خطيئة واستبداد"، وأن الحقيقة سوف تسود إذا ما سُمح للناس بالاحتفاظ بآرائهم.. مثل على ذلك: المعمدانيون والطرائقيون والبريسبيتيريانز في فرجينيا، الذين كانوا يكرهون موقع الامتياز لكنيسة إنجلترا في الولاية ساندوا الإعلان. وفي مرحلة تالية حذت الولايات المتحدة حذو فرجينيا، وسحبت الاعتراف بكنائسها. وعندما وُضعت مسودة الدستور الفيدرالي في معاهدة فيلادلفيا في عام 1787 لم يرد ذكر الله فيه إطلاقاً. وفي إعلان الحقوق عام (1789) التعديل الأول للدستور، فُصل الدين عن الدولة رسمياً: لن يسن الكونغرس قوانين تحترم مؤسسة الدين، أو تمنع حرية ممارسة الدين، فمن الآن فصاعداً سيكون الدين مسألة خاصة طوعية

---

(33) كارين أرمسترونغ - مصدر سبق ذكره (ص 103)

في الولايات المتحدة. كانت هذه خطوة ثورية، وتمت مباركتها من جانب التيارات العلمانية الليبرالية كإحدى إنجازات العقل. كانت هذه الخطوة مستمدة فعلاً من فلسفة التنوير المتسامحة، لكن الآباء المؤسسين كانت تحركهم اعتبارات براغماتية أكثر. كانوا يعرفون أن الدستور الفيدرالي أساسي من أجل الحفاظ على وحدة الولايات. لكنهم كانوا يعلمون أيضاً، أنه إذا ما أرست الحكومة الفيدرالية أياً من "الدينومينشن البروتستانتية"، وجعلته الدين الرسمي للولايات المتحدة فلن تتم الموافقة على الدستور. فعلى سبيل المثال ما كان مندوب الكونغرس عن ماساتشوشتس ليصادق على دستور يرسخ الكنيسة الأنغليكانية. لهذا السبب ألغت المادة السادسة من الباب الثالث من الدستور الامتحانات الدينية عند طلب الحصول على وظيفة في الحكومة الفيدرالية. كانت هناك نزعة مثالية في قرار المؤسسين للتخلي عن الاعتراف بالدين، وعلمنة السياسة، لكن لم يكن في وسع الأمة الجديدة أن تبني هويتها على أي من الخيارات الطائفية، والاحتفاظ بولاء جميع رعاياها في وقت واحد. لقد تطلبت احتياجات الدول الحديثة ذلك: أن تكون متسامحة، وعلمانية. لكن بحلول منتصف القرن التاسع عشر أصبحت الولايات المتحدة العلمانية أمة مسيحية متحمسة، وهذه مفارقة كبيرة. ففي خلال 1780-1790 شهدت جميع الكنائس نمواً جديداً، وبدأت تناهض ايديولوجيا التنوير التي نادى بها الآباء المؤسسون. لقد قدسوا الاستقلال الأميركي، وقالوا مدافعين: إن الجمهورية الجديدة كانت إنجاز الله. وقالوا: إن المعركة الثورية جعلت السماء ضد الجحيم. وإن إسرائيل القديمة فقط عرفت تدخلاً إلهياً مباشراً كهذا في الدستور. لكن تيموثي دوايت راح يحث طلابه، أن **"**تمحَّصوا تاريخ بلادكم، فسوف تجدون براهين ونِعَمَاً للخلاص الإلهي، ليس أقل مما أُظهر لبني إسرائيل في مصر**"**. لقد تنبأ رجال الدين ـ بحسب أصحاب هذه الحكاية ـ أن الشعب الأميركي سيصبح أكثر تقوى، واعتبروا اتساع الحدود دلالة على الملكوت الآتي. فالديمقراطية جعلت الشعب سيداً، لذلك يتوجب أن يصبح ساكنو الأرض الجديدة أكثر تقوى

إذا ما أريد للولايات المتحدة أن تتجنب المخاطر التي ينطوي عليها حكم الشعب. كما يتوجب إنقاذ الأميركيين من التأليهية الموجودة عند قادتهم السياسيين. لقد اعتبر رجال الكنيسة أن النزعة التأليهية هي العدو الشيطاني الجديد، وجعلوها كبش فداء لجميع الإخفاقات الحتمية التي تلم بالأمة الناشئة. فالتأليهية - كا رأوها - سوف تؤدي إلى تصاعد الإلحاد والنزعة المادية، لأن التأليهية كانت تعبد الطبيعة والعقل بدلاً من عبادة المسيح. لقد انتشر خوف من مؤامرة فصامية، أصحابُها كانوا ملحدين وماسونيين يتآمرون لقلب المسيحية في الولايات المتحدة. وعندما أصبح جيفرسون رئيساً عام 1800 كان هناك حملة معادية للإلحاد و "للثورة الفرنسية التي لا رب لها" حسب قولهم(34).

لقد تعاون الآباء المؤسسون ورجال الدين في خط سياسي لخلق جمهورية علمانية حديثة، لكن كلا الفريقين كان لا يزال ينتمي إلى العالم المحافظ القديم من نواح عدة. كانوا أرستقراطيين ونخبويين. وكانوا يعتقدون أن مهمتهم - بصفتهم رجالات دولة - أن يقودوا الأمة من فوق، ولم يكن لديهم تصور أن إمكانية التغيير كانت آتية من تحت. كانوا يعتقدون أيضاً أن التحول التاريخي يتأثر بالشخصيات العظيمة التي يشبه دورها دور أنبياء الماضي: يدفع إلى الإمام بسيرورات غير شخصية، وبيئية، واقتصادية، وقوى اجتماعية تحبط مخططات مشاريع أقوى القادة. فمن عام 1780 - 1790 حصل نقاش كثير حول طبيعة الديمقراطية، ومقدار السلطة التي سوف تعطى إلى الشعب. فجون دامز - الرئيس الثاني للولايات المتحدة - راح يشكّك بأية حكومة قد تؤدي إلى حكم الرعاع وإفقار الأغنياء. لكن أنصار جيفرسون الأكثر راديكالية تساءلوا كيف أن بوسع القلة أن تتكلم بالنيابة عن الأكثرية. لقد احتجوا على "استبداد" حكومة آدامز، ونادوا بأن صوت الشعب يجب أن يكون مسموعاً. فلقد أمد نجاح الثورة إحساساً بشحنة القوة، وأوضحت لهم أن السلطة المستقرة هي عرضة

(34) كارين آرمسترونغ - المصدر نفسه. (ص 105)

للوقوع في الخطأ، وليست سلطة لا تُقهر بأي شكل من الأشكال. لقد اعتقد أنصار جيفرسون أن الناس العاديين يجب أن ينعموا بالحرية والحكم الذاتي الذي بشّر به المتفلسفون. كانت السخرية من الأطباء والمحامين ورجال الدين وأخصائيين آخرين تنبسط على صفحات الصحف. لا أحد يجب أن يصدق من يسميهم الناس "خبراء "القانون، والطب، والدين، يجب أن تكون لمصلحة الإدراك السليم، وضمن متناول الجميع.

فالدين والسياسة ـ في حقبة التأسيس ـ كانا جزءاً من رؤيا واحدة. وتذكر الروايات التاريخية التي تنقلها الباحثة كارين آرمسترونغ ان لويرنزو داو dow بشعره المسترسل الأشعث، وعينيه البراقتين بدا مثل يوحنا المعمدان العصري كان يرى أن العاصفة هي عمل مباشر من الله، واعتمد على الأحلام والرؤى من أجل بصيرته. وقد يكون التغير في أحوال الطقس برأيه دليلاً على نهاية الأيام القادمة. وادعى المقدرة على التنبؤ بالمستقبل. لقد بدا لويرنزو كما لو كان النقيض لعالم الحداثة الجديد. مع ذلك كان يستهل موعظته باستشهاد من أقوال جيفرسون أو توماس باين. وأحياناً كان يقوم بدور حداثي حقاً: حث الناس أن يرموا عن كواهلهم قيود الخرافة والجهل، وأن يُنحُّوا جانباً سلطة مؤسسة المتعلمين، وأن يفكروا بأنفسهم. ففي الولايات المتحدة الجديدة بدا الدين والسياسة وكأنهما وجهان لعملة واحدة، ثم لينسَكبا في بعضهما البعض بسهولة، مهما كان قول الدستور(35).

سَيْرِيَّات التكيُّف

إذا كانت إحدى أبرز سمات الظاهرة التاريخية الأميركية هي القدرة على

(35) خوسيه كازانوفا - الديان العامة في العالم الحديث - إصدار المنظمة العربية للترجمة وتوزيع مركز دراسات الوحدة العربية - ترجمة قسم اللغات الحية والترجمة في جامعة البلمند- بيروت 2007 (ص205).

التلاؤم مع تقلُّب الأزمنة، فهذه السِمَة هي وليدة حالة دينية على أبعد تقدير. ولعل قابلية الزمان والمكان الأميركيين للإنسجام والتجانس مع التعددية الهائلة للفرق والمذاهب المتفرعة من المسيحية البروتستانتية يقدم المصاديق الجدية على مثل هذه القدرة.

فلو اتخذنا من الاختبارات الدينية الأميركية المعاصرة مجالاً للكلام على سَيْريَّة التكيُّف مع تقلّب الأحوال الأزمنة، لبدت لنا البروتستانتية الإنجيلية نموذجاً استثنائياً لتلك المصاديق. ذلك أن هذه الطبقة الدينية التي وصلت إلى مركز صناعة القرار الأمبراطوري العالمي، جاءت حصيلة تداخل، وتركيب، وتواصل مع الأطوار الدينية المديدة في التاريخ الأميركي. وهكذا فمن دين مدني، إلى فرقة دينية أصولية، إلى يمين مسيحي جديد، تطرح عودة البروتستانتية الإنجيلية منذ ثمانينيات القرن العشرين، ثلاثة أسئلة رئيسة:

الأول: لماذا هنا (أي في أميركا) وليس في مكان آخر؟ وهذا السؤال يعود إلى أن الولايات المتحدة هي البلد الوحيد بين المجتمعات الصناعية الغربية الذي ظهرت فيه حركة دينية أصولية ذات أهمية مجتمعية.

الثاني: لماذا (هذه العودة) الآن؟ ومرد هذا السؤال عائد إلى أن الجناح الأصولي للبروتستانتية الإنجيلية بين ثلاثينيات القرن العشرين، وسبعينياته، كان تَقَويّاً، منطوياً على ذاته نسبياً، ويكاد يكون قطاعاً مجهولاً من البروتستانتية الأميركية.

الثالث: ما هي المضاعفات والنتائج المحتملة لدخول الأصولية الدينية النطاق العام في المتجمع المعاصر؟[36]

ومهما يكن من أمر، يجب النظر إلى الطابع الفريد والاستثنائي لظاهرة الأصولية الدينية الأميركية من زاوية الهشاشة التاريخية التي اتسمت بها مسيرة العلمنة في أميركا. فمنذ عهد الاستقلال إلى الآن، عرفت البروتستانتية الأميركية

---

(36) المصدر نفسه. ص 206.

ثلاث هزّات قلّصت دورها في الحياة العامة: الهزة الأولى، التي تمثلت في سحب اعتراف الدستور بالدين، وأدّت إلى إقامة "جدار الفصل" بين الكنائس البروتستانتية والدول الأميركية وهي مسألة لا تزال موضع نقاش. وقد تسبب هذا الأمر بفصل الدولة عن المؤسسات الكنسية، وإلى تفكك المجتمع السياسي الذي يضم مواطنين من الأديان كافة. غير أن علمنة الدولة لم تؤدِّ في بدايتها إلى انحسار الدين أو خصخصته، بل على العكس من ذلك، وكما هو معلوم بشكل عام اليوم، شكّلت الحماية الدستورية لممارسة الدين بحرية، الإطار البنيوي لظهور وانتشار غير مسبوقين لما سمّاه مارتن مارتي "اللحاف المجنون للمذهبية البروتستانتية". ففي الوقت الذي كانت فيه المسيحية في القارة الأوروبية في انحسار وغير قادرة على مواجهة الثورات الصناعية والسياسية والثقافية، كانت المسيحية الأميركية "غارقة في بحر الإيمان". من هذا المنطلق، باتت النزعة الإحيائية الإنجيلية هي المبدأ التنظيمي والجامع المشترك بين جميع الفرق الدينية التي تتنافس في مجال المنظومة الدينية البروتستانتية المذهبية. وبحلول العام 1830، كانت البروتستانتية الإنجيلية قد أثبتت أنها هي الدين الأميركي العام للمجتمع المدني الأميركي. وقد سمح تناغم المذاهب البروتستانتية وتشابهها بإطلاق حملة إنجيلية كبرى تتخطى الفروق المذهبية البروتستانتية، وهدفها تنصير الشعب، والنظام الاجتماعي، والجمهورية.(37)

نظراً لهذا التطور التاريخي، ظَهَرَ مبدأ الحرية الدينية الذي كرّسه "النظام الأساسي لولاية فرجينيا حول الحرية الدينية" (Virginia Statute on Religious Liberty) ثم التعديل الأول للدستور الأميركي على صورة أكثر وضوحاً. فتأسيس كنيسة على الصعيد الوطني كان يعوقه بدون شك التوزُّع المناطقي من جهة، والقوة المتساوية نسبياً التي تمتعت بها كنائس الاستعمار الثلاث في زمن

الاستقلال من جهة أخرى. وهي: الكنيسة المجمعية، والكنيسة المشيخية، والكنيسة الأنغليكانية. ولكن النتيجة أوشكت أن تقضي إما إلى نشوء مؤسسات دينية متعددة، وإما إلى ولادة دين مسيحي عام (أي بروتستانتي) لو لم يحصل التعاون الفاعل بين جفرسون، وماديسون، والمعمدانيين المعارضين في فرجينيا. هذه "الحقبة الجفرسونية" التي جمعت بين الربوبية الجمهورية والبروتستانتية الأصولية -التَقَوية كانت هشة ووجيزة. ولكنها استطاعت أن توجد واقعاً دستورياً نجح، بفضل التقديس التدريجي للدستور، في التصدي للهّوة الكبيرة التي تفصل بين البلد الدستوري والبلد الفعلي، وبالتالي الحملات البروتستانتية المتكررة لإدراج الله أو المسيح في الدستور، وتعريف أميركا بأنها دولة مسيحية، وحماية الديانة المسيحية بوصفها قانون البلاد المشترك.

ولئن كان العامل الديني عنصراً فعالاً في المكونات السياسية الأميركية منذ بداية نظام الأحزاب، فإن الدين العام في أميركا لم يكن يعمل على صعيد المجتمع المعبّأ سياسياً. فعلى الرغم من أن الانصهار بين الولاء للحزب والولاء للمذهب الديني كان مهماً، فإن النظام الحزبي الأميركي لم يكن منظماً وفق منطق التقسيمات المذهبية أو العلمانية - الدينية، كما كانت الحال في الكثير من البلدان الأوروبية. وإذا كان الأمر كما جاء على لسان توكفيل من أن "الدين في أميركا يجب النظر إليه على أنه أول مؤسسة سياسية لدى الأميركيين:، فهذا مرده إلى الدور الذي اضطلع به الدين في النطاق العام للجتمع المدني. فالسلطة الدينية القائمة التي كان يتمتع بها نظام نيو انجلند، لم تتمكن من الحؤول دون انتخاب جيفرسون رئيساً، كما فشلت في الحؤول دون نشوء الديمقراطية الجاكسونية. إلا أن هجومها ضد الإيمان بالله، والخيانة، والمؤامرات التي تحاك في الخارج، إضافة إلى الحماس الإحيائي الذي أثارته الصحوة الكبرى الثانية، كان لها أثر فاعل جداً في إخراج حركة التنوير الأميركية عن مسارها، ومن ثم في تنصير الجمهورية.

لقد تزامنت "دمقرطة" الجمهورية الأرستقراطية، مع "دمقرطة" المسيحية،

وتآزرتا؛ وكان لهما أثر مشابه في الثقافة السياسية والدينية. فعلى الرغم من كون أندرو جاكسون انفصالياً متشدداً، كان في الوقت نفسه أول رئيس أميركي (من الطائفة الانجيلية). وسرعان ما اكتسبت البروتستانتية الانجيلية قدرة التحكم بالخطاب العام المتداول في المجتمع المدني الأميركي. وباستثناء ليبرالية هارفارد الوحدوية، بدأ توليف جديد بين الإيمان الكالفيني، والواقعية التفاهمية الاسكتلندية، والدين الإنجيلي القلبي حيث راح ينتشر في الكليات البروتستانتية على التوالي. وقد نجح هذا التوليف في فرص هيمنته الثقافية على حياة الفكر" حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر. لكن هذه الهيمنة الثقافية لم تقتصر على الكُتل النخبوية، بل شملت، من خلال المدارس الحكومية والمدارس المشتركة وحركات مدارس الأحد، حيّز التربية والتعليم الديني بأكمله. ثم توسعت حتى شملت وسائل الإعلام، والجمعيات، وحركات الإصلاح الأخلاقي والاجتماعي. هكذا أرست المجتمعات الإنجيلية البنية التحتية لجميع أنواع الجمعيات التطوعية، وأصبحت الإحيائية البروتستانتية مهد الحركات الاجتماعية الأميركية.

في مطالع القرن الحادي والعشرين تمكَّنت الإحيائية البروتستانتية بأحيازها اللاّهوتية وشرائحها الفكرية المتعددة أن تلقي بظلالها على ثقافة أميركا وسلوكها.

وبدا بوضوح لا يقبل الريب أن الميتافيزيقا المسدَّدة بوعود العهد القديم، لا مناص منها لأميركا لتمسك بناصية الزمان العالمي المتجدِّد من غير انقطاع أو تفاوت.

الفصل الثالث

فلسفة المكان

مفارقات الهوية القومية في أميركا

ينتهي التاريخ، ولا تنتهي الجغرافيا.. قد تؤلِّف هذه المعادلة حقيقة الحقائق في الفلسفة السياسية الأميركية. ذلك أنها في مؤدّياتها ومقاصدها ذات سمة عملية. وهي حقيقة يصعب ان تحُصّل إلاّ في حقول المعاينة والاختبار. فسنجد كيف كان ينبغي ان ينطلق المؤسسون الأوائل من مثل هذا اليقين، لكي ينجزوا تاريخ أميركا على الأرض البكر التي وطأتها أقدامهم. لم تكن الغاية التي مضوا في طريقها الصعب لتمرّ من دون إحداث ما يشبه «العملية الجيولوجية» في التاريخ والجغرافيا. ولذا ستكون الطبيعة الاستيطانية للأطروحة الأميركية، هي الروح المكوّن لما يمكن ان يصطلح عليه فيما بعد بـ جغرافية «القومية الأميركية». إن هذه الطبيعة الاستيطانية ستؤلف المصدر المحوري لظهور الإطار الأرضي للفكرة القومية، وتالياً للخريطة المعرفية اللاّحقة للشعور القومي الديني المركَّب لمستوطني الأراضي المكتشفة.

ما لا ريب فيه، أن التعريفات المعاصرة للقومية تندرج ضمن سياق طويل مما اشتغلت عليه الفلسفة السياسية منذ فجر الحداثة. ومما يتحصّل من هذه التعريفات، أن الايديولوجية القومية تمثل أهم ركائز العصر الحديث. فلم يُقدَّر لأي من الرؤى في العالم ان تترك بصمتها على الخريطة العالمية مثلما فعلت القومية. لا سيما لجهة ما تصنعه في تحريك الوجدان، والوعي بالهوية.

والواقع ان «فكرة الأمة»، وما يرتبط بها من مشاعر قد ترسخت في ضمائر الناس، حتى إنها أصبحت تُستخدم في وصف الأفعال والأشياء المناهضة للقومية كالقول مثلاً: «متعدٍ للقوميات» أو «متعدد القوميات» او «متجاوز للحدود

القومية»، وهي على الجملة مصطلحات تدور مدار الفكر، وتفترض مسبقاً الواقع القائم للأمم.

العالِمان الاجتماعيان الانكليزيان «تيفي» و«سميث» وَضَعَا عدداً من الفَرَضِيَّات حول القومية، حيث جرى التعامل معها كمرجعية نظرية، وجاءت على الشكل التالي:

- يتألف العالم من فسيفساء من الأمم.
- يتوقف النظام والاستقرار في المنظومة العالمية على التفاعل الحر لهذه الأمم واحِدها مع الأخرى.
- تتمتع كل امة بثقافتها الخاصة، القائمة على نَسَبٍ، وتاريخ مشترك.
- كل امة تحتاج إلى دولتها السيادية، التي تعبّر من خلالها عن ثقافتها.
- تتمتع كل الأمم، وليس الدول، بالحق المطلق في أرضها، أو وطنها.
- لا بد لكل إنسان فردٍ من أن ينتمي إلى امة ما.
- الولاء الأول لكل إنسان فرد، هو ولاء لأمته.
- لا حرية حقيقية للإنسان الفرد، إلاَّ من خلال الأمة التي ينتمي إليها.

هذه الفَرَضِيَّات يجيز بعض علماء التاريخ، إدراجها ضمن ما يسمونه بـ «المبدأ العام للقومية». وهي تعكس ايضاً، واقع ما يجري على ساحة العالم اليوم: فالعالم - برأيهم - منقسمٌ سياسياً وليس متحداً بحال. والدولة / الأمة هي الميدان الرئيس للعمل السياسي. كما ان النطاق المحلي يجري تجاوزه مع تجاوز التجارب من خلال مَثَلٍ أعلى وأبعد تأثيراً. وحسب هؤلاء، فإن الفَرَضِيَّات المذكورة تفصح عن أبعاد خطيرة على مستوى العلاقة الاجتماعية. فلقد كان على ايديولوجيات سياسية أخرى ان تكيّف نفسها مع الايديولوجية القومية، او تكتب على نفسها الهلاك امام تيار القومية الجارف. فلقد كانت القومية وقت اندلاع الثورات في أوروبا 1848م، خصيمة لليبرالية التي تتمركز حول الفردية بمفهومها الكلاسيكي العتيق، وصار لزاماً على هذه الليبراليات ان تفسح الطريق أمام زحف التيار «القومي الليبرالي الجديد». وعلى الطرف الآخر من الساحة، شعرت الاشتراكية الدولية بالهزيمة مع اندلاع الحرب العالمية

الأولى، ومقاتلة أبناء الطبقة العاملة بعضهم البعض الآخر، كلٌ تحت راية بلده التي يحارب من أجلها. ولكي تبقى الاشتراكية على الساحة كان عليها مثل الليبرالية، أن تتكيّف مع واقع القومية الجديد. ويدل ذلك على أن الليبرالية الفردية، والاشتراكية الدولية لم تكونا نِدّاً للقوة العارمة للايديولوجية القومية. وكانت النتيجة بروز بنية ثلاثية الأطراف للاقتصاد العالمي، المرتكزة على قاعدة الدولة القومية[1].

ثمانية أعمدة للقومية الأميركية

تشير إلى أن الأفكار والفَرَضِيَّات التي مرّت، عامة وإجمالية. وهي مما نجم من سَيْرِيّة الإجتماع التاريخي في اوروبا لحظة تشكّل العناصر الدافعة لظهور الأمة / الدولة. مع هذا فإن ما يصحّ على العام يصح كذلك على الخاص. وذلك على قاعدة المشترك التكويني بين ما جرت عليه ظهورات القومية الكلاسيكية في أوروبا، وظهوراتها المخصوصة في الولايات المتحدة الأميركية. فالمبدأ المشترك عام وواحد بالنسبة لكل القوميات، وان كان لكل قومية خصوصيتها. ولأن كل امة مختلفة عن سائر الامم في مكوناتها الانثروبولوجية والثقافية والدينية، فإن توصيفاً مختصراً لواحد من أمثلة تلك الخصوصيات القومية، قد يكون كافياً للدلالة على عنصر الوحدة والكثرة، او العمومية والتخصيص لدى أي أمة بعينها.

في هذا الصدد يستحضر عالِمَا الجغرافيا السياسية، الأميركي بيتر تايلور، والبريطاني كولن فلنت، اقتباساً من رسائل مواطنهم وطسون (1970)، تشير الى ثماني سمات للمجتمع القومي الأميركي، وهي التي ستصبح فيما بعد علامات مميزة لمشاعر الأميركيين بصفة عامة. وهذه السمات هي: حب التجديد - القرب من الطبيعة - حرية الحركة - مخالطة الشعوب - النزعة الفردية - الوعي

(1) بيتر تايلور وكولن فلنت، الجغرافيا السياسية لعالمنا المعاصر، ترجمة عبد السلام رضوان ود. اسحق عبيد، سلسلة عالم المعرفة (283) الكويت، تموز/يوليو 2002، ص 17

بالمصير - الميل الى العنف - والنظرة الشمولية للبشرية ككل. وبينما تعكس الخصائص الأربع الأولى تاريخ الأميركيين، خصوصاً في لحظات التوسع واقتحام التخوم، تمثل الخاصيّتان التاليتان دعامتين أساسيتين لأسلوب الحياة الأميركي. فالتنافس الفردي لتحقيق المكاسب الشخصية هو أساس الايديولوجية الليبرالية الأميركية. ينطبق ذلك على البسطاء من أهل الأكواخ الخشبية، مثلما ينطبق على الرؤساء في البيت الأبيض. لكن الوعي بالمصير هو الذي دفع الأميركيين إلى بلورة أهداف قومية بدأت على ساحة قاريّة شاسعة، ثم تطورت لتشمل ساحة الكرة الأرضية برمتها.

أما الخاصيّتان الأخيرتان، أي الميل إلى العنف والنظرة الشمولية للبشرية) فإنهما تكشفان عن تناقض صارخ: واحدة تشي بالصراعات القائمة داخل المجتمع الأميركي، وأخرى تلبي حاجة المثاليات العليا، والتعايش السلمي بين الشعوب، وحل الخلافات بأسلوب عقلاني.

على ان هذه الخصائص الثماني مجتمعة، تعزز ما وصفه «وطسون» بـ الأسطورة الأميركية. «وهو ما عُدَّ برأي علماء الاجتماع بمثابة "النظرية الثانوية الخاصة للقومية الأميركية."[2]

فكرتا القومية والدولة الأمة

مع نمو قدرة الإنسان في الغرب في السيطرة على محيطه، برزت العقلانية وهي مصحوبة بدرجة اكبر من التعقيد الاجتماعي. لقد كانت العقلانية متزامنة مع انهيار الهيكل القائم على الولاء الديني، حيث تحدّت في ذلك الديانة المُمأسسة. كان الولاء الديني آنذاك يقوم على ضيق الأفق الإنساني وعلى عالميته في الوقت نفسه. وكما يبيِّن زبيغنيو بريجنسكي في كتابه الشهير "بين عصرين. . أميركا والعصر التكنوتروني، "فإن الضيق ينبع من جهل وأميّة مطبقة، و كذلك من رؤية محدودة بالمحيط المباشر بسبب محدودية الاتصالات، وان

(2) بيتر تايلور وكولن فلنت، المصدر نفسه، ص 18

العالمية جاءت من القبول بفكرة أن مصير الإنسان هو في جوهره بين يدي الله، وان الحاضر المحدود ليس إلا عتبة نحو مستقبل لا محدود. ولقد تحدّت العلمانية في ظهورها كلا البعدين، وهي بفعلها هذا احتاجت من أجل التصوير الخارجي لشخصية الإنسان، إلى بؤرة ولاء وسيطة، أو إلى شيء ما بين المباشر واللاَّنهائي. وكانت الدولة - الأمة والقومية هي الإجابات على ذلك[3].

على هذا النحو العام، ظهرت سَيْرِيَّة فعل الأطروحة القومية في الغرب، لتتشكّل معها ما يسمى بـ"الشخصية القومية". وذلك ما يحيلنا الى ما سبق لـ توماس هوبز (1588 - 1676) ان تصوَّره وهو ينظِّر للقيامة الحديثة للدولة/الأمة. قال هوبز بنظرية «الوضع الطبيعي». وهي النظرية التي تلاحظ ان الوضع الطبيعي لحياة الناس هو أن تكون حياة فقيرة، وبغيضة، وفظة، وقصيرة. ولكي يهرب هؤلاء الناس من هذا الوضع الطبيعي أبدعوا مخلوقات مصطنعة ذات سيادة، وأخذت تهيمن بالسيف. لقد أبدعوا وحوشاً أسطورية كبرى ـ كما يقول ـ وكانت القوى الفاعلة الأساسية في التاريخ هي هذه الوحوش الأسطورية الكبرى، التي هي عبارة عن كيانات ومنظمات كلية. وكانت هذه الكيانات والمنظمات كبيرة، وشاملة، ومركبة بقدرٍ كافٍ للسيطرة على المجالات التي تتم فيها فعاليات التاريه[4].

وعلى ما يمضي اليه التأويل الهوبزي، ففي مرحلة ما قبل العصر الحديث، كانت هذه «الوحوش الأسطورية الكبرى»، تتمثل في المدن - الدول، وبالسادة الإقطاعيين، والامبراطوريات المتعددة الأجناس، وفي مجموعها، لم تكن معظم هذه الكيانات، دولاً كبيرة جداً، او متلاحمة جداً؛ اي أنها لم تكن وحوشاً أسطورية كبيرة حقاً. اما في العصر الحديث فقد أصبحت أمماً - دولاً،

---

(3) زبيغنيو بريجنسكي، بين زمنين، اميركا والعصر التكنوتروني، ترجمة وتقديم محجوب عمر، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الاولى 1980 ص 86.

(4) Thomas Hobbes, The Elements of law cambridge University press, 1928, part II, Book 10. paragraph 8, p 150.

ووحوشاً أسطورية كبيرة جداً في الواقع. وكانت الدول الكبرى هي اكبر هذه الوحوش الأسطورية، واكبر صنّاع التاريخ الحديث. وعلى أي حال، فإن ما يعلنه هوبز هو ضربٌ من توصيف انثرو-فلسفي لِعلَّة قيام الدولة، وأدوارها، وآليات تحوّلها. وهو في هذا يبيّن الوجهين الوجوديين اللذين يَسِمَانِ الدولة بالتعريف: الوجه الإنساني الحضاري، والوجه الوحشي البدائي. ويتفق فلاسفة الاجتماع السياسي، على ان قيام الدولة يوجب تلازم الوجهين المذكورين في آن، تماماً مثلما هي نزعات الخير والشر التي تنطوي عليها النفس البشرية، بينما يقوم العقل بالدور الناظم لتياراتها، والضابط لأهوائها، وفوضاها. كان هوبز مهجوساً بالأمن، وكان الأمن أحد اخطر الكلمات في مذهبه السياسي. فهذه الكلمة بالنسبة إليه، هي التي تحدّد موضوع ومحتوى «السياسي» - اي الدولة. ذاك ان غاية «السياسي» الاولى، هي في الحقيقة ضمان امن المواطنين، ويجب ان تتجه كافة أعمال الحاكم نحو هذه الغاية. فإذا كان الأمن يعرّف الدولة المدنية، ومن ثم يعرِّف «السياسي»، فإن اللاَّأمن هو على العكس، إنه من مجال غير «السياسي». إذ تحت حكم الدولة يبقى خطر اللاَّأمن قائماً الى الحد الذي يقبل معه هوبز استثناءً واحداً لالتزام المواطنين الطاعة لملكهم هو: حين لا يتوصل هذا الأخير الى ضمان أمنهم[5].

لقد ارتكزت التأسيسات الكلاسيكية للحداثة على قاعدة تقول، إن مذهب السيادة الذي أخذت به السلطة العلمانية سوف يشكل التحدي المركزي للديانات السائدة. وهذا التحدي بدوره مهّد الطريق الى ظهور المفهوم المجرد للدولة/ الأمة. والتحول الجذري الذي حفرت الحداثة مجراه حيال مفهوم السيادة هو سيادة الشعب على نفسه بدلاً من السيادة المتمثلة بالملك. وهذا التحول شكلٌ خلاصة الإجراءات الأساسية التي مهّدت للثورتين الفرنسية والأميركية. على هذا الخط التطوري اصبحت الدولة/ الأمة في الوقت نفسه تجسيداً للإلتزامات

(5) محمود حيدر، الدولة المستباحة، من نهاية التاريخ الى بداية الجغرافيا، دار رياض الريس للنشر، بيروت 2004، ص 54

الشخصية، ونقطة الانطلاق لتحليل الواقع.. كان هذا التطور مميزاً لبداية مرحلة جديدة في الوعي السياسي للإنسان. ولسوف نجد في التنظيرات المعرفية الما بعد حداثية لفكرة السيادة، أن القومية في الغرب لم تسعَ الى توجيه الفرد نحو اللاّنهاية، ولكن الى تنشيط الجماهير عموماً في سبيل أهداف قريبة مباشرة. وانه لأمر متناقض - كما يلاحظ بعض هذه التنظيرات - أن الأهداف الملموسة قد استُخلِصَت من الهدف المقدس الجديد الذي لا يزال غير واضح وغير ملموس مادياً، وهو الأمة. فلقد أصبحت الأمة مصدر التأثر الجمالي والفني، وكانت بمثابة العلاقة العاطفية العالية التي رمزت اليها الاناشيد «المارسيلياز» والأعلام، والأبطال. وهي التي بثَّت النشاط في صفوف الشعب. كما اتخذت الأهداف الملموسة شكل الاهتمام العميق بالحدود، وبالأراضي المقتطعة، وكذلك «بالاخوة»، التي يجب استعادتها من الأسْرِ الاجنبي. وبشكل اكثر عمومية، بقوة ومجد الدولة، بصفتها التعبير الرسمي عن الأمة. بذلك اصبحت الدولة، هي الشكل المؤسسي للعقيدة الجديدة السائدة، مع الزعم بالانفراد بالتزام الإنسان النشيط بها. هذا الإنسان الذي أصبح يوصف الآن اولاً، وقبل كل شيء بأنه: المـواطن[6].

ما لا يشكّ فيه، ان الحداثة وهي تنشئ «الإنسان المواطن» في مجرى تشكيلها للأطرحة القومية، كانت تؤسس لعلاقات جديدة في تطور الإنسان بصفته كائناً اجتماعياً له حرية الاختيار. وقد ادى ذلك - بحسب عدد من علماء الاجتماع - الى تقوية فكرة المساواة أمام الله، بفكرة المساواة أمام القانون. حيث تدعّمت المساواة الروحية بالمساواة القانونية. ومن الجدير بالملاحظة ان المساواة القانونية كانت حاضرة في صميم الثورة الأميركية، لكنها كانت في الوقت عينه متلازمة مع المساواة الروحية، وذلك في اطار الارتباط الوثيق بالقيم الدينية. وثمة من يذهب الى ملاحظة جوهرية، قوامها، ان فكرة المساواة القانونية مستمدة اصلاً من القيم الدينية. وهذه نقطة افتراق مهمة بين الثورتين

---

(6) ز. بريجنسكي، بين عصرين، مصدر سبق ذكره، ص 87

الأميركية والفرنسية. اذ إن هذه الاخيرة ابتنت فكرتها عن المساواة الانسانيةعلى رفض صريح للاتجاه الديني[7]. في حين اتخذت الثورة الأميركية بأطوارها المختلفة من الإيمان واللّاهوت المسيحي البروتستانتي مراجع تغتذي منها، وتسدِّد بها روحها، وحركتها الاجمالية، وازمنتها اللاّحقة.

وبحسب ما هو معلوم فقد ظهرت القومية على نحو ما جاءت به الثورة الفرنسية، كتحديد صارم لهوية الإنسان ككائن دنيوي تاريخي. وتبعاً لهذا التحديد نضج المفهوم الكلاسيكي للقومية. وفي ظل المفهوم الكلاسيكي إياه، اهتز الخط الفاصل بين «الإنسان الصوفي»، اي المؤمن والمعني بعلاقته المباشرة بالله، والإنسان الخارجي المعني بتشكيل بيئته. الاجتماعية. فالقومية كايديولوجية كانت - بحسب فلسفة بريجنسكي السياسية - اكثر تنشيطاً. فقد تم تجسيد العلاقة الخارجية بين الإنسان والإنسان بنماذج قانونية لا تعتمد على الوعي الذاتي للشخص المعيّن كما هي الحال في علاقة الإنسان، بالله. ومع ذلك، ففي الوقت نفسه أخذ تعريف الانسان «كقومي» يتركَّز بشكل كبير على مكوّنات مجردة ومحددة تاريخياً وعاطفياً لدرجة عالية. وقد اشتملت هذه النظرة على قدر كبير من الغموض. ثم ينتهي بريجنسكي الى القول، «إن القومية أدت جزئياً الى مضاعفة إدراك الإنسان لنفسه. فلقد عبّأت الناس بشكل نشط، ولكنها فشلت في تبيين كفاءاتهم الحيوية، ولقد كانت ادنى إلى عَرَبَةٍ كبيرة عامة تحمل النوازع الانسانية وتلهبها خيالاً، اكثر من كونها إطاراً مفاهيمياً يجعل من الممكن تشريح واقعنا، ومن ثم إعادة ترتيبه بإرادتنا»[8].

لم يكن بريجنسكي وهو يمضي في توصيفه للقومية، ينطلق من تجريد نظري وفلسفي، فقد كانت التجربة الأميركية حاضرة حضوراً بيّناً في فكره. صحيح أن الكلام على المسألة القومية اتخذ عناصره الأساسية من تجربة القومية الاوروبية، لكن هذه العناصر، هي أميركية الى هذا الحد او ذاك، مع تخصيصات سوف

(7) المصدر نفسه، ص 88

(8) المصدر نفسه، ص 88

يتناولها في سياق مطالعته حول ما يسميه بـ«الثورة الأميركية الثالثة». لقد وجد وهو يمضي في استكشافاته المعرفية، أن من السهل حصر تعريف الثورة الفرنسية، او المكسيكية، او البولشفية، أو الصينية، او الكوبية، ومن جانب آخر سيجد أنه ليس صعباً تحديد طبيعة الثورة الأميركية الأولى: من مستعمرة جعلتها الثورة امة، وأثمرت المعتقدات البسيطة والقوية إعلان الاستقلال والدستور، وكلاهما يجمع مبادئ جديدة للنظام السياسي والاجتماعي... غير أن التعريف التاريخي برأيه كان أشد تعقيداً لدى تناول الثورة الأميركية الثانية، وبالتحديد لجهة متى حدثت هذه الثورة، وما الذي أنجزته؟ وعلى الرغم من ان هذه الثورة لا يمكن حصرها بالدقة نفسها التي تميَّزت بها الثورة الأولى، فإن الحقيقة الثابتة أن مجتمعاً ريفياً في الأساس وارستقراطياً بشكل جزئي، وفيه حتى ملاَّك عبيد، وله نظام سياسي تمثيلي محدود، قد تحول إلى أمة حضرية صناعية (...) أما الثورة الأميركية الثالثة فإنها ـ على قراءة بريجنسكي التحليلية ـ أصعب من سابقتيها حتى في مجرد تحديدها وتعريفها. ومع ذلك يرى أن من الأسهل ان نعرّفها في احد جوانبها بما يميزها عن الثورة الثانية، لأن اثرها وتأثيرها هو اكثر تركيزاً من الناحية الزمنية. لقد بدأت الثورة الأميركية هذه تجمع عواملها الدافعة بعد الحرب العالمية الثانية مع التحاق الجنود المسرّحين بشكل واسع بالكليات، مع ما صاحب ذلك من انفجار في التعليم العالي والقبول المتزايد بالأولوية الاجتماعية للتعليم، بالإضافة إلى الميلاد المفاجئ للاتصالات القاريّة السريعة، ناهيك عن ظهور العقول الالكترونية مع ما أدت اليه الثورة التكنو-الكترونية، من إحداث تغيير في المؤسسات، والقيم الاساسية في المجتمع الأميركي. وهي في هذه العملية ولَّدت «ثلاث أميركات» في واحدة كما يقول: هناك أميركا الجديدة الآخذة في الظهور، وهناك أميركا الصناعية- أميركا الثانية. وهناك أميركا الأولى، أي أميركا ما قبل الصناعية التي يشكلها الحصّادون والعمال المشاركون من دلتا المسيسبي وعمال المناجم القدامى[9].

(9) المصدر نفسه ص 196

وفي سياق تسديد منظوريته حول الثورة الأميركية الثالثة، يستحضر بريجنسكي ما سبق ان قاله الفيلسوف جون لوك من أنه في بداية التجربة كان المشهد يُفضي الى أن كل العالم أميركا، واليوم كذلك يظل كل العالم أميركا. بمعنى أن أميركا تندرج في الطليعة لجهة ممارسة المشاكل الاجتماعية، والنفسية، والسياسية، والايديولوجية، التي ولدتها ومكَّنت الإنسان فجأة من نوع من السيطرة لم يسبق لها مثيل على البيئة المحيطة به وعلى نفسه (...) لذا فالثورة الأميركية الثالثة إذ تحدث في مرحلة من المعتقدات المتطايرة، والتغيُّر التكنولوجي سوف تحدِّد دور أميركا بوصف كونها المجدّد الاجتماعي الذي يستغل العلم في خدمة الانسان، ولكن من دون ان يحدد مستقبل الانسان بطريقة جامدة (...) ومهما يكن من أمر، فالخلاصة التي يراد بلوغها من وراء منظورية كهذه، هي أن الحيوية التاريخية لنظام الولايات المتحدة، تقوم على التزام الشعب الأميركي العميق الجذور بفكرة التغيير الديموقراطي. لكن مثل هذا التغيير سيأخذ منحاه الخاص في التقليد والممارسة الأميركية، حيث كان التعبير الحر عن الرأي الفردي والجماعي يتم في اطار الهرم الاجتماعي. الأمر الذي شكل ذلك عاملاً اساسياً يجعل المعارضة والاختلاف فائضاً تاريخياً عبر تحوير وتبني برامجها[10].

في التغاير عن هوية المنشأ

ثمة عنصر آخر مكوِّن للخصوصية القومية الأميركية يعو الى بلاد المنشأ. فقد كان الأوروبيون ينظرون الى الأمة الجديدة المولودة على أنها أمة مغايرة للأنساق والتقاليد العريقة التي نهضت عليها الدول/ الأمم في الاحقاب المختلفة لأزمنة التنوير. اما الأميركيون الذين اخذوا يصوغون مكانهم الجديد بدأب استثنائي، فقد غمرتهم الثقة بالإقتدار، والإحساس بأنهم في تجربتهم إنما يصنعون تاريخاً آخر للحضارة الإنسانية.

(10) المصدر نفسه ص 245

كان ثمة لدى الأميركيين ضربٌ من الشعور بعظمة الميثاق الذي شيَّدوا على هَديِهِ عَقْدَهم السياسي والاجتماعي. حتى ان توماس جيفرسون سيفصح بلا ادنى تردد بأنه مقتنع بعدم وجود اي دستور سبق له ان دُرِسَ بعمق، وفُصِّل بشكل جيد مثل دستور أميركا، ليكون صالحاً لامبراطورية واسعة. وسيظهر على لسان الرئيس فرانكلين روزفلت فيما بعد المعنى نفسه حين قال: «دستورنا شديد البساطة والعملية بما يمكّنه الاستمرار في تلبية حاجات خارقة للعادة عن طريق تغييرات في التأكيد والترتيب من دون إضاعة الشكل الجوهري...» ومثل هذا الكلام على الدستور سوف ينعكس بتقويمات موازية للثورة الأميركية الاولى. فقد وصفها كثيرون بأنها لحظة تجديد وتفجّر عظيمين في سيرة تاريخ السيادة الحديثة. فمشروع الولايات المتحدة الدستوري المنبثق من نضالات الاستقلال، متشكّلٌ عبر تاريخ غني بالإمكانيات البديلة، وقد تفتَّحَ كوردةٍ نادرة في حديقة تراث السيادة الحديثة... ومن شأن تتبّع المسار الأصلي لتطورات فكرة السيادة في الولايات المتحدة، أن يمكّنِنا من التعرّف على أوجه اختلافها المهمة عن السيادة الحديثة، وهي التي دأبنا على وصفها إلى الآن، وبقينا نعتبرها بمثابة الأسس التي قامت عليها سيادة امبراطورية جديدة[11].

ثلاث سمات سيادية مميزة

لدينا الآن تظهير لثلاث سمات تميز الوضع السيادي الأميركي نوردها على الشكل التالي:

ـ أولى سمات فكرة السيادة الأميركية المميزة، هي أنها تسوّق رأياً يقول بكمون السلطة، وذلك على خلاف الطابع المتسامي للسيادة الأوروبية الحديثة. اما فكرة الكمون هذه، فهي تستند الى رأي قوامُهُ القول بـ«الإنتاجية». اي ان

---

(11) مايكل هاردت وانطونيو نيغري، الامبراطورية، امبراطورية العولمة الجديدة، تعريب فاضل جتكر، مكتبة العبيكان، الرياض، المملكة العربية السعودية 2002، ص 242.

الجمهور هو الذي ينتج السلطة السيادية. وإلا فإن من شأن المبدأ أن يبقى مشلولاً. فالجمهور المؤسِّس للمجتمع هو جمهور منتج. وبالتالي فإن سيادة الولايات المتحدة، لا تقوم على ضبط الجمهور وتنظيمه، بل هي تنشأ وتنبثق، بالأحرى، نتيجة الأشكال المنتجة للتعاون بين أفراد الجمهور. لقد دأبت النزعة الإنسانية لثورة عصر النهضة، وكذلك جملة التجارب اللَّاحقة لحادث «الانشقاق البروتستانتي، على تطوير فكرة الإنتاجية هذه. وهو ما أشار إليه ماكس فيبر في أطروحاته التي ترى ان الانسجام مع الأخلاق البروتستانتية سوف تجعل المرء المعتقد بها يقول: «إن ما من شيء يبيِّن وجود الله، وحضور العناية الإلهية في الأرض، غير القوة، أو السلطة الإنتاجية للجمهور»[12].

على مثل هذا السياق من التنظير السيادي، لا تعود السلطة شيئاً يتسيّد على المجتمع، بل هي شيء يصنعه الجمهور بأيديهم. وتحرص وثيقة إعلان الاستقلال الأميركية على الاحتفال بفكرة السلطة الجديدة بأوضح العبارات، من مثل أن تحرير البشرية من جميع أشكال السلطة المتسامية، لا يقوم الا على قدرة الجمهور على بناء مؤسساته السياسية الخاصة، وتأسيس المجتمع.

- السمة الثانية المميَّزة لفكرة السيادة الأميركية، هي التي تقوم على كون مبدأ الإنتاج المؤسِّس لا يلبث أن ينتهي إلى انعكاس ذاتي هو اشبه بـ«رقصة باليه ديالكتيكية». ففي عملية تأسيس السيادة على مستوى الكمون والتأصُّل في الجمهور، تبرز أيضاً محدودية، او تناهٍ، ناجمة عن الطبيعة الصراعية والتعددية للجمهور نفسه. في هذه الحال يبدو مبدأ السيادة الجديد قادراً على إنتاج حدِّه الداخلي. ومن أجل منع هذه العقبات من نسف النظام، او إفراغ المشروع كلياً من محتواه، ينبغي على السلطة السيادية ان تعتمد على ممارسة التحكّم. وبعبارة أخرى، بعد لحظة التأكيد الأولى، يأتي نفي ديالكتيكي لسلطة الجمهور

---

(12) The Protestant Ethnic and the Spirit of Capitalism, trans. Talcott parsons (New York: Scribner's, 1950).

المؤسِّسة، من شأنه ان يحافظ على غائية مشروع السيادة (...) صحيح ان الحصيلة هي نوعٌ من تهديد دائم، غير ان مفهوم السيادة الأميركي، لا يلبث، بعد الاعتراف بجملة هذه الحدود الداخلية، ان ينفتح، بقوة غير عادية على الخارج، كما لو كان راغباً في شطب فكرة التحكم، ولحظة التأمُّل في دستوره بالذات.

- اما السمة الثالثة المميِّزة لفكرة السيادة، هي نزوعها نحو مشروع مفتوح متسع يمارس نشاطه على أرضية غير محدودة. وعلى الرغم من أن نص دستور الولايات المتحدة شديد الحرص على التنبُّه الى لحظة الانعكاس الذاتي، فإن حياة الدستور وممارستها، على امتداد تاريخها القضائي والسياسي، بالغتا في الانفتاح على حركات متسعة، وذلك عبر الإعلان المتجدد لأساس السلطة الديمقراطي. لأن مبدأ الاتساع يبقى على الدوام في صراع قوي التقييد والتحكُّم[13].

ولو شئنا أن نرى إلى المشهد الإجمالي للاختبارات الأميركية على هذا المستوى، لوجدنا ما يفضي إلى الصورة التالية:

في أولى مراحل الدستور، وتحديداً بين رئاستي توماس جيفرسون وآندرو جاكسون، أصبح الفضاء المفتوح للحدود، هو الساحة النظرية للديمقراطية الجمهورية. والاهم من كل ذلك، هو أن هذه الساحة الأميركية كانت خالية من أشكال «المَرْكَزَة» والتراتبية الهرمية المميزة لأوروبا. وهنا يتفق، كل من ألكسيس دو توكفيل وكارل ماركس، ومن منظورين متعارضين حول النقطة التالية: «لا يتطور المجتمع المدني الأميركي في الأصفاد والأغلال الثقيلة للسلطة الإقطاعية والارستقراطية، بل ينطلق من أساس مختلف الى أبعد الحدود». من جهته كان ماركس - على ما ينقل عنه توكفيل - يقوم بتوصيف دقيق للنشأة الأميركية حين أوضح الجذور الاقتصادية للولايات المتحدة لدى تحليله لكتابات الاقتصادي الأميركي هنري تشارلز كيري. ففي رأيه ان الولايات

(13) مايكل هاردت وانطونيو نيغري، مصدر سابق، ص 249.

المتحدة بلد لم يتطور المجتمع البورجوازي فيه على أساس النظام الإقطاعي، بل إنه تطوّر من ذاته على ما يبدو[14].

صناعة الوعي القومي

يمكن الكلام على سياق فريد في عمليات تكوين الوعي القومي الأميركي. يُفصح عن هذا السياق ما يمكن وصفُهُ بـ«الزمن القومي الخاص».

ربما لم يشهد مجتمع أو أمة ضرباً من القطيعة الانثروبولوجية مثلما شهدت أميركا. فمن سمات الجماعة الاستيطانية أن الزمن يبدأ عندها من اللحظة التي يجري فيها الاستيلاء على المكان الذي استوطنته. كان على المهاجرين إلى الأرض الجديدة، سواء منهم الذين وفدوا من اسبانيا او انكلترا، ان يصوغوا وعياً جماعياً مؤدّاه، أن لا تاريخ لأميركا إلا بهم. وان هويتهم الثقافية لا تولد، وتنمو وتتبلور إلاّ داخل المكان الجديد.

هناك فرضيتان معاصرتان ساقهما، في هذا الخصوص الأكاديمي و الخبير في الشؤون الأميركية البروفسور غودفري هودغسن (Godfry Hodgson) على الوجه التالي:

- الفَرَضية الأولى، إن الولايات المتحدة بلد ذو وعي صَقَلَته الهجرة. وأن الكثيرين من الأميركيين يسعون للبرهنة على أنهم هم أنفسهم، أو أحد أفراد عائلتهم قبلهم، كانوا على حق في الذهاب للعيش في الولايات المتحدة. وهم يجدون من الأهمية بمكان أن يبرّروا خيار جدِّهم، او والدهم، او خيارهم بأن يصبحوا أميركيين، إن هذا - بحسب غودفري - ما يحدد مواطنية غير عفوية. حيث بدا للأميركي ان الوطنية الإرادية هي حالة خاصة بالولايات المتحدة، وتالياً فهي أمر غير موجود، حتى في دول هجرة أخرى.

- الفرضية الثانية، أن الأميركيين يخضعون منذ نعومة أظفارهم الى نوع من الدعاية السياسية التي تصوّر لهم بلدهم على انه البلد الذي تسير الأمور فيه على

(14) Demoocracy in America, Vol. 1, Chaps. 2 and 3, pp. 26-54.

خير وجه.. وعلى انه أفضل من أي مكان آخر، خصوصاً لأنه - بحسب اعتقادهم - بلد المساواة، حيث جميع الناس هم على المستوى الإنساني نفسه. ويبيّن غودفري هنا، ان قوة الايديولوجيات الأميركية هي بلا شك وراء هذا الإنكار للتفاوتات الاجتماعية، وهي ايديولوجيات تُنقَل ليس فقط عبر التعليم، بل أيضاً عبر وسائل الإعلام. مع الإشارة إلى أنها وسائل غير نقدية تجاه النموذج الاجتماعي الأميركي، ولأنها مقتنعة بأن هذا المجتمع هو مَثَلٌ يحتذى لكل العالم، ولذا فهي عنيفة تجاه المؤسسات والأفراد الذين يسقطون تحت مستوى النموذج.

ومهما تكن حدة القطيعة التي دأب عليها «فلاسفة الاستيطان»، في سياق عملهم على صناعة الوعي الايديولوجي للمكان الجديد، فقد بقيت موروثات الثقافة الأوروبية القادمة من البلاد الأصلية محفوظة في قاع الذاكرة. وهي ثقافة تُستَحضَر كلما استلزمت مراحل تطور النموذج الأميركي ذلك. وهو ما سنجده في احقاب متأخرة، حيث نجحت حكومة المحافظين الجدد في إدارة الرئيس جورج بوش وخصوصاً بعد صدمة 11 أيلول/سبتمبر، في جمع ثلاثة عوامل قوية جداً من الشعور القومي الأميركي. وهي عوامل تجد لها كما سيتبين لنا بعد قليل - سوابق متينة في تاريخ البلدان الأوروبية الكبرى:

- العامل الأول: هو الرغبة في القيام بهجوم مضاد وسريع عندما تصدّ هجوماً ما، او حين تريد ان تغسل عاراً. في حين وجد كثيرون من الباحثين والمفكرين ما يبرر ذلك، لا سيما بعد هجمات 11 سبتمبر 2001.

- والعامل الثاني: هو الاقتناع بأن أميركا بلد مختار من الله، وان استعمالات قوته لها ما يبررها. وهذه الفكرة عن البلد المختار ليست حكراً على أميركا، ذلك ان جميع البلدان الأوروبية تشاركها ذلك إلى حد ما. ومع ذلك فإن الأحداث المروّعة في أوروبا في سنوات 1914 و1945 التي استمرت مع الحروب الاستعمارية التي تلتها، زعزعت هذا الإيمان، على الأقل في شكله التقليدي والقاطع. وبسبب من عزلة أميركا وتاريخها الأكثر هدوءاً خلال القرن الماضي احتفظ هذا الإيمان لديها بكل زخمه، وهو يغذي ما يمكن

تسميته بـ«جوقة الأساطير» التي ترافق العقيدة الأميركية القومية وهي: أساطير البراءة، والطيبة، وفعل الخير، والانتصار الحتمي.

- اما العامل الثالث، فيتمثل بارتباط هذه الأساطير بما يجوز وصفه بـ«الصيغة الدنيوية للإيمان»، أي بمكانة أميركا التي قررها الله. وهي فكرة تقوم على أن الولايات المتحدة هي حاملة اللواء والنموذج الامثل عن الديموقراطية والحرية ولديها القدرة، الحق في نشر قيمها في سائر أرجاء العالم(15).

قومية على حدِّ الاستثناء

الى هذه العوامل الثلاثة المجتمعة التي انتجت مزيجاً من المشاعر القومية ذات القوة الفريدة، ثمة مكوِّنات تضرب جذورها في أزمنة التأسيس الاولى للأطروحة الأميركية. وذلك ما سنأتي إليه في خلال السياق المستأنف لهذا الفصل.

دار جدل طويل بين المفكرين والمؤرخين الغربيين، ولا سيما بين الأميركيين، حول السمات المميزة للتشكيل التاريخي للدولة والمجتمع في أميركا. كان ثمة ما يشبه الاجماع على الطابع الاستثنائي لهذا التشكيل. ومردُّ الأمر الى كون النشأة الأميركية، وسَيْريَّتها اللاَّحقة اتَّخذتا اتجاهات مغايرة لما اتخذته نشآت الدولة، والأمة، والقومية في اوروبا. ولكن على الرغم من هذه المغايَرة، فإن ثمة من وجد إمكاناً للكلام على قومية أميركية، ولكن ضمن حقل مخصوص مشبع بالمفارقات.

هذا النوع من المفارقات سيمضي الى مطالعته الباحث البريطاني منكسن باي Minxin Pei حين يرسم علامتين فارقتين للولادة المتناقضة للقومية الأميركية:

تقول العلامة الفارقة الاولى، إنه على الرغم من أن الولايات المتحدة دولة

---

(15) Godfry Hodgson - "Le Débat" Paris, Janvier - Février - 2005.

لديها شعور قوي بالقومية، فهي في الحقيقة، لا تعتبر نفسها دولة قومية الى هذا الحد.

وتقول الثانية: إنه على الرغم من المستوى العالي للقومية في المجتمع الأميركي، إلا ان واضعي السياسة في الولايات المتحدة، لا يقدّرون جيداً قوة القومية في المجتمعات الاخرى، إذ انهم لم يظهروا أية مهارة، أو حساسية، في التعامل مع مظاهرها في الخارج(16).

هاتان الملاحظتان المتناقضتان في الشعور القومي الأميركي، لا يمكن وقفهما على التفسير الاختزالي الذي يُرجع الأمر الى نزعة الاستعلاء والغلبة. فهذه النزعة هي نتيجة لمقدمات تأسست ايضاً على المفارقة. ذلك أن القومية الأميركية التي نمت في فضاء المهاجرين، لا يمكن ان تُعرّف بمفاهيم التفوق العرقي التي وسمت التشكُّلات القومية التقليدية الاخرى، وإنما - كما تؤكد الثقافة التاريخية التي ارساها المؤسسون الاوائل - بالإيمان بتفوق المثل الديموقراطية لأميركا.

لا يُقصد من هذا التأصيل، بطبيعة الحال، الإقصاء، أو التقليل من فاعلية الشعور القومي لدى الأميركيين، فهذا الشعور حاضر بفعالية خصوصاً في اللحظات التي يرتفع فيها منسوب الإحساس بأخطار محدقة. وبهذا المعنى يمكن اعتبار القومية الأميركية قوة معنوية كامنة ومستترة. لكنها لا تلبث حتى تنفجر بقوة عندما يبدو ان أميركا امام خطر محدق. وحتى لو رأى الأميركيون انفسهم بوضوح الى صورتهم القومية فإنهم - كما يشير باحثون كُثر - لن يدركوا مفهومها لأنها تختلف عن تلك السائدة في البلدان الاخرى. حيث تمتاز عنها بثلاث مزايا يمكن إجمالها على النحو التالي:

- اولاً: تقوم القومية الأميركية على المبادئ السياسية، لا على التفوق العرقي والثقافي. ويتناسب هذا المفهوم كلياً مع مجتمع لا يزال يرى نفسه

---

(16) منكسن باي، مفارقات القومية الاميركية The Paradoxes of American Nationalism نقلاً عن فصلية الشؤون الخارجية (Foreigne Affairs) أيار/مايو حزيران/يونيو 2003.

خليطاً من الأعراق والثقافات التي تنصهر في مواطنية واحدة. ربما من هذه الحيثية الاعتقادية بالذات سوف يعلن الرئيس جورج بوش في خطابه امام الكونغرس الذي ألقاه في الرابع من تموز/يوليو 2004 «لا يوجد عرق أميركي بل عقيدة أميركية فقط». إذ يبدو تفوق هذه العقيدة بديهياً في عيون الأميركيين. فالمؤسسات والافكار السياسية الأميركية، المقرونة بالمنجزات العملية المنسوبة اليها، أقنعت الأميركيين بضرورة جعل مبادئهم عالمية. وعلى نحو معاكس، عندما يتعرض الأميركيون للتهديد، فهم يعتبرون هذا التهديد هجوماً ضد مبادئهم في المقام الاول، فلنأخذ على سبيل المثال الطريقة التي نظرت النخب الأميركية من خلالها الى هجمات الحادي عشر من ايلول/سبتمبر. إذ يؤكد معظمهم بأن هذه الهجمات تشكل اعتداءً على المؤسسات والحريات الديموقراطية في الولايات المتحدة.

- ثانياً: تفيد هذه المزيّة، النظر الى القومية الأميركية باعتبارها نزعة منتصرة لا مضطَهَدَة (بفتح الهاء) . والمُراد بذلك، أنه في معظم المجتمعات أدت أعمال الاضطهاد، في الماضي، الناجمة عن فعل قوى خارجية الى تعزيز القومية. لذا تعد البلدان التي كانت تخضع، في السابق، للاستعمار من بين اكثر المجتمعات قومية. ولكن القومية الأميركية تبدو على النقيض من النزعة القومية الناجمة عن الإضطهاد. ذلك لأنها تستمد معناها من الانتصارات التي تحققت في ايام السلم والحرب منذ تأسيس البلاد. وسنرى هنا كيف أن القوميين الأميركيين المنتصرين يفرحون بانتصاراتهم، ولا يتعاطفون كثيراً مع أنين القوميين المضطَهَدين الذين اختبروا في السابق، سلسلة متتالية من الهزائم والمذلاّت القوميـة.

اما المزية الثالثة فتلاحظ ما يلي: خلافاً للقومية في معظم البلدان، تتطلع القومية الأميركية قُدُماً، فالذين يؤمنون بتفوق المؤسسات، والقيم الأميركية، لا يفكرون في أمجادهم التاريخية على الرغم من أنها تشكل قلب الهوية الأميركية، بل يتطلعون إلى المستقبل من أجل زمن أفضل ليس في بلادهم فحسب، وإنما ايضاً في الخارج. وهكذا تتسم القومية الأميركية، بفضل ديناميكيتها، بالروح

التبشيرية وتتمتع بذاكرة جماعية قصيرة، وهو ما يؤدي إلى اصطدام هذه التطلعات المستقبلية والشاملة، مع التطلعات الخلفية والخاصة للقومية العرقية في البلدان الاخرى. لذا فإن الشرق الاوسط مثلاً الذي تطارده ذكريات الغزو العسكري الغربي منذ الحملات الصليبية، لا يسعه إلا أن يشكك بخطط الولايات المتحدة لتحرير العراق. أما في مسألة الصين، فإن دعم الولايات المتحدة لتايوان، التي تعتبرها الحكومة الصينية والشعب الصيني على حد سواء كمقاطعة منفصلة، هو من اكثر القضايا اثارة للنزاع في العلاقات الثنائية الجانب. فلطالما اعتبرت خسارة تايوان امام اليابان في العام 1895، او امام القوميين في العام 1949، رمزاً للذل والضعف القوميَّن[17].

القومية الأميركية في دائرة التوظيف

لقد بدا ان كل شيء قامت عليه الاطروحة الأميركية، ينطوي على قابلية التحريك أنّى تبدّلت ظروف ومعطيات الازمنة المتعاقبة. فمن طبائع هذه الاطروحة انها لا تملك العيش قي التجريد التاريخي. أي ضمن وضعية تتخللها فراغات قد تسمح بتسلل العيوب لاستراتيجياتها العليا الطموحة الى الغَلَبة. وعلى سبيل المثال فإن من مفارقات القومية الأميركية الفريدة من نوعها ما يفسّر عدم قدرة احد اكثر البلدان قومية في العالم على التعامل مع القومية في الخارج. وتعتبر حرب فيتنام خير مثال على خاصيَّة التناقض في القومية الأميركية. وقد ادى التوافق بين القيم السياسية الشاملة للولايات المتحدة اي معاداة الشيوعية، والمعتقدات المنتصرة في السلطة الأميركية، والذاكرة القومية القصيرة، الى سياسة مشؤومة اصطدمت بقومية الفيتناميين. وهم شعب عُرِفَت تجربته القومية بمقاومة السيطرة الاجنبية الصينية والفرنسية، وكان هدفه الأهم تحقيق الاستقلال والوحدة، وليس نشر الشيوعية في جنوب غرب آسيا.

لم تُعِر الولايات المتحدة اهتماماً كبيراً في تعاملها مع مختلف المجتمعات

(17) منكسن باي، المصدر نفس.

الاخرى ذات القومية العالية، لدور القومية في دعم واعطاء الشرعية لتلك الانظمة التي تعتبرها البلاد عدائية، فقد تجاهلت سياسة الولايات المتحدة تجاه الامم العواطف القومية القوية، كما في الفيليبين والمكسيك) وسمحت للقومية الأميركية من خلال النزعة الايديولوجية للسوق الحرة، بالمبالغة في عدائها للايديولوجيات الشيوعية التي تؤيدها الحكومات المنافسة (كما في الصين وكوبا. لقد كان الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر يتصف بقومية عربية نشأت نتيجة الاستعمار، وهي قومية رافضة لأي تحالف استراتيجي مع الولايات المتحدة، او المعسكر السوفياتي، ما اربك الجنرالات في واشنطن الذين لم يستطيعوا قبول بقاء اي بلد ضمن وضعية حيادية في مسألة النضال ضد التوسع الشيوعي.

ونستطيع اليوم، سماع اصداء هذه الافكار الثابتة في التحذير الذي تطلقه الولايات المتحدة في حربها ضد الارهاب وهو «إما ان تكون معنا او ضدنا». وعلى أية حال فلسوف يؤدي هذا العجز المستمر في التعامل مع القومية في الخارج الى ثلاث نتائج مباشرة:

- الاولى ثانوية نسبياً، وهي تكمن في الامتعاض الكبير الذي يولِّدُه عدم مبالاة الولايات المتحدة لدى الحكومات الاجنبية وشعبها.

- الثانية، وهي حتماً اكثر أهمية، وتكمن في ارتداد تلك السياسات القاسية على الولايات المتحدة، ولا سيما لدى محاولتها إزالة الانظمة العدائية في الخارج. في النهاية، تعتبر القومية احدى الايديولوجيات القليلة البسيطة التي يمكن ان تنافس القوة الليبرالية الديموقراطية. فلنأخذ على سبيل المثال التطورات النووية في شبه الجزيرة الكورية. حيث ان القومية المتزايدة لدى الشباب في كوريا الجنوبية، والتي ترى إلى كوريا الشمالية كبلد نسيب لها وليس كعدو رغم المشكلة القائمة بينهما، لم تظهر بعد في حسابات واشنطن التي تتعلق بوضع بيونغ يانغ الخطير. ففي هذه الحالات، كما في حالات سابقة مشابهة، تعمد السياسات الأميركية باستمرار، من خلال تأثيرات ضالَّة، الى

تحويل آراء الشعب في الدول الحليفة، وحثّهم على دعم الانظمة التي تقوم تلك السياسات بتوجيهها.

- اما الثالثة فتلاحظ التالي: نظراً للوضعية القومية التي تدير السياسات الأميركية، يبدو السلوك الأميركي في الخارج، من دون شك، زائفاً بالنسبة الى الآخرين. ويظهر هذا النفاق جلياً عندما تعمل الولايات المتحدة على إضعاف المؤسسات العالمية بحجة الدفاع عن السيادة الأميركية (كما حصل في إتفاقية Kyoto، والمحكمة الجنائية الدولية). إن رفض مثل هذه الاتفاقات الدولية قد يعود بالفائدة على الولايات المتحدة، ولكن غير الأميركيين يجدون صعوبة في التوفيق بين المبادئ الأميركية الشاملة، والمصالح الوطنية المحدودة التي يبدو أن حكومة الولايات المتحدة عازمة على السعي وراءها في الخارج. ومع الوقت فقد يؤدي مثل هذا السلوك الى القضاء على مصداقية أميركا وشرعيتها بين الدول. وفي أي حال، لو كان المجتمع الأميركي اقل انعزالاً عن غيره من حيث الجغرافيا والمساحة، لكانت هذه الآراء المتضاربة حول القومية اقل حدة. وللتوضيح اكثر، فإن الانعزال المادي لم يضعف من إيمان الأميركيين في دعوة العالم الى اتباع افكارهم السياسية. فقد قامت الأمة الأميركية على مبدأ ان الشعب بكامله، ليس فقط الأميركيون يملك بعض الحقوق غير القابلة للتحويل. وقد انتقل هذا الشعور بالقومية عبر اجيال متعاقبة بدءاً من رؤية الرئيس السابق فرانكلين روزفلت لعالم يستند إلى اربع حريات، وصولاً الى المطالبات بالكرامة الانسانية التي يعتبرها الرئيس بوش الابن غير قابلة للتفاوض.

ولكن الانعزال النسبي للولايات المتحدة الذي ادى حتماً الى معرفة غير وافية بالبلدان الاخرى، ولّد حاجزاً كبيراً مَنَعَ التواصل بين الأميركيين والمجتمعات الاخرى. ووفقاً لاحصاء اجراه حديثاً مركز Pew Global Attitudes، تبيّن أن 22 في المئة فقط من الأميركيين سافروا الى بلد آخر في خلال السنوات الخمس الاخيرة بالمقارنة مع 66 في المئة من الكنديين، و73 في المئة من البريطانيين، و60 في المئة من الفرنسيين، و77 في المئة من

الالمان. كما ان ثورة المعلوماتية لم تعوّض النقص في التواصل المباشر مع المجتمعات الاجنبية. فخلال السنوات التي سبقت الحادي عشر من ايلول/ سبتمبر 2001، اعلن 30 في المئة فقط من الأميركيين اهتمامهم الكبير بالأحداث التي تجري في الدول الاخرى. وحتى بعد الهجمات التي حصلت في 11 ايلول/ سبتمبر 2001، لم يُعِر الشعب الأميركي اهمية كبيرة للاوضاع العالمية. وبحسب الاحصاءات التي اجرتها Pew Research center في اوائل العام 2002، افاد 62 في المئة فقط من الأميركيين بأنهم كانوا يتابعون اخبار الدول الاجنبية عن كثب و45 في المئة منهم قالوا بأنهم لا يكترثون للاحداث العالمية. واستناداً الى كثير من المعطيات المشابهة، تثير القومية الأميركية في الخارج مشاعر ممتزجة بالمثالية السياسية، والفخر الوطني، والتعصب النسبي، وعلى هذا النحو نجد ان الكثيرين معجبون بمثاليتها وشموليتها، وتفاؤلها. ويدركون انه لا غنى عن السلطة الأميركية وقيادتها من اجل تحقيق السلام والازدهار في انحاء العالم كافة. في حين نجد ان آخرين يرفضون القومية الأميركية كونها تعبر عن قوة استبدادية ومضللة، وفوق هذا فإنها تعتبر نفسها محقة. وعلى العموم، يُعتبر هذا التناقض العالمي اكثر من مجرد ثرثرة. ولكن عندما تقود القومية الأميركية سياسة البلاد الخارجية، فهي بذلك تقوم بتوليد معاداة لأميركا واسعة النطاق. لذا نجد من غير الممكن تجاهل التناقض والتوتر اللذين تتمتع بهما القومية الأميركية، ناهيك عن الاذى الذي يسببانه للشرعية الأميركية في الخارج[18].

الايديولوجيا كتجلٍّ لوحدة الدين والقومية

بدأت أميركا اطروحتها بالايديولوجيا التي ظهرت كتجلٍّ لاتحاد الدين بالنزعة القومية. وكان لا مناص لها من ذلك، لكي تؤسس لأطروحة الدولة /

(18) منكسن باي - المصدر نفسه.

الأمة . تلك التي حملها المستوطنون الاوائل الى الارض المكتشفة ليبنوا عليها مدينتهم الفاضلة. ومع هذا فقد عصف بالايديولوجيا الوهن، ليحل محلها العقل والعلم والتكنولوجيا. لكن الغريزة الايديولوجية ظلت كامنة في الروح الأميركية لتعود وتنفجر في اللحظة التي راح يشعر فيها أحفاد المؤسسين أن امة اجدادهم ظمأى الى ما يمدُّها بأسباب القوة والاستمرار.

فإذا كانت أميركا تأسست بالايديولوجيا، فإن إعادة تأسيسها لا يبدو انه يجري الاَّ بالايديولوجيا. لذا سنرى ان صورة أميركا تبدو على الدوام، وكأنها لا تزال في طور التأسيس. لقد ادرك الايديولوجيون الرواد الذين اسسوا لثورات القرن العشرين مثل لينين، وتروتسكي، وماوتسي تونغ وروجي ديبورا، وجمال عبد الناصر والإمام الخميني.. ضرورة عدم الركون للدولة بعد الثورة. هؤلاء وسواهم أوصوا بـ«الثورة في الثورة» وبعضهم بـ «الثورة الدائمة» وآخرون بـ "دولة الخلاص والعدل" العالمية. ذلك ان ديمومة فكرة البقاء عبر الايديولوجيا هو السبيل الاوحد للاستمرار والتكيّف، واعادة انتاج حضورها وسيطرتها في العالم.

لكن الانتصار الابرز للأميركيين بعد الحرب الباردة، سوف يتمظهر بكل تأكيد، عبر الحضور الكلي لايديولوجيتهم. فالليبرالية، وهي اكثر من مجرد عقيدة اقتصادية، تمثل ايضاً رؤية قويمة للعالم. وعلى ما يبين المفكر الاوروبي ميشال بوغنون - موردان. فقد استقبلها الكثير من المالكين ومجموعات المصالح بوصفها نعمة وخلاصاً. لقد صارت الليبرالية رؤية وعقيدة تخدمان مصالح الأميركيين وتنقذان المظاهر الأخلاقية، على الاقل، ما دامت الليبرالية كمفهوم، تنطوي على ركيزة دينية. وهنا يورد بوغنون ما سبق أن لاحظه الكسيس دو توكفيل من انه: لدى الكلام على الأميركيين يجب اعتبار الدين بمثابة المؤسسة السياسية الاولى». ثم ان جمهور الناس، اولئك الذين لا يفهمون شيئاً كثيراً من الالعاب السياسية والاقتصادية، اقتنعوا بفعل الحملات الاعلامية، بعدم وجود اية عقيدة افضل من هذه العقيدة. فبعد حقبة كارتر،

الرئيس الأميركي الوحيد الذي يبدو انه آمن ببعض القيم وضرورة الثقافة في السياسة الأميركية، انطلقت «العقلية الصليبية» من كل عقال[19].

حين تكون صناعة الليبرالية وفقاً للمزاج الأميركي غير منفصلة عن الفاعل الديني، فمن البديهي ان يتحول مركب الدين/الدولة الى ضربٍ من صيغة ايديولوجية بالغة اليقين. ولأنها كذلك، فإن مثل هذه الايديولوجية سوف تنتهي إلى حالة شمولية توتاليتارية بامتياز. ولو عرّفنا التوتاليتارية بأنها «قوة احتوائية»، بمعنى سعيَها وتخطيطها لامتلاك مجملِ ما يقع تحت قبضتها، واخضاعه لنظام عملها، فسيكون النسقُ الأميركي مطابقاً لمثل هذا التعريف. ولقد وجدنا كيف ان الاطروحة الأميركية الاصلية قامت على احتواء الغير ضمن خرائط طرق شتى. اذ قبل ان تصبح أميركا على صورة الولايات المتحدة بصفتها الحديثة، كانت تعلن عن شمولية نمطها التنظيمي الخاص. ولم يَسْعَ مفكّروها - من اساتذة وكتّاب وكهنة ورجال دولة - لحظة واحدة، الى اخفاء هدفهم الاخير: فرض انموذجهم المجتمعي على بقية العالم. ولقد جرى ذلك في المقام الاول باعتماد صيغة «القدوة» اي بالعرض المثير، للصورة الساطعة لأمة جديدة، أمة اختارها الله لغاية وحيدة، هي تزويد كل الشعوب بالرسالة الوحيدة ذات المستقبل المصوغ بصورة زاهية. لكن، سرعان ما توارت الرغبة في اثارة الحسد امام اليقين بأن اذهان الآخرين عنوة - كائناً ما كان شكل الاكراه - امرٌ محتومٌ في مواجهة هذه الممانعة او تلك. فأميركا تعتقد نفسها مثالاً فاضلاً، وتريد ان تكون شمولية كلية لا تضاهى. وبهذه الصفة، لا تتصوّر ذاتها إلاّ كمتفوقة على مجمل المناطق التي يتحرك في داخلها افراد وامم، وترى أن من واجبها احتواءَها. وتتضاعف وتائر العصب الايديولوجي لدى الأميركيين إذ يجهرون بالقول، إن بلادهم هي العالم ما دامت العناية الالهية أمرت بذلك، وما دامت تجسّد نصاب العالم المقبل وفقاً للخطط الالهية، وبالتالي من المقدَّر أن تقع

(19) ميشال بوغنون، موردان، اميركا التوتاليتارية، الولايات المتحدة العالم الى أين؟، قدم له بيار سالينجر، تعريب خليل احمد خليل، دار الساقي، بيروت، لندن 2002، ص 244.

على كاهلها مسؤولية إملاء قانونها. اي القانون الذي شرّعته السماء وفرضته على الامم والشعوب[20].

لا تكتفي مشاعر العظمة لدى العصبية الأميركية عند حدود الخطاب الايديولوجي المألوف. فلا ريب ان بعض الشعوب والأمم عبّر عن اعتقاده عبر التاريخ بأنه مكلّف برسالة حضارية سامية. لكن ما تنفرد به أميركا، هو ان التقرير المشروع لوعي الذات كشخصية نادرة، قد ارتدى عندها رداءً مرَضيّاً. فإذا كان طبيعياً، على غرار كل جسم عضوي حي، ان تعرب كل امة عن رغبتها في تخليد ذاتها بلا مواربة، فإن أميركا من جهة خصوصيتها، تستشعر بهذه الارادة من خلال رغبة قوية لا حدود لها، ما دامت تؤمن بأن أصلها إلهي. فمنذ حلول أميركا في مكانها وزمانها الجديدين، أخذ يتجلى وعيها لذاتها في صورة تقرير مفرِط لتفوقٍ مطلق، وكذلك في صورة شخصية قومية مصابة بجنون العظمة في آن (. . . .) والى ذلك يصح الافتراض انه لو دُفعت التجربة قليلاً الى البعيد، وعُمِّقَ مفهوم التوتاليتارية، لتبيّن لنا ان أميركا المنطلقة من قوة احتوائية عادية، بلا حدود واضحة وخطوط جلية، اخذت تكتسب تدريجياً بُعداً بالغ التطور والتقنية. ويفضي مثل هذا التوصيف لحراك النفس التاريخية الأميركية الى جلاء البعد المخصوص للايديولوجية القومية لأميركا. وهو ما يذهب الى بلورته بعض المؤرخين حين ذهبوا الى ان الولايات المتحدة قامت شيئاً فشيئاً، انطلاقاً من نواةٍ ايديولوجية ذات محورين:

- الاول: الاقتناع بأنها كانت مكلّفة برسالة.

- والثاني: اليقين بأن أداء هذه الرسالة يستلزم استخدام كل الوسائل بلا تحريم. ومما يميّز السياسة الأميركية منذ مولدها: الثبات في العمل على قدر الديمومة في متابعة الهدف. وكذلك مواصلة الجوهر الايديولوجي المولِّد للعمل. ومعلوم ان هكذا سياسة بلغت ذروة قوة تحقّقُها في فجر القرن الثامن عشر، ثم تضاعفت وتائرها في مطلع القرن التاسع عشر.

---

(20) ميشال بوغنون، موردان، المصدر نفسه ص 246.

في اوروبا، كانت هناك قصة شديدة الاختلاف عما حدث في أميركا. الايديولوجيات الرئيسية في اوروبا التي كانت تأخذ الناس الى عالم حديث لم تكن دينية بل علمانية. لقد تركز اهتمام الناس على هذا العالم بدلاً من التركيز على عالم آخر، وكان ذلك جلياً في مؤلفات هيغل الفلسفية (1770 - 1831) الذي سعى إلى وضع «المتعالي» على بساط العالم الدنيوي. في كتابه «فينومينولوجيا الروح» / 1807 نجد ان الروح الكونية عند هيغل، باستطاعتها ان تنجز طاقتها التامة، اذا ما استغرقت نفسها في الشروط المحددة - اي المكان والزمان - بحيث يدرك ذلك تماماً في العقل البشري. بالتالي كان على الناس التخلي عن فكرة الله المتعالي القديمة لكي يفهموا انهم هم ايضاً مسيّرين شخصياً. أما الاسطورة - اي رؤية جديدة لمعتقد التجسيد المسيحي - فإن بالإمكان عدّها ايضاً، حسب هيغل، علاجاً للشعور بالاستلاب والغربة عن العالم الذي يعرفه الكثيرون من المعاصرين. لقد كانت هناك محاولة لإعادة تقديس عالم بدا خالياً من المقدس، بل ومحاولة إعلاء مفهوم العقل البشري الذي بدت قراراته قاصرة في فلسفة ديكارت وكانط. فقبل كل شيء، عبّرت اسطورة هيغل عن دينامية الحداثة التي ترمي الى الامام. وعلى نحوٍ لم يكن فيها إصغاء الى عصر ذهبي ماضٍ، لأن عالم هيغل يعيد استيلاد نفسه باستمرار. فبدلاً من الاقتناع المحافظ بأن كل شيء قد قيل، تصور هيغل سيرورة ديالكتيكية تظهر الكائنات البشرية فيها منخرطة باستمرار في تدمير الافكار الماضية التي كانت مقدسة ولا سبيل لدحضها. في الديالكتيك الهيغلي تستدعي كل حالة، كما نعرف، وجود نقيضها حتماً، ثم تتصادم، وتتكامل، وتنجز هذه النقائض في مقولة اكثر تطوراً. وبعد ذلك تبدأ هذه السيرورة الكاملة من جديد. وعلى هذا التصور لا يغدو ثمة مجال للعودة الى الأصول، بل إلى ارتقاء مستمر نحو حقيقة جديدة لا سابقة لها. لقد عبّرت فلسفة هيغل عن التفاؤل المحرِّك للعصر الحديث الذي قد غادر من دون رجعة - الروح المحافظة خلفه، لكن لم يستطع البعض ان يفهم لماذا كان على هيغل عدم

الاكتراث بالله. حتى لقد بدأ بعض الاوروبيين ينظرون الى الدين والميثولوجيا بما هما امران قد عفا عليهما الزمن، فبدلاً من معالجة الاحساس بالاستلاب - اعتقد الاوروبيون - انهما يساهمان فيه. فبوضع الله كمقولة نقيضة antithesis للبشرية قال فيورباخ - تلميذ هيغل (1883 - 1818) إن الدين كان يفكك وحدة الانسان عن ذاته، وأضاف: الله كامل، الانسان غير كامل، الله أزلي، الانسان مؤقت عابر وضعيف، والله قدير». اما كارل ماركس (1818 - 1883) فرأى الى الدين على انه احد اعراض مجتمع مريض، مخدّر جعل النظام الاجتماعي المريض امراً محتملاً، وابعد الارادة لايجاد علاج، بحرفه الاهتمام بعيداً عن هذا العالم الى العالم الآخر[21].

يظهر التاريخ الأميركي كمشهد ايديولوجي متصل الاطوار والاحقاب. فلسوف يتبدّى لنا الأمر كما لو ان معرفة تاريخ الولايات المتحدة يفترض بالضرورة الفهم المعمّق للنزعة القومية التي تكونت بشكل اساسي على قواعد تمتزج فيها تلك النزعة مع العقيدة الدينية، ثم ليشكلان معاً البناء الايديولوجي للتاريخ الأميركي .وبحسب الباحثة الفرنسية نيكول غيتان (Nicole Guétin) فإن الايديولوجيا الأميركية تستند الى ثلاثة مفاهيم كبرى، وتشكل بالتالي عوامل اساسية وحاسمة في صياغة هويتها القومية هي: الطهرانية، والاستيطانية، وما سُمي بمفهوم «القَدَرُ المتجلِّي» أو «المصير الظاهر» وترى "غيتان" أن محاور التفكير الثلاثة هذه تندرج في الفكر الأميركي بصورة ضمنية، في حين يساهم التفاعل بين الزمني والروحي في الحياة السياسية للولايات المتحدة في تكوين هذه النظرة المركبة، وذلك على رغم من محاولات العلمنة داخل المؤسسات المدنية والحكومية. واذا كانت الجماعات الانكلوساكسونية الاولى قد كونت حبكة النسيج الاجتماعي الأميركي، فمن البديهي ان يكون العديد من موجات الهجرة الآتية من مختلف الشعوب قد بدلت في تركيبها. وبعد فترة استيعاب

---

(21) كارين آرمسترونغ، النزعات الاصولية في اليهودية والمسيحية والاسلام- مصدر سبقت الإشارة إليه في الفصل السابق، ص 112.

طويلة للمهاجرين داخل ثقافة واحدة، تتجه أميركا في يومنا هذا الى الحفاظ على تقاليد كل مجموعة لتصبح امة متعددة الثقافات[22].

"المصير الظاهر" بوصفه عقيدة قومية

اذا كانت الطهرانية قد أرست الفضاء العام للميتافيزيقا السياسية لأميركا، فإن هذا الفضاء لم يكفَّ لحظة عن إطلاق سَيّريّات لا تنتهي في سياق توليد الافكار التي ستتحول الى عقائد ويقينيات ترقى الى مرتبة المقدس. ولعل المرحلة المفتوحة على مداها في غزو الاراضي، هي التي ستشهد على تبلور نموذج مثالي جديد لدى الطهرانية المتوثبة، ليظهر على شكل عقيدة توسعية عرفت بما سمي «المصير الظاهر» أو "القدر المتجلِّي" "المصير الحتمي" لانتصار الصورة الأميركية وتعميمها على العالم كله.

ما هي عقيدة "المصير الظاهر" او «القدر المتجلّي» - (Manifest Destiny) بحسب الترجمة اللاَّهوتية - كيف نشأت، وأية قواعد معرفية وفلسفية وسياسية سمحت بتحويلها الى عقيدة سارية في التاريخ السياسي لأميركا؟

في منتصف القرن التاسع عشر،تعزّز الإعراب عن الحس القومي الأميركي بظهور فكرة رئيسة، قليلاً ما كانت معروفة في اوروبا، هي فكرة وعقيدة «المصير الظاهر». لقد اطلق هذه الفكرة لاول مرة جون لوي اوسوليفان، مدير مجلة «الديمقراطية» ليضفي الطابع الشرعي على ضم ولاية تكساس عام 1845، فنادى بفكرة المخطط الالهي في غزو اراضٍ أميركية جديدة.

احد مقالاته السابقة كان يحوي بذور فكرة «المصير الظاهر» هذه. وقد بشّر بـ «عصر العظمة الأميركية»،و مصير امة الامم الذي عليه ان يُظهر لكل البشرية سمو المبادئ الالهية في سبيل بناء المعبد الاكثر فخامة على الارض لتمجيد

(22) نيكول غيتان - نشأة النزعة القومية الأميركية ومصادرها- مجلة "مدارات غربية" العدد السابع - صيف 2005 - ترجمة جورجيت حداد.

الازلي والمقدس والحق. إن روح الاخوة الناتج عن هذا الموقف الديني عليه ان يروج للسلام والارادة الطيبة بين البشر" وفيما يلي مقتطف عن هذا المقال:

"لقد تم اختيار أميركا من اجل هذه المهمة المقدسة تجاه امم العالم، المحرومة من نور الحقيقة الحي. إن نموذجها النبيل سيقضي بضربة قاضية على ظلم الملوك، والتراتبيات، والطغم الحاكمة «الأوليغارشية»، حاملاً الانباء السارة والارادة الطيبة، الى حيث ملايين البشرالذين يعانون اليوم من معيشة تكاد بصعوبة تفوق معيشة الحيوانات. من يمكنه اذن ان يشك في ان بلدنا مكلّف في ان يصبح امة المستقبل الكبرى". بعد عدة سنوات وفي عام 1845 وسع هذا الصحافي فكرته مجدداً في اعمدة المجلة نفسها، واستخدم للمرة الاولى عبارة «المصير الظاهر». ويفصح النص عن ان مصير أميركا الظاهر هو استعادة كامل القارة التي منحتها لها العناية الالهية للسماح بالتقدم الحر لملايين السكان وذريتهم. فالإقرار بتدبير العناية الالهية، بالنسبة لاوسوليفان كما بالنسبة لمعظم معاصريه، يتعالى على جميع المطالب. ولهذا انتشرت هذه العبارة في النقاشات السياسية واصبحت صرخة انضواء حقيقية، الى حد ان «المصير الظاهر«الذي كان الصحافي هو الناطق الرسمي به لم يعد مجرد شعار، بل إنه راكم إرثاً ثقافياً كاملاً راح يستخدم كقاعدة لتيار فكري قيد التكوين. وهكذا فإن قاموس التاريخ الأميركي الذي يخصص» «للمصير الظاهر» مقالاً كبيراً يذكر حول هذا الموضوع الطابع الحتمي لتوسع الولايات المتحدة في الاراضي. وقد استخدمت هذه العبارة مرات عديدة لتبرير الاعمال، والإجراءات الداخلية او الخارجية، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

ان الإرث الذي تعطيه هذه الحركة الايديولوجية للجماعة القومية الأميركية ينطوي على اهمية رئيسية، لأن فكرة «المصير الظاهر» هي التي تفسر نزوع الأميركيين نحو إعطاء تاريخهم، وكذلك مستقبلهم كأمة، قراءة من وحي العناية الإلهية. وبهذا المعنى، مارس اوسوليفان تأثيراً لا يقدر على اجيال المؤرخين والسياسيين والمناظرين والكتاب الذين استخدموا العبارة بدراية الى حد ما،

وهي العبارة نفسها التي آلت فيما بعد الى الانخراط في اللغة الاصطلاحية الأميركية.

لقد قدم اوسوليفان جريدته كمنبر لرجال الادب الأميركيين الذين نشروا نصوصاً لناتانيل هاوثورن، والشاعر والت ويتمان، وادغار بو وفلاسفة مثل هنري د. تورو، ورالف إمرسون والعديدين غيره. بخصوص إمرسون يبدو ان اوسوليفان كان متأثراً بآراء هذا الفيلسوف الشهير الذي لقب بحكيم الكونكورد. فعلى سبيل المثال في عام 1844، ألقى إمرسون محاضرة في بوسطن بعنوان «الأميركي الصغير» لفت خلالها انتباه الشبان الى الدور الذي يجب ان يقوموا به لإتمام رسالة بلدهم. وصرح بأنه في تاريخ البشرية يوجد دائماً امة ذات دور متفوق في نشر القيم الكونية، وان عليها أن تقوم بهذا العمل بصفتها بلداً حراً ومشبعاً بالقوى الجديدة». ثم شجع أميركا الفتية على الاستفادة بكل قوتها من التطور التكنولوجي في الميادين الصناعية، والتجارية. وختم محاضرته بالقول: إن الولايات المتحدة الأميركية كانت امة تتطلع نحو المستقبل ويوجهها مصير عظيم[23] وعلى السيرة إيَّاها سوف يعيد المؤرخ والفيلسوف الأميركي جون فيسك (1842 - 1920) استخدام فكرة «المصير الظاهر» في مقال صدر عام 1885، حيث عكس مقصد إمرسون نفسه في محاضرته تلك، ولكن بلهجة تفخيمية ومضمون امبريالي. لقد تنبأ فيسك بتفوق قادم للعنصر الانكلوساكسوني في الدوائر الثقافية، والاقتصادية والسياسية، معلناً ان لغة شكسبير سوف تصبح اللغة العالمية، وان الفيديرالية التي تأسست في أميركا ستمتد الى اوروبا من اجل القضاء على النزاعات والحروب. بالاضافة الى ذلك ركز فيسك على التواصل الثقافي بين بريطانيا وأميركا قائلاً: «ان على فرعي العنصر الانكلوساكسوني مهمة مشتركة هي اقامة حضارة عليا، ونظام سياسي اكثر استقراراً على اكبر قسم من الارض، حضارة ونظام لم يسبق للعالم ان عرفهما. وفي ما يترجم أثر هذه العقيدة على تنمية الوعي القومي فقد أثارهذا المقال

(23) نيكول غيتان - المصدر نفسه.

حمية تطلعات امة فتية مدفوعة برؤية عن المستقبل يدعمها وعد إلّهي. واصبحت تنعكس فيها عقلية شعب بكامله. وهذا ما يفسر الشهرة التي عرفتها هذه العقيدة. وحتى في ايامنا هذه لا تزال كوامنها تهجع في الذاكرة الجماعية الأميركية او قد تكون قد بدأت تستيقظ بفعل التحولات المدوية مع نهاية القرن العشرين. . ورغم انها لم تعد تستخدم بشكل واضح، الا انها تبدو غالباً فاعلة في عقلية وخطاب بعض القادة السياسيين المعاصرين.

اما بشأن غزو الاراضي، فيمكننا ان نتساءل عن ماهية الحجج التي استخدمها التوسعيون لتبرير تدخلاتهم. ولدينا في ما يلي مثل آخر: عندما وصل توماس جفرسون الى السلطة عام 1801، كانت الاراضي الأميركية مؤلفة من 13 ولاية تشكل الاتحاد، ولكن الرئيس كان ينوي توسيعها. وبشراء ولاية لويزيانا (من الفرنسيين) عام 1803 افتتح جفرسون طريق التوسع في الاراضي. ثم جاء ضم فلوريدا عام 1819 وتكساس 1845 واوريغون 1846 ومقاطعات المكسيك الجديد 1848 بالتوالي وكأنه هبة من العناية الالهية. لم يحدث امتلاك هذه الاراضي الجديدة من دون مواجهات رغم الحلم الجفرسوني في غزو سلمي يفترض شراء الاراضي من الهنود واستيعابهم ضمن الشعب الأميركي. كان التوسع في الاراضي يجري غالباً مع الاضطرابات، ولكن أميركا كانت تحاول دائماً ان تبرر سياستها بالتدخل المحتوم والذي لا يقهر للقوة الالهية. وهكذا اصبحت القوة العظمى الأميركية الجديدة «دولة الله» في مركزها «أي دولة شبه ثيوقراطية مستلهمة من بعض الرؤساء مثل توماس جيفرسون (1743 - 1826)، واندريه اكسون (1745 - 1845)، وجيمس كنوكس بولك (1705 - 1849). ومع امتلاك هذه الاراضي الجديدة التي أنجزت الوحدة الجغرافية للولايات المتحدة، تحقق «المصير الظاهر» بشكل كامل. ولكن اثر هذه الالحاقات، أوجب مواجهة مشاكل استيعاب الاجانب مما ولَّد جدالاً من طبيعة عنصرية، اذ إن هدف التوسعيين كان ارشاد الشعوب العدوة كي تتمكن من الدخول الى «معبد الديمقراطية الأميركية».

وبعد ان تحققت وحدة الاراضي في القارة الأميركية هيمن على العقد

الاخير من القرن التاسع عشر بروز سياسة خارجية امبريالية ادت الى ضم هاواي وكوبا والفيليبين. وقد اجاب الاميرال الشهير ماهن على كل الذين كانوا قلقين من صعود الامبريالية الأميركية، بأن هذا الشعور يشارك فيه العالم الاوروبي المتحضر بمجمله، والذي عليه ان يعرف انه عندما نغرس بذرة في ارض صالحة، ستنمو في الحال.(24)

مرجع ايديولوجي للتوسع

مثل سواها من العقائد الدينية / السياسية، سوف تتحول عقيدة "المصير الظاهر" أو "القدر المتجلِّي" إلى حقل معرفي لتوليد عناصر تسديد إضافية للوعي القومي الأميركي. وهكذا فقد ضاعفت هذه العقيدة لدى الأميركيين شهوة التوسع المقدس في أراضي الهنود، اعتبرها كثير من المؤرخين أساس الايديولوجية الإمبريالية التي حملت العلم الأميركي أول ما حملته إلى جزر الفيليبين في العام 1898. أما داخل القارة فكانت حرب إبادة الهنود وتهجيرهم، والحدود التي يجب أن تتسع بلا نهاية سياسة مقدسة وقدرية لدى كل القادة والأحزاب. حتى في أوج مشاعر الثورة على الانكليز وروح التنوير، كان اللّاهوت يلهب حماسة الثوّار بتلك النار المقدسة، وأبطالها في مسيرة الشعب المختار إلى أرض الميعاد: إن إسرائيل الجديدة (أميركا) بدأت تقتلع نفسها من مصير (بريطانيا)، وما هذه الثورة إلا نصر جديد للشعب المختار وتجسيد لقصة "خروج "بني إسرائيل من مصر لتأسيس مملكتهم. كان هذا التأويل لاستعمار العالم الجديد رائجاً بين معظم رجال الثورة، بمن فيهم توماس باين Thomas Paine وجون آدامس John Adams وجورج واشنطن George Washington بينما ظل الزحف الاستعماري يستلهم هذا التأويل، وظلّت لغته العلمانية تربط مسألة الحرية والرفاه بضرورة توسع شعب الله الجديد في أرض كنعان الجديدة، والقضاء على أهلها المتوحشين، وتأسيس دولة مقدسة

(24) نيكول غيتان - المصدر نفسه.

صالحة تنعم بالرفاه والبحبوحة والنعيم، تماماً كما أراد الإسرائيليون القدامى غزو أرض كنعان القديمة والقضاء على أهلها وتأسيس مملكة مقدسة تنعم بالرفاه والبحبوحة والنعيم(25).

مع ذلك فلا لا مناص من التذكير، بأن هذه العقيدة، على أهمية مفعولها على الروح القومية الأميركية، فإنها لم تنج من النقد في سياق الجدل الذي فُتِحَ حولها في اواخر القرن التاسع عشر.

هناك من اتهم عقيدة "القدر المتجلي" أو "المصير الظاهر" بأنها ضلال وهرطقة. وهناك من رأى فيها التعبير المناسب عن روح التوسع التي غيرت وجه أميركا من مفازات وقفار وحشية خاوية من البشر، إلى جنات وأنهار وعالم متحضر، انتقلت بها من مستعمرات مشتتة إلى قوة تحكم العالم. في هذا "القدر المتجلي" نكتشف صوراً من السوقية الأميركية التي تستظل دائماً بالادعاءات الرسالية. إن هذا الاستعمار المكابي Maccabi لا يزال يولِّد السياسة الأنكلوساكسونية كما لا يزال اهم أوراق لعبتها الراسمالية. فحين تنجح أي قوة انتهازية في جعل مصلحة "جنرال موتورز" او سواها مثلاً مصلحة أميركا؛ سرعان ما تبدأ عملية الإقناع على المستوى الشعبي بوضع ملابسات الأحداث في إطار النبوءات وطلاسم "الرؤيا"، وسرعان ما تستظل تلك المصلحة النفعية بجملة توراتية او واقعة من وقائع التاريخ العبراني. تلك العصا السحرية لآدم سميث تعمل دائماً على تحويل النفعية الخاصة إلى خير عام مقدس يستأهل حرباً نفعية مقدسة لإبادة مخلوقات الشيطان، أي أعداء شعب الله الذين هددوا مصلحة "الجنرال موتورز" أو سواها. بهذا المنطق تربعت إسرائيل على عرش النفعية المقدسة في مركز التجارة العالمية وصارت من أنجح استثمارات السماء(26).

ومهما يكن من أمر فلقد شُحِنَت عقيدة "القدر المتجلي" بكل مشاعر

---

(25) منير العكش - تلمود العم سام. شركة رياض الريس للكتب والنشر -بيروت -ص250.

(26) المصدر نفسه - ص 251.

المستعمرين الأوائل ونبضهم اللّاهوتي. لكن دوران الشمس مع حركة التوسع الانكليزي من الشرق إلى الغرب في اعتقاد انتنيل إيمس Nathaniel Ames أحد أنبياء الاستعمار الأنكلوسكسوني للعالم الجديد لم يكن ـ بحسب هذا الاعتقاد ـ مصادفة، بل كان تعبيراً عن "إرادة الله" وقدره، وحقيقة ثابتة من حقائق مملكة الطبيعة، وحركة التاريخ. حقيقة رسمت منذ الأزل صورة المستقبل للشعب الأنكلوسكسوني المختار ذي البشرة البيضاء والعيون السماوية، ثم تجاوزت هذه الحدود لتمنح بركة الاختيار الالهي لكل الأميركيين المتحدرين من أصل أوروبي. من هذه الحقيقة الخالدة لاقتران دوران الشمس بزحف الأنغلوساكسون غرباً (عبر الأطلسي إلى المستعمرات الأولى، ومنها إلى شاطئ المحيط الهادي) استمدت جملة الفيلسوف جورج بيركلي George Berkeley "مسيرة الأمبراطورية ماضية غرباً Westward the course of empire takes its place" معناها وظلالها النفعية المقدسة، ومن هذه الحقيقة أيضاً تحس بهذا النبض المقدس للفترة الاستعمارية الأولى ويخفق في قلب ما يسمى اليوم في الولايات المتحدة بالدين المدني. صحيح أن الموجة المقدسة كانت عارمة في الاستعمار الاسباني والبرتغالي لأميركا لكن الأنغلوسكسون البيوريتانز تفردوا بعقيدة "الاختيار" و "الهم الإسرائيلي" و "المطابقة مع تاريخ العبرانيين" و"إضفاء صفة القداسة على الأرض الأميركية" التي جعلوها (بعد أن ارتدت الحملات الصليبية على أعقابها من الأراضي المقدسة) أرضاً مقدسة بديلة يتجمع فيها "شعب الله" ليعيد صياغة العالم استعداداً لنهاية التاريخ، أو القيامة كما هندستها الكلاسيكيات العبرانية[27].

الدولة العمياء عن مزيَّتها

لعل من المفارقات اللافتة ان يُنظر إلى القومية بمعناها الكلاسيكي بوصفها كلمة بغيضة في الولايات المتحدة، وذلك لانها كلمة ارتبطت بمفهوم التفكير

(27) المصدر نفسه - ص 252.

المحدود للعالم القديم وبالشعور بالتفوق. غير ان الذين يشككون في حضورية القومية الأميركية قد يعترفون، بسهولة، بأن الأميركيين ككل، وطنيون الى اقصى حد. وإذا ما اضطر هؤلاء المشكّكون الى شرح الفرق بين الوطنية والقومية، فإنهم يسلِّمون على مضض بوجود فارق طفيف، وليس اختلافاً حقيقياً. وقد عمل علماء السياسة على إثبات هذا الاختلاف من خلال مساواة الوطنية بالولاء للوطن، وتعريف القومية بأنها مجموعة من العواطف المتعلقة بالتفوق القومي العرقي. ومع ذلك، فإن المظاهر النفسية، والسلوكية، للقومية والوطنية لا تختلف، وكذلك اثر هذه العواطف على السياسة.

وتظهر المنظمات التي تعنى بالاستفتاء، باستمرار، بأن أميركا هي من بين البلدان الديمقراطية الاخرى، التي تسجل اعلى نسبة في إظهار الفخر القومي. وقد افاد باحثون في جامعة شيكاغو بأنه قبل تفجيرات نيويورك في الحادي عشر من ايلول سبتمبر 2001، بدا 90 في المئة من الأميركيين على توافق حول مقولة "أفضل" ان أكون مواطناً أميركياً على أن أكون من بلد آخر في العالم". وصادق 38 في المئة منهم على الرأي القائل إن العالم سوف يكون مكاناً افضل لو تشبَّه الناس في البلدان الاخرى بالأميركيين». اما بعد هذه التفجيرات، فقد تحولت النسب، على التوالي، من 90 الى 79 في المئة ومن 38 الى 49 في المئة. ونقلت) The World Val ues Surveyوهي منظمة عالمية تعد تقارير احصائية عن التغيرات السياسية والثقافية الاجتماعية) النتائج نفسها، اضافة الى اكثر من 70 في المئة منهم يشعرون بالفخر كونهم أميركيين. في المقابل، كشف الإحصاء نفسه عن ان اقل من نصف سكان البلدان الديمقراطية الاخرى، من ضمنها فرنسا، وايطاليا، والدانمارك، وبريطانيا، وهولندا، يفتخرون جداً بجنسياتهم. وعلى هذا النحو من التفاعل المتحرك ضمن دائرة الوعي القومي لا يتطلع الأميركيون الى قيمهم بفخر كبير فحسب، وإنما يعتبرونها قابلة للتطبيق على المستوى العالمي. وبحسب استطلاع للرأي صدر عن مركز Pew Global Attitudes، أيد 79 في المئة من الأميركيين فكرة تقول: "إن من الجيد ان تنتشر الافكار والعادات الأميركية حول العالم"، وافاد 70 في المئة منهم بأنهم

يحبذون الافكار الأميركية عن الديمقراطية. مع ذلك، لا تتشاطر جميع البلدان الآراء نفسها، حتى اوروبا الغربية التي تعد معقلاً لليبرالية والديمقراطية. وكشف هذا المركز بأنه من بين بلدان اوروبا الغربية. يقر اقل من 40 في المئة بانتشار الافكار والعادات الأميركية، ويحبذ اقل من 50 في المئة الافكار الأميركية حول الديمقراطية. وهكذا تظهر هذه المعتقدات الراسخة عن تفوق القيم والمؤسسات السياسية الأميركية بسهولة في الممارسات السياسية والثقافية والاجتماعية الأميركية التي من المستحيل ان نغفل عنها الشعائر اليومية لعهد الولاء التي تطبق في المدارس الوطنية، والاداء المعتاد للنشيد الوطني قبل بدء المباريات الرياضية، والاعلام الأميركية المنتشرة في جميع الاماكن. ففي الولايات المتحدة، كما في البلدان الاخرى، تنعكس العواطف القومية حتماً على السياسات، فيعوِّلُ المرشحون على قضايا مثيرة للحماسة الوطنية، كحرق الأعلام والامن من اجل مهاجمة خصومهم الذين هم بنظرهم غير وطنيين، وحتى أسوأ من ذلك بكثير[28].

الذرائعية الأخلاقية

على امتداد القرن العشرين سوف تستأنف الاطروحة الأميركية رحلتها من خلال توليد وسائل جديدة للهيمنة. كانت الايديولوجيا حاضرة في قلب الرحلة. لكن الايديولوجيا القومية بصيغتها الأميركية هي ذات تركيب خاص واستثنائي، وبالتالي، لا أوجه شبه كثيرة بينها وبين الظهورات الايديولوجية للقومية الاوروبية التي مهّدت لحداثة التنوير. في المثال الأميركي تدخل عوامل الاخلاق، والقومية، والتبشيرية الدينية، لتشكِّل مثل هذا الوعاء الايديولوجي؛ حتى لتبدو الصورة على النحو الذي يستحيل معه فصل هذه العوامل عن بعضها، أو التعامل مع أي منها بمعزل عن الآخر.

---

(28) منكسن باي - مفارقات القومية الأميركية - مصدر سبق الرجوع إليه.

تتمثّل المهمة المركزية لهذا الوعاء الايديولوجي في تبرير كل فعل يفضي إلى الغَلَبة والهيمنة، مهما كانت الوسائط الموصلة إليهما.

يحلل الكاتب الفرنسي في مركز الدراسات والبحث في العلاقات الدولية في باريس آريال كولونوموس مصادر النزعة التبريرية في الفكر السياسي الأميركي الحديث - فيلاحظ ان تبرير الممارسات السابقة والحالية للدول بات مطلباً دولياً. وذلك يعود برأيه إلى شروط بنيويةمحدَّدة. ففي أثناء الحرب الباردة كانت مصلحة أعضاء الكتلة الواحدة تكمن في التغاضي عن أخطاء حلفائها للحفاظ على مصالحها المشتركة، ومنع الكتلة الثانية من استغلال خلافاتها. أما الآن فإن الظهور البيِّن للمجتمع المدني أرغم الدول والمؤسسات على تقديم حسابات حيال أشكال الرقابة الجديدة هذه، وأصبحت معارضة المجتمع المدني ذات صفة عالمية ومميزة للتعددية الليبرالية. لقد وُضعت بواسطة هذه الرقابة، دول كثيرة في قفص الاتهام، بسبب من موقفها تجاه العديد من الجماعات المتضررة، أو التي كانت ضحية لسلوكياتها. وفي مجال النقد سيُعطَى لهذه الظاهرة صفة "تنافس الضحايا" وذلك للتنديد بالمشتركين على اعتبار أن هؤلاء يستغلون معاناتهم لأن وراءها دوافع لا يباح بها، ولأنها تتضمن شيئاً من العدوانية. إلا أن عولمة الشكاوى هذه سوف تؤسس لأخلاقية دولية من شأنها تحديد المسؤولية الجماعية المباشرة، وغير المباشرة، للدول والمنظمات الدولية والشركات الكبرى. في حين بدا أن بعض الدول أرغم على الاضطلاع بدور ثنائي: الضحية والمعتدي في الوقت نفسه. وهكذا فقد غدت الولايات المتحدة في قلب عولمة متطلبات التبرير. فالدولة الأميركية بما هي وريثة تاريخ طويل في المجال الاخلاقي. وطبقاً لتاريخها "الطهراني" حرصت على الاضطلاع بدور "منارة الانسانية". على حد التعبير الذي استخدمه جون فوستر دالاس في الستينيات. وفي مرحلة متأخرة ستلعب عناصر جديدة في المجتمع المدني دوراً رئيساً في صعود قوي لتلك النظرة المثالية المتجدّدة. لقد حلل كثيرون من مؤرخي سياسة أميركا الخارجية المسارات الاخلاقية والتهذيبية لهذا البلد، فأدرجوا هذا الدور ضمن استمرارية هيمنتها. من هؤلاء، المؤرخ تومي سميث،

الذي ذهب في طرحه إلى حد اعتبار، أن الويلسونية، وهي تصور اخلاقي لسياسة تتطلّع إلى جعل العالم ديموقراطياً تشكل الخط الاحمر في تاريخ أميركا للقرن العشرين. وبحسب سميث أن الرئيس رونالد ريغان رغم كونه من المحافظين، في حين كان ويلسون ديموقراطياً ومن أنصار القوة والسياسة المتشددة تجاه الاتحاد السوفياتي، كان خير مثال عن حداثة هذا الموروث. ثم جاء جورج بوش الثاني ليؤكد هذه الأطروحة. وما من شك ان الولسونية كنموذج لتدويل الديموقراطية والليبرالية للقادة الأميركيين الذين يطمحون لاحتلال مكان في التاريخ، لها مساحة واسعة من المناورة. أما في خلال رئاسة بيل كلينتون، فقد استوحى القادة الأميركيون دوراً مباشراً من الاخلاقية الولسونية. إذ سريعاً ما أصبح رمز "القوة المهيمنة الخيّرة" شعاراً على قياس الآمال العديدة التي قامت عليها العولمة، وديناميات التطور التكنولوجي للاتصالات، فضلاً عن الآمال المعقودة على توقيع اتفاقيات السلام في الشرق الأوسط(29).

على امتداد احقاب الحداثة وما بعدها، قدمت الاطروحة الأميركية الكثير مما يوصف بانه آليات للسيطرة عبر ذرائعية ايديولوجية شديدة الوضوح. فلقد أفصحت أميركا عن رغبتها الكبرى في تجميع قوى "العالم الحر". ثم راح قادتها يستثمرون وضع الاحادية القطبية الذي يعيشه العالم اليوم بغاية تنظيمه وفق استراتيجيات تتسق وقيمهم، كما تتوافق ومجموعة من القواعد التي لا تتعارض مع التنظيمات والانماط التي تميز المجتمعات الغربية. على هذا النحو سعت الولايات المتحدة للحصول على موافقة فرقائها. وهذه الوضعية تشكل واحدة من المحركات الكبرى في قوتها.

أما الشكل الآخر للهيمنة الأميركية فيعود إلى كونها مهد المنظمات غير الحكومية التي برزت في خلال القرن العشرين، هذا بالإضافة إلى احتضانها لعدد كبير من جماعات الشتات من الوافدين والمهاجرين، ما يخولها أن تكون

---

(29) آريال كولونوموس Ariel Colonomos- ماذا لو اصبح العالم بروتستانياً-راجع مجلة "مدارات غربية" العدد الاول أيار/مايو 2004.

مركزاً للعدالة، ومنطلقاً للخطب والمطالبات الاخلاقية. وفي السياق إيّاه يمكن القول إن أميركا عرفت نوعين من الولسونية: الولسونية في ممارسة الدولة لسياستها الخارجية، يقابلها نوع من الولسونية غير الرسمية المستندة إلى دور تبشيري يعود إلى تأثير البروتستانتية. وهذا النوع تضطلع به بعض الجماعات ذات البعد الدولي. لقد ولدت الولسونية من البروتستانتية الطهرانية في اثناء ارتقاء أميركا إلى مصاف الدول العظمى. وكمفعول ارتجاعي طورت بعض عناصر المجتمع المدني الأميركي ولسونية غير رسمية على صورة الكنائس البروتستانتية والانجيلية في تعميم رسالتها. من هؤلاء مثلاً المحامون المؤيدون لحقوق الانسان. إن هذا الخطاب سوف يؤسس لدينامية لاهوتية-سياسية حقيقية. وهي دينامية مستمرة بين الدولة والمجتمع بواسطة الثقافة السياسية الدينية، بوصفها إحدى أهم خصوصيات الرسالة القومية الأميركية الموجهة إلى العالم. وهكذا يحتل هذا التمرس، وهذه النظرية، موقعاً مركزياً في متطلبات التبرير. وحصيلة الأمر، أن أميركا حين تلعب دورها كمركز عالمي لانتاج المعايير القابلة لان تصبح كونية، فإنها تعزز بذلك موقعيتها كقوة قومية عظمى.

وبهذا المعنى فإن تاريخ البروتستانتية يفسر على أفضل وجه متطلبات التبرير، فتقديم الحسابات عبر فضح صكوك الغفران هو شيء أساسي في مسار "الاصلاح الديني". ولسوف نجد انعكاساً راهناً للمسار المذكور في شكاوى ترفعها الكنائس الإنجيلية ضد فساد الدول المدعومة كاثوليكياً في أميركا الجنوبية. ولقد سبق ان لاحظ كثيرون من ائمة اللّاهوت الأميركي الحديث، أن نصوص الموروث الكالفيني انتجت ثقافة هي ثقافة الفعالية والنشاط الصناعي. ومن هذا المنطلق اكدت حقيقة أن على الانسان أن يبرر قدره، وأن يكون عمله دليلاً على تفوقه. وهذه البرهنة تهدف إلى تمييزه عن الآخرين، وبالنتيجة يمكنها أن تتحول فيما بعد، وبصورة غير مباشرة إلى مطالبة بتبرير تصرف الغير الذي يقيم مسالكه على قياس نموذجية الذات[30].

---

(30) آريال كولونوموس-المصدر نفسه.

الجغرافيا المقدسة

يجوز لنا القول في ختام هذا الفصل، إن الايديولوجيا الأميركية لم تنشأ من تفاعل الابعاد الدينية والاجتماعية في هذا البلد، بل أيضاً من خلال الرهانات السياسية منذ توسعها وفتح الاراضي الجديدة (1803-1853) . ذلك ان الشعور المسيطر لدى أكثرية الأميركيين منذ ولادة دولتهم، هو أنها "دولة منارة(Phare) "، ورسالتها نشر الحرية والديموقراطية في العالم، خصوصاً في اوروبا التي تعاني من مساوئ الملكية، من هنا اصبحت "الاستثنائية" ميزة التاريخ الجماعي لهذه الدولة واكتسبت معناها الحقيقي.

في الوثيقة الاساسية من أطروحة جاكسون ترنر (1861-1932) عن الحدود الأميركية (1893) نجد تفسيراً لمفهوم الاستثنائية الأميركي هذا، حيث يعتبر ترنر أن الحدود هي منبع المثال الديموقراطي. وإن غزو الغرب الأميركي هو الذي صنع الديموقراطية الأميركية الحقيقية، وليست الاحداث التاريخية السياسية في الحقبة الاستيطانية وبنوع خاص دستور عام 1787 . فالغرب برأيه هو مسار تنظيم اجتماعي ابتدأ من ضفاف الأطلسي ثم انطلق ليجتاز القارة بكاملها. . . لقد تخلى المستوطنون عن تقاليدهم، ومؤسساتهم، وأنماط عيشهم، وابتعدوا عن التأثير الاوروبي ليبنوا مجتمعاً جديداً على أرض جديدة. ومع انتهاء التوسع الاستيطاني ساهمت الروح الديموقراطية التي نشأت في الغرب الأميركي في دفع المثال الأميركي قدماً. إذ بدا لروّاده أن رسم فصل جديد في تاريخ البشرية، نحو مجتمع أرقى، هو أمر ممكن في هذه الأراضي البكر، وأن الله منحهم قدراً يسمح لهم بالحصول على أفضل الشروط لحياة كريمة. وعلى هذا النحو سوف تصبح أطروحة "ترنر" هذه مرجعاً أساسياً لمسار التاريخ الوطني الأميركي لاحتوائها على مبادئ تكوين الايديولوجيا الأميركية. إلا أن البروفسور الهولندي "نوردولت (1920-1995) سيشير إلى أن هذه الأطروحة بقيت محفورة في الذاكرة الجماعية، وأثّرت في تصوّرات الأميركيين المتمسكين بالأساطير التأسيسية لحضارتهم. لكن هذه النظرة تنطوي في المقابل على جانب

مأساوي يسميه "نوردولث" "القدر الأميركي". إن تخلي ترنر عن أي أساس أوروبي في تكوين تاريخ أميركا، يعني البحث عن "موروث البراءة". فالبراءة حين تلتقي مع المأساة تنتج مفارقة مذهلة قوامها: كيف يستطيع شعب أن يمحو الماضي، ويدعي في الوقت نفسه، أنه وريث تراث الأبرشية الثقافي؟ . . . إن موروث البراءة القادر على البدء بحضارة جديدة في "مكان متوحش" لا يقوم إلا بإعادة إنتاج نموذج سبق استخدامه عبر العصور الماضية. لذا لا يمكن إنكار أن أفكار "ترنر" أضفت على الديموقراطية الأميركية طابع الاستثنائية، التي هي حجر الزاوية الحقيقي في تكوين الهوية القومية الأميركية نظراً لطموحاتها الايديولوجية. كما لا يمكن إنكار أن هذا المؤرخ قد أثار الشعور الوطني الذي كان كامناً في نفوس معاصريه، فكانت رسالته منسجمة مع الرغبة الجماعية التي بدأت تنمو منذ بداية القرن معتمدة الحيوية والحماسة الخاصتين بالفكر الرومانسي. ولقد انعكست هذه الافكار أيضاً على تطلعات القادة السياسيين التوسعية في تلك الحقبة. فأشار هؤلاء إلى التوسع الحتمي لأميركا و "قدرها المتجلي"، وقد عبر عن ذلك السيناتور "بفيريدج" عام 1899 عندما رأى أن "الله جعلنا الأسياد المنظمين للعالم" بصفتنا "أشخاصاً مختارين. وفي الواقع لم يكن بفيريدج وحده يؤمن بأن تطور العالم يتوقف على هذا العرق المختار الذي هو أميركا. بل إن المناهضين للإمبريالية أنفسهم، وحتى بعض الديموقراطيين المعارضين للتوسع الأميركي، كانوا يعبرون عن مواقف مشابهة، ويبررون ذلك بخشيتهم من أن يتعرض العرق الإنكلوساكسوني للتغير نتيجة هذا التوسع. . .[31]

ولا شك كما يتبيّن من الصياغات الفلسفية لهذه الاطروحات، ان هذه الظاهرة القائمة على الاعتقاد بتميّز الاعراق بقرار إلهي، كانت جزءاً من الايديولوجية القومية الأميركية في القرن التاسع عشر.

على هذا المُنْبَسط من التحليل لمفارقات القومية يتجلَّى المكان عنصراً

(31) آريال كولونوموس-المصدر نفسه.

مؤسِّساً في الفلسفة السياسية الأميركية؛ بل وحاضراً حضور العين في مجمل مكونات الاطروحة. فلا تغادر الجغرافيا التي حلّ فيها المهاجرون الانكليز مقاصدها الرسالية وابعادها لميتافيزيقية. وبهذا المعنى لا يعود المكان المختار مجرد حيّز أرضي تنعقد على مهاده عناصر الاجتماع التاريخي بين المستوطنين، بل سيتحول إلى قلعة مقدسة تفيض بما فيها من "فضائل" على العالم كله...

الفصل الرابع

فلسفة أميركا الإسرائيلية

القيامة هي نفسها

سوف نسعى في هذا الفصل إلى بيان المشترك اللاّهوتي بين إسرائيل والولايات المتحدة الأميركية. وهو مشترك يقوم على معنيين مركزيين يُظهران وحدة النشأة والسلوك والممارسة:

المعنى الأول: السمة الاستيطانية لكل من الولادتين الأميركية والإسرائيلية. وذلك على القاعدة التي تقول بوجوب إحلال شعب لا أرض له، في أرض لا ينبغي لمن عليها أن يكون له أرض.

والمعنى الثاني: السمة اللاّهوتية التوراتية، التي تُبرز على الدوام البعد الميتافيزيقي للظاهرتين الأميركية والإسرائيلية، بهدف إضفاء طابع استثنائي ورسالي على كل منهما. وبالتالي جعل كل سلوك وممارسة، ينطلقان من "حقّانية" مزعومة للشعب المختار. وبأن ما يفعله هذا "الشعب" هو حق يستمد مصادره المتسامية من الحق الإلهي.

ولسوف يظهر لنا من المعاينة الإجمالية لسَيْرِيّة النشأتين، كيف ستتحكم كلا منهما إلى حضورية الاعتقاد الديني التوراتي، وإلى أن تستأثر الايديولوجيا السياسية واللاّهوت بنظام الدولة، والمؤسسات، والمجتمع، والسلطة. في التجربة التاريخية الإسرائيلية المعاصرة كما في التجربة التاريخية الأميركية المتمادية في الزمن، ثمة حشد هائل من المفردات، والسِّير، والروايات الدينية، والأسطورية، ما يرسِّخ السمة اللاّهوتية العميقة بين التجربتين.

إن النزعة المركبة من الفرادة، والاستعلاء، والاصطفاء التي تُبنى الثقافة السياسية الإسرائيلية عليها، ليست إلا الوجه الحقيقي للتريُّب من الآخر. إذ كل "غير" أو "آخر" في اللاّهوت الإسرائيلي يعود إلى عالم "الأغيار". إلى

أولئك الذين سخّرهم إله التلمود لخدمة "شعب الله المختار". وليس من باب المصادفة أن ينبري بنيامين نتنياهو ليختم كتابه المعروف "مكان تحت الشمس" بقصة ذات دلالة صارخة على البارانويا اليهودية المعاصرة: تقول القصة أنه عندما طلب فريدريك الأكبر من طبيبه أن يأتيه ببرهان على وجود الله، اكتفى هذا بالقول: إن وجود اليهود هو الدليل على وجود الله".[1]

لم تنأَ حضورية الدين في الأطروحة الثقافية الأميركية عما نجده في المثال المعاصر للدولة اليهودية في فلسطين. بل يجوز القول إنهما جاءتا من نفس واحدة. لا سيما إن نحن رأينا إلى الهندسة الاعتقادية والمعرفية على النحو الذي يظهر في الفلسفة العملية للاّهوت السياسي الأميركي.

ثمة حادثة يستعيدها بعض الباحثين ويتعاملون معها كوثيقة تاريخية للدلالة على توظيف الكتاب المقدس في الاستراتيجيات العليا لأميركا.

صباح الثلاثاء، 4/ 1/ 2005، نقلت المحطة التلفزيونية العامة C-SPAN صلاة مجلس النواب التاسع بعد المئة مباشرة من كنيسة في مقر الكونغرس؛ حيث ذكَّر بعض الأعضاء "بالأسس المسيحية لحكومتنا"، وتحدَّث آخرون عن المأساة الآسيوية الرهيبة جراء كارثة تسونامي الأندونيسية. وفيما كان نوّاب يعربون عن تعاطفهم مع أُسَرِ ما يزيد على 150 ألف ضحية، توجَّه الزعيم التكساسي للأغلبية الجمهورية في المجلس، توم دولاي Delay، إلى منبر الوعظ وقرأ من الإنجيل"؛ ثم تلا - قبل أن يعود إلى مكانه من دون أيّ تعليق - آيات تنتهي بقول يسوع:

... "وكل من يصغي إلى أقوالي هذه ولا يعمل بها، سيكون أشبه بمغفّل بنى بيته على الرَّمل. ثم هطلت الأمطار وجاءت الفيضانات وهبَّت الرياح، وضربت البيت؛ فانهار، ودُمِّر كلِّياً.

الباحث في الشؤون الأميركية غسان غصن سيعلِّق على خطبة دولاي، ليبيِّن المساحة التي تحتلها الاعتقادات الغيبية في دائرة القرار السياسي. يقول:

---

(1) بنيامين نتنياهو، مكان تحت الشمس، ترجمة دار الجليل، الأردن، عمان 1995 ، ص 359.

"لو أردت الانضمام إلى المؤمنين بخُرافات الأرقام - وبخاصة الرقم سبعة، كما في "سفر الرؤيا" - لقلت إن هذا الموقف المستهجن من ذلك المشرِّع البالغ النُّفوذ يُعبِّر عن سبعة أمور:

أولاً: العنصرية: لأن الأغلبية العظمى من ضحايا الكارثة هم ممن يسميِّهم أمثال دولاي "السُّمْر الصِّغار".

ثانياً: التديُّن المتعصِّب: لأن معظم الضحايا ليسوا مسيحيين؛ وحتى إن كان بينهم مسيحيون، فهؤلاء ليسوا "مولودين من جديد" born again.

ثالثاً: الاستعلاء والتجبُّر: لأن البلدان المتأذِّية ليست، مثل الولايات المتحدة، "مدينة مضيئة على جبل... باركها الله... وكانت منيعة فخورة".

رابعاً: الاطمئنان إلى المساندة: لأن هناك أعداداً كبيرة ونافذة تُشاركه هذه الآراء والمشاعر، وتدعمه في مثل هذه المواقف.

خامساً: جهل الآخرين أو تجاهلهم: لأن التيار الرئيس متواطئ، أو لا يعلم، أو يكترث؛ أو، ربما، لأن لا حول له ولا قوة.

سادساً: السعادة لحدوث الكوارث: لأن عشرات الملايين من الأميركيين يؤمنون بكونها أدلة توراتية على قرب انتهاء العالم وعودة المخلِّص.

سابعاً: التزاوج بين الايديولوجيا واللاّهوت: لأن هذا التزاوج الحاصل للمرة الأولى في تاريخ الولايات المتحدة، يستأثر بالحكم ويحتكر السيطرة على البلاد.

وفي نقطة هامشية ربما يراها البعض قريبة من "نظرية المؤامرة"، وقد تكون مجرَّد مصادفة؛ هي أن النص الذي اختاره دولاي يتألف من... سبع آيات، موجودة في الإصحاح السابع[2].

---

(2) غسان غصن، الخطر الأميركي الأشد، تسييس الدين أم تديين السياسة، مجلة "شؤون الأوسط، بيروت العدد.

اليهودية السارية في الزمن

لو رأينا إلى القواعد السبع المذكورة من باب المقاربة، لوجدناها تكمن كجوهر يبث الروح في مجمل التأسيسات التلمودية للظاهرة الإسرائيلية. إذ مع صعود هذه الظاهرة، وتجسُّدِها ككيان جيو- سياسي ديني في فلسطين في نهاية النصف الأول من القرن العشرين، لم تعد اليهودية مجرد دين خارج الزمان العالمي. فلقد أُخِذَت في الزمن الدنيوي حتى يكاد لا يُرى إليها كديانة. فالذي بدا في الواقع هو أن "حكماء" الحركة الصهيونية أفلحوا في تحويل الإيمان إلى ايديولوجية سياسية. لكن فرادة وخصوصية مثل هذا التحويل أنه ينطوي على مفارقة لم ينفصل فيها الديني عن الأرضي، ولا المتعالي عن الوضعاني. إلى أن بات الأمران أمراً واحداً لا يقبل الفصل والتمايز. ربما كانت اليهودية في ذلك أكثر الديانات استعداداً إلى التشيّوء. فقد حُمِّل الديني وزر الدنيوي. حتى لقد بدا سَبْيُ بابل، ورحلات التِّيه واضطهادات الحداثة، كما لو كانت حاصل ذاك الوصال الذي لا ينفكُّ أبداً.

هل يعني هذا أن التراجيديا اليهودية كانت حتمية، بسبب من الزمن الذي أخذها، او الذي أُخِذت فيه؟

بالطبع، ليست الصورة على هذا النحو. ثمة في المشهد الإجمالي ما هو مركّب، ومعقّد، وضبابي. تماماً مثلما جرى في صورة الولادة الأميركية. لكن ينبغي هنا أن نعثر على الفاصل الطفيف بين الحقيقة والتوظيف. وهو الشيء الذي استغرقت الحداثة الغربية في ظلماته، بدل أن تكتشفه وتؤسس عليه رؤاها لمقاصد الحركة الصهيونية. فلو رأينا إلى ما تقصد، لعثرنا عليه في الكيفيات التي سُيِّلت فيها اليهودية في الزمن السياسي الحديث. ثم لنجد كيف تحولت المنافع إلى عقائد، والسياسة إلى دين، والمال إلى وثن للعبادة. لكأن الأمر بالنسبة إلى "حكماء" اليهودية الجارية في الزمن جاء مقلوباً. حيث رُفِع الدنيوي إلى مقام الديني، وتسامى الوضعي على الغيبي، حتى صار كل ما في "اللوح المحفوظ" عرضة للاستباحة.

غير أن من نقّاد الحداثة من ذهب إلى إجراء مقاربات أضاءت على منطقة الغموض المعرفي في جدلية الحضور اليهودي في التاريخ الحديث. لقد كان لكارل ماركس مطالعات جادة في هذا الحقل. فحين رأى إلى إله اليهودية بوصفه إلهاً علمانياً، وإلى حضارتها حضارة سوق، فإنما كان يرمي إلى أماطة اللثام عن التزييف الذي أجراه التلمود السياسي في الإيمان اليهودي الأول. كذلك كان الأمر قبلئذٍ عند إيمانويل كانط، الذي أنكر على اليهودي روحانيته، وخلع عليه مادية تاريخية صافية، ونظر إلى ديانته كعقيدة سياسية قومية، ووصف المسيحانية الممزوجة فيها، بأنها طموح إلى حياة أفضل لشعب يعيش الشتات والنفي[3].

ربما كانت هذه التوصيفات نفسها هي التي ستحمل مفكراً يهودياً كإسحق دويتشر إلى البحث عن توصيف أكثر التصاقاً بواقع الكيان السياسي اليهودي في فلسطين؛ عندما اعتبر أنه في إسرائيل قام أقدم شعب في العالم بتشكيل أحدث دولة قومية. وإلى ذلك، يضيف، فإن هذا الشعب مندفع نحو التعويض على ما فاته من وقت. لا سيما وأن المثل الأعلى لجميع اليهود هنا، إنما يتجلّى في إنماء هيكل قومي وقائي ومتين، مما يقتضي ضمناً التخلص من حياة المنفى. إن إسرائيل هي دولة الشخص المشرَّد، ولهذا يكثر الحديث عندهم حول "الجذور الضاربة"[4].

وإذا كان للنص التوراتي قابلية لتسويغ ما يسمونه "الجذور الضاربة"، فإن اليهودية السياسية التي أنشأها الغرب على صورته ستطيح مصدرها الالهي، لتوِّظِفُه في حروب الزمان والمكان. لقد بدأت عمليات التوظيف في الأزمنة المتأخرة للحداثة، عندما ارتكبت فظائعها بحق اليهود. الأمر الذي منح الحركة

(3) محمود حيدر، يهودية الحقيقة والتوظيف، مجلة "مدارات غربية" العدد الخامس، كانون الثاني/فبراير 2005.

(4) اسحق دويتشر، اليهودي اللاَّيهودي، ترجمة ماهر كيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1971، ص 65.

الصهيونية التقاط الفرصة العظمى لتحويل تلك الفظاعات إلى طقس ديني عالي الوتيرة. إذ مع انبساط جغرافية الاستيطان على أرض فلسطين، صار بالإمكان أكثر من أي يوم مضى أن تصبح "الهولوكوست" ديناً يُدان به، وعقيدة تدين العالم بأسره، ثم لتُشعِره بذنب لا شأن له به.

لكن ماذا عن وجه الاشتراك بين القيامتين الإسرائيلية والأميركية؟

على ما يفضي إليه لاهوت التأسيس، لا شيء يشير إلى تناقض أو مباينة جوهرية في واحدية نشوء كل من إسرائيل وأميركا. وتبيّن الدراسات التاريخية ان الثوار الإنكليز من البيوريتان (Puritans) الطهرانيين الذين استوطنوا أميركا الشمالية، وأورثوها ابرز خصائصها وملامحها لم يستوطنوا لأسباب تجارية خالصة، ولم يهاجروا إليها طلباً لحرية العبادة وحسب، وإنما كانت تجسد لهم أيضا فكرة مستمدة من أدبياتهم العبرية ونظرياتهم عن "نهاية الزمان". ففي أقل من خمسين سنة مضت على تأسيس جو سميث (John Smith) للمستعمرة الانكليزية الدائمة الأولى في جيمستاون (Jamestown) عام 1907 وصل إلى العالم الجديد 80 ألف مستوطن انكليزي أسسوا فيه 18 جماعة مستقلة مختلفة. وتمتعت كل واحدة منها باستقلالها وسيادتها الكاملة، ومُنِحَت وسام العبرية ولقب "الشعب المختار"؛ ثم أنها قدّست اللغة العبرية، وطالبت بتطبيق شريعة موسى، وسمَّت مجالها الحيوي (Lebenstaum) من الأراضي المغتصبة باسم "أرض كنعان"، أو "إسرائيل الجديدة"، أو "صهيون"، أو "أرض الميعاد"، أو غير ذلك من التسميات التي أطلقها العبرانيون على فلسطين. كذلك كانت كلها تلتذُّ بإبادة شعوب أميركا بسادية واحدة، ومبررات أخلاقية وأسطورية واحدة أسقطت على نفسها، وعلى ضحاياها معظم الروايات العبرانية عن ارض كنعان وأهلها[5].

كذلك سنجد ما يوطّد صلة المعنى بين أميركا وإسرائيل لدى الشطر الأعظم

---

(5) منير العكش، تلمود العم سام، الاساطير العبريّة التي تأسست عليها اميركا، دار رياض الريس للكتب والنشر، بيروت 2004، ص 30.

من مؤرخّي وكتّاب الأطروحة الأميركية. وفي هذا المجال يبيِّن الباحث الأميركي لي فريدمان في كتابه "حجاج في العالم الجديد" أنَّه من اليوم الأول لوصول المستعمرين الإنكليز إلى العالم الجديد، وهم "يريدون أن ينشئوا في أميركا دولة ثيوقراطية تعيد سيرة اليهود التاريخيين. فالخطباء والوعّاظ استمدّوا نصوص خطبهم من العهد القديم، أما الآباء فقد استعاروا منه أسماء أولادهم. لم تكن العبرية لغة ثانوية بل كانت عمود ثقافة المثقفين والمتعلِّمين المتدينين وغير المتدينين. وكان تاريخ اليهود في العهد القديم قراءتهم اليومية، بل لربَّما كانوا يعرفونه أكثر ممّا يعرفون تاريخ أي شعب"[6].

ليس من شك في أنَّ بعض هذه المحاولات آل إلى الإضاءة على ما يمكن وصفه بالبعد الميتافيزيقي للثقافة المؤسِّسة لأميركا. وضمن هذا السياق تُلقي دراسة الباحث في الشؤون الأميركية د.منير العكش الضوء على المعنى الإسرائيلي للنشوء الأميركي. في هذه الدراسة جلاء لقضية منهجية قوامها، أنَّ أميركا ليست إلاَّ الفهم البريطاني التطبيقي لفكرة إسرائيل التاريخية. وأنَّ كل تفصيل من تفاصيل تاريخ الاستعمار البريطاني لشمال أميركا، حاول أن يجد جذوره في أدبيات تلك "الإسرائيل"، وسعى بالتالي إلى تمثّل وقائعها،وأبطالها، وأبعادها الدينية، والاجتماعية والسياسية، وتبني عقائدها في "الاختيار الإلهي"، وعبادة الذات،و تملُّك أرض الآخرين وحياتهم. لقد ظنوا أنفسهم، بل سمّوا أنفسهم "إسرائيليين" و"عبرانيين" و"يهودا"، وأطلقوا على العالم الجديد اسم "أرض كنعان"، أو "إسرائيل الجديدة"، واستعاروا كل المبرِّرات الأخلاقية لإبادة الهنود الكنعانيين، واجتياح بلادهم من مخيّلات العبرانيين التاريخية . ليست "العلاقة بالمعنى" بين إسرائيل وأميركا مجرَّد تركيب ذهني أخذ المشتغلون بظواهره وألوانه، وبأعراض التشابه في النشأتين. وإنَّما هي علاقة تأسَّست على اعتقادات المهاجرين بأنَّهم بلغوا أرض الميعاد

---

(6) منير العكش، أميركا والإبادات الجماعية، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت 2003، ص 123 - 124. و ص 130.

والخلاص. تماماً كالإعتقاد اليهودي بفلسطين. تذهب الدراسة، إلى أنَّ فكرة أميركا هي "استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة" عبر الاجتياح المسلَّح وبمبررات "غير طبيعية" وهذه محور فكرة إسرائيل التاريخية. ذلك أنَّ عملية الإبادة التي تقتضيها مثل هذه الفكرة مقتبسة بالضرورة بشخصيات (أبطالها (الإسرائيليون، الشعب المختار، العرق المتفوِّق) وضحاياها (الكنعانيون، الملعونون، المتوحشون، البرابرة) ومسرحها (أرض كنعان، إسرائيل) ومبرراتها (الحق السماوي أو الحضاري) وأهدافها (الإستيلاء على أرض الآخرين واقتلاعهم جسدياً وثقافياً) ـ من فكرة إسرائيل التاريخية[7].

لعل الاعتقاد بأنَّ هناك قَدَرَاً خاصاً بأميركا، وأنَّ الأميركيين هم الإسرائيليون الجدد و"الشعب المختار" الجديد يضرب جذوراً عميقة في الذاكرة الأميركية، وما يزال صداه يتردَّد في اللغة العلمانية الحديثة، أو ما صار يعرف بالدين المدني، إنَّه اعتقاد يتجلَّى في معظم المناسبات الوطنية والدينية، وفي كلِّ خطابات التدشين التي يلقيها الرؤساء الأميركيون، ومفاده أنَّ "إرادة الله، والقدر، وحتمية التاريخ...الخ" اختارت الأمَّة الأميركية (الأنكلوسكسونية المتفوِّقة) وأعطتها دور المخلِّص (الذي يعني حق تقرير الحياة والموت والسعادة والشقاء لسكان المجاهل[8].

عقيدة "الاختيـار"!

الأمر الأشد إثارة للمفارقة هي أنَّ فكرة "الاختيار الإلهي" طالما كانت محرِّكاً لولبياً في التاريخ الأميركي. بل هي الأساس الميتافيزيقي لمعظم الممارسات العنصرية في التاريخ القديم والحديث. ولشد ما أشعلت النيران في الحماسات والمشاعر والبواريد، وفي القرى والمدن، ونشرت ركام الموتى في أكثر من أربعين دولة اجتاحتها أو قصفتها الولايات المتحدة، وعزَّزت القناعة

(7) منير العكش - المصدر نفسه - ص 124.

(8) Patrick Bucanan the American conservative March 24. 2003.

بأنَّ لأميركا قدراً أعلى من كل أمم الأرض، وأنَّه مهما حلَّ بإسرائيل فوق أرض فلسطين، فإنَّ إسرائيل الأميركية تبقى القلعة المحصَّنة لإعادة بناء قيمها ومبادئها وأخلاقها. إنَّ يهود الروح الذين يمثلهم الأنكلوسكسون هم الذين يحملون رسالة "إسرائيل" التي تخلَّى عنها اليوم يهود اللحم والدم، وهم الذين أعطاهم الله العهد والوعد، وهم الذين ورثوا كل ما أعطاه الله تاريخياً ليهود اللحم والدم ومعظمهم من ألدّ أعداء السامية . لقد اختار الله يهود اللحم والدم مؤقَّتاً، وبشروط أخلفوها، ولكنَّه اختار الأمة الأميركية (الأنكلوسكسون) مؤبَّداً، لأنَّها تستأهل الاختيار، ولأنَّه وهبها كل ما يلزمها من قوة وثروة لأن تكون "شعب الله" و"فوق كل الشعوب"، إلى الأبد.

وتلاحظ القراءات المعاصرة أنَّه منذ الفترة الإستعمارية الأولى كان أطفال القديسين يتعلمون أنَّ مسيرة التاريخ التي ترعاها يد الله البريطاني ونعمته أعطتهم دوراً خلاصياً. وكانت هذه الافتراضات تقترن بإيمان قيامي مزدوج الهدف: تجميع يهود العالم في فلسطين للتعجيل بمجيء المسيح، وتدمير قوى الشيطان التي كانت تتمثَّل يومئذٍ بالعثمانيين، والكاثوليك، والهنود الكنعانيين. وبالطبع فقد وجد بعض السياسيين الإنكليز في استعمار العالم الجديد فرصة لتحقيق ما عجزوا عن تحقيقه في وطنهم. وبذلك تأكَّد لهم أنَّ خروجهم من جزيرتهم يضاهي الخروج الأسطوري للعبرانيين من أرض مصر، ولم يساورهم الشك في أخلاقية استعمارهم وحقهم في إبادة الهنود ومقارنة ذلك كلّه باجتياح العبرانيين لأرض كنعان وتأييد السماء لإبادة أهلها . بالإضافة إلى ذلك فإنَّ أدب المستعمرين الأوائل كلّه يؤكِّد هذه القدرية التاريخية التي نالت ذروة إبداعها في سيرة وموعظة جون ونثروب، أول حاكم لمستعمرة ماساشوستس. أمّا السيرة فوضع لها مؤلِّفها كوتون ماذر عنوان: " نحميا الأميركي" تأسِّياً بنحميا الأسطوري الذي قاد الإسرائيليين في "عودتهم" من سبي بابل إلى أرضهم الموعودة، ونظَّم الكثير من موجات الهجرة من بابل إلى يهودا، ثم أشرف على انتشال أورشليم من أنقاضها وأعاد بناءها «مدينةً على جبل». وكانت الأجيال اللاّحقة قد صنَّفت هذا الحاكم مع يعقوب وموسى وداود، غير أنَّ اختيار

نحميا، بطل إحياء إسرائيل، هو الذي طغى في النهاية. والواقع أنَّ كل سيرة نحميا الأميركي هي مثال على إصرار المستعمرين الإنكليز على التماهي بين تجربتهم في العالم الجديد وما يرويه العهد القديم. عن تجربة العبرانيين في العالم القديم، أو بتعبير صموئيل فيشر في "شهادة الحقيقة": "لتكن إسرائيل... المرآة التي نرى وجوهنا فيها". وأمّا الموعظة فهي تلك التي ألقاها ونثروب في الحُجَّاج على متن السفينة الأسطورية أربيلا، وأكَّد فيها على العهد الجديد بين الإسرائيليين الجدد وبين يهوه، وعلى الرسالة التي يحملونها إلى مجاهل أرض كنعان الجديدة: "إنَّنا سنجد رب إسرائيل بيننا عندما سيتمكَّن العشرة منّا من منازلة ألف من أعدائنا، وعندما سيعطينا مجده وأُبّهته، وعندما يتوجَّب علينا أن نجعل "نيو إنغلاند «مدينة على جبل». وهذا التعبير هو رمز لأورشليم ولصهيون أيضاً، ولا يزال يستخدم إلى الآن للدلالة على المعنى الإسرائيلي لأميركا. وقد درج آخر أربعة رؤساء على استخدام هذا الرمز في مناسبات مختلفة، وهم رونالد ريغان، وجورج بوش الأب، وبيل كلينتون، وجورج بوش الإبن". ولم يكن الآباء المؤسِّسون للدولة الأميركية مثل جيفرسون، وآدامس، وفرانكلين، وباين ـ أصحاب الإتجاه العقلاني والمذهب الطبيعي ـ بأقل حماسة للمعنى الإسرائيلي للأمّة الأميركية من الحجّاج والقدّيسين وصموئيل لانغدون. ومعروف أنَّ فرانكلين وجفرسون كليهما أصرَّ على صورة "الخروج الإسرائيلي: من مصر إلى كنعان كمثل أعلى للنضال الأميركي من أجل الحرية[9].

هذه الأخلاق التي ضربت جذورها في عقيدة الاختيار وكراهية الكنعانيين، ورافقت بناء أميركا لحظة لحظة، وجبهة بعد جبهة، هي التي جعلت "الأميركيين يعتقدون اليوم، كما كان أجدادهم المستعمرون الأوائل يعتقدون قبلهم، بأنَّ لهم الحق المطلق في أن يقتحموا أي "غرب" في أي مكان من الأرض. إنَّ ميتافيزياء "اقتحام الغرب" التي نسفت نظام البوصلة، وأعدَّت العصر الذهبي

(9) منير العكش أميركا والإبادات الجماعية، المصدر السابق ص 126.

لنظرية البريطاني مالتوس جعلت الغرب الأميركي في كلِّ الجهات، وفي كلِّ الأرحام. إنَّه "الغرب" اللاّنهائي، بل إنه اللاّمكان، كل مكان. لكن الأهم من هذا إنَّ هؤلاء "الآباء" لم يكتفوا بحمل العقيدة التوراتية على محمل التبشير وحسب. ذلك على أهمية هذا الجانب في توفير المناخ السايكوسوسيولوجي والروحي للمهاجرين. فلقد انبرت النخب المؤسِّسة إلى بث الروح التوراتية في الدستور الأميركي. واللاّفت للإهتمام هنا أنَّ وضع الدستور قد شجَّع على توثيق وتثبيت المعنى الإسرائيلي لأميركا. كما كتب رئيس جامعة هارفرد صموئيل لانغدون (Samuel Langdon) في ملحمته الشهيرة "جمهورية الإسرائيليين: نبراس للولايات المتحدة. هذه "الملحمة" التي هي في الأصل خطبة ألقاها في المحكمة العليا ـ سوف لن يجد قارؤها لحظة شك في أنَّه يقرأ مقاطع من سفر الخروج أو التثنية. بل إنَّ لانغدون فعلاً يفتتح كلامه عن ولادة الدستور بهذا المقطع من سفر التثنية: "لقد علمتكم فرائض وأحكاماً كما أمرني الرَّب إلهي لكي تعملوا بها في الأرض التي أنتم داخلون إليها لتتملّكوها. فاحفظوا واعملوا، فتلك هي حكمتكم وفطنتكم في عيون الشعوب الذين سيسمعون عن هذه الفرائض ويقولون: ما أعظم هذا الشعب وما أحكمه وأفطنه!...". الواقع ـ كما يلاحظ صاحب كتاب " أميركا والإبادات الجماعية" إنَّ كل هذه الملحمة الرائعة إنَّما هي كناية شرح وتعليق وقياسات تمثيلية بين شريعة موسى والدستور الأميركي، وبين الإسرائيليين والأمة الإسرائيلية. فالدستور مناسبة للتأكيد على وجه الشبه بين ما نزل على موسى من "ألواح" وبين ما نزل على قلب واضعي الدستور. وهي مناسبة للتذكير بأنَّ إسرائيل القديمة والجديدة أمَّة مختارة، باركها الله قديماً بشريعة ليس لها مثيل، وجعلها "فوق كل الشعوب" نبراساً للعالم، ثم أكرمها حديثاً بدستور ليس له مثيل وجعلها "فوق كل الشعوب" مثالاً يُحتذى عبر كل العصور. فإذا تعلَّم الناس منهم طريقتهم في الحضارة رفعوا من شأنهم، وإذا استكبروا وأبوا جرّوا على أنفسهم الدمار والخراب (والأضرار الهامشية (...) كذلك(...) سوف يمضي لانغدون في

المقايسة إلى الحد الذي يرى فيه أنَّ تأسيس مجلس الشيوخ ليس إلاَّ استمراراً لما فعله موسى عندما اشتكى إلى يهوه أنَّه لا يطيق الحكم وحيداً، فأمره باختيار سبعين من الحكماء والرتباء. ثم لم يجد لانغدون حرجاً من القول إن حكومة موسى كانت "جمهورية" وقائمة على المبادئ الجمهورية.، وإنَّ قبائل إسرائيل كانت تحكمها حكومات محلية لامركزية ولا تختلف عن الحكومة المحلية للولايات المتحدة(10).

الفيزيائية المقدسة عند المحافظين الجدد

وفقاً للايديولوجيا المؤسِّسة للسلوك الأميركي، لن يكون أمراً مفارقاً، أن يُرى إلى إسرائيل اليوم، كفيزياء أميركية مقدَّسة. ولئن كان المعنى الإسرائيلي لأميركا داخلاً في التاريخ السياسي الممتد منذ المهاجرين الأوائل، فهو يرقى إلى مراتبه القصوى لدى المحافظين الجدد في مستهل القرن الحادي والعشرين.

سوف يعلن أميركيون كثر، ومن بينهم المحرر السابق في صحيفة "وول ستريت جورنال "ماكس بوت" أنَّ العلاقة الحميمة مع إسرائيل تبقى العقيدة الأساسية للمحافظين الجدد، معتبراً أنَّ استراتيجية الأمن القومي لدى الرئيس جورج دبليو بوش تبدو وكأنها جاءت مباشرة من صفحات الـ (Commentary) توراة المحافظين الجدد. لكن ستانلي هوفمان الأستاذ في جامعة هارفرد والكاتب في "نيوريبابليك" يمضي إلى الكلام على أربعة مراكز قوة كلها تدعو إلى الحرب واستعمال القوة ضد من لا يوافق العقيدة السياسية والأمنية للولايات المتحدة. ويشير إلى أنَّ هؤلاء وخصوصاً أولئك الذين تحلَّقوا حول الرئيس، وأبرزهم ريتشارد بيرل وبول ولفوويتز وكونداليزا رايس، ودونالد رامسفيلد، وديك تشيني، وسواهم، ينظرون إلى السياسة الخارجية عبر عدسة مهيمنة واحدة: هل الأمر مناسب لإسرائيل أم لا؟ ومنذ نشأة إسرائيل في العام 1948 لم يكن لأصحاب هذا التفكير أن يشكِّلوا غالبية طاغية في الخارجية،

---

(10) المصدر نفسه.

ولكنهم اليوم في أفضل الأوضاع في البنتاغون عبر اشخاص مثل ولفوويتز وبيرل ودوغلاس فايث.

من هم هؤلاء "المحافظون الجدد" الذين بلغوا السلطة العليا في الولايات المتحدة ليبدأوا بإنجاز تلك المطابقة النادرة والاستثنائية بين أميركا وإسرائيل بوصفها معنى واحداً وجوهراً واحداً؟

يبيِّن الكاتب الأميركي باتريك بوكانان أنَّ الجيل الأول منهم ضمَّ الليبراليين السابقين، بالإضافة إلى الاشتراكيين والتروتسكيين، وكذلك المجموعات الآتية من ثورة ماكغوفرن عبر نهاية مرحلة المحافظين، وانتقلت بعد مسار طويل إلى السلطة مع مجيء رونالد ريغان إلى البيت الأبيض في العام 1980. وفي هذا الموضوع يضيف بوكانان أنه سبق لكيفن فيلبس أن عُرِّف بـ"المحافظ الجديد" آنذاك وبأنَّه "محرر في مجلة أكثر مما هو عامل بناء". أما اليوم فيمكن التعريف به بأنه من الأعضاء المقيمين في مؤسسات السياسة العامة مثل "مؤسسة المشاريع الأميركية" (AE) أو إحدى توابعها مثل "مركز سياسة الأمن"، أو "المؤسسة اليهودية لشؤون الأمن القومي" (JINSA). إنَّه باختصار من الأشخاص الذين يعملون عن كثب مع مجموعات وضع الأفكار والخطط.

لم يأتِ أحد، تقريباً، من هؤلاء من عالم الأعمال أو القوات المسلحة، وبعضهم القليل من أعضاء حملة "غولدوتر". وهم يستشهدون عادة بأبطال من أمثال ودرو ولسون وهاري ترومان ومارتن لوثر كينغ، فضلاً عن الشيوخ الديمقراطيين مثل هنري سكوب جاكسون وبات موينيهان وغيرهما. وهم جميعاً من أنصار سياسة التدخل في شؤون الدول الأخرى، وينظرون إلى عامل دعم إسرائيل على أنه عنصر بالغ الأهمية. ومن نجومهم في هذا المجال جين كيركباتريك، بيل بينيت، ومايكل نوفاك وجايمس.ك. ولسون. أما منشورات المحافظين الجدد فتشمل الـ"ويكلي ستاندرد"، والآنف ذكرها "كومنتاري"، والـ"نيويورك ريبابليك"، و"ناشونال ريفيو"، وكذلك صفحة المحرر في "وول ستريت جورنال". وهي على قلّة عددها تبقى واسعة النفوذ عبر سيطرتها على

مؤسسات المحافظين ومجلاتهم. فضلاً عن قوة الارتباط بالنقابات الصحافية ومراكز القوى[11].

المهم في الأمر لدى هؤلاء هو أنهم يجاهرون بفلسفتهم التوراتية وبضرورة صون "المقدس الإسرائيلي" أياً تكن تبعات التمرين على هذه الفلسفة. ولسوف يمضي عدد من رموز التيار الجديد والمحافظين إلى وضع إسرائيل في مقام يتجاوز كونها " فيزياء سياسية أمنية ينبغي صون حياضها المقدس. بل إنَّ بعض رؤى هذه الرموز يبلغ درجة لافتة في شغفه بالكينونة الإسرائيلية إلى حد جعل الحروب مفتوحة وممتدة على العالمين العربي والإسلامي، وخصوصاً على البلاد المحيطة بها. ولو شئنا أن نعطي توصيفاً لهذا الشغف لقلنا إنّ أصحاب هذه الرؤية المؤثرة والحاسمة في السياسات الأميركية العليا، أرادوا لإسرائيل أن تؤلِّف نقطة جيو ـ استراتيجية شديدة الحساسية في الدائرة الكبرى للأمن القومي الأميركي. وثمة الكثير من الأمثلة الدالَّة على هذه الرؤية. ومن الشواهد المتأخرة أنه في العاشر من تموز/يوليو 2002 بادر ريتشارد بيرل الذي استقال من منصبه المهم في وزارة الدفاع في خلال الحرب على العراق، إلى دعوة أحد دعاة المعنى الإسرائيلي لأميركا المدعو لوران مورافيك لإلقاء محاضرة أمام "مجلس سياسة الدفاع" أثارت يومها روع هنري كيسينجر (تصوَّروا).. حين عمد المحاضر إلى نعت السعودية بأنها جوهر الشر والمحرك الأول له، وأكثر الأعداء خطراً.. واعتبر مورافيك أنَّ على واشنطن توجيه إنذار للسعودية بموجب "محاكمة الضالعين في الإرهاب أو عزلهم، بمن فيهم رجال المخابرات السعوديين"، مع إنهاء كل الحملات ضد إسرائيل، وإلاَّ فإننا سنغزو بلادكم ونصادر حقول نفطكم ونحتلّ مكّة. وفي ختام محاضرته قدَّم مورافيك تصوّره لـ"الاستراتيجية الكبرى في الشرق الأوسط". وجاءت حصيلته مطالعته العصماء بهذه المعادلة: العراق محور تكتيكي، والسعودية محور استراتيجي، ومصر هي

---

(11) باتريك بوكانان، برنامج المحافظين الجدد، "المستقبل" البيروتية، الجمعة 11 نيسان/ابريل 2003.

الجائزة. ولكن التسريبات عن هذا التقرير لم تشر إلى أنَّ أيّاً من الحاضرين طرح السؤال عن ردَّة فعل المسلمين إذا دخلت الجيوش الأميركية إلى الأراضي المقدَّسة. ولعل ماتريده النزعة الاسرائيلية لدى المحافظين الجدد ـ على ما يلاحظ باتريك بوكانان في كثير من المرارة ـ هو تجنيد الدم الأميركي لجعل العالم أكثر أماناً بالنسبة لإسرائيل. إنَّهم يريدون فرض سلام السيف على المسلمين، وأن يموت الجنود الأميركيون في أثناء ذلك إذا لزم الأمر(12).

حمايـة مملكـة يهودا

في العام 1996 سيخطو التيار المتصهين في الفكر السياسي الأميركي خطوة استثنائية. فقد أعدت مؤسسة الدراسات الاستراتيجية والسياسية المتقدمة الأميركية تقريراً بعنوان: " استراتيجيا جديدة لإسرائيل في العام «2000» وتنبثق الأفكار الأساسية للتقرير من نقاش شارك فيه صانعو رأي بارزون، بمن فيهم ريتشارد بيرل، وجايمس كولبرت، وتشارلز فيربانكس، ودوغلاس فايث، وروبرت لوينبرغ، ديفيد ورهسر وغيرهم. المهم أنَّ المهندس الأساسي للتقرير هو ريتشارد بيرل، مساعد السيناتور سكوب جونسون في ذلك الوقت، علماً أنَّ هذا الأخير كان في العام 1970 خضع لاستجواب حول تسريب أشرطة تحمل معلومات سرية إلى السفارة الإسرائيلية في واشنطن. وفي العام 1974 كتب ستيفن د.اسحق في "السياسات اليهودية والأميركية" أنَّ "بيرل وموريس زميتاي يقودان جيشاً صغيراً من أنصار السامية في كابيتول هيل، ومهمتهم توظيف القوى اليهودية وتوجيهها لتحقيق المصالح اليهودية. وفي العام 1983 شاع في الصحف والأوساط الإعلامية الأميركية أن بيرل نال مبلغاً كبيراً من مصنع سلاح إسرائيلي.

وتحت عنوان "انطلاقة نظيفة: استراتيجية جديدة لتأمين المملكة" قُدِّم

(12) باتريك بوكانان - المصدر نفسه.

التقرير المشار إليه إلى رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك بنيامين نتنياهو. وفيما يحثّ هؤلاء "نتنياهو" على دفن اتفاقيات أوسلو التي كان أنجزها زعيم "العمل" الراحل اسحق رابين، بهدف اعتماد استراتيجية جديدة أكثر شراسة: "تستطيع إسرائيل تشكيل محيطها الاستراتيجي، بالتعاون مع تركيا والأردن، عبر إضعاف سوريا واحتوائها، أو حتى دحرها. ويمكن تركيز الجهد على إطاحة صدام حسين في العراق. وهو هدف استراتيجي بالنسبة لإسرائيل وذلك من أجل إحباط الطموح السوري في المنطقة. وفي كل الأحوال تبقى سوريا في استراتيجية بيرل ورفاقه هي العدو بالنسبة لإسرائيل، ولكن طريق دمشق تمر في بغداد. وإذا كانت الخطة تشجع إسرائيل على اعتماد "مبدأ الاستباق"، فإنَّ المبدأ عينه بات الآن مفروضاً على الولايات المتحدة بواسطة المجموعة عينها. وفي العام 1997 قال بيرل في ورقة وضعها تحت عنوان "استراتيجية من أجل إسرائيل" إنَّ على تل أبيب إعادة احتلال" المناطق الخاضعة للسلطة الفلسطينية.. حتى لو جاء الثمن بالدم مرتفعاً". من جانبه وضع ورمسر خطط حرب مشتركة لإسرائيل والولايات المتحدة "لتوجيه ضربة حاسمة إلى مراكز الأصولية في الشرق الأوسط. ويجب على إسرائيل والولايات المتحدة التوسُّع في الضربة بما يتجاوز مجرد نزع السلاح إلى القضاء الكلي على مراكز الأصولية في أنظمة دمشق وبغداد وطرابلس وطهران وغزة. وسيكون من شأن ذلك تكوين قناعة شاملة بأنَّ محاربة الولايات المتحدة أو إسرائيل هو انتحار". وهو دعا البلدين إلى الانتباه للأزمات معتبراً أنَّها "قد تكون فرصاً". وقد نشر ورمسر خططه المذكورة في أول كانون الثاني/يناير من العام 2001، أي قبل تسعة أشهر من الـ11 من أيلول/سبتمبر 2001.

ولقد كان للكاتب مايكل ليند أن يتحدث عن عصبة بيرل، فايث، ورمسر بقوله: " إنَّ اليمين الصهيوني الذي ينتمي إليه بيرل وفايث وعلى الرغم من قلَّته العددية، فإنَّه يتمتع بنفوذ كبير في دوائر صنع القرار مع الجمهوريين. إنها ظاهرة تعود إلى السبعينات والثمانينات حين عمد عدد من المفكِّرين اليهود الديمقراطيين

إلى الالتحاق بتحالف ريغان. وإذا كان العديد من هؤلاء الصقور يتحدثون علناً عن حملات صليبية من أجل الديمقراطية، فإنَّ الهمّ الأساسي لدى عدد من المحافظين الجدد هو السلطة وسمعة إسرائيل"[13].

لاهوت التماهي بـ "الهولوكوست"

هنالك زاوية في الأصل المشترك الأميركي - الإسرائيلي على جانب وازن من الأهمية، وهي تتصل بتماهي أميركا بالمحرقة. في هذا الصدد يمضي الباحث الفرنسي اليهودي جان مارك درايفوس في ما يشبه الاستطلاع السوسيو-ثقافي لأثر الهولوكوست في الشعور الأميركي، وتداعيات هذا الشعور في السلوك الإجمالي للنخب الحاكمة. وهو يرى وجوب إعطاء موقع متقدم للهوس الأميركي بالخير والشر حيث يتم النظر من خلال هذه الثنائية إلى حركة التاريخ نفسه. وحيث تحل هذه الرؤية أحياناً محل دراسة الماضي بشكل منهجي إلى درجة تتعارض فيها مع المقاربة التاريخية. فالمحرقة تمثل الشر المطلق، وعلى ذلك يصبح التثقيف بذكراها، البديل الزمني لرؤية دينية يمكن أخذ عناصرها من مجمل مكوِّنات المجتمع الأميركي، وليس فقط من قبل عنصره البروتستانتي التقليدي. يضيف درايفوس:

"وإذا ما دفعنا خطوة أخرى إلى الأمام بفكرة أولوية ثنائية الخير والشر، يصبح بإمكاننا طرح فَرَضيَّة جديدة، قوامها أن ذكرى المحرقة من شأنها أن تكون استبدالاً بسيطاً يغذيه شعور مكبوت بالذنب إزاء إبادة الهنود الحمر. فبما أن أميركا لم تتوصل إلى تحمل التبعات المباشرة لتاريخها الخاص ولخطيئتها الأصلية الخاصة، فإنها تفعل ذلك بواسطة إبادة أخرى لم تجر على أرضها. وبالمناسبة فإن بناء متحف للأميركيين الأصليين أيضاً، أي الهنود، فوق ساحة "مول"، سيعرض ثقافة سكان البلاد الأصليين لا كيفية إبادتهم، للإضاءة على هذا الجانب من السيكولوجيا الجمعية التي يمثلها الافتتان بالشر المتجسد

(13) المصدر نفسه.

بالفعل، أي بالكارثة وتطبيقه لـ "مصلحة" "المحرقة". ويشير درايفوس إلى الخطاب الديني التنبؤي الذي يكتسب موقعاً متزايد الأهمية منذ السبعينيات. وهو الخطاب الذي يظهر بقوة في أجهزة التلفزة حول أخبار الأعاصير، والكوارث الطبيعية المحدقة، والتي تصوّر أميركا وكأنها تمكث كل لحظة من عمرها على شفا هاوية مدمّرة"[14].

ويبدو أن نشاط السينما الأميركية يتركّز بشكل متزايد الإيقاع منذ حوالي ثلاثين عاماً حول موضوع الكارثة النهائية. أما نجاح الأفلام الكارثية التي تظهر كل شهر، ولا تختلف فيما بينها إلا من حيث درجة التقانة في المؤثِّرات الخاصة وتنويعات أشكال الدمار، فهو من الأمور التي يمكن دحضها. وكذلك الأمر بالنسبة للنتائج: مدينة تختفي من الوجود وينعدم فيها كل حضور بشري. كوارث الشاشة صارت عملة رائجة، وهذا السيناريو عن الدمار يعج بعناصر النوع الكارثي. أما أفلام الخيال العلمي والأفلام البوليسية والأفلام الحربية فتعرض فيضاً كاسحاً من أشكال العنف وحروب المدن على خلفية من الأبنية المدمرة والصروح المهمَّشة. ويكاد فيلم "يوم الاستقلال" (1996) يكون إعادة لهذا الاتجاه، حيث يمكن للمشاهد أن يرى بفرح سادي كل صروح الديمقراطية الأميركية وهي تنفجر الواحد بعد الآخر بفعل أسلحة الدمار الشامل المنطلقة من أحد الصحون الطائرة. وحده النصب التذكاري الخاص بالمحرقة هو ما أبقى عليه كاتب السيناريو والقادمون من الكواكب البعيدة. ومنذ فيلم "أسنان البحر" (1975) - هنالك مسلسل ضخم جيد الإخراج من الفئة "ب" لستيفن سبيلرغ، تحول منذ ظهوره إلى فيلم معبود يُعاد عرضه باستمرار على شاشات التلفزة؛ وتمكن قراءته ليس فقط كحرب بين الخير والشر، بل أيضاً كقصة حول سفينة يتم تدميرها بكل عناية(...) هنالك إذن، في الوعي الأميركي المعاصر هوس حول الدمار الشامل الذي قد يجعل أميركا أمة تسبح في أجواء الكارثة. ولا

---

(14) جان مارك درايفوس، كيف تماهت اميركا بالمحرقة، ترجمة د. عقيل الشيخ حسين، مجلة "مدارات غربية" العدد الخامس، كانون الثاني/يناير-شباط/فبراير 2005.

يقتصر الأمر على الخوف من الحرب، أو من الإرهاب، أو من العنف المديني، أو انهيار المجتمع، بل يتعدى ذلك إلى تصور يقضي بأن النهاية أمر ممكن في أية لحظة. فأميركا، البلد البروتستانتي منذ حقبة طويلة، أدمنت قراءة "سفر الرؤيا"، على خلاف البلدان الكاثوليكية. وهي تواصل الاستماع إلى المتنبئين، والوعَّاظ الكثر. وهم يبشِّرون بنزول الروح على جماهير المؤمنين المحتشدين في غمرة الانجذاب داخل الملاعب الرياضية. وكثيرة هي شاشات التلفزة المتخصصة بالوعظ المتواصل، وهي تقوم بتأبيد تراث الوعَّاظ الأوائل. حتى القنوات الكاثوليكية راحت تبتعد عن الخطاب الأوروبي، وتعطي الأولوية لمسألة الخير والشر والعقاب الذي ينتظر الخاطئين. وربما يكون انتحاريو "القاعدة" قد فهموا الأمر عندما قاموا بتدميربرج التجارة العالمي. وخلافاً لما كان قد قيل وكتب في أوروبا، فإن الأميركيين لم يروا اللاَّمفكر فيه ماثلاً أمام أعينهم، بل رأوا تحقق ما كانوا يخشونه أكثر من غيره. وعلى هذا النحو من التوصيف الدرامي للثقافة الأميركية المعاصرة، تُستعاد المحرقة ضمن التصورات الموغلة في القدم. وتقدم واقعاً تاريخياً ينسجم انسجاماً كاملاً مع هذه الترسيمة. ويشكل تدمير يهود أوروبا دليلاً ظاهراً على المخاوف الأميركية حيث أنه العنصر الواقعي الذي يغذي رؤية الخطر غير المعقول والمطلق والموشك على التحقيق. على ذلك، تدخل الحكايات عن المحرقة، وعمليات إحياء ذكراها في علاقة مع تصورات لا علاقة لها بها. يمكننا أن نتساءل عن السبب في كون هذا التدمير بالذات هو الذي حاز على كل هذه الأهمية في حياة الولايات المتحدة بدلاً، على سبيل المثال، من القنابل الذرية الأميركية التي ألقيت على هيروشيما وناغازاكي، او من عمليات الإبادة في كمبوديا؟ لقد كان المطلوب من أجل ذلك وجود عنصر إضافي هو تماهي الأميركيين باليهود. والواقع أن ذلك لم يكن البديهي والسبب هو، وجود تراث أميركي معاد للسامية ومتجذراً ومتجذّر جداً حتى فترة قريبة من الزمن. فمن هامشيين في المجتمع، تحول اليهود إلى أبرز الممثلين المرموقين لهذا المجتمع. والحقيقة إنهم يشكلون نموذجاً لا يعلى عليه في مجتمع يريد لنفسه أن يكون منفتحاً، ويعطي الأولوية

للنجاحات الفردية عن طريق التجارة والصناعة والمال والتعليم. فالثروة المكتسبة والانتماء التاريخي إلى السلالة والمواريث لم تعد تشكل جزءاً من الوعي الأميركي (حتى وإن كانت لا تزال موجودة على نطاق واسع بالطبع). واليهود الذين ينظر إليهم جميعاً بوصفهم أناساً يصنعون أنفسهم بأنفسهم، ويصلون بأعداد كبيرة إلى كراسي الأستاذية في الجامعات، وإلى إدارات المصارف، ولوائح كبار الأغنياء في أميركا، باتوا يشكلون القدوة التي يجب أن تحتذى، الأمر الذي يعني انقلاباً غريباً بالفعل(15).

«أسطرة» البدايات الأولى

هنالك بالتأكيد تراث طويل من التماهي والتمثُّل الميتافيزيقي، بين قصة بناء أميركا، وبين عبور الصحراء وتأسيس المملكة اليهودية. وهنا أيضاً لا ينبغي التقليل من أهمية حضور التوراة، خصوصاً وأن الولايات المتحدة قد عرفت، منذ ثلاثين عاماً، صحوة دينية مذهلة بالفعل، وهي في ذروة النزعة الدينية الزمنية التي تفوق بكثير مثيلتها الأوروبية. وليس الرجوع إلى التوراة بالأمر الجديد في القصة التأسيسية لأميركا. فالمستعمرون الأوائل تمكنوا، وإن بعد الوهلة الأولى في الألب، من التماهي بالعبرانيين في الصحراء وبوصولهم إلى أرض الميعاد. وهنالك الكثير من التيارات الدينية المسيحية التي تقوم مجدداً بإعادة تمثيل المشاهد الأصلية بالتوازي مع الاضطهاد الذي تتعرض له البلاد. وقد قامت طائفتا "المورمون" و"الآميش" مثلاً بكتابة قصص مماثلة تتحدث عن طريق الظلمة إلى النور. وتجدر الإضافة هنا، أن هذه التيارات من الأقليات التي اضطُهِدَت في التاريخ الأميركي، ومن المهمَّشين قد أصبحت هي الأخرى، في الآونة الأخيرة، نماذج مرغوبة في صورة أميركا عن نفسها. ولعبت السينما أيضاً، كما ذكرنا، دور البطل في توصيل أصداء هذا التحول، حتى وإن كانت

---

(15) Jean - Marc Dreyfus- comment L'Amérique: S'est identifieé à la shoah, Le Débat, Mai-Aout 2004.

القصص الحالية عن "المورمون" و"الآميش" قد اختلفت عما كانت عليه في السابق لتصبح قصصاً تعيد تمثيل دور الجماعة العضوية الأصلية، البسيطة والريفية، والمتضامنة التي لا تطاولها شرور المدينة كالفقر والمخدرات والعنف. بل أكثر من كل ذلك، فثمة ظاهرة في أميركا تتمثل بتكريس عادة لكتابة قصة أسطورية تأسيسية للولايات المتحدة. وهي قصة الأقليات المضطهدة التي تحافظ على بقائها وتهرب من أرض العنف (أوروبا) وتصل إلى بر الأمان حيث تحظى بالإعتراف بها وتحقق الإزدهار لنفسها. إن ملحمة "مايفلاور" مثلاً وبالشكل الذي ما زالت تروى به، يمكن أن تُلحَظ في القصص السائدة حول المحرقة: أسرة يهودية مجتمعة، مثال للأسرة المزدهرة، ألمانية أو بولونية في أغلب الأحيان، تسقط عليها الكارثة النازية. بعض أفرادها يتمكنون من النجاة حيث يحررهم الجنود الأميركيون، ثم يهاجرون إلى أميركا. وهناك يندمجون وبعضهم يتمكن من تجميع ثروة كبيرة، ثم يتجذرون ويعيدون رواية تجربتهم القصوى. في قارة الشر، أي أوروبا التي تلعب دور الرحم السلبي نفسه الذي لعبته مصر في التراث اليهودي. أما الخطاب الرسمي الأميركي حول المحرقة فإنه لا يركز، خلافاً لما هي عليه المنظمات اليهودية، على تبرير وجود دولة إسرائيل. فمتحف المحرقة التذكاري في واشنطن ومتحف "يادفاشيم" في القدس يتم النظر إليهما كمؤسستين متنافستين. وعلى أية حال فإننا إذا ما تَّتبعنا خيط التماهي التوراتي، فإن القصة السائدة حول المحرقة في الحياة العامة الأميركية يكون حملها الناجون الذين تمكَّنوا من الوصول إلى أرض الميعاد الأميركية. ولا يتطابق مصطلح الناجين، كما هو مفهوم اليوم في أميركا الشمالية، مع المصطلح المستخدم في أوروبا، وخصوصاً في فرنسا. فمصطلح الناجين من المحرقة يستخدم في أوروبا للدلالة على الناجين من معسكرات الاعتقال. أما في الولايات المتحدة، فإن المفهوم يكتسب معنى أكثر اتساعاً وعمقاً، حيث يصبح الناجون هم جميع اليهود الذين كانوا يعيشون في أوروبا في العام 1933 والذين لم يتعرضوا للقتل. وعلى ذلك، يشتمل المفهوم على اليهود الذين هاجروا، أو الذين عاشوا بعد ذلك في الخفاء ثم وجدوا أمكنة يلتجئون إليها.

ومنها سويسرا، او الذين نجوا من القتل، ومن أشكال سياسات التعامل مع الألمان كالعديد من اليهود الذين يحملون الجنسية الفرنسية. لذا فإن عددهم يكون أكبر بكثير من عدد أولئك الذين كان ينطبق عليهم المفهوم بمداولة الأوروبي لدرجة أن اليهود البريطانيين أمكنهم، خلال فترة من الزمن، أن يأخذوا لأنفسهم صفة الناجين: لو تمكن الألمان من كسب معركة بريطانيا واجتياز بحر المانش، لكان بإمكان اليهود البريطانيين أن يكونوا في عداد ضحايا المحرقة. واللاّفت على نحو جليٍّ أنه من بين جميع العذابات، تحتل المحرقة مكان الصدارة لتصبح مرجعية إجبارية، ومقياساً عالمياً لأن الفرق بين الضحايا والضحايا الآخرين هو فرق في الدرجة لا في الطبيعة. ولذا فإن الاعتراف بقيمة العذاب الداخلي هو من الأمور البارزة في الحياة الأميركية كعنصر من عناصر الهوية. ويحصل هذا الاعتراف منذ اللحظة التي يظهر فيها العذاب وخصوصاً عندما يفضي إلى قضية نضالية أو مطلب. والشاهد على ذلك هو مئات الألوف من الدعاوى والمحاكمات التي تجري سنوياً حول موضوع الاعتداءات الجنسية حيث يسمح النظام القضائي الأميركي بطرح الموضوع بطريقة يتمكن معها الضحايا من تجاوز المشكلة. ولكن التركيز الكبير على المحرقة في أميركا والتكرار الآلي للذكرى في كل مناسبة بدأ يدفع بالمسألة نحو الابتذال.

عقدة الإحساس بالذنب

العنصر الأخير الذي يفسر الاهتمام الأميركي بالمحرقة هو الشعور بالذنب، ليس فقط لأن الجيش الأميركي لم يستجب للدعوات اليهودية لقصف معتقل أوشفيتز، بل أيضاً لأن الأميركيين رفضوا إفساح المجال لهجرة الألمان إلى الولايات المتحدة في أواخر الثلاثينيات، وخصوصاً مع فشل مباحثات إفيان عام 1938 حول هذا الموضوع. ومع هذا تظل المحرقة رافعة لإعادة تأسيس الهوية للقوة الأكبر في العالم. وقد لوحظ، في الوقت الذي تطرح فيه حالياً موضوعات الأمبراطورية والتدخلات العسكرية الأميركية ضد الشر المطلق

المتمثل أي ما يسمى بـ "الإرهاب الإسلامي"، أنه في ذكرى الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، تم اعتماد الطريقة المعتمدة من قبل المنظمات اليهودية في قراءة أسماء الضحايا. ولا بد من القول بأن المجتمع الأميركي يُسقِطُ على المحرقة كثيراً من صراعاته الداخلية وتناقضاته. فالحديث عن المحرقة يعني أيضاً، بالنسبة إلى أميركا، الابتعاد عن أوروبا، والتحرر منها، مع خروج العالم من الحرب الباردة[16].

وعلى الرغم من غلبة هذا التيار وسيادته على مركز القرار فإن من الخبراء الأميركيين من راح يطلق صرخته من سوء العاقبة المنتظرة بسبب من العمى الايديولوجي الذي يسيطر على السياسات الأميركية في الشرق الأوسط والعالم. دعونا نقرأ أخيراً ما ختم به باتريك بوكانان مقالته المستفيضة حول الوقائع الدراماتيكية التي جعلت الإدارة الأميركية في عهد بوش الإبن تؤول من آخرها إلى الزاوية اليهودية الحادة: إنَّ الرئيس بوش تحت الإنذار: فإذا مارس الضغط على إسرائيل لمبادلة الأرض بالسلام، وهي معادلة أوسلو التي وضعها أبوه واسحق رابين، فسوف يُتَّهم بمعاداة السامية، كما كانت حال أبيه، كما باتّباع أسلوب ميونيخ، وذلك من قِبَل الإسرائيليين ومعهم المحافظون الجدد الذين يقيمون داخل خيمته". وإذا لم يتخلَّ بوش عن إسرائيل فلن يكون هناك سلام. ومن دون سلام في الشرق الأوسط لن نحصل على أمننا أبداً لأنَّ الإرهاب لن ينتهي. ويضيف: "إنَّ أي دبلوماسي أو صحافي يزور الشرق الأوسط سوف يربط فشل أميركا في تطبيق السياسة المعتدلة بفشلها في لجم شارون، وفشلنا في إدانة استخدام إسرائيل العنف المفرط، وتآمرنا الخلقي مع إسرائيل في سلب أراضي الفلسطينيين وحرمانهم حقهم في تقرير المصير، الأمر الذي سيكون من شأنه تعزيز العداء للأميركيين في العالم الإسلامي الذي ينمو فيه الإرهاب والإرهابيون. ثم يخلص بو كانان إلى استنتاج مؤدَّاه ان الإسرائيليين هم أصدقاء أميركا ولهم الحق في السلام والحدود الآمنة، وعلينا مساعدتهم في تحقيق

(16) المصدر نفسه.

ذلك. نحن كأمّة لدينا التزام خلقي دَعَمَهُ أكثر من ستة رؤساء ويدعمه الأميركيون، وهو عدم ترك هذا الشعب، الذي طالما عانى الكثير، ويتعرض لرؤية بلاده تُدمَّر، وسوف نفي بالتزامنا. لكن المصالح الإسرائيلية والأميركية ليست شيئاً واحداً، فقد خدعت إسرائيل أميركا مرَّات عديدة على امتداد نصف قرن. أبرزها ما قام به عملاء الموساد في الخمسينات حين فجّروا منشآت أميركية لجعل الأمر يبدو من فعل المصريين. ومنها في مرحلة متأخرة عندما كُلِّف جوناثان بولارد بسرقة أسرارنا النووية. ثم يصل بوكانان إلى أنَّه على الرغم من أننا كررنا مراراً تقدير الكثير مما حققه هذا الرئيس، فإنه لن يستحق إعادة انتخابه إذا لم يتخلَّص من عبء المحافظين الجدد، وبرنامجهم المتضمن لحروب لا تنتهي على العالم الإسلامي، وهو الأمر الذي لا يخدم إلاَّ مصالح دولة هي غير الدولة التي كان انتُخب للحفاظ على مصالحها[17].

ومهما يكن من أمر، لم يكن ابتعاث "العصب الإسرائيلي" لأميركا في زمن المحافظين الجدد، إلاَّ لتأكيد الميتافيزيقا التاريخية التي رست عليها المقولة الأميركية. وهذا " العصب " الذي يمنح لأميركا معناها الإسرائيلي، هو عصبٌ مربوط بحبل وثيق إلى سلسلة غير متناهية من المفاهيم التي تؤول على الإجمال إلى إعادة إنتاج عقيدة الفرادة، أو ما يرسِّخ خرافة النوع الأميركي النادر.

شَبَهٌ تكويني تُظِهرُهُ ايديولوجيا الإقصاء

ظلت العلاقات الأميركية. "الإسرائيلية" طيلة الأحقاب المنصرمة على شيء من الإبهام بالنسبة للعرب. وهذه سمة زامنت مراحل مختلفة من تاريخ الصراع العربي الصهيوني. وغالب الظن الا يأتي يومٌ تنقشع الرؤية فيه، ويزول الإبهام، او تصير واضحة القواعد التي يمكن بواسطتها فقه قواعد الثابت والمتحول في تلك العلاقات. ولقد بدا التفكير العربي في الأعم الأغلب مضطرباً في مقابل المشهد الذي تنتظم فيه العلاقة بين الولايات المتحدة

(17) باتريك بوكانان، مصدر سبقت الإشارة إليه.

الأميركية و "إسرائيل". أما مرد هذا الاضطراب فإلى أسباب كثيرة، بعضها تاريخي وبعضها راهن، ويتصل بأحوال وظروف الصراع العربي. "الإسرائيلي" وديناميات السلام السياسي التي تعيش إخفاقاتها المديدة منذ حرب العام 1967.

في الأحوال جميعها، كانت الأسباب الكامنة وراء اضطراب الفهم العربي للعلاقة الأميركية - الإسرائيلية كثيرة. منها المقاربة الواهمة للقواعد التي حكمتها مع ما ترتّب عليها من صوغ خاطئ لاتجاهات العمل السياسي التكتيكي والاستراتيجي في العلاقات الدولية. ومنها أيضا غياب استراتيجية عربية موحّدة في مواجهة الحلف الأميركي-الإسرائيلي، مع ما حمله هذا الغياب من عوامل تفتيت وتصدع للتضامن العربي، وأثر ذلك في اختلال نسبة القوى بين العرب وإسرائيل.

هنالك بالطبع، طائفة من الأسباب الإضافية. وهي قد تبرز من حين لآخر، لتحايث التفاصيل اليومية للأحداث. إلا إنها في أي حال، تأتي لتؤكد فرادة العلاقة الأميركية-الإسرائيلية ورسوّها منذ البدء على خصوصية قد لا نجد ما يماثلها في العلاقات الدولية.

المسافة والوهم

لما كان فهم العلاقات الأميركية-الإسرائيلية على هذا النحو من الاضطراب، فإن جلاء بعض الحقائق التكوينية لتلك العلاقات أمرٌ في غاية الأهمية. انه من وجه يعيِّن قواعد جديدة للفهم فيما يعبر العالم عقوده الأولى في رحاب الألف الثالث، ومن وجه آخر سيساعد جلاء تلك الحقائق في صوغ استراتيجيات العمل العربية على الصعيد السياسي والدبلوماسي، ناهيك عن الأمن القومي، وموقع هذا الأمن في النظامين الإقليمي والدولي.

لقد كان الرأي السائد لدى الخبراء هو أن العلاقات التي تربط الولايات المتحدة بإسرائيل هي أواصر يمكن وصفها بالخاصة والمتميزة. إن كثافة المبادلات بين البلدين سواء على الصعيد الحكومي أو على الصعيد المجتمعي

واتساع مدى التعاون وحميميته أو الدعم الأميركي لإسرائيل بمختلف أشكاله اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً ودبلوماسياً وكلامياً. . . إنما يُظهر وجود روابط خاصة وصلبة، بل روابط وصلات لا تتزعزع. والطريقة التي تدار بها الصعوبات والعقبات التي تنشأ بين الحين والآخر، والمزيج من المبالغة والإنكار للخلافات التي تحدث أحياناً، والقلق، الذي طالما جرى الإعراب عنه من تردِّي العلاقات بين البلدين، يفضي إلى بيان الطابع الفريد الذي تتحلى به الأواصر التي تربطهما. لكن إذا كان في الإمكان الإحاطة بتجليات هذه الأواصر وتوصيفها، وإن بصعوبة، فإن طبيعتها العميقة وديناميتها أي الأساس الذي تتأسس عليه، أمور تبقى أعصى على الإيضاح والإبانة.

بهذا التوصيف سعى الباحث العربي المتخصص في الشؤون الأميركية كميل منصور إلى أن يبيّن الجانب العسير في فهم الطبائع التي تحكم العلاقة بين واشنطن وتل أبيب. فهو يبدو كما لو انه يقر بوجود مسافة بين دولتين. المسافة التي تفترضها طبيعة وخصوصية كل دولة وظروفها، وعلاقاتها، وشروط تكونها، فضلاً عن الظروف الجيو-سياسية والاستراتيجية المحيطة بها. . . بينما يشير قي مقابل هذا إلى وجود وهم ناتج عن المسافة عينها. وهو وهم يتأتى من سؤ تقدير للمسافة التي تفصل بين الدولتين. "فالإسرائيليون" يرون إلى الطريقة التي تدرك أميركا بها هذه العلاقات، هي مسألة حاسمة بالنسبة إليهم، ذلك لأنها تتعلق برفاههم وبمصيرهم. أما بالنسبة إلى الدول والمجتمعات العربية، أو حتى بالنسبة إلى دائرة أوسع من الدول، فإن العلاقات الأميركية، الإسرائيلية تشكل عاملاً رئيساً في تحديد وضعها، وحجمها، وقوامها، ومستقبلها. مرجع الأمر هو، أن ثمة نزاعاً يُعاش كنزاع وجود، بين إسرائيل وجيرانها . يستثير هذا النزاع تدخل القوى الخارجية، بدرجات مختلفة، إلى جانب أحد الطرفين في منطقة مهمة استراتيجياً. لذا فإننا لو تدبّرنا النزاع العربي-الإسرائيلي، أي لو نظرنا اليه في بعده التاريخي، او العسكري، او السياسي، أو الدبلوماسي، او الاقتصادي، او النفساني، أو حتى السكاني، فسوف يبدو وزن العلاقات الأميركية- الإسرائيلية المتميزة مهماً دائماً، إن لم نقل حاسماً. وتبدو الأواصر

بين الطرفين الأميركي والإسرائيلي متميزة إلى حد يجعل بالإمكان القول إن الولايات المتحدة هي نفسها طرف ضالع، وعلى أكثر من صعيد في النزاع العربي-الإسرائيلي. وصفة الطرف الضالع مباشرة في النزاع هذه، هي صفة لا يمكن أن تنسب بالقدر نفسه من الاطمئنان إلى القوى الخارجية المعتبرة معنيّة بهذا النزاع، مثل الاتحاد السوفياتي في حينه أو مثل بعض دول أوروبا الغربية[18].

في المذهب الاستراتيجي الأميركي

يستهل كميل منصور دراسته عن الولايات المتحدة الأميركية وإسرائيل[19] بتحديد منزلة إسرائيل في المذهب الاستراتيجي الأميركي. غير ان المؤلف سيبيّن لنا الصعوبات المنهجية لما أراد ان يحدد هذا المذهب. وهو يمضي في هذا الإطار ليُعيِّن ثلاث صعوبات:

أولاً: إذا كان مصطلح "مذهب" كما يعرفه الفيلسوف الغربي لالاند (Lalande) هو "جسم من الافكار وظيفته توجيه العمل، وهو كخطاب يهدف إلى التماسك المنطقي"، فإن هذا لا يتوافر في الولايات المتحدة. ليس هناك خطاب رسمي واحد بل جملة خطابات متحاذية، وذلك بالنظر إلى تعاقبهم وتناوبهم في الزمن، ناهيك عن مسألة تكيّف الخطاب وفق التغيرات الظرفية. فأية تصريحات اذن، هي الأدنى إعراباً عن المذهب موضوع الدرس؟ وما هي المعايير التي تسمح بانتقائها وتحديدها؟

ثانياً: يمكن أن يكون ثمة هوّة، يزيد عمقها او ينقص، بين الخطاب

---

(18) محمود حيدر، المسكوت عنه في علاقة أميركا بإسرائيل، مجلة الشاهد العدد 191، 192، تموز/يوليو ـ آب/أغسطس 2001.

(19) كميل منصور، الولايات المتحدة واسرائيل، (العروة الوثقى)، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، لندن 1996، (المقدمة).

الرسمي والسياسية الفعلية، وذلك إما لأن هذه الأخيرة سياسة يصعب شرعنتها من وجهة نظر القيم والقواعد المعترف بها، وإما لاعتبارات وأسباب تكتيكية. إذ غالباً ما يكون شاغل المقرّر، حين يدلي بتصريحاته، أن يعطي صورة مجمَّلة أو مشوّهة عن ممارسته، وأن يوفق كلامياً بين شؤون يصعب التوفيق بينها في الواقع. ومن شأن هذا الأمر أن يفضي بالباحث،من بين أمور أخرى، إلى الشك في توصيف الخطاب موضوع التحليل: أهو تعبير عن مذهب يوجِّه الفعل السياسي حقاً، أم إنه مجرد تلبيس وتبرير عقلي، ووسيلة تسمح بتسويغ هذا الفعل لاحقاً؟..

ثالثاً: إن كثرة المقررين "الأميركيين" وتناوبهم، والهوة التي يمكن ان تفصل خطابهم ومقالاتهم عن سياساتهم الفعلية، والتناقضات المحتملة في هذه الأخيرة ولجوءهم إلى السبل والذرائع التبريرية: كل ذلك يؤثر حكماً وضرورة، وبصورة سلبية في تماسك ذلك الخطاب (...). توحي هذه الصعوبات التي يوردها الباحثون في مصطلح "المذهب"، بأنه لا يمكن العثور بصورة مسبقة على مذهب رسمي أميركي متكوّن وجاهز حيال اسرائيل. بالتالي فلن يكون بالإمكان جمع مجموعة متماسكة ومقنعة من التصريحات الأميركية المأذون لها يمكن تقديمها كمذهب استراتيجي ملهم للقرارات الأميركية المتعلقة "بإسرائيل". لكن هل هذا يعني أن مثل هذا المذهب غير موجود؟ يسأل منصور ويجيب على الفور بـ "لا". وحجّته في ذلك ان المذهب الاستراتيجي ينبغي استقراؤه من الممارسة الأميركية لا من التصريحات الرسمية. وعلى هذا، فإن على الباحث ان يستخرجه من الممارسة او ان يوضحه ويفسره. وهذا المذهب المستقرأ هو الذي يفترض به انه يملي السلوكات الإجمالية وفاقاً لفرضية العقلانية الاداتية الذرائعية (Insrumental Rationality). واستناداً إلى مقومات هذا المذهب، يصبح واجباً معاينة هذه الوضعية بدقة، والنظر فيما إذا كان مذهباً كهذا يمكن له أن يحكم السياسة الأميركية إزاء "إسرائيل" وبالتالي يتفق او لا يتفق، بالكامل أو بصورة جزئية مع الخطاب الرسمي أو المقالات

الرسمية العديدة. وهو أي هذا "المُضْمَر المذهبي" ليس جامداً بل هو يتطور بحسب الحقب أو يواكب تعرجات القرارات السياسية، وتحولاتها عبر الزمن وبحسب الظروف.

ماذا يقول هذا المذهب المُضمر، وما هي العناصر التي يجب توافرها لاستخراجه من الممارسة الأميركية العملية؟

في ما يتعلق بالعناصر فمن البديهي ان يكون على الباحث في سعيه من اجل استخراج هذا المذهب ان يتابع تطورات العمل السياسي (. . .) فالاستقراء لا يكون من الفراغ. وهو يتطلب توافر حد أدنى من المفاهيم. وهذه العملية يمكن إيجادها في المذاهب الخاصة، لا في المذاهب العمومية والرسمية، وفي "مرافعات" الكتاب والمؤلفين غير الهامشيين، أي ذوي الصفات التمثيلية التي يتوجهون بها إلى المقرر الأميركي للتأثير في قراراته المتعلقة بالمنزلة الاستراتيجية التي ينبغي إسنادها إلى "إسرائيل".

أما ما يتعلق بفرضية العقلانية الاداتية الذرائعية التي تؤلف غطاء المذهب الاستراتيجي الأميركي المضمر تجاه "إسرائيل"، فإنها تقوم على فكرة كون "إسرائيل" رصيداً استراتيجيا للولايات المتحدة الأميركية.

في، مقالة تحمل توقيع رونالد ريغان الذي كان يستعد لتقديم ترشيحه لرئاسة الولايات المتحدة سوف نجد تكثيفاً لفكرة الرصيد الاستراتيجي على الشكل التالي:

"أن مركزنا سيكون اضعف من دون الرصيدين السياسي والعسكري اللذين توفرهما "إسرائيل". . فسقوط إيران زاد في قيمة "إسرائيل" بما هي ربما الرصيد الاستراتيجي الوحيد الذي بقي في المنطقة، او الذي تستطيع الولايات المتحدة الاعتماد عليه لاحقاً. . . "فإسرائيل" تمثل الإرادة الديمقراطية، والتماسك القومي، والقدرة التكنولوجية، والعصب العسكري لتظل في الطليعة حليفاً يتمتع بثقة أميركا. .[20] لا شك ان ما يعبر عنه ريغان، الذي أصبح فيما

(20) جريدة "واشنطن بوست"، 15 آب/أغسطس 1979.

بعد رئيساً لأميركا على مدى ولايتين متعاقبتين، يمس قطاعاً وازناً في سلطة القرار في الولايات المتحدة، إلا انه لا يعكس سلطة أصحاب القرار بأجمعهم. وذلك فإن عدداً من الكتاب والمؤلفين راحوا يطرحون ما يخالف فكرة ونظرية الرصيد الاستراتيجي، ويطرحون في المقابل فكرة العبء الاستراتيجي.

حتى ان عدداً آخر من الباحثين طرحوا أسئلة كثيرة حول علاقات التعاون أو التحالف بين دولتين متفاوتتي القدرة: لماذا تساعد قوة عظمى عالمية دولة اضعف منها أو دولة طرفية؟ هل ثمة ربح يعوض من تكلفة هذه المعونة؟ هل يشتمل دعم القوة العظمى للدولة الصغرى على مخاطر أمنية عالمية أو إقليمية؟ من هو المستفيد الأكبر من هذه العلاقة؟ وهل هذه العلاقة هي وسيلة تضبط القوة العظمى بها الدولة التابعة لها؟ وهل وجود هذه العلاقة يزيد أو ينقص من هامش مناورة أحداهما إزاء الأخرى، وكذلك إزاء الأطراف الثالثة؟ ان هذه الأسئلة ستشكل موضوع البحث الطويل الذي يقدمه لنا كميل منصور مستفيداً من عدد لا حصر له من الوثائق والتصريحات والمستندات والوقائع. سوى ان السؤال الذي يبقى مطلاً على ميدان البحث من أوله وحتى نهايته، هو الذي يثير علامات الاستفهام والريبة حول الحقيقة المستورة للعلاقة الأميركية-الإسرائيلية. ووصله ذلك بالسياسات العربية العليا وبالأمن القومي العربي في مداه الاستراتيجي.

تكافؤ عوامل الارتباط

ليس ثمة من العوامل ما يُرجَّح على الآخر في ما يتصل بقواعد العلاقة بين "إسرائيل" وأميركا. هنالك على الأغلب ضرب من تكافؤ في عوامل الارتباط التي تبسط العلاقة وتقيمها على النحو الذي نراه على امتداد القيامة الاسرائيلية الاستيطانية في فلسطين. فلا العلاقة الأخلاقية القيمية وحدها تكفي لتحقيق العروة الوثقى بين الطرفين، ولا علاقة المنفعة والمصالح والأدوار الموكلة "لإسرائيل" في المنطقة وحدها أيضاً، ولا كذلك العلاقة الاستراتيجية الاداتية القائمة على الفلسفة البراغماتية للولايات المتحدة. إن هذه العلاقات جميعاً

تتضافر كلها في ما بينها لتؤلف الصيغة الفريدة والمميزة في علاقة "إسرائيل" بأميركا.

وفي هذا المجال يمكن القول إن المرجعية الايديولوجية-الثقافية التي تتلاقى ضمن لاهوت الغَلَبَة هي الرحم التي تتحدد الاستراتيجية فيها. وخصوصاً حين تكون المصلحة المرتبطة بها ارتباطاً عقلانياً غير يقينية. ثم إن المصلحة لا تتقدم على المرجعية الايديولوجية الثقافية إلا في أقصى الحالات،أي، إلا إذا كانت عظمى وتقنية. كما يمكن القول انه ما عنى السياسة الأميركية إزاء "إسرائيل" فإن المرجعية الايديولوجية ومرجعية المنفعة تسيران إجمالا في الاتجاه نفسه. إلا أن كلاً منهما يفرض على الآخر حدوداً لا يستطيع تجاوزها. وفي الإمكان القول إنه بمقدار ما يظل التفوق الإقليمي "الإسرائيلي" قائماً، فإن الأداتية والتماهي الثقافي سيعزز كل منهما الآخر إجمالاً، وفقاً لأرجح الاحتمالات. ولهذا، فإن القراءة الأداتية والقراءة الايديولوجية الثقافية تظلان ممكنتين، الأمر الذي يجعل من العسير على المراقب أن يحدد طبيعة العلاقة المميزة القائمة بين البلدين. وإذا كان كميل منصور قد ذهب على ما يصرح إلى أن المرجعية الثقافية هي الرحم التي تتحدد فيها السياسية الأميركية يفترض بالمقابل أن تنشأ اعتبارات تضطر أميركا معها إلى تولي المصلحة "الإسرائيلية" مباشرة ومن دون الرجوع إلى حساب الأمن "الإسرائيلي" الداخل، الأمر الذي حصل في أثناء حرب الخليج الثانية حيث حجبت الولايات المتحدة عن "إسرائيل" فرصة القيام بالدفاع عن أمنها الذاتي لان الاستراتيجية الأميركية العليا آنذاك اقتضت مثل هذا الحجب[21].

في رؤية العرب

من أبرز النقاط موضوع التساؤل في فضاء العلاقة الأميركية- الإسرائيلية هي رؤية العرب الاستراتيجية للمسافات الطفيفة ضمن حقل الأولويات الأميركية

(21) كميل منصور - المصدر نفسه - انظر المقدمة (ص 16).

الكبرى. فإن كان الطابع المتميز للعلاقات بين أميركا وإسرائيل هو طابع الثبات والدوام، فمن العبث الإعتقاد ان في وسع العرب تحويل هذه العلاقات تحويلاً نوعياً في مستقبل منظور. فهم لا يستطيعون التأثير في وضع الولايات المتحدة كقوة عظمى، ولا في التماهي الايديولوجي-الثقافي الأميركي- الإسرائيلي إلا بصورة هامشية جداً.

فالعرب في ما عنى النقطة الأولى هم أنفسهم احد الموضوعات التي يمارس عليها، أو بالأحرى يمارس ضدها دور الولايات المتحدة العالمي (...) أما في معنى النقطة الثانية، أي نقطة التماهي الأميركي-الإسرائيلي فإن العرب لن يستطيعوا مهما فعلوا ان يغيروا كينونتهم" فيصبحوا "غربيين" ويحلُّوا محل "إسرائيل" في المرجعية الثقافية - الايديولوجية، أو على الأقل احتلال المرتبة ذاتها التي تحتلها إسرائيل في هذه الحقبة. غير أن الكلام على الاستحالة في هاتين النقطتين لا يلغي احتمالات العمل العربي على استراتيجيات يستطيع في خلالها هذا العمل التدخل والتأثير في مناطق الفراغ التي تعتور العلاقة الأميركية-الإسرائيلية. ولعل ابرز مناطق الفراغ هذه هي تلك التي سنجدها على صعيد مرجعية المنفعة في الشرق الأوسط. غير انه ليس من شأن هذا التأثير أن يضع الطابع المميز لتلك العلاقة موضع تساؤل، بل انه يقتصر على زيادة أو نقصان تكلفة الإباحة الأميركية لمساحة المناورة الإقليمية الإسرائيلية.

يبدو عموماً ان هذا الحكم يظل صحيحاً ما دام التوصل إلى سلام عربي - إسرائيلي نهائي لم يتم. ومكتوب عليه بالتالي ان يمكث إلى اجل مفتوح في فضاء الاستحالة. وينبغي اعتبار عملية المفاوضات التي بدأت في مدريد في خريف سنة 1991، ما لم تفض إلى سلام شامل، احد أشكال النزاع الإسرائيلي العربي واحد مسارحه، اي المسرح الذي تجري على خشبته التجاذبات التقليدية بين العرب والأميركيين والإسرائيليين على خلفية دائمة من العلاقات المتميزة الأميركية-الإسرائيلية.

توراتية "الانجيليين الجدد"

مع صعود البيئة المحافظية الجديدة، استهلت الولايات المتحدة طوراً جديداً في العلاقة بإسرائيل ولهذه العلاقة تاريخ طويل. ذلك ان الصهيونية البروتستانتية الأميركية هي بالتأكيد أقدم من نموذج اليهودية الحديثة، وقد ضغط الإنجيليون منذ القرن التاسع عشر على المسؤولين الأميركيين لإقامة ملجأ في الأراضي المقدسة لإيواء المضطهدين اليهود من أوروبا والامبراطورية العثمانية.

وتنظر الإنجيلية الدينية في الولايات المتحدة بشكل مميز وفريد إلى دور الشعب اليهودي في العالم الحديث. فمن ناحية، يتبنى الإنجيليون النظرة المسيحية الواسعة الانتشار القائلة بأن المسيحيين هم الوارثون للوعود التي قطعها الله للعبرانيين القدامى. لكن على عكس العديد من المسيحيين الآخرين فإن الإنجيليين يؤمنون بأنه ما زال للشعب اليهودي دور في خطة الله. وقد ظهرت في القرنين السابع عشر والثامن عشر، دراسات معمقة للنبوءات الواردة في الكتاب المقدس أقنعت المفكرين الإنجيليين كما المؤمنين، بأن اليهود سوف يعودون إلى الأراضي المقدسة قبل العودة المظفرة للمسيح. إضافة إلى ذلك، يعتقد الإنجيليون، بأن الفوضى القائمة قبل عودة المسيح سوف تدفع بالعديد من اليهود الى اعتناق المسيحية، إلا انه حتى ذلك الوقت فإن معظم اليهود سوف يستمرون على رفضهم للمسيح. وعلى ما يلاحظ كثيرون من الباحثين فإن هذا الإعتقاد سوف يخفف بشكل ملموس من الاحتقان والتوتر المفترض بين اليهود والإنجيليين، لاسيما و أن الإنجيليين لا يتوقعون كما توقع مارتن لوثر، بأنه حين يتم عرض الإيمان الحقيقي فإن اليهود سوف يتحولون بأعداد كبيرة. إن الغضب الذي أحس به مارتن لوثر عندما لم تتحقق توقعاته دفعه الى ان يكون أقرب إلى معاداة السامية من ناحيته، وهذا ما لن يحدث من جانب الإنجيليين. بالنسبة لهؤلاء، فإن حقيقة نجاة الشعب اليهودي واستمراره على مدى آلاف السنين، وعودتهم إلى أراضيهم القديمة المقدسة، هو برهان على حقيقة وجود الله. وان الإنجيل هو الملهم، وان الدين المسيحي هو الدين الحق. ويؤمن

العديد من الإنجيليين بأن الوعود الواردة في سفر التكوين لا تزال قائمة، وان رب إبراهيم سيبارك الولايات المتحدة اذا ما باركت الولايات المتحدة اسرائيل، وهم يرون في ضعف وهزائم وفقر العالم العربي دليلاً واضحاً على اللعنة التي انزلها الله بأولئك الذين يلعنون اسرائيل. وهكذا تترسخ القناعات لدى اللّاهوت السياسي الأميركي الجديد، إلى درجة أن انتقاد إسرائيل، وانتقاد الولايات المتحدة لدعمها إسرائيل لا يحرك ساكناً لدى الإنجيليين، بل يعزز من قناعتهم، التي ترى ان العالم الذي يكره إسرائيل، إنما مَثَلَه كمثل الرجل المنحل الأخلاق المنحط الذي يكره الله وشعبه المختار. ويشعر الإنجيليون أنهم بوقوفهم الى جانب إسرائيل إنما يقفون إلى جانب الله، وهو أمر هم على استعداد للقيام به ولو واجهوا العالم كله. لذا كتب (جون هاغي) راعي الأبرشية الإنجيلية في سان انطونيو، بولاية تكساس، قائلاً: إذا تحركت إيران لضرب دولة إسرائيل، فإن على الأميركيين أن يكونوا على استعداد لوقف مسار هذا العدو الشيطاني ملاحظاً أن سياسة الله تجاه الشعب اليهودي نجدها في سفر التكوين 12: 3. ثم إن عودة اليهود إلى الأراضي المقدسة، والانتصارات المهمة على الجيوش العربية التي تفوقهم عدداً، إضافة إلى ازدياد موجة الحقد والتهديد ضد اليهود في إسرائيل وسائر أنحاء العالم، لم يقوِّ التزام الإنجيليين نحو اسرائيل فحسب، بل ساهم أيضا بتقوية موقف التيار الإنجيلي ودوره في الحياة الأميركية. ومع تركيز سياسة الولايات المتحدة حالياً على موضوع التصدي للهجمات الإرهابية، ومع تلويح أعداء المسيحية باستخدام أسلحة الدمار الشامل مدفوعين بعدائهم لإسرائيل، فقد تعززت ادعاءات الإنجيليين الدينية[22].

أما عن المسيحيين الليبراليين في الولايات المتحدة فإنهم مثل العلمانيين الليبراليين، اذ طالما كانوا تقليدياً من الداعمين للصهيونية، ولكن من وجهة نظر مختلفة. بالنسبة للمسيحيين الليبراليين، اليهود هم شعب كأي شعب آخر، لذا

---

(22) كميل منصور - المصدر نفسه، (ص 20).

فقد دعم الليبراليون الصهيونية بنفس الطريقة والتوجه التي دعموا فيها حركات التحرر الوطنية الأخرى. وفي العقود الأخيرة، وعلى القاعدة والتوجه إياهما، ازداد تعاطف المسيحيين الليبراليين مع الحركة الوطنية الفلسطينية. في عام 2004، قامت الكنيسة المشيخية، بتمرير قرار يدعو الى الحد من التعامل وبشكل محدود مع الشركات التي تتعامل مع إسرائيل، وقد ألغي هذا القرار عام 2006 بعد مواجهة مريرة. وتبين إحدى الدراسات ان 37% من المواقف التي أصدرها التيار الرئيسي للكنائس البروتستانتية حول انتهاكات حقوق الإنسان بين عامي 2000 - 2004 ركزت بشكل خاص على إسرائيل، بحيث لم تتعرض أية دولة أخرى لهذا الكم من الانتقادات.

وحدة النشأة والمآل

مهما كانت بعض المواقف والاجتهادات والتيارات الأميركية الدينية وغير الدينية ذات طابع انتقادي حيال إسرائيل، فذلك لن يؤثر في الواقع، على جوهرية النشأة الإسرائيلية التوراتية للأطروحة الأميركية.

لقد تلبست "فكرة إسرائيل" جوهر "فكرة أميركا" وصاغت شكلها. ولقد بات من المسلمات أن الأمة الأميركية هي أقرب إلى الإسرائيليين الأوائل من أي شعب آخر على وجه الأرض.

وبما أنه ليس هناك من شعب يعطي بلاده وحريته للغزاة الغرباء تطوعاً، فقد كان لا بد لفكرة إسرائيل وفكرة أميركا من تقديس طقس العنف الذي استلهم أخلاقه من منبع واحد. إن كل بلاغة العنف الأميركية كانت ولا تزال تستمد استعاراتها من أدبيات "فكرة إسرائيل وقصصها المقدسة وأنماط سلوك أبطالها[23]. فحين ألقى كوتون ماذر (وهو من أبرز أنبياء أميركا الإسرائيلية)

---

(23) وولتر راسل ميد، أميركا دولة الله، فورين أفيرز، أيلول/سبتمبر-تشرين الأول/أوكتوبر 2006. ، العنوان الأصلي .U.S God's Country

خطبة الحرب أمام الكتيبة المتوجهة لغزو الهنود عام 1689، كانت استعاراته تنفخ الحياة في أساطير العبرانيين وتلح على المعنى الإسرائيلي لأميركا. فالجنود المتوجهون لغزو الهنود هم (على الحقيقة ولا لزوم لأدوات التشبيه) "بنو إسرائيل في مواجهة العماليق" (...)، "وما على بني إسرائيل الجدد إلاّ أن ينقضّوا على أعدائهم بالطريقة التي انقض بها العبرانيون على أعدائهم العماليق: فليُسحقوا كغبار تذروه الريح، وليُكنَّسوا مثل الوسخ في الشوارع إلى أن يبادوا فلا يبقى منهم أثراً". لقد تبنت "فكرة أميركا" في حرب إبادة الهنود أخلاق العنف التي تحلت بها "فكرة إسرائيل" التاريخية تلميحاً وتصريحاً. إن البعد المقدس في هذا العنف هو الذي جعله مثالاً يحتذى لقتل الهنود وإخضاعهم وسلبهم أرض آبائهم وأجدادهم. فالهنود، كما يروي رولاند بينتون Roland H. Bainton يستحقون القتل والإبادة، تارة لأنهم عماليق، أو عمونيون، أو كنعانيون أوصت السماء بقتلهم، أو تشتيت شملهم حتى يتم أمر الله بتأسيس إسرائيل الجديدة، وتارة لأن إبادة الرجال والنساء والأطفال وقتل المواشي، وتدمير المدن، وتقويض المعالم الثقافية، لازم للحفاظ على نقاء شعب الله. ثم إن بينتون، وهو أحد أبرز مؤرخي الأديان المعاصرين، يرى أن الصليبيين في القرون الوسطى لفقُّوا مثل هذه الأعذار لتجميع صفوفهم وتعبئة حملاتهم، وأن الإنكليز قبل كوتون ماذر وبعده برَّروا بها حروبهم واستعذبوها لأنها تسامت بجرائم قتل الهنود ونهبهم، وإبادتهم إلى مرتبة العبادة، بل لربما - كما يقول بيتر كريجي (Peter Craigie) جعلت من إبادة الشعوب وتدمير المدن نذراً مقدسة.

وهكذا فإن فكرة إسرائيل قدمت للشعب الإنكليزي المختار كل المنظومة الأخلاقية التي يحتاج إليها لاجتياح "مجاهل" الشمال الأميركي وإفراغها من أهلها (...) "حق الحرب" (Right of war) مثلاً، الذي سنّه المستعمرون في العام 1610، وسوَّغوا لأنفسهم اجتياح مجاهل "العالم الجديد"، يتماهى إلى

حد بعيد مع عقيدة الحرب الاستباقية التي أخذت بها إدارة المحافظين مع بداية الألف الثالث الميلادي[24].

ثمة إذاً، امتداد ميتافيزيقي عبر الزمن بين الفكرتين الأميركية والإسرائيلية. ولكن يمكن القول أن كلتا الفكرتين تنطلقان من لاهوت الاختيار الالهي لكل منهما، ومن حتمية المصير الانتصاري الذي ينتظرهما في نهاية التاريخ أو نهاية الزمان.

---

(24) منير العكش - تلمود العم سام -مصدر سبقت الاشارة إليه(ص 211).

(25) Cotton Mather, Soldiers Counselled and Comforted, a discourse Delivered Unto Some Part of the Forces Engaged in the Just War of new England Against the Nothern and Eastern Indians. (Printed by Samuel Green, Boston 1689), P. 37.

(26) العكش - تلمود العم سام، مصدر سابق - (ص 212).

الفصل الخامس

فلسفة الحرب

التأسيسات الايديولوجية للهيمنة

تتأسس فلسفة الحرب الأميركية على إدراك مخصوص لمفهوم السيادة على الارض التي سكنها المهاجرون الانكليز قبل اكثر من خمسماية عام. وهذا الادراك يستحيل بلوغ معناه ودوافعه من دون معاينة دقيقة للكيفيات التي خيضت في ضوئها حروب أميركا على العالم.

لقد نحا مفهوم السيادة في الفلسفة السياسية الأميركية نحوا مغايراً لما أَلِفَتْه اوروبا حين اسست الدولة / الأمة. والسيادة التي اختبرتها الرحلة التاريخية الأميركية هي من الطراز الذي لا يُعرف له حدود. اي انها سيادة تجتاز الجغرافيات الوطنية التقليدية لتمضي في فضاءات مفتوحة على اللاَّمتناهي.

الباحثون في منطق التجربة الأميركية، يجزمون بأن ما كان مجرد حلم في اوروبا صار امكاناً واقعياً سارياً في الزمن بالنسبة لأميركا: لقد جُعلت هذه الاخيرة اقليماً بلا حدود وقد فُتح امام رغبة الانسانية على حدِّ زعم «فلاسفتها». بحيث امكنها، كما يقول هؤلاء، ان تتلافى ما يسميه هؤلاء بـ«ازمة العلاقة بين القوة والقدر الذي اوقع في فخه الثورة الانسانوية الديموقراطية في اوروبا وأضلَّها. وفي نطاق هذا الطور الاول نفسه، أخذ مبدأ جديد للسيادة يعلن عن نفسه بالطريقة التالية: ان الحرية صارت سائدة، والسيادة حُدِّدت بوصفها ديموقراطية على نحو جذري داخل سيرورة توسع مفتوح ومستمر. غير أن عدم الاعتراف بحدود نهائية، والحرص على إبقاء الحدود مفتوحة، وفهم الحدود بوصفها حالة لا تعدو ان تكون تخوماً او عتبات علينا كسرها وتخطيها، انما هي علامات دلَّت على أن أميركا ظاهرة هي اشبه ببرنامج مبدئي لملاقاة الآخرين، ودحرهم الى ما لا نهاية. واكثر من ذلك فإن هذا

«البرنامج المبدئي»، حسب القائلين به، كينونة استثنائية تستمد ماهيتها من إرادة حرب، او من افعال حربية اصلية في فهمها لنفسها. ان قصة أميركا في هذا التعريف، هي قصة حرية تصنع بنفسها حدودها، وتصر على الاستقلال بوصفه فتحاً مستمراً للحدود. ولذلك فمعنى أميركا لا ينفصل البتة عن ما يسميه الباحثان الغربيان مايكل هاردت وانطونيو نيغري بـ«طوباوية الفضاءات المفتوحة»[1].

وعلى السياق التحليلي للمثال السيادي الاستثنائي لأميركا الذي يقدِّمه الباحثان المذكوران سوف تتمظهر ثلاث سمات مخصوصة:

السمة الاولى: انها تطرح فكرة محايثة للسلطة، في مقابل الطابع المفارق للسيادة الاوروبية الحديثة. وفكرة كهذه، تعني ان السلطة مؤسسة على فكرة الإنتاجية. ما يعني أن الجمهور الذي يؤلف المجتمع هو جمهور منتج. ولذلك فالسيادة بمدلولها الأميركي لا تتمثل في ضبط الجمهور، بل هي تتبلور بوصفها نتيجة تضافر الطاقات المنتجة للجمهور. وعلى هذا فإن مبدأ الانتاج المؤسس، انما يقود إلى - أو يُفسَّر بواسطة - عملية تفكُّر ذاتي.

السمة الثانية: في خضم تشكيل هذا النوع السيادي على اساس المحايثة للسلطة، تنبثق ايضاً تجربة التناهي الناتج عن الطبيعة النزاعية والمتعددة للجمهور نفسه. وبذلك يبدو ان المبدأ الجديد للسيادة يُنتج حدّه الداخلي الخاص. سوى انه بعد ان أقرّ بحدوده الداخلية، يروح المفهوم الأميركي للسيادة ينفتح بقوة عجيبة نحو الخارج، حتى لكأنه يريد ان يقضي على فكرة المراقبة، وعلى لحظة التفكُّر في دستوره الخاص.

السمة الثالثة: النزوع الأميركي نحو مشروع مفتوح وتوسعي، مشروع يعمل فوق ملعب بلا حدود[2].

إن هذه الرؤية المفارقة للنموذج السيادي الأميركي، سوف تسهم في رسم

---

(1) M. hardt/A. Negri, Empire (paris: Exils Editeur, 2000 PP. 215-216).

(2) Ibid. P. 210-211.

اللوحة الاجمالية لذلك الطراز الفريد. من مفاهيم السيادة الحديثة. بل اكثر من هذا، فإنها ستمنح للمكان الذي حلَّت فيه الولايات المتحدة فلسفته الخاصة. وهي فلسفة آيلة وفقاً لسيريّتها التاريخية الى إنجاز ما سمي بـ«السيادة ذات اللون الامبراطوري الممتد على مساحة العالم كله. وهذا ما يُلاحظ عندما يشار الى الاطوار الاربعة التي عَبَرَتْها أميركا منذ تأسيسها وحتى ايامنا. وهي:

الاول: الذي يبدأ من اعلان الاستقلال حتى الحرب الاهلية.

الثاني: الممتد من امبريالية روزفلت الى إصلاحية ولسون الاممية.

الثالث: من فترة نيوديل (New Deal) او الصفقة الجديدة، الى الحرب الباردة.

والرابع والاخير: وهو الذي دشنته الحركات الاجتماعية في الستينيات من القرن العشرين، واستمر حتى تفكك الكتلة الشيوعية. على ان ما يهمنا هنا في معرض هذا التحقيب هو ان كل الاطوار المذكورة من التاريخ الدستوري للولايات المتحدة، انما يخصص مرحلة نحو تحقيق السيادة الامبراطورية (...) لكن الدلالة الاعمق في هذه الرحلة سوف نجدها في النتائج الخطيرة لهذا التصور: حيث تؤدي فكرة ان البوتقة الأميركية هي مصهر تهجين للأعراق المختلفة، الى «تدمير الفكرة المتعالية للأمة، والعمل على إعادة بناء الفضاء العمومي على اساس الهجرة الحرة للجماهير[3].

«الغير» هو الجحيم

لعل هذا الفهم التأسيسي لنوع السيادة الأميركي، سيشكل الوعاء الثقافي والمرجعي للأحقاب السياسية المتعاقبة. اذ عند هذا المنعطف المعرفي من فهم أميركا لنفسها امكن لنا التعرف على مغزى حرب ابادة الهنود الحمر. ذلك ان الحدود لا تكون مفتوحة على اللاّمتناهي الا بقدر ما يتم تجاهل، وعلى نحو أرادي وجود السكان الاصليين. بمعنى ان يتم تصورهم باعتبارهم طبقة معزولة

---

(3) Ibid. P. 217.

من النوع الانساني. اي، بوصفهم جزءاً تحت - انساني من المحيط الطبيعي (...) وبالرغم من ان ذلك سيؤدي الى تناقض صارخ بين ما يقوله الدستور عن الحرية، وبين ابادة الهنود الحمر، فإن هذا الدستور لم يعِشْ هذا التناقض «كأزمة»، بل اكتفى بإقصاء ضحاياه خارج آلته الحقوقية (...) ولأن الأميركيين ليسوا من جسد واحد، ولأن ممارسة الديموقراطية بوصفها فضاء مفتوحاً هي متلازمة مع «مفهوم مفتوح وديناميكي للشعب والجمهور والناس، ولأن الأميركيين ايضاً وايضاً، شعب في حالة هجرة/ خروج ومحتل لأقاليم جديدة فارغة أُو هي افرِغَت... فإن الفضاء الأميركي، لم يكن فقط منذ البداية، فضاءً متوسعاً (الى الخارج) وبلا حدود، بل ايضاً فضاءً متكثِّفاً (الى الداخل): اي انه فضاء تقاطع ومصهر (melting pot) وتهجين مستمر[4].

كيف تظاهرت صورتا «التوسُّع» و«التكثُّف» في الاختبارات الأميركية المعاصرة؟

ما كان لأحد أن يتصوَّر مدى ما بلغته الايديولوجيا السياسية الأميركية وهي تستعيد نظرية الاحتلال، بوصفها فضيلة لا غنى للعالم عنها في رحلة القرن الحادي والعشرين.

فقط أولئك الذين نظَّروا "للامبراطورية الفاضلة" أمثال لويس لافام رئيس تحرير مجلة هاربرز (Harpers Magazine) وبالطبع الفريق المتحلِّق حول الرئيس جورج دبليو بوش، كانوا على يقين ممّا ذهبوا إليه. الأمر بالنسبة إلى هؤلاء يتعدَّى الجانب الأخلاقي كما أراده التنوير الغربي سحابة ثلاثة قرون متواصلة. إنَّهم ينطلقون من قَبْلية اعتقادية تعود في جذورها إلى ثقافة الاستيطان الأنكلوساكسوني، ومؤدّاها أنَّ التاريخ لا تعمِّره البراءة. إذ البراءة عندهم ـ حسب وصف غراهام غرين الكاتب المسرحي الإنكليزي ـ تشبه مجذوماً أبكم أضاع جَرَسَه، ثم راح يطوف العالم، ولا يقصد ضرراً لأحد...

وعلى عقيدة المحافظين الأميركيين الجدد إنَّ ما ينبغي على أميركا أن تفعله

---

(4) Ibid. P. 217.

لكي تحقِّق رسالتها إلى العالم، هو النأي بنفسها عن البراءة وأن تمضي بعيداً في السجية الماكيافيللية القائلة بفضيلة "أن تخيف الآخر بدل أن تكسب حبه لك" . . .

عندما خسرت الولايات المتحدة مقعدها في لجنة حقوق الإنسان التابعة لهيئة الأمم المتحدة في جنيف في مطلع أيار/مايو من العام 2001، أصيب كثيرون في نيويورك وواشنطن بالدهشة الحقيقية. جلُّ هؤلاء كانوا من النُّخب الأميركية والغربية التي صدَّقت ما تختزنه العمارة الايديولوجية من براءات ذات صلة بالقانون الدولي، وشرعة حقوق الإنسان، وقيم الديمقراطية. للوهلة الأولى لم يعرف أولئك المخدوعون ما إذا كان الذي سمعوه إشاعة خاطئة أو نكتة حمقاء. وتساءلوا: كيف يمكن لمثل هذه الأمور أن تحدث.. واين ذهب التعقُّل؟ وحسبُهم أنَّ أميركا هي التي أوجدت مفهوم حقوق الإنسان، وهي التي هرعت دائماً إلى إنقاذ الأطفال المفقودين، وانتشال الديمقراطيات الفاشلة. ولم يحدث قط أن استُبعدت الولايات المتحدة من غُرف لجنة الضمير خلال أربعة وخمسين عاماً من وجودها. كذلك لم يسبق أن حدث في الذاكرة الحيّة أن تتعرَّض القوة العظمى الوحيدة في العالم إلى مثل هذه السخرية غير المستحقَّة على أيدي أتباعها الجاحدين[5].

يومئذٍ كان بديهياً أن يصب الأميركيون جام غضبهم على الأوروبيين، وبالأخص على فرنسا. فعلى ما بيَّن منظِّرو اليمين الأميركي فإنَّ الفرنسيين تحديداً خانوا الأمانة والتبعية وصوَّتوا لإخراج الولايات المتحدة من واحدة من أهم وأخطر أسلحة الدعاية والتدخل في شؤون العالم. ومع ذلك فإنَّ القضية لم تتوقف عند هذا النوع الطبيعي من ردّات الفعل.

كان ثمة ما هو أدنى إلى المفارقة إذ إنَّ "المطبخ الفلسفي ـ الايديولوجي"

(5) لويس هـ. لافام، روما الأميركية، عن نظرية الإمبراطورية الفاضلة، نقله إلى العربية شادي عمران بطاح، في إطار ملف أعدَّته "مجلة الثقافة العالمية" الكويت، بعنوان "طبيعة الدولة الفاشلة"، العدد 117، مارس (إبريل) 2003.

للإدارة الأميركية سينبري إلى إسكات المحتجِّين والمدهوشين، ثم ليمضي في عزفٍ منفرد مؤثراً اللاّمبالاة وإدارة الظهر لهذه القضية. معتبراً أنَّ أميركا ليست في حاجة إلى مَنْ يمنحها شهادة سلوك حسن، أو يصحِّح خطأ ترى إليه على أنَّه جزء عزيز في مسلكها العام.

إنَّ هذا ما سيعبِّر عنه الكاتب في مجلة "التايم" تشارلز كروثامر (Charles Krauthammer) على نحو لا شَوْب في صراحته: " ليست أميركا مجرد مواطن عالمي. إنَّها السلطة المهيمنة في العالم، أكثر هيمنة من أي قوة أخرى منذ عهد روما. ووفقاً لذلك، فإنَّ أميركا في وضع يؤهِّلها لإعادة تشكيل المعايير، وتغيير التوقعات وخلق حقائق جديدة. أمّا كيف يكون ذلك؟ فيكون ـ برأيه ـ عن طريق إظهار إرادة غير اعتذارية لا سبيل إلى تغييرها" ..[6]

المسألة إذاً، هي وجوب أن تفعل أميركا أي شيء من دون أن تبرِّر أو أن تعتذر.وحتى لو جرى ذلك الفعل مجرى إيذاء أمم وشعوب بأكملها فلا ينبغي أن يُحجِمَ القادة عن إتمام المساحة المتبقِّية لبلوغ الهدف. فالاعتذار بحسب هذا الاعتقاد ؛ يشكِّل منقصة لصاحبه، وإخلالاً في شبكة المعايير والمفاهيم، التي عليها تتأسَّس استراتيجيات التحكُّم بالأوضاع.

فلسفة الاستهتار بـ"الغير"

على هذه الفلسفة السياسية المتجددة سيغيب منطق الإقناع والتحاور في العلاقات الدولية. وبدا أنَّ منعطفاً كهذا، راح يؤتي أُكُلَه مع "الانتصارات المدوِّية" التي خاضتها الولايات المتحدة بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001. والمثل العراقي سيعزِّز هذا المنطق حيث أفلحت الولايات المتحدة في جعله شبيهاً بالمثلين اليوغوسلافي والأفغاني. لكن ثمة جانب آخر من المشهد لا يبدو أنَّه سيكون مريحاً، أو مربحاً، للسلوك الأميركي المُشار إليه. فالولايات المتحدة ربحت الحروب التي خاضتها حين استعملت الحد الأقصى من جبروتها

(6) لافام، المصدر نفسه.

العسكري. لكنَّها راحت بعد ذلك، تجد صعوبات جمّة في ربح السلام. وهذا ما ذهب إليه الخبير الاستراتيجي الفرنسي باسكال بونيفاس الذي أكَّد أنَّ أميركا بدأت تفقد حبّ الناس لها، بل إنَّها صارت مكروهة على امتداد العالم أجمع.

"البارانويا" الأميركية التي بلغت ذروتها مع السنة الأولى للألفية الثالثة، رأت إلى النقد الأوروبي، والفرنسي على الخصوص بعين السخرية والاستهتار. ولقد سبق للكاتب الأميركي لويس لافام أن ساجل النزعة الانتقادية لأميركا لدى الفرنسيين. سوف يلاحظ أنَّ الفرنسيين لم يستوعبوا ما يسمّيه بـ"مذهب البراءة الأميركية" بشكلٍ كامل. هذا المذهب الذي فهمه البيوريتانيون (حركة إصلاح بروبستاتنتية سعت إلى تطهير الكنيسة الإنكليزية من بقايا البابوية الرومانية الكاثوليكية في القرنين 16 و17).. الأوائل في براري ماساتشوسيتس الموحشة، على أنَّه اختيارهم من قبل الرَّب (...) وفي معرض إعطاء المذهب الأميركي بعده الميتافيزيقي يزعم "لافام" أنَّ الله اختار أميركا لتكون موقع إنشاء الجنة الأرضية. فقد كان الهدف الأميركي عادلاً دوماً، ولم يكن هنالك أي شيء أبداً يمكن أن يُقال فيه أنَّه غلطة أميركا. ويضيف: " إنَّ الأجيال المتلاحقة والسياسيين الأميركيين عبَّرت عن إيمانها هذا بكلماتٍ مختلفة من مثل: " أميركا الأمل الأخير للبشرية"، "أميركا سفينة الأمان" وناشرة الحضارة الخ.. إلاَّ أنَّه سيذهب إلى مسافة أبعد في خلع الأوصاف فيعلن أنَّ "الشر لم يكن أبداً جزءاً عضوياً من المشهد الأميركي أو الشخصية الأميركية. فالشر ـ على ادعائه ـ سلعة قاتلة ومستوردة من دون ترخيص من خارج، إنَّما هو مرضٌ أجنبي يتم تهريبه عن طريق الجمارك في شحنة "فلسفة ألمانية" أو أرز آسيوي(...) ولأنَّ أميركا بريئة بالتعريف، فقد يخونها الآخرون دوماً، كما في "بيرل هاربر" وليتل بيغ هورن، وخليج الخنازير، وبما أنَّه تمَّت خيانتنا، نستطيع دوماً أن نبرِّر استخدامنا للوسائل الوحشية، أو المخالفة للروح المسيحية في سبيل الدفاع عن سفينة الأمان في وجه خيانة العالم[7].

---

(7) لافام، المصدر نفسه.

لم يكن عرض هذا الكلام فقط للرد على ما يسمّيه لويس لافام عدم فهم الفرنسيين وجهلهم بحقيقة "الروح السياسية الأميركية"، بل هو يعني أكثر من رسالة دأبت المسيحية الصهيونية الحاكمة في الولايات المتحدة على توجيهها إلى العالم كله منذ وقت بعيد.

وما المقصود من هذه الرسالة اليوم فإنَّه يتعدَّى الكليات الاعتقادية. فهي تتوجَّه إلى الذين يطالبون بوجوب قيام مرجعية أممية تعيد الاعتبار للقانون الدولي. ولأنَّ القوانين تدخل في صلب "البراءة" التي أسقطها الأميركيون من حسابهم فلا حاجة إليها كما يقول "لافام". فالقوانين ـ عنده ـ "وضعت لغير المحظوظين الذين ولدوا دون جينات الفضيلة".

إنَّ هذا الحد المُشْرَع على اللاّمتناهي في التفكير الأميركي الجديد، هو الذي يؤسِّس لأميركا القرن الحادي والعشرين. وسنجد من تظاهرات هذه الرؤية اللاّهوتية ما لا حصر من الأحداث اللاّحقة. حيث تصبح القوانين الدولية وشرعة الأخلاق التي تحكم التوازنات في النظام العالمي، مجرد نصوص لا فائدة منها.

لاهـوت الاقتدار

ظلَّ ريتشارد نيكسون الرئيس الأميركي الأسبق يردِّد في خُطَبِهِ العصماء الموجَّهة إلى الجيش والشعب هذه الكلمات: " الله مع أميركا، الله يريد أن تقود أميركا العالم". في ذلك الوقت كانت حرب فيتنام تتجه إلى جحيمها المحتوم. وكان عليه لكي يشحذ الهمم، ويدفع حجج منتقديه، أن يستعيد ثقافة المؤسِّسين الأوائل ليبيِّن أن لاهوت القوة ليست إلاَّ منحة إلهية لدفع الشر في عالم ممتلئ بالفوضى.

في خلال السنوات الانتقالية بين نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحالي أسقطت الولايات المتحدة في يدها صفوة أوراق اللعبة الكونية الرئيسة. لقد صار اتخاذ أي قرار، وتقرير أي حل نهائي، من دون رضاها ضرباً من المستحيل. فما الذي نستطيع انتزاعه من المشهد العام؟؟..

مع نهاية الحرب الباردة أخذ منظِّرو الاستفراد الأميركي يصوغون المقدِّمات العملية لفلسفة السيادة المطلقة. كان كل شيء في المقدمات النظرية جاهزاً. العامل الايديولوجي شكَّل أساساً ثقافياً ودعائياً لهذه الفلسفة. ولنا أن نعرف أنَّ الولايات المتحدة مرَّت ضمن سيرورة تاريخية ساهمت الايديولوجيا شيئاً فشيئاً في تكوينها. فقد قامت ـ هذه الفلسفة ـ انطلاقاً من نواة ايديولوجية ذات محورين: الأول، الاعتقاد بأنَّ أميركا مكلَّفة برسالة. والثاني، اليقين بأنَّ أداء هذه الرسالة يستلزم استخدام كل الوسائل بلا تحريم. وممّا يميِّز السياسة الأميركية منذ مولدها: الثبات في العمل على قَدْرِ الديمومة في متابعة الهدف، وكذلك مواصلة الجوهر الايديولوجي المولِّد للعمل. ولا شك في أنَّ هذه السياسة بلغت ذروة تحقّقها في فجر القرن الثامن عشر، وزادت أيضاً في مطلع القرن التاسع عشر. لكن ميشال بوغنون موردان في كتابه "أميركا التوتاليتارية" (L'Amérique Totalitaire) الصادر في باريس في العام 1997[8] يذهب إلى "أنَّ الايديولوجيا الأميركية لم تتورَّع عن خلع صفة الأزلية على نفسها. حيث إنَّ ادعاء الرسالة الإلهية لم يغب يوماً عن ناظرها. ثم يورد كلاماً لمعاون الرئيس السابق بيل كلينتون لشؤون الأمن القومي أنطوني لاك، فيه "إنَّ مصالحنا ومُثُلنا لا تلزمنا بالتدخُّل وحسب، بل تلزمنا أيضاً بالقيادة(...) يضيف: " من واجبنا تطوير الديمقراطية واقتصاد السوق في العالم لأنَّ هذا يحمي مصالحنا وأمننا، ولأنَّ الأمر كذلك يتعلَّق بانعكاس القيم، حيث هي في آن قيم أميركية وعالمية"(...). وهكذا فإنَّ انتصار الأميركيين الأبرز ـ يعلِّق "بوغنون": هو، بكل تأكيد، الحضور الكلِّي لايديولوجيتهم. فالليبرالية، وهي أكثر عقيدة اقتصادية خالصة، تمثِّل أيضاً رؤية قويمة للعالم، استقبلها الكثير من المالكين ومجموعات المصالح بوصفها نعمة وخلاصاً. لقد صارت الليبرالية ـ حسب

---

(8) ميشال بوغنون، موردان، أميركا التوتاليتارية، الولايات المتحدة والعالم إلى أين؟، تعريب د.خليل أحمد خليل، دار الساقي، الطبعة الولى 2002 (ص245).

بوغنون ـ رؤية وعقيدة تخدمان مصالح الأميركيين وتنقذان المظاهر، الأخلاقية، على الأقل، ما دامت الليبرالية، كمفهوم، تنطوي على ركيزة دينية. وهو ما كان لاحظه دو توكفيل لجهة وجوب اعتبار الدين بالنسبة للأميركيين بمثابة المؤسسة السياسية الأولى. ثم إنَّ جمهور الناس، أولئك الذين لا يفهمون شيئاً كثيراً من الألعاب السياسية والاقتصادية، اقتنعوا بفعل الحملات الإعلامية، بعدم وجود أيَّة عقيدة أفضل من هذه العقيدة (. . .) ولقد رأينا منذ الأصل، وقبل أن تصبح أميركا هي الولايات المتحدة، أنَّها كانت تزعم شمولية نمطها التنظيمي الخاص. ولم يَسْعَ مفكِّروها ـ من أساتذة وكتَّاب وكهنة ورجال دولة ـ لحظة واحدة إلى إخفاء هدفهم الأخير وهو: فرض نمط حياتهم على بقية العالم. وذلك عبر آليات أخلاقية تكتظ بالتعالي على الآخر، أي آخر. منها في المقام الأول، بما يسميه بوغنون بـ"القدوة"[9]. أي من خلال تأدية عروض مثيرة تُظهر "الصورة الساطعة لأمَّة جديدة اختارها الله لغاية وحيدة هي تزويد كل الشعوب بالرسالة الوحيدة ذات المستقبل المصوغ بصورة زاهية. ثم في المقام الثاني بوضع الآخر جبراً في منطقة القبول بالقدر الأميركي. فثمة يقين لدى "فقهاء الأمركة" بأنَّ إذعان الآخرين عنوة ـ كائناً ما كان شكل الإكراه ـ أمرٌ محتوم في مواجهة هذه الممانعة أو تلك. فأميركا تعتقد نفسها وتريدها كلية لا تُضاهى. وبهذه الصفة، لا تتصور ذاتها إلاَّ متفوِّقة على مجمل المناطق التي يتحرَّك في داخلها أفراد وأمم، وترى أنَّ من واجبها احتواءها. إنَّها ـ على ما يزعم فقهاؤها ـ هي العالم، ما دامت العناية الإلهية أمرت بذلك، وما دامت تجسِّد نصاب العالم المقبل وفقاً للخطط الإلهية. ومن المقدَّر ـ تبعاً لهذا الزعم ـ أن تقع على كاهلها مسؤولية إملاء قانونها، القانون الذي شرَّعته السماء، وفرضته على الأمم والشعوب"[10].

---

(9) المصدر نفسه، (ص243).

(10) المصدر نفسه، (ص246).

زمانية الاستعلاء

حين سئل الرئيس تيودور روزفلت عمّا إذا كانت الاستراتيجية الأميركية العليا، عازمة على تشييد فضائها الامبراطوري ـ وكان ذلك في مستهل القرن العشرين ـ انكر ما يرمي إليه سائله وقال: " إنَّ البلد الذي قام على فضيلة الحرية، يصعب عليه أن يقع في خطيئة الامبراطورية!" . . .

هل يبيِّن مثل هذا "الإنكار" أنَّ ثمة منطقة نائمة في العقل الأميركي تستيقظ في المحطات الكبرى للتاريخ. . أم أن هذه المنطقة" التي يصدر منها كلاماً كهذا، هي مجرد دائرة صغيرة، يجري استخدامها متى دعت الحاجة؟

ربما كان روزفلت على شيء من يقين، من أن قوله هذا لا يتعدى حدود الأخلاق النظرية. وحين حرص على نفي الطموح الامبراطوري، مساوياً، بينه وبين الخطيئة، كان يعي كم للخطاب الأخلاقي من أثر حاسم في لعبة القوى وتكوين حقائق التاريخ. فالضرورة الايديولوجية للخطاب السياسي، إذاً، هي التي ستحمل الرئيس الأميركي، إلى ما يمكن وصفه بالجمع بين متناقضين يشغلان الفكر السياسي الأميركي في ذلك الوقت: قيم الحرية، والطموح الامبراطوري / الاستعماري.

هل أميركا امبراطورية؟ هل هي إمبريالية جديدة؟ أم أنها دولة / أمة من ذلك النوع السياسي الذي يمكث في "منطقة استثنائية" بعد حادثين تاريخيين متقاربين وعظيمي الشأن: نهاية الحرب الباردة (1990) وزلزال الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر (2001)؟ . . .

كانت الولايات المتحدة الأميركية في اثناء الحرب الباردة إمبريالية من طراز خاص. لم تقم بعمليات الإخضاع والهيمنة على طريقة الإمبرياليتين البريطانية والفرنسية عبر الاستعمار المباشر للدول المستعمرة. كان عليها أن تتبع حكاية "القرصان الأكبر" الذي يقطع الطريق على القراصنة الصغار ويلتهم حصادهم. لقد عمدت الولايات المتحدة إلى إخضاع القوى الإمبريالية القديمة لنظامها الخاص. لذا لم تؤدِ الحرب الباردة التي شنتها الولايات المتحدة إلى هزيمة العدو الاشتراكي، وربما لم يكن ذلك، قط، هدفها الأول في حقيقة الأمر.

لقد انهار الاتحاد السوفياتي تحت وطأة تناقضاته الداخلية الخاصة. ولم تفعل الحرب الباردة، في الحدود القصوى، أكثر من إفراز بعض شروط العزلة التي ما برحت، عبر تردد أصدائها في الكتلة السوفياتية نفسها، أن ضاعفت تلك التناقضات القابلة للانفجار. لعل أهم آثار الحرب الباردة هو التعرُّف على خطوط الهيمنة داخل العالم الإمبريالي. تلك الخطوط التي دأبت على تسريع عملية تدهور القوى القديمة، ورفع مستوى مبادرة الولايات المتحدة على صعيد تأسيس نظام امبراطوري. وبحسب عدد من المفكرين الاستراتيجيين فإنه لو لم يكن قد تمَّ الإعداد مسبقاً لنمط جديد من المبادرة الهيمنية، لما خرجت الولايات المتحدة منتصرة في نهاية الحرب الباردة. المسألة إذاً، تتعلق ببعد تاريخي للتكوين الأميركي السيادي، فالمشروع الامبراطوري هو مشروع سلطة متشابكة يشكل المرحلة أو الصيغة الرابعة من التاريخ الدستوري الأميركي.
وعلى ما يبيِّن مايكل هاردت وأنطونيو نيغري في كتابهما امبراطورية العولمة الجديدة[11] فإنَّ تحقيق فكرة السيادة والهيمنة الأميركية اتخذ مسيرة طويلة تطورت عبر مراحل مختلفة من تاريخ الولايات المتحدة الدستوري. فالمعروف أن الدستور الأميركي، كوثيقة مكتوبة بقي دونما تغيير ذي شأن، (باستثناء بعض التعديلات) غير أن الدستور يجب فهمه، ايضاً، بوصفه منظومة مادية من التفاسير والممارسات الحقوقية التي يعتمدها لا المحلفون والقضاة فحسب، بل والأفراد في المجتمع. وبالفعل فإنَّ هذا التأسيس المادي، الاجتماعي قد تغيَّر جذرياً منذ تأسيس الجمهورية. ويذهب بعض علماء القانون والتاريخ السياسي إلى تقسيم أميركا الدستوري إلى أربع مراحل أو أربعة نظم متمايزة:[12]

---

(11) مايكل هاردت وأنطونيو نيغري، الإمبراطورية، إمبراطورية العولمة الجديدة، تعريب فاضل جتكر، مراجعة النص، د.رضوان السيد، مكتبة العبيكان 2002، الرياض، السعودية (ص268).

(12) Bruce Ackerman proposes a periodization of the first three regmes or phases of U.S. Constitutional history. See wetne people: Foundations (Cambridge, Mass: Harvard University press 1991) in particular pp.58-80.

ـ مرحلة أولى، تمتد من إعلان الاستقلال إلى الحرب الأهلية وعملية إعادة البناء.

ـ مرحلة ثانية، وهي مثقلة بالتناقضات، وتتزايد مع الحقبة التقدمية، مغطيَّة انعطافة القرن، من مبدأ تيودور روزفلت الإمبريالي، إلى إصلاحية وودرو ولسون الأممية.

ـ مرحلة ثالثة، وتمتد من ما يسمى الصفقة الجديدة (New Deal) والحرب العالمية الثانية إلى فترات اشتداد الحرب الباردة.

ـ مرحلة رابعة، وهي التي سبق أن أشرنا إلى بعض وجوهها، وهي بدأت في خلال عقد الستينات عبر نشاط الحركات الاجتماعية واستمرت إلى حين تفكيك الاتحاد السوفياتي وكتلة أوروبا الشرقية. فالمراد من حصيلة هذه المراحل الدستورية القول، إن كلاً منها شكل خطوة إلى الأمام في التشكُّل التاريخي للسيادة الامبراطورية للولايات المتحدة[13].

عندما وصلت الأزمة المالية الكبرى سنة 1929 جاء الإنقاذ بانتخاب "فرانكلين روزفلت" (ابن عم الرئيس الذي سبقه تيودور روزفلت) ومع الرئاسة الأولى لروزفلت الثاني 1932. وبعد سياسة العدل الاجتماعي الجديد التي أعلنها وطبَّقها وعادت بها الولايات المتحدة إلى حياتها الطبيعية ـ أخذ الحلم الامبراطوري يشغل نخبها السياسية والبيت الأبيض في المقدمة. ومن واشنطن كان فرانكلين روزفلت يتابع ما يجري في أوروبا وشغله "صراع الامبراطوريات"، الذي عاد (كما لو كان متوقعاً) يتجدد مرة أخرى دافعاً إلى القارة نذر عواصف تتجمع من جديد . لقد بدأت إيطاليا تشهد صعوداً للحركة الفاشية بقيادة "بنيتو موسوليني" الذي وصل إلى السلطة، وشعاره مرة أخرى هو الشعار الروماني القديم في وصف البحر الأبيض المتوسط بـ"أنه بحرنا".

وفي ألمانيا التي نهضت من وسط ركام الهزيمة في الحرب العالمية الأولى، ونفضت عن نفسها رداء الهوان الذي فرضته عليها معاهدة فرساي

(13) مايكل هاردت وأنطونيو نيغري، المصدر نفسه (ص252).

سيجري انتخاب أدولف هتلر. وستصعد النازية إلى السلطة في قلب أوروبا الغربية، ثم ليعلن هتلر أنه جاء ليحيي "الرايخ الثالث" الذي ينبغي أن يعيش ألف عام كما كان يقول(14).

في اليابان كانت الصورة مشابهة حيث كان الحزب العسكري المطالب بالتوسع الياباني باتجاه العالم انطلاقاً من آسيا الشرقية / الجنوبية يمسك بسلطة القرار في طوكيو فارضاً نفسه على الامبراطور هيروهيتو.

أما في روسيا فقد ازدادت سطوة الزعيم السوفياتي جوزيف ستالين الذي خلف لينين في قيادة الحزب والدولة. لقد أمسك ستالين البلاد الشاسعة القوية بقبضة فولاذية، مستغلاً موارد بلد هو الآخر بحجم قارة، ومحاولاً أن يبني من التخلف القيصري دولة صناعية قادرة على المنافسة والتفوق(...)

كان تقدير روزفلت أنَّ هناك حرباً عالمية تلوح في الأفق، وتوقعه أنها سوف تدور بالدرجة الأولى بين المانيا وإيطاليا من ناحية وبريطانيا وفرنسا من الناحية الأخرى. وبدت تلك الصورة المحتملة أمام عينيه شديدة الوضوح. وفي ذلك الوقت المبكر لم يكن لدى "روزفلت" تصور واضح لمسلك الاتحاد السوفياتي ولا لمسلك اليابان، ولعله ظنَّ أن كلا البلدين سوف ينتظر حتى يرى اتجاه العواصف ثم يقرر كيف يستفيد من هبوبها ويستغل التطورات والنتائج(15).

لكن المراقبة الأميركية لصورة العالم آنئذٍ راحت تتخذ مسلكاً مخصوصاً، بحيث ترصد بدقة اتجاهات القوة بين الإمبرياليات المتحاربة من دون أن تستغرق في حروب مباشرة غير محسوبة النتائج بالكامل لصالحها. بينما كان الطموح الامبراطوري وتحقيق السيادة العالمية هو الناظم المركزي للاستراتيجية الأميركية العليا.

---

(14) راجع محمد حسنين هيكل، الإمبراطورية على الطريقة الأميركية، مجلة "وجهات نظر"، العدد الخمسون، آذار/مارس 2003.

(15) هيكل، المصدر نفسه.

مقولات روزفلت

لقد كانت مجمل تقديرات الرئيس روزفلت الثاني تركِّز على العلامات الفارقة التالية:

أولاً: الحرب التي تلوح نُذُرَها الآن هي ـ الفرصة السانحة للولايات المتحدة لكي تقفل صفحة الامبراطوريات القديمة، وتفتح صفحة الامبراطورية الأميركية، لأنها وحدها الأجدر على "فرض سلام" تقدر عليه مواردها وطاقاتها ـ وهي ليست قادرة على ذلك فقط، وإنما هي تستحقه لأنها قلعة الغنى في العالم وذروة تقدمه.

ثانياً: فيما يتعلق بالصراع الأوروبي، وهو دائرة الحرب الأساسية، كانت خطة الولايات المتحدة، لأنَّ الامبراطوريات الجديدة تكون أكثر عنفواناً من تلك القديمة، وبالتالي فإنَّ "هتلر" لا يجب أن ينتصر، وكذلك "موسوليني".

ثالثاً: هذا معناه أنَّ بريطانيا وفرنسا لا بد أن تخرجا من حمام الدم الأوروبي سالمتين، وفي الوقت نفسه غير قادرتين هذه المرة على الاحتفاظ بامبراطوريتهما الشاسعة (في آسيا وأفريقيا). وهذا معناه أيضاً، أن انتصار الحلفاء والأوروبيين يصح أن يتم داخل حدود لا يمكن تجاوزها، وإلاَّ فإنَّ ما حدث بعد الحرب العالمية الأولى سوف يتكرر بعد الحرب العالمية الثانية، ولا تتمكَّن الولايات المتحدة من فرض رأيها ورؤيتها لمصائر العالم فوق سطوة امبراطورياته القديمة المتهالكة...

رابعاً: من الأنسب للولايات المتحدة هذه المرة أيضاً، أن تظل بعيدة عن ميادين القتال حتى آخر لحظة. على أنها خلافاً لموقف "ويلسون" والحرب العالمية الأولى لن تعلن حيادها "فكراً" و"فعلاً"، وإنَّما عليها أن تكشف وتظهر انحيازها الفكري ضد النازية. لأنَّ تلك مسألة أخلاقية. وأما عملياً فإنَّها سوف تترك بريطانيا وفرنسا وحدهما وسط "عاصفة الحرب" وتراقب هي من بعيد حتى ينزف كلا الطرفين دمه، ويترنَّح تحت مطارق الحديد.

خامساً: إذا كانت سياسة الاتحاد السوفياتي واليابان هي الانتظار والمتابعة

حتى تظهر حركة الموازين، فإنَّ الولايات المتحدة سوف يتعيَّن عليها التذرُّع بالصبر الطويل، وهي قادرة على ذلك بحكم أمان المحيطات. ففي حين أنَّ روسيا ملاصقة من الشرق غرب أوروبا بحيث يصل إليها صدى المدافع فإنَّ الولايات المتحدة بعيدة. كما ان حال اليابان هو الشيء نفسه، لأنَّ اليابان على تماس مباشر مع أطراف الامبراطوريتين البريطانية والفرنسية في آسيا (الهند والهند الصينية). وعليه أخذت تنشأ تلك المقولة الذهبية التي ترى أنَّ الولايات المتحدة تقدر وتملك أن تكون آخر الصابرين لكي تكون أول الوارثين(16).

سوف تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها لتسفر عن استئناف واقعي لرحلة أميركا في ما وراء الحدود. وفي هذا المسار سيُفتح الباب للولايات المتحدة الأميركية لتحفر مجراها الجيو- استراتيجي بوصفها دولة عالمية. لقد أفلحت الولايات المتحدة في أن ترِث الإمبرياليات التقليدية، وتؤسِّس على هذا الإرث آليات جديدة للسيطرة الأمنية والاقتصادية والإعلامية، اصطلح على هذه الحقبة في أوساط اليسار العالمي بـ حقبة الاستعمار الجديد. وبقطع النظر عن مدى صحة أو مطابقة هذا الإصطلاح للواقع التاريخي الدولي بسبب من دخالة الايديولوجيا المكثفة وأثرها في نشوئه، فإنَّه سيأخذ سياقه الفعلي في نظام الصراع اللاَّحق الذي حكم العالم بما عُرف بـ"الحرب الباردة".

لقد كشفت الحرب الباردة حقائق مدويّة ما كان لها أن تظهر لولا أن أصبحت الولايات المتحدة وجهاً لوجه مع العالم. لم تعد ايديولوجيا الحرية، والديمقراطية، وحقوق الإنسان والليبرالية الاقتصادية، مجرد حجاب يخفي وراءه نزعة الهيمنة. صارت هذه الأخيرة بآلياتها، ووقائعها، وأنساقها، وأنظمتها، هي الحاكمة والمحدِّدة لعلاقة أميركا بالعالم. إذ على نزعة الهيمنة ستنشأ المقدمات الفعلية للعالمية الأميركية. فخلال الحرب الباردة، بل وعبر مسيرة القرن العشرين، بات واضحاً بصورة متزايدة باطراد، أنَّ الولايات المتحدة شقَّت طريقها باتجاه العالم تحت شعار امبراطورية الحرية.

(16) هيكل، المصدر نفسه

على أنَّ هذا الإغراء بالحرية سيؤدي ـ ضمن معادلة الحامي للحرية والمتسلط على مقادير الثروة العالمية ـ إلى ظاهرة استعمارية أكثر عمقاً واتساعاً. بعبارة أخرى، ما لبثت حماية البلدان في سائر أرجاء العالم من الشيوعية، أن أصبحت متعذرة التمييز. فكان لا مناص من تحقيق السيطرة بأساليب وتقنيات إمبريالية. وفي هذا المعنى لم تعد تكتفي بوراثة الحصاد الإمبريالي التقليدي لتمضي في صناعة مفاهيم جديدة للسيطرة، بل إنها عمدت إلى استرجاع الآليات التقليدية للإستعمار البائد. ولعلَّ التجربة الفيتنامية في هذا الإطار هي التجربة الأكثر دلالة وسطوعاً على هذا النوع من السيطرة. فلقد كانت الحرب في فيتنام متناغمة مع الاستراتيجية السياسية العالمية القائمة على حماية "العالم الحر" من الشيوعية. غير أنَّ هذه الحرب لم يكن بوسعها أن تكون، عملياً، إلاَّ عملية استئناف في العمق لأشكال السيطرة الأوروبية التقليدية. وليس من شك في أنَّ الهزيمة التي لحقت بأميركا في فيتنام ستكون واعظاً لها لتغادر السياق الكلاسيكي للسيطرة وتتجه إلى صياغات استراتيجية جديدة تقوم على حكم امبراطوري من طراز جديد.

إنَّ الجدل العميق الذي اشتعل داخل حقول الفكر الاستراتيجي الأميركي بعد حرب فيتنام قد أدَّى ـ بحسب زبينغيو بريجنسكي ـ إلى اعتراف متزايد بضرورة إعادة تحديد دور أميركا العالمي. ذلك أنَّ اندفاع أميركا في العالم بنموها الخاص، وبفعل حربين عالميتين جعلها تتحرّك بنشاط في البداية، ثم تضمن، استعادة الغرب لاقتصاده ولأمنه العسكري. وهذا الوضع ـ النابع من الضرورة المتميزة بالهموم العسكرية الثقيلة ـ أخذ يتحول بشكل تصاعدي نحو مزيد من التورط في المشاكل الأكثر أساسية، والتي تواجه الإنسانية في الثلث الأخير من القرن العشرين. وعلى رأي بريجنسكي ـ فإنَّ جون كينيدي هو الذي سيمسك بروح الوضع الأميركي الجديد في العالم عندما قال عن نفسه إنه أول رئيس أميركي يعتبر العالم كله من شؤون السياسة المحلية بمعنى أو بآخر. ومن المؤكَّد أنَّ كينيدي كان أول رئيس "عالمي" للولايات المتحدة. فروزفلت برغم كل اتجاهاته الدولية كان يؤمن في الأساس باتفاق عالمي يشبه اتفاق 1815،

حيث "الأربعة الكبار" كان لهم دوائر نفوذ خاصة. أما ترومان فلقد تجاوب قبل كل شيء لتحدٍّ شيوعي معين، وأظهرت سياساته أنها تعطي أولوية واضحة للمشاكل الإقليمية. واستمر أيزنهاور على الطريق نفسه مطبِّقاً بين الحين والآخر سوابق أوروبية على مناطق أخرى. وهذه التحولات كانت معبِّرة عن تغيُّر دور الولايات المتحدة. إلاَّ أنَّه مع كينيدي كان الشعور بأنَّ كل قارة قادرة، وكل شعب له الحق في أن يتوقع القيادة والطموح من أميركا، وإنَّ أميركا ملزمة بالقدر نفسه من الانغماس والتورط في كل قارة وكل شعب. إنَّ أسلوب كينيدي المثير ـ كما يلاحظ بريجنسكي ـ أنه ركَّز على الطابع الإنساني العالمي للمهمة الأميركية بينما كان افتتانه الرومانسي بفتح الفضاء يعكس قناعته بأنَّ زعامة أميركا العالمية ضرورية لفعالية دورها العالمي[17].

اسـتعادة المفارقـة

في خلال الحقب الرئيسية الأميركية التي تلت حقبة كينيدي لم تغادر جدلية الهيمنة على العالم وحمايته الرسالية المدَّعاة، العقل الاستراتيجي الحاكم في الولايات المتحدة. كان ثمة استيقاظ دائم لنزعتي الهيمنة والمهمة الرسالية. وإن كانت هذه الأخيرة باقية على الدوام كذريعة ايديولوجية تسوغ لمنطق القوة وتمهِّد له سبيل الفلاح.

في كتابهما[18] الذي نشراه في باريس عام 2003 تحت عنوان: (أميركا المقبلة: قياصرة البنتاغون الجدد) يبيِّن الباحثان الاستراتيجيان الفرنسيان جيرار شاليان (Gerard Chaliand) وأرنو بلان (Arnaud Blin) الخلفية التاريخية والثقافية التي تحمل الفكر السياسي الأميركي على الجمع الدائم بين هاتين

---

(17) زبيغنيو بريجنسكي، بين عصرين، أميركا والعصر التكنوتروني، ترجمة وتقديم محجوب عمر، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى 1980 (287 ـ 288).

(18) Gerard Chaliand et Arnaud Blim America is back-les Nouveaux Cesars du Pentagoune. Paris 2002.

النزعتين المفارقتين (الهيمنة والرسالية). ثم يتساءلان عن السبب الذي يجعل إدارة جورج بوش الثاني تحرص وتقاتل بحزم للحيلولة دون ظهور قوة منافسة لها على وجه الأرض، وعن موضوعية البحث عن الدوافع المحرِّكة لهذه الإدارة فيما ترفعه من شعارات. وللإجابة يؤكدان أنَّ الجذور التاريخية هي وحدها التي يمكن أن تمدنا بالمشهد وخلفيته معاً. فتاريخ أميركا منذ توماس جيفرسون وحتى جورج دابليو بوش عرف ظهور توجهين اثنين، توزعت بينهما الإدارات: أحدهما مثالي حالم، والآخر واقعي مكيافيللي شرس. ولكي نعبِّر عن الأمر بلغة فلسفية، نستطيع القول إنَّ إحديهما تعود إلى الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز القائل: "إنَّ الإنسان ذئب لأخيه الإنسان"، في حين تعود الأخرى إلى كانط الفيلسوف المثالي "الترانساندانتالي، المتسامي، العالمي، وأيضاً إلى جان جاك روسو اللذين تحدَّثا عن إمكانية "السلام الدائم" و"التعايش السلمي" العالمي. وكانا يريان إلى الإنسان كائناً محكوماً بالأخلاق والنوايا الطيبة والطبيعة الخيّرة على عكس هوبز ومكيافيللي. ومن هذا المنطلق فإنَّ أميركا الواعظ الإنجيلي جيمي كارتر تختلف ـ سياسياً وموضوعياً ـ عن أميركا المحافظ اليميني المتطرف رونالد ريغان، تماماً كما أنَّ إدارة الداعية الديمقراطي الساعي إلى تحقيق رسالة أميركا بإشاعة الحرية في العالم ـ بيل كلينتون ـ تختلف عن إدارة اليميني المحافظ وذي التوجه الإمبريالي جورج دبليو بوش المرتمي في أحضان جماعة المحافظين الجدد، بكل مشروعها وأطروحاتها المتطرفة الكوسموبوليتية. ويرى المؤلفان أنَّ تاريخ الولايات المتحدة كمشروع سياسي عرف مرحلتين رئيسيتين، إحداهما أطلقها الآباء المؤسسون وقدمت هذه الدولة الهائلة كمشروع طوباوي من قبيل "مدينة الشمس" لكامبانيلا، أو "مدينة الله" لتوماس مور، ومشروعها الانكفاء على نفسها واستغلال مواردها الهائلة لتحقيق دولة الرفاه التي تجسد الفضيلة أخلاقياً، والعدالة سياسياً، والتي تتعاطى دائماًمع السياسة الخارجية من المفهوم المثالي الأخلاقوي وأحياناً التقوي الطهوري.

أما المرحلة الثانية فتبدأ منذ الحرب العالمية الثانية حين اصبحت أميركا

قوة عظمى، وبالتالي وجدت نفسها تخرج من حدودها السوسيو- تاريخية التي اعتادت عليها لتمارس الهيمنة على العالم، وأيضاً - ويا للمفارقة - لتتبادل الأدوار مع أوروبا التي كانت خلال المرحلة السالفة الذكر، خصوصاً في القرن التاسع عشر تلعب دوراً إمبريالياً، وتتعاطى مع السياسة بالمفهوم الهوبزي الماكيافيللي، والتي جنحت منذ انتهاء الحرب، وبضغط من موروثها الفاشي - النازي " إلى التعايش السلمي، وإلى تغليب المفهوم المثالي للتعاطي مع السياسة عامة والخارجية منها خاصة.

وإذا كانت ايديولوجيا فتوحات أوروبا الاستعمارية في القرن التاسع عشر تحرص على تعميم "رسالة الرجل الأبيض"، فإنَّ العنوان الذي سيرفعه قياصرة "البنتاغون" الآن للخروج بالدور الأميركي إلى الحد الأقصى من حلمه إلى واقعيته هو "نشر النموذج الأميركي" عبر العالم، وذلك تعبيراً عن إيمان راسخ لدى الأميركيين عامة بما يعتبرونه رسالة قدرهم ترويجها وإشاعتها عبر العالم هي " القدر البيِّن للشعب الأميركي"، الذي يعني أنَّ أميركا قبل أن تكون دولة أو قوة عظمى، هي فكرة ورسالة عظيمة وحلم جميل حافل بالوعود[19].

عندما وضعت الحرب الباردة أوزارها التي ظلت على مدى نحو نصف قرن تقيِّد الطموحات الجيو - استراتيجية للولايات المتحدة، صار سهلاً إحداث تغيير راديكالي في آليات صنع تلك الطموحات. فإذا كان رونالد ريغان قد أوصل النزاع مع الشيوعية السوفياتية إلى نهايته المدوية ممثلة بسقوطها، فإنَّ جورج بوش الأول سيكمل ما تبقّى من آثارها في الشرق الأوسط عبر حرب الخليج الثانية في العام 1991. لكن الرئيس بيل كلينتون الذي سيخلف الرئيس بوش سيتخذ لنفسه منحنى آخر. من دون أن يقطع مع المنطق الإجمالي لمن سبقوه إلى الإدارة. فعلى رأي الذين قرأوه فإنَّ كلينتون كان أول رئيس أميركي منذ أيام فرانكلين روزفلت يصوغ أفكاره حول القضايا العالمية من دون أن يضطر

(19) راجع حسن ولد المختار، أميركا بين واقعية "مكيافيللي" ومثالية "روسو"، "الاتحاد"، أبو ظبي 25/ 4/ 2003.

لمواجهة الاتحاد السوفياتي. وفي خطابه عن "حال الأمة" في شهر كانون الثاني/يناير 1999، استعاد كلينتون صدى الكلمات التاريخية التي أطلقها الملياردير والقطب الإعلامي الشهير هنري لوس في شباط/فبراير 1931، أي قبل عشر سنوات من دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية. يومها قال لوس: إنَّ الأميركيين فشلوا طوال العقود الأربعة الأولى من القرن العشرين في التنبُّه إلى مدى سيطرة بلدهم على مصير العالم، وهذا ما جعل المسار التاريخي للبشريةيأخذ منعطفاً بائساً.. ثم ليضيف: إنَّ أميركا كمركز فعال للحلقات الدائمة التوسع في حقل الأعمال.. أميركا كمركز تدريب لخدام الجنس البشري المَهَرَة.. أميركا الكريمة التي تؤمن مجدداً أن العطاء مبارك أكثر من الأخذ، وأميركا كمحطة لتوليد المثل العليا في الحرية والعدالة ـ من المؤكد أنه من جميع هذه العناصر يمكن أن نكوِّن رؤى عن القرن العشرين نستطيع أن نكرس أنفسنا لها بكل محبة ونشاط وحماس".. وبعد ثمانية وخمسين عاماً نظر كلينتون إلى قصدية لوس نظرة المقتدي والمقلِّد، لا سيما لناحية وجوب أن يبسط الأميركيون أيديهم للقرن الأميركي. فقد ظهرت أطروحة لوس، كما لو أنها أطروحة مأثورة ينبغي الأخذ بها عن ظهر قلب. غير أنَّ هذه الاستعادة التي أخضعت للتأويل الإيجابي من جانب كلينتون، أي بوصفها صيغة للتعاون بين الأمم.. سرعان ما تهافتت وعادت إلى غائيتها الأولى كمادة ايديولوجية وسياسية وثقافية لأمركة العالم".

مدَّعى «العالم هو أميركا»

سوف تظهر أطروحة العالمية الأميركية بقوة اشد بعد الحادي عشر من ايلول (سبتمبر) 2001. فلم يكن للعقيدة السياسية الأميركية بعد هذا التاريخ سوى إماطة اللثام عن واحدة من أبرز أطروحاتها المعاصرة. عنينا بها أطروحة: "أميركا هي العالم، والعالم هو أميركا".

إنَّ تجديد هذه الأطروحة بعد هذا التاريخ، ينطوي بلا ريب على فاعلية كثيفة. ذلك لأنَّ عالمية أميركا هذه المرة لم تعد مجرد شعار ينبغي إخراجه من

القوة إلى الفعل. فالعالمية الأميركية بعد انصرام الحرب الباردة، ثم بعد زلزال الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، غدت واقعاًموضوعياً وذاتياً بالنسبة لدولة كأميركا راحت تتصرف حيال أي وضع في العالم بصفته وضعاً متصلاً بقوة بالأمن القومي الأميركي..

إذا كان الخطاب السياسي ميّالاً كالعادة إلى ضربٍ من الديماغوجيا لإظهار محاسن الطموح الامبراطوري للولايات المتحدة، فالخطاب الإعلامي الموجَّه يبدو أقل تكلُّفاً في ارتداء الأقنعة. هذا ما سيجدُّ في بيانه الباحثان البريطانيان ضياء الدين سارادار وميريل وين ديفيس في مقالتهما المشتركة التي وَضَعَاها تحت عنوان " أميركا هي العالم والعالم هو أميركا"[20]. يستهل الباحثان مقالتهما بالإشارة إلى المسلسل التلفزيوني الشهير (ألياس) Alias التي تعرضه محطة آي. بي. سي (A.B.C) الأميركية. فقد قرَّرا أنَّ صراحة هذا المسلسل الذي يروي قصة طالبة تعمل في الخفاء كعميلة سرية من مستوى عالٍ، توسع إلى حد كبير أفق المعرفة بالنسبة إلينا جميعاً. فقد صُنِّف "ألياس" بأنه برنامج ترفيهي مسلٍّ لا يستدعي أي اهتمامات. لكن هذا المسلسل العادي والسطحي، والذي يحبس الأنفاس عبر حبكة غريبة، يكشف للمُشاهد أشياء كثيرة عن أميركا والطريقة التي تنظر بها إلى العالم. يضيف صاحبا المقالة:

إنَّ السينما والتلفزيون يعكسان "الواقع" ويوجدانه في الوقت نفسه. وكما أشار إلى ذلك الروائي والناقد الإيطالي أمبرتو إيكو، فإنهما لم يكتفيا بنقل ايديولوجيا: بل إنهما الايديولوجيا الأميركية في حدِّها الأقصى(...) بهذه الدلالة تتمظهر أميركا بوصفها هي العالم، بحسب مسلسل "ألياس". إذ يمكن أن ينتقل سير أحداث حلقة نموذجية بسرعة الضوء من لوس أنجلوس إلى القاهرة أو إلى موسكو، وإلى روما أو إلى أوكسفورد، وإلى توسكانا أو إلى

---

(20) أنظر ضياء الدين سارادار وميريل وين ديفيس، فصل من كتاب نشرته فصلية "شؤون الأوسط"، العدد (110) ربيع 2003، ترجمة علي جوني والعنوان الكامل للكتاب: Pourquoi le monde deteste-t, il l'Amerique? Paris , e'd. Fayard, 2002. 284 P.

جنيف، ومن مستشفى للأمراض العقلية في بوخارست إلى صحراء أرجنتينية قبل أن يعود إلى لوس أنجلوس. إذاً، ليست بقية العالم سوى شرفة أميركا حيث يُقدم الأشرار ـ أعداء الـ"سي.آي.إي" و"SD-6 " ـ باعتبارهم الآخرين"، ويؤدون دورهم ويظلّون على ما هم عليه. وحيثما تقود المهمات العملية السرية، فإنَّ العالم بأسره، وباستثناء بعض التفاصيل الثانوية وبعض السكان الأصليين المثيرين للإعجاب، يشبه تماماً لوس أنجلوس، حيث يتم تصوير المسلسل. وحيثما توجه سيدني نظرها، فإنها تكتشف الأفق نفسه. لذا ليس مفاجئاً أنها تنتقل في العالم غير الأميركي كما تنتقل في حديقتها الخلفية، وأنها تعود من كل مهمة وكأنها لم تقم إلاَّ بجولة صغيرة في مركز تجاري مجاور. أما في ما يتعلق بأعدائها، فإنهم موجودون في كل مكان ومن كل الأجناس ـ عرب وصينيون وروس وكوبيون ـ ويعملون جميعاً كشبكات مستقلة وسرية.

إنَّ ما يعرضه " ألياس" بثقة كبيرة ـ كما يبيِّن الباحثان ـ ليس القول إنَّ أميركا تريد أن تحكم العالم، وإنما التوكيد بأنها تحكمه بالفعل بكل بساطة. فالدول ـ الأمم. والحدود الجغرافية، والهيكليات السياسية، تتحول إلى مجرد سخافة. فالمهم هو وجود شبكات متنافسة تسعى كل منها إلى ضمان مصالحها على المسرح العالمي ـ مسرح يغفل التنافس بين القوى العظمى، بما أنه ليس هناك سوى قوة عظمى وحيدة ومصدر وحيد للنظام العام. وعليه، فإنَّ الحديث عن "امبراطورية أميركية" أو عن " إمبريالية أميركية"، في ظل نظام طبيعي من هذا النوع، يصبح بلا معنى مثلما تغدز، هذه الخطب والتحليلات باطلة إلى حد خطير. إذ إنَّ فكرة الامبراطورية تعني وجود مستعمرات يتم فيها قمع سكان يرفضون الخضوع. كما إنَّ الإمبريالية هي تعريفاً حاضرة مزدهرة وتسعى جاهدة للسيطرة على الأسواق وفرض قوانينها على بلد بعيد. أما حالياً، فإنَّ العالم يمثِّل إمتداداً للمجتمع الأميركي، إذ ـ تحديداً ـ يلتحق الأفراد والجماعات بحماس بثقافتها وقيمها. وهكذا تصبح المسافة، كما يظهر مسلسل "ألياس" ذلك بمهارة كبرى، بلا أي معنى. فبإستثناء "دول مارقة" شاذة، لم يعد هناك "بلدان بعيدة"، ثمة حاجة إلى "إخضاعها للنفوذ" من جانب الإمبريالية

الواضحة للعيان. إذاً، لا تقدم أميركا نفسها كقوة إمبريالية بالية تبحث عن "دوائر نفوذ" وتتنافس مع امبراطوريات أخرى؛ وإنما تتقدم بوصفها قوة عظمى لا مثيل لها. وعليه، كيف يفاجئنا بأن ينظر مسلسل " ألياس" إلى العالم بصفة كونه أميركا؟[21]

يجيب صاحبا المقالة على سؤالهما، بضرب من الاستفهام المنطقي، فلئن كان العالم هو أميركا، فهذا يعني أن مصالح أميركا هي بالضرورة مصالح العالم، وإن أولئك الذين يعملون ضد مصالح أو ثقافة أو رؤية أميركا للعالم، يلحقون الضرر في الحقيقة برفاه العالم وأمنه(...) هذا هو المنطق الذي حكم كل التدخلات العسكرية الأميركية منذ أكثر من قرن. كانت المعادلة بسيطة جداً: تدخلت أميركا عسكرياً في الخارج بسهولة وباستمرار تماماً مثلما تنطلق العميلة المزدوجة الخارقة " سيدني " في مهمة. وهكذا أرسلت الولايات المتحدة قواتها إلى الصين وكوريا وفيتنام وأندونيسيا، وكذلك إلى بلدان أكثر قرباً مثل كوستاريكا وغواتيمالا وغرانادا في خلال عقود الحرب الباردة. وفي أثر تفجيرات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر مباشرة نشر المناضل الأميركي من أجل السلام والمتعاون المنتظم مع المجلة المتطرفة "كونتر بانتش" زولتان غروسمان قائمة تحت عنوان: " قرن من التدخلات العسكرية الأميركية: من ونديد كني إلى أفغانستان"، وقد جرى إعدادها استناداً إلى أرشيف الكونغرس ولحساب البحوث في مكتبة الكونغرس. وتحصي القائمة 134 تدخلاً محدوداً أو واسع النطاق، عالمياً أو داخلياً، ممتدة زمنياً على فترة 111 عاماً بين عامي 1890 و2001. وتظهر هذه الوثيقة أنَّ الولايات المتحدة قامت حتى نهاية الحرب العالمية الثانية بـ 1،15 تدخلاً سنوياً كمعدل وسطي. ثم وصل هذا الرقم إلى 1،29 تدخلاً خلال الحرب الباردة. أما بعد سقوط جدار برلين، فقد ارتفع الرقم ليبلغ تدخلين سنوياً. وعليه، كلما توسَّعت الإمبريالية العظمى الأميركية، تتزايد التدخلات من أجل حماية "مصالحها". إلى ذلك، وكما يبيِّن

(21) المصدر نفسه.

جوهان غالتنغ، مدير "ترانسند" (شبكة أنترنت من أجل السلام والتنمية) في " البحث عن السلام" (2002)، فإنَّ التوزيع الجغرافي للتدخلات تبدل أيضاً في فترة ما بعد الحرب. ففي مرحلة أولى، ركَّزت الولايات المتحدة تدخلاتها بعنف شديد في شرق آسيا (كوبا، فيتنام، أندونيسيا، وكذلك إيران). ثم جاء دور أوروبا الشرقية (بما في ذلك الاتحاد السوفياتي).

لكن العمليات العسكرية كانت هذه المرة أقل عنفاً ظاهراً بسبب وجود قوى عظمى منافسة. وفي المرحلة الثالثة، تركزت التدخلات في أميركا اللاتينية، بدءاً من كوبا قبل أن تشمل القسم الأكبر من القارة. وقد مورس العنف هذه المرة على مستويات متدنية ومرتفعة، لكنها لم تصل إلى المستوى الذي بلغته في شرق آسيا. أما في المرحلة الرابعة، والتي نشهدها حالياً، فإنها تمتد من الشرق الأدنى إلى آسيا الوسطى: بعد فلسطين وإيران، ثم ليبيا والمنطقة اللبنانية ـ السورية، انتقلت العمليات إلى العراق في التسعينات، ثم إلى أفغانستان والعراق مطلع القرن الواحد والعشرين. بكلام آخر، تحولت أهداف هذه التدخلات من المجتمعات الكونفوشوسية والبوذية إلى الثقافات المسيحية والكاثوليكية، ثم إلى الحضارة الإسلامية. إن بقية شعوب العالم يكوِّنون إلى حد كبير جداً الفكرةالتي لديهم عن أميركا، وكذلك نظرة أميركا إليهم، من خلال المسلسلات التلفزيونية، على غرار "ألياس" وأفلام هوليوود مثل فيلم "القرار الأخير" أو "منع التجول". لكن هذا الإدراك يستند أيضاً إلى تجربة معيوشة ـ على سبيل المثال سلوك الولايات المتحدة في منابر دولية، على غرار الأمم المتحدة ـ على أن هذا السلوك ليس مختلفاً بتاتاً عن سلوك " SD-6 " في مسلسل "ألياس": بما أننا نهيمن على العالم، يمكننا أن نتصرف إلى حد كبير كما يحلو لنا. وكما كتب الأمين العام السابق للأمم المتحدة بطرس بطرس غالي في كتابه " الأمم المتحدة المهزومة: مأثرة الولايات المتحدة ـ الأمم المتحدة"، فإنَّ الأمم المتحدة هي حالياً ملكية حصرية لقوة عظمى وحيدة ـ الولايات المتحدة ـ التي تستغل، من خلال استخدام الترهيب والتهديدات وحق النقض (الفيتو)، المؤسسة الدولية لخدمة مصالحها فقط. إذ أن الولايات المتحدة

تستخدم المنظمة وفق ما يناسبها لتشريع تحركاتها وتشكيل الإئتلافات وفرض عقوبات على "الدول المارقة". أما عندما يتصدى لها الرأي العام العالمي، فإنها تعامل المنظمة باحتقار كبير.[22]

فلسـفة التبريـر

هنالك إذاً، ممارسة مركبة للهيمنة على العالم. هي ممارسة تجمع بين السلوك الإمبريالي التقليدي الدخول العسكري المباشر وممارسة الاحتلال وتسويغ الحروب بذريعة الأمن الدولي.. وبين السلوك الامبراطوري الذي لا يرى اي شأن في العالم مهما كانت مؤثراته الأمنية والاقتصادية والثقافية إلاَّ شأناً أميركياً داخلياً. ذلك كان شأن الامبراطوريات القديمة. فهي امبراطوريات جامعة. لم تكن ترى العالم فيما وراء حدودها إلاَّ انطلاقاً من رؤية مركزية مبنية على المنطق الذي تحدده المصالح العليا لدولة ما وراء الحدود. وهنا يبدو المثال الأميركي صارخاً.

ينقل الفيلسوف الألماني المعاصر يورغن هابرماز عن المؤرخ أريك هوبز باوم قوله عن القرن العشرين بأنه قرن أميركي بامتياز. ثم يعلِّق على هذا في شيء من السخرية المرَّة، إنه يحق للمحافظين الجدد الذين حكموا أميركا في مستهل القرن الحادي والعشرين، أن ينظروا إلى أنفسهم بوصفهم " منتصرين" وأن يتخذوا مثالاً لنظام عالمي جرت إقامته على الانتصارات المحقَّقة التي أحرزتها الولايات المتحدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ـ في أوروبا وفي جنوب شرق آسيا إثر هزيمتي ألمانيا واليابان، وفي أوروبا الشرقية إثر انهيار الاتحاد السوفياتي. وقد جرى تأويل مرحلة ما بعد التاريخ هذه ـ بحسب اصطلاح فرانسيس فوكوياما، على ضوء النزعة الليبرالية، فمن شأن ذلك أن يجنِّبنا الخوض في مماحكة حول الأهداف المعيارية: فماذا يمكن بالفعل أن

---

(22) المصدر نفسه.

يحظى به الناس أفضل من تعاظم السوق الحرة على المستوى العالمي وتعاظم عدد الدول الليبرالية؟..

ثمة لدى الايديولوجيا الأميركية ما يسوِّغ المقولة الأمنية بتظاهراتها المختلفة. سواء لناحية الحرب الاستباقية التي تفترض عدواً قد يهاجم في اية لحظة أو لناحية إسقاط ما يسميه أصحاب النزعة الذرائعية من المحافظين الجدد، أنظمة الشر، أو الحكومات الراعية للإرهاب. هؤلاء يعترفون أنَّ الحرب غير الشرعية تبقى عملاً متعارضاً مع القانون الدولي، غير أن من شأن النتائج الضارة أن تنزع أي طابع شرعي عن النيات الحسنة، أي تلك القائلة بوجوب عدم الحرب بسبب من لا شرعيتها، والسؤال الذي يطلقه فلاسفة المحافظين في وجه مؤيدي القانون الدولي هو التالي: لماذا لا يَسَعُ النتائج الحسنة أن تمتلك، على نحو استدلالي، القدرة على إخفاء الطابع الشرعي، ذلك أن المقابر الجماعية، والزنزانات تحت الأرض وشهادات الذين تعرضوا للتعذيب، لا تترك في نهاية المطاف، مجالاً لأي شك حول الطبيعة الإجرامية لنظام الحكم. (العراق ـ يوغوسلافيا الصربية ـ مثالاً)...

هكذا تتشكَّل ذرائعية العقل الأمني الأميركي ليمضي في صياغة أنظمة الأمن الإقليمية والدولية على وفق زمن أميركا للقرن الحادي والعشرين. إنه يريد أن يواجه العالم بمعيارية جديدة حول شرعية الحرب الاستباقية، أو البدء بالحرب ضد اي حالة سيادية لمجرد الظن أن هذه الحالة قد تشكل خطراً على السلام الدولي.

في مجالنا السياسي العمومي ـ يقول هابرماس ـ أدَّى هذا الأمر إلى نمطين من ردود الفعل. هناك رد فعل الذرائعيين الذين يؤمنون بالقوة المعيارية لما هو حدثي، ويثقون بأحكامهم العملية؛ ويرسمون الحدود السياسية للأخلاق مثمنين، على المدى المنظور، ثمار الانتصار. ذلك أنهم يرون أنَّ إعمال التفكير في صوابية الحرب هو أمر عقيم لأنَّ الحرب، في الأثناء، غدت واقعاً تاريخياً. ثم هناك رد فعل الذين استسلموا، بدافع الانتهازية أو الاقتناع، أمام الحَدَثي. إذ يرى هؤلاء أن الإصرار على التمسك بالقانون الدولي بات أمراً ينمُّ عن جمود

عقائدي. ويبرّرون موقفهم قائلين إنَّ التنديد بمخاطر وتكاليف العنف العسكري إنما هو تغاض عن القيمة الحقَّة الوحيدة: اي الحرية السياسة.

هذان منحيان لرد الفعل يمكن وصفهما بقصر النظر. إذ إنّهما يتناولان بانتقاد سطحي "النزعة الأخلاقية الباهتة"، غير أنهما يغضيان الطَّرْفَ عن تفسير ما يود المحافظون الجدد في واشنطن أن يجعلوه بديلاً لتدجين العنف الدولتي بواسطة القانون الدولي. فالحقيقة أن ما يجبه به المحافظون الجدد هؤلاء أخلاق القانون الدولي، ليس هو النزعة الواقعية ولا نزعة الفهم الرومانسي للحرية، فإنَّ فرض النجاح السياسي الأعظم ـ أي النزعة الليبرالية ـ عبر الهيمنة، لجعله نظاماً عالمياً هو، أيضاً، أمرٌ يمكن تبريره أخلاقياً، وإن اقتضى تحقيقه اللجوء إلى وسائل تتعارض مع القانون الدولي.

وبالطبع فإنَّه ضمن هذه المعيارية تحتفظ القوة الأميركية الأعظم بحقِّها في التفرُّد في العمل، حتى باستخدام السلاح، لتدعيم موقعها المهيمن في مواجهة أي غريم محتمل. غير أنَّ ممارسة سلطة عالمية ما ليست في نظر هؤلاء المنظِّرين الجدد، غاية في حد ذاتها. فما يميِّز المحافظين الجدد عن المدرسة "الواقعية"، هي رؤية سياسية عالمية لأميركا منعتقة من السبُل الإصلاحية لسياسة الأمم المتحدة الخاصة بحقوق الإنسان. سياسة لا تخلّ بالأهداف الليبرالية (لسياسة الأمم المتحدة على هذا الصعيد) لكنها تحطم القيود الحضارية التي يفرضها ميثاق الأمم المتحدة.[23]

تهتزّ أميركا، إذن يهتزّ العالم

سوف يمضي الحاكمون الجدد للبيت الأبيض وتحديداً أولئك الذين انقشع حكمهم عن فلسفة جديدة بعد زلزال 11 أيلول/سبتمبر 2001، إلى جعل هذه القاعدة أساساً لعقيدتهم: "إذا تحركت أميركا تغيَّر العالم". فما الذي يمنع

---

(23) يورغن هابر ماس "التمثال والثوريون"، "لوموند"، باريس، السبت 3 أيار/مايو 2003.

حين تشعر أميركا القرن الحادي والعشرين أن تهديداً ما لعالميتها ينبغي القضاء عليه من دون سابق إنذار.

إنها نظرية الاستباق في الحرب أو "الحرب الاستباقية" (Preemptive). فعلى الرغم من أنَّ هذه النظرية أخذت متسعاً من النقاش بين الخبراء الاستراتيجيين بعد الحادي عشر من ايلول (سبتمبر) 2001، تبقى نظرية مستعادة بامتياز. فهي ليست جديدة في تاريخ الاستراتيجيات الأميركية. هناك محطات في التاريخ الحديث من القرن التاسع عشر، والقرن العشرين ولغاية اليوم، شهدنا فيها إطلاق شعارات مفادها العام: عندما تتحرك أميركا يتغيَّر العالم". ويبيِّن الخبراء في هذا الصدد، أن هذه الشعارات أو هذه الأطروحة وجدت حقولها التطبيقية بالفعل. ففي الحرب العالمية الأولى رأينا مبادئ وترتيبات جديدة، وفي الحرب العالمية الثانية أدخلت الولايات المتحدة الأميركية عنصراً جديداً إلى العالم، وهو العنصر النووي والحرب الشاملة "Global War" و"Total War". وقد تغيَّر العالم بعد الحرب العالمية الثانية، أنشأت أميركا المؤسسات من الأمم المتحدة في سان فرنسيسكو وصولاً إلى المؤسسات المالية للسيطرة على أمور معينة، مثل صندوق النقد الدولي (IMF) والبك الدولي (World Bank) وبالتالي كل الأنظمة والمعاهدات لمزيد من السيطرة على العالم. وكانت مقاربة أميركا للعالم، تكتسب شكلاً معيناً، بصرف النظر عن المقاربة الأوروبية.[24]

سبعة عوامل استراتيجية

ثمة إذاً، تواصلية في العقل الاستراتيجي الأميركي على اختلاف أحقابه وتمرحله. وهي تواصلية تعدّ مبدأ التفوق والغلبة، سواء في حيِّز الأمن أساساً، أو في المجالات الاقتصادية والسياسية اساساً لها. والواقع أنه لا يمكن النظر

(24) الياس حنا، استراتيجية الأمن القومي الأميركي، ندوة " شؤون الأوسط " عدد 110، ربيع 2003.

إلى ما آلت إليه استراتيجية السيطرة المفتوحة على المجال العالمي بأسره، إلاَّ في إطار الفهم التاريخي لتطور العقل الاستراتيجي الأميركي بأحيازه المختلفة. ولئن كانت استراتيجية بناء النظام العالمي الجديد والسيادة عليه بمواصفات وشروط أميركية خاصة، هي السائدة بعد الحرب الباردة، فإنَّ منعطف الحادي عشر من أيلول/سبتمبر سيؤسِّس لهذه الاستراتيجية ويطلقها كغرابٍ ضار في فضاء العالم. وعلى ما يبيِّن ج. جون إكنبري الخبير الاستراتيجي الأميركي وأستاذ الجيوبولتيك في جامعة جور جتاون فإنَّ ثمة استراتيجية كبرى جديدة، أخذت تبدو ملامحها لأول مرة منذ فجر الحرب الباردة. وهي تقوم على كونها استجابة مباشرة للإرهاب، ولكنها تشمل أيضاً رؤية أوسع لكيفية استخدام الولايات المتحدة للقوة ولتنظيم النظام العالمي. وبحسب هذا النموذج (البارادیجم) الجديد، فإنَّ على أميركا أن تكون أقل التزاماً بشركائها وبالقواعد الدولية والمؤسسات فيما هي تتقدَّم للقيام بدور أكثر إفرادية واستباقية في مهاجمة التهديدات الإرهابية ومواجهة الدول المارقة التي تسعى للحصول على أسلحة الدمار الشامل. فالولايات المتحدة ستستخدم قوتها العسكرية التي لا مثيل لها في إدارة النظام الكوني. ولهذه الاستراتيجية الكبرى الجديدة سبعة عناصر فهي تبدأ بالتزام أساسي بالحفاظ على عالم أحادي القطب ليس للولايات المتحدة أي ند منافس فيه. ولا يمكن السماح لأي ائتلاف قوى لا يشمل الولايات المتحدة أن يهيمن فيه. ولقد جعل بوش في حزيران/يونيو 2002 من هذه النقطة اساساً للسياسة الأميركية الأمنية إذ قال في حفل التخريج في كلية وست بوينت العسكرية: إن أميركا تملك قوة عسكرية لا يمكن تحديها وهي تنوي أن تحافظ على ذلك ـ بحيث تجعل من سباقات التسلح المزعزعة للإستقرار في الحقب الماضية بلا معنى، وبما يحصر الخلافات بشؤون التبادل التجاري وقضايا السلم الأخرى. وبالتالي فإنَّ الولايات المتحدة لن تسعى لتحقيق الأمن من خلال الاستراتيجية الواقعية الأكثر تواضعاً والتي تقوم على العمل من داخل نظام كوني متوازن القوى وهي لن تسعى لتحقيق استراتيجية ليبرالية تقوم معها المؤسسات والديمقراطية والأسواق المتكاملة بالتخفيف من أهمية سياسات القوة

في شكل عام، بل إنَّ أميركا ستكون أقوى كثيراً من الدول الرئيسة الأخرى إلى حد ستختفي معه التنافسات الاستراتيجية والتنافس بين القوى العظمى، الأمر الذي سيكون لمصلحة الجميع وليس لمصلحة الولايات المتحدة فحسب[25].

ولقد سبق لهذا الهدف أن ظهر في شكل مقلق في نهاية إدارة بوش "الوالد" حينما سرَّبت وزارة الدفاع، البنتاغون، مذكّرة كتبها آنذاك بول ولفوويتز. وقال فيها إنه مع انهيار الاتحاد السوفياتي، يتعيَّن على الولايات المتحدة أن تعمل على الحؤول دون ظهور منافسين في أوروبا وآسيا، إلاَّ أنَّ التطورات التي حصلت في التسعينات جعلت من هذا الهدف الاستراتيجي غير ذي صلة. فلقد نمت الولايات المتحدة بسرعة تفوق كثيراً القوى الرئيسة الأخرى وأبطأت من تخفيض إنفاقها العسكري وزادت من الإنفاق على التطوير التكنولوجي لقواتها. ولقد بات الهدف اليوم جعل هذه المزايا دائمة ـ كناية عن أمر واقع سيدفع الدول الأخرى إلى التخلي عن محاولة اللحاق بها. ولقد وصف بعض المفكرين هذه الاستراتيجية بـ"الاختراق" الذي تقوم فيه الولايات المتحدة بالتحرك بسرعة كبيرة لتحقيق أفضليات تكنولوجية (في الأتمتة واللايزر والأقمار الصناعية، والذخائر فائقة الدقة في الإصابة... الخ) بحيث لا يعود من الممكن لأي دولة أو إئتلاف من الدول، تحديها، سواء في زعامتها الكونية أو في دورها الحمائي أو المنقذ. إلى ذلك فهناك عنصر آخر يتمثَّل في تحليل جديد ودرامي للتهديدات الكونية وكيفية مهاجمتها. فالحقيقة الجديدة المروّعة تتمثل في أنه بات في وسع مجموعات صغيرة من الإرهابيين ـ وربما بمساعدة دول خارجة على القانون ـ أن تحصل قريباً على أسلحة دمار شامل نووية أو كيميائية أو بيولوجية. ولا يمكن، بحسب الإدارة الأميركية استرضاء هذه المجموعات أو ردعها، فلا بد من استئصالها. أما العنصر الثالث من عناصر هذه الاستراتيجية الجديدة فيقوم على أن مفهوم الردع العائد إلى حقبة الحرب

---

(25) ج. جون إكنبري، طموح أميركا الإمبريالي، "شؤون الأوسط"، العدد 110، ربيع 2003، ترجمة غسان رملاوي نقلاً عن فصلية Forign Affairs sep. oct. 2002 vol 81- No5.)

الباردة قد عفا عليه الزمن. وبما أن الردع يعمل جنباً إلى جنب مع السيادة وتوازن القوى، فمع نهاية الردع تأخذ العناصر الأخرى للبناء الواقعي بالتداعي. إذ لم يعد التهديد اليوم قادماً من قوى عظمى أخرى يتم التعاطي معها من خلال القدرة على رد الضربة النووية، فليس لهذه المجموعات الإرهابية عنوان محدد ولا يمكن ردعهم لأنهم إما راغبون في الموت بسبب ما يؤمنون به أو قادرون على الهرب من الضربة الانتقامية، وبالتالي فإنَّ الاستراتيجية الواقعية القديمة القائمة على بناء الصواريخ وغيرها من الأسلحة القادرة على تحمل الضربة الأولى والقيام بضربة انتقامية تعاقب المهاجم لم تعد تتضمن الأمن والخيار الوحيد الباقي هو الهجوم. ويتعيَّن ان يكون استخدام القوة، كما يحاجج أصحاب هذا الرأي، وقائياً بل وربما استباقياً ـ الهجوم على التهديدات المحتملة قبل أن تتحول إلى مشكلة كبيرة... وبنتيجة ذلك، فإنَّ العنصر الرابع من هذه الاستراتيجية الكبرى يتضمن إعادة تحديد مفهوم السيادة. فبما أنه لا يمكن ردع هذه المجموعات الإرهابية، يتعيَّن على الولايات المتحدة أن تكون مستعدة للتدخل في أي مكان وفي أي زمان لتدمير التهديد. فإذا كان الإرهابيون لا يحترمون الحدود، على الولايات المتحدة ألاَّ تحترمها بدورها. بل إنَّ البلاد التي تُؤوي الإرهابيين، سواء أكان ذلك لأنها توافقهم أو لأنها غير قادرة على تطبيق قوانينها، تتخلى عن حقها في السيادة. لقد ألمح هاس إلى ذلك في مقال له نُشر مؤخراً في "النيويوركر": "الذي ترونه في هذه الإدارة هو ظهور لمبدأ جديد أو جسم من الأفكار... حول ما يمكن أن تدعونه حدود السيادة. السيادة تستتبع التزامات معينة، ومنها عدم ذبح أبناء شعبك ولكنها تشمل أيضاً عدم دعم الإرهاب بأي طريقة[26].

فإذا فشلت دولة ما في الالتزام بذلك، فإنها تتخلى عن بعض المزايا الطبيعية التي تمنحها السيادة بما في ذلك الحق بأن تترك وشأنك في أرضك. وتكتسب الدول الأخرى، بما فيها الولايات المتحدة حق التدخل، وفي حالة

(26) إكنبري، المصدر نفسه

الإرهاب فإنَّ ذلك قد يقود أيضاً إلى الدفاع الوقائي عن النفس، وبالتالي فإنك تملك الحق في التدخل إذا كان لديك ما يجعلك تعتقد أن المسألة تكمن في متى تُهاجم وليس إذا كنت ستهاجم أم لا "[27].

والعنصر الخامس في هذه الاستراتيجية الكبرى الجديدة يتمثل في هذا التقليل العام من قيمة القواعد الدولية والمعاهدات والشركات الأمنية. وهذه النقطة مرتبطة بطبيعة التهديدات الجديدة: فإن كانت المخاطر تزداد وهامش الخطأ في الحرب على الإرهاب ينخفض، فإنَّ المعاهدات والقواعد التي تحد وتضبط استخدام القوة ليست أكثر من إلهاءات مزعجة. فالمهمة الرئيسة تتمثل في القضاء على التهديد. لكن الاستراتيجية الجديدة تنهل أيضاً من نظرة عميقة تشكك بقيمة المعاهدات الدولية أساساً. ويعود ذلك جزئياً إلى إيمان أميركي عميق بأنَّ على الولايات المتحدة ألاَّ تنغمس في عالم المؤسسات والقواعد المتعددة الطرف الفاسد والمقيَّد. وإذا كان الاعتقاد بأن سيادة الولايات المتحدة أمر مقدس سياسياً قد قاد البعض إلى تفضيل العزلة، إلاَّ أنَّ الرأي الأكثر نفوذاً ـ وخصوصاً بعد 11 أيلول/سبتمبر لا يدعو إلى انسحاب الولايات المتحدة من العالم، بل إلى العمل في هذا العالم وفق هواها. إنَّ معارضة إدارة بوش لعدد مذهل من المعاهدات والمؤسسات، من برتوكول كيوتو إلى المحكمة الجنائية الدولية، ومؤتمر البيولوجية تظهر هذا التوجه الجديد. كذلك فإنَّ الولايات المتحدة لم توقع معاهدة رسمية مع روسيا حول خفض الرؤوس النووية إلاَّ بعد إلحاح موسكو، إذ كان الرئيس بوش يفضِّل اتفاقاً (جنتلمان) حبياً.

سادساً، ترى الاستراتيجية الكبرى الجديدة أنه يتعيَّن على الولايات المتحدة أن تضطلع بدور مباشر وغير مقيد في الرد على التهديدات (. . .).

سابعاً وأخيراً فإنَّ الاستراتيجية الكبرى الجديدة تقيم وزناً أقل للاستقرار الدولي. إذ يسود في أوساط اصحاب وجهة النظر الإنفرادية رأي يمكن وصفه

---

(27) إكنبري، المصدر نفسه.

بالعاطفي يقوم على ضرورة كسر تقاليد الماضي. فسواء أكان الأمر متعلقاً بالانسحاب من معاهدة الصواريخ المضادة للصواريخ البالستية، أم الممانعة في توقيع معاهدات رسمية لنزع السلاح، فإنَّ صناع القرار في الولايات المتحدة مقتنعون بأنه على بلادهم أن تتخطى التفكير السائد للحرب الباردة. ولقد لاحظ مسؤولو الإدارة بشيء من الرضا أن انسحاب أميركا من معاهدة الصواريخ لم يؤدِّ إلى سباق تسلح كوني، ولكنه مهَّد الطريق أمام اتفاق تاريخي لتخفيض التسلح بين الولايات المتحدة وروسيا. ويرون إلى هذه الخطوة كبرهان على أن تخطي "البراديجم" القديم للعلاقات بين القوى العظمى لن يؤدي إلى هدم البيت الدولي. ففي وسع العالم أن يتحمل مقاربات أمنية جديدة في راديكاليتها. كما إنَّ في إمكانه أن يتأقلم مع الانفرادية الأميركية. بيد أنَّ الاستقرار ليس هدفاً في حدِّ ذاته. فقد تؤدي السياسة الصقورية الجديدة، نحو كوريا الشمالية على سبيل المثال، إلى زعزعة استقرار المنطقة، ولكن ربما كان ذلك هو الثمن الضروري لاقتلاع نظام شرير وخطر كنظام بيونغ يانغ.

وبحسب المفكرين النيو إمبرياليين، فإنَّ الاستراتيجيات الكبرى الأقدم "من ليبرالية وواقعية" لم تعد نافعة. ذلك أنَّ الأمن الأميركي لن يضمنه، كما يظن أصحاب الاستراتيجية الواقعية، الحفاظ على الردع والعلاقات المستقرة بين الدول العظمى، ففي عالم من التهديدات غير المتناظرة، ليس ميزان القوة العالمي هو الذي يميل كفة الحرب أو السلام. كذلك فإنه ربما كان للاستراتيجيات الليبرالية المتعلقة ببناء النظام على التجارة المفتوحة والمؤسسات الديمقراطية بعض التأثير البعيد المدى على الإرهاب. ولكنه لا يعالج التهديدات الفورية. فالعنف الكارثي المجنون بات على عتبة بيتنا ـ كما يقول الإمبرياليون الجدد ـ الأمر الذي يجعل من الجهود الرامية إلى تقوية قواعد المجتمع الدولي ومؤسساته غير ذات قيمة عملياً. فإذا تصورنا اسوأ ما يمكن تصوره والذي يقوم على " أننا لا نعرف ما لا نعرفه" ، فإنَّ كل شيء آخر يصبح ثانوياً، سواء القواعد الدولية أو تقاليد الشراكة أو معايير الديمقراطية. إنها الحرب. وهي كما

لاحظ كلاوزفيتز في عبارته الشهيرة: " الحرب هي شيء خطير جداً بحيث أن الأخطاء الناجمة عن المحبة والإنسانية هي أسوأ أنواع الأخطار"[28].

هذه هي أبرز معالم الدولة الأمنية العالمية. تلك التي توَّجها المحافظون الجدد بما عُرف بـ"عقيدة بوش". حيث سيكون العالم بأجمعه معها، رهينة قوة ضارية تتحفز لتنقضّ على فرائسها المفترضة في كل لحظة.

ذكاء توتاليتاري

مع دخول أميركا حقبة جورج دبليو بوش أخذت تتبلور الصورة الامبراطورية ذات "الطابع الرسالي التوتاليتاري". لم يعد الأمر بالنسبة للفريق الحاكم مقصوراً على التبشير بدولة عالمية بات كل شأن من شؤون العالم شأناً يخصُّها، ويتصل اتصالاً عضوياً بأمنها ومصالحها الجيو ـ استراتيجية.

في نهاية الحرب الباردة، انبرى عدد من الاستراتيجيين إلى الجزم بأنه يوجد اليوم نظام عالمي، وتقوم الولايات المتحدة في هذا النظام بدور لا ينحصر في الممثل الأكبر، بل يمتد إلى دور المدبِّر. فبعد محو الخصم السوفياتي لم تعد وحدة أوروبا تعود عليهم بأيَّة منفعة، بل العكس، فإذا طاب لهم أن ينظروها بعين الرحمة ويستحسنوا تماسكها، وتالياً قوَّتها الاقتصادية، فإنَّهم لا يستطيعون التسامح بأن تصبح قوة عظمى جديدة يتقاسمون معها السلطة العالمية[29].

بل أكثر من هذا، فقد تجاوزت الثقافة التوتاليتارية الأميركية الجديدة (بمعناها الامبراطوري الممتد فوق السيادات القومية والوطنية) الأخلاق السياسية التقليدية. وهي تصرَّفت، تنظيراً وتطبيقاً، على النحو الذي يرى إلى تبرير سياسات التمدد والنفوذ بوصفه أمراً لا طائل منه. هذا ما صرَّح به هنري كيسينجر حين قال " ما دام جيل ما بعد الحرب الباردة من القادة الوطنيين

---

(28) إكنبري، المصدر نفسه.

(29) المصدر نفسه، (ص244).

يشعر بالحرج عند التصريح بمبدأ غير اعتذاري عن مصالح قومية مستنيرة، فإنَّه سيحقِّق شللاً تراكمياً وليس ارتقاءً أخلاقياً" ومرّة أخرى سيقول فرانسيس فوكوياما (منظِّر نهاية التاريخ في بداية التسعينات) كلاماً دالاً على هذه النقطة: "إنَّ البلد الذي يجعل من حقوق الإنسان عنصراً أساسياً في سياسته الخارجية يميل إلى الوعظ الأخلاقي عديم الجدوى في أحسن الأحوال، وإلى استخدام العنف المفرط بحثاً عن أهداف أخلاقية في أسوأ الأحوال.[(30)]

سوف يؤدي هذا التصدير النظري إلى استيلاد أنساق من أساليب السيطرة لا يكون فيها للقوانين والقيم العالمية المشتركة فعالية تذكر. بل على العكس فإنَّ مثل هذه القيم ستتحول إلى أساليب مجدية للسيطرة. مثلما حدث في جملة من عمليات غزو السيادات الوطنية بذريعة إحلال السلام وحقوق الإنسان وتعميم الديمقراطية.

لقد أعجبت الايديولوجيا الأميركية منذ البداية بقصة القرصان الشهير مورغان، الذي سيمنحها فلسفة استثنائية للسيطرة على العالم. تقول هذه الفلسفة: إنَّ القرصان العادي هو الذي يُغِيرُ على السفن المسافرة، ويقتل ركابها الأبرياء وينهب حمولاتها من الأشياء والنقود. أمّا القرصان الذكي فإنَّه لا يُغِيرُ إلاَّ على سفن القراصنة الآخرين، ينتظرهم قرب مكامنهم عائدين محمَّلين بالغنائم مجهَدين من القتل والقتال ثم ينقضُّ عليهم محقِّقاً جملة أهداف:

ـ أولاً يحصل على كنوز عدَّة سفن أغار عليها القرصان العادي. لكن القرصان الذكي يحصل عليها جاهزة بضربة واحدة.

ـ لا يرتكب بالقرصنة جريمة، لأنَّه نَهَبَ الذين سبقوه إلى النهب. وعليه فإنَّ ما قام به لم يكن جريمة وإنَّما عقاب عادل.

إنَّ القرصان الذكي بهذا الأسلوب يصنع لنفسه مكانة رهيبة ومهابة استثنائية.

معنى ذلك أنَّ الولايات المتحدة لا تشغل نفسها بالسيطرة على بلدان مفردة، وإنَّما تأخذ الأقاليم بالحزمة وتبلع الموائد الامبراطورية بكلِّ ما عليها.

---

(30) Tne National Interes - 2001.

هذه الثقافة السياسية الأميركية ستجد وقائعها منذ أكثر من مئة سنة، وهي تداوم على هذه السجية إلى الآن. هناك مثل على هذا: ففي العام 1898 ورد في خطاب عضو الكونغرس عن ولاية فرجينيا ألبرت بيفردج قوله: عليكم أن تتذكَّروا اليوم ما فعله آباؤنا. علينا أن ننصب خيمة الحرية أبعد في الغرب، وأبعد في الجنوب(. . .) علينا أن نقول لأعداء التوسُّع الأميركي إنَّ الحرية تليق فقط بالشعوب التي تستطيع حكم نفسها، وأما الشعوب التي لا تستطيع، فإنَّ واجبنا المقدَّس أمام الله يدعونا لقيادتها إلى النموذج الأميركي في الحياة؛ لأنَّه نموذج الحق مع الشرف. فنحن لا نستطيع أن نتهرَّب من مسؤولية وضعتها علينا العناية الإلهية لإنقاذ الحرية والحضارة. ولذلك فإنَّ العَلَمَ الأميركي يجب أن يكون رمزاً لكلِّ الجنس البشري.

هذه الداروينية السياسية لم تغب يوماً عن المعتقد الاستراتيجي الأميركي. فقد وجدت لها محلاً في الزوايا السرية لكلِّ إدارة منذ البدايات الأولى للتأسيس، عبر عمليات الاستيطان الدموي، وحروب الإبادة الجماعية للسكان الأصليين.

كانت بداية الحلم الامبراطوري الأميركي الذي خرج ليقوم بدور " آكل الامبراطوريات" أواخر القرن التاسع عشر ـ تشتغل على البدء بالأقرب، أي: امبراطوريات إسبانيا والبرتغال ـ فتلك قوى أصابها الوهن بعدما أفسدها الذهب المنهوب من كنوز قبائل وشعوب أميركا اللاتينية، ومع ذلك فهي لا تزال مصمِّمة على ادّعاء العظمة في جنوب ووسط نصف الكرة الغربي وتحسب نفسها سيدة ممتلكات تعتبرها لها، ولها وحدها حق الاكتشاف والفتح.

كانت الإغارة على ممتلكات أسبانيا والبرتغال مهمة سهلة إلى حد كبير، ولعلَّها فتحت شهية الامبراطورية الجديدة وأكَّدت لها ـ مرة أخرى ـ صحة نظريتها في الإغارة على الامبراطوريات السابقة للحصول على كل شيء ـ ومرة واحدة ـ وليس على مراحل أو على آجال، تتغيَّر خلالها الموازين.

ومع بداية القرن العشرين كانت الولايات المتحدة منهمكة تدرس أحوال

امبراطوريات أوروبا، سواء منها المتهالكة بطول السنين، أو تلك المتماسكة وتصلّب عودُها وتعطي نفسها عمراً متجدِّداً بكلِّ الوسائل!

كان ذلك شاغل الولايات المتحدة الأميركية ـ وهي [عارفة أنَّها تخالف به وصية الجنرال "جورج واشنطن" ـ كما أنها مدركة وهي تتابع مجرى الحوادث في أوروبا ـ(بعد توحيد ألمانيا ـ وحرب السبعين ـ وسقوط دولة نابليون الثالث ـ ومشهد كوميونة باريس المؤذن بعصر من الثورات الاجتماعية) ـ أنَّ القارة القديمة مقبلة على حرب عالمية لإعادة توزيع المستعمرات وشعورها أنَّ القرصنة سانحة لها لكي تخرج إلى أعالي البحار[31].

وكان التحدي الأكبر الذي يواجه الولايات المتحدة، هو كيف يمكن إزاحة تلك الامبراطوريات القديمة والاستيلاء على ممتلكاتها بتطبيق أسلوب الكابتن "مورغان" حتى وإن كانت تجربة الحظوظ في بحار بعيدة ضد امبراطوريات ما زالت متعافية، ـ يعني أنَّ المهمة هذه المرة أصعب. فقد كانت امبراطورية كل من أسبانيا والبرتغال موجودة في حوض المياه الأميركي، كما أنَّ كلتا الامبراطوريتين نزل عليها الغروب فعلاً ـ وأمّا في حالة الامبراطوريات الأوروبية فإنَّ عملية الاستيلاء سوف تتم على الشواطئ البعيدة، والشمس هنالك بعد الظهر![32]

من ضمن مقالة له بعنوان "الامبراطورية على الطريقة الأميركية" يُفرد محمد حسنين هيكل قسماً منها يعرض فيه للصيرورة الإجمالية للنمو الامبراطوري الأميركي الأميركي. وهو سيختار لهذا الغرض كتاب ستانلي كارنوف "أميركا تتجِّه إلى العولمة" (America Goes Global). ففي هذا الكتاب يقوم كارنوف بتحليل آليات الفكر الأميركي في تلك اللحظة الامبراطورية من أواخر القرن التاسع عشر، ويعرض مجموعة ملاحظات تبيِّن السِّمات الإجمالية لحركة الدولة

---

(31) محمد حسنين هيكل، الإمبراطورية على الطريقة الأميركية، "وجهات نظر" القاهرة، العدد الخمسون، السنة الخامسة، مارس/آذار 2003.

(32) هيكل، المصدر نفسه.

الصاعدة باتجاه السيطرة الامبراطورية. وهذه الملاحظات كما وردت في مقالة هيكل هي التالية:

أنَّ الولايات المتحدة نشأت ونمت ـ بطبائع الجغرافيا والتاريخ ـ دولة متحرِّكة لا تطيق الوقوف مكانها، وتعتقد أنَّ الوقوف لا يكون إلاَّ استسلاماً لحصار أو تمهيداً لتراجع، أي أنَّ غرائزها ودوافعها تحفزّها دائماً لأن تتقدَّم وتتقدَّم ـ تنتشر وتنتشر.

وحتى تلك اللحظة من الزمن ـ أواخر القرن التاسع عشر ـ كان التقدُّم والتوسُّع يجري على أساس ملء المساحة من خط الماء (الأطلسي) ـ إلى خط الماء (الباسيفيكي)، وقد قبلت الولايات المتحدة ضريبة الحرب الأهلية لهذا السبب وحده ـ وهو ملء المساحة من الماء إلى الماء بدولة واحدة قوية.

عملية الوصول من الماء إلى الماء تمَّت بسلاح النار في معظم الأحيان، وبسلاح الذهب في بعضها، لأنَّ عدداً من الولايات مثل لويزيانا وآلاسكا جرى شراؤها بالذهب (وكان استعمال الذهب في شراء الولايات أكثر عدلاً من استعمال قطع الزجاج الملوَّن ـ ملء قدح من الخرز ـ وهو بالضبط ما دفعه مهاجرون هولنديون في صفقة شراء جزيرة "مانهاتن" ـ قلب نيويورك).

فور انتهاء الحرب الأهلية فإنَّ الولايات المتحدة مضت تتطلَّع عبر الماء على الناحيتين إلى آسيا وأوروبا، وتشعر بهدير محرِّكاتها الداخلية توجهها إلى الشواطئ البعيدة، بادّعاء "مهمة مقدَّسة" و"قدر محتوم" يكلِّفها بملء كل فراغ على الأرض، وتغطية أي غياب للبشر ـ والأميركيين بخاصة ـ عن موارد الثروة والغنى.

ثم يورد هيكل حادثة أوردها كارنوف في سياق قراءته تلك الحقبة من القرن التاسع عشر، وهي تكشف مدى استغراق الفكر السياسي الأميركي بأحلام التوسُّع، وشغفه بالقوة، وبالقدرة الحتمية على تحقيقها. وبدا واضحاً من تضمينات هيكل في تعليقه على حكايات صاحب الكتاب المشار إليه أن الميتافيزيقا السياسية التي سنشهد عليها في القرن العشرين وبداية القرن الحادي

والعشرين هي التي تحكم الجذر الفكري والايديولوجي للسلوك الاستراتيجي الأميركي في تحقيق الامبراطورية مترامية الأطراف. تقول الحكاية:

كان الرئيس "ويليام ماكينلي" الذي بدأت أثناء رئاسته أولى محاولات التوسُّع والانتشار الامبراطوري الأميركي ـ شخصية غريبة، (ومن المدهش أنَّها تحمل وجوه شبه مع الرئيس الأميركي الحالي "جورج بوش" ـ فقد كان رجل أعمال وسياسياً لا يملك التجربة الناضجة ولا الخلفية الثقافية التي يعتمد عليها في سياسته وقراره، ولهذا كان جلّ اعتماده على مساعديه وعلى جماعات الضغط من أصحاب المصالح، وقد رُويت عنه ـ فيما يحكيه "ستانلي كارنوف ـ في كتابه عن الامبراطورية الأميركية (في آسيا) ـ نكتة شاعت تقول:

"سؤال ـ كيف يتشابه عقل الرئيس "ماكينلي" مع سريره"؟

وردّ السؤال:

"كلاهما لا بد أن يرتِّبه له أحد قبل أن يستعمله!".

ثم يُورد "ستانلي كارنوف" في كتابه مشاهد تبدو ـ كما يعلِّق هيكل ـ وكأنَّها تجري (سنة 2003) في البيت الأبيض ـ وكلاماً يصح أن يقوله الساكن يومذاك لهذا البيت الأبيض (الذي كانت تتولّى مستشارته للأمن القومي السيدة "كونداليزا رايس" مهمة ترتيب عقله كل يوم قبل أن يستعمله، تاركة ترتيب سريره لغيرها!).

ويكتب "كارنوف":

" كانت المناقشات في أميركا محتدمة حول ما ينبغي عمله مع البلدان التي احتلتها الأساطيل الأميركية في الباسيفيك، وكانت فكرة "الامبراطورية" تجربة مستجدة على الولايات المتحدة، وكان على الرئيس "ماكينلي" أن يفصل في الأمر بقرار".

وفي أيلول/سبتمبر 1898 استقبل الرئيس وفداً من قساوسة جمعية الكنائس التبشيرية، الذين فوجئوا به بعد أن انتهت جلسته معه يقول لهم:

" عودوا إلى مقاعدكم أيها السادة لأنِّي أريد أن اقصّ عليكم نبأ وحي سماوي ألهمني (Inspiration of divine guidance).

أريد أن أقول لكم إنني منذ أيام لم أنم الليل بسبب التفكير فيما عسى أن نصنعه بتلك الجزر البعيدة (يقصد الفليبين بالذات) ـ ولم تكن لديَّ أدنى فكرة عمّا يصح عمله، ورُحت أذرع غرفة نومي ذهاباً وجيئة أدعو الله أن يلهمني الصواب، ثم وجدت اليقين يحلُّ في قلبي والضوء يسطع على طريقي.

إنَّ هذه الجزر جاءتنا من السماء، فنحن لم نطلبها ولكنَّها وصلت إلى أيدينا منَّة من خالقنا ولا يصحّ أن نردّها، وحتى إذا حاولنا ردَّها فلن نعرف لمن؟ ـ ولا كيف؟[33]

هذا النحو القَدَري من الاعتقاد السياسي للأميركيين الأوائل، لم يكن حالة عارضة في الثقافة المؤسِّسة للولايات المتحدة. كانت القَدَرية في أساس النشأة. حيث اعتقد المهاجرون إلى الأرض المكتشفة في ما وراء البحار أنَّهم آتون إلى أرض الوعد الإلهي ليقيموا عليها دولتهم الفاضلة. أمّا السؤال عن الحجَّة التي حملت الرئيس ماكينلي على القول إنَّ جزر الفليبين البعيدة هبطت عليه من السماء، فإنَّما يجد جوابه في عقيدة الاستيطان نفسها. وهي عقيدة توراتية خالصة تفصح عنها مكنونات العهد القديم والتأويلات التي أسقطها عليه فقهاء المستعمرين الجدد.

في احقاب متأخرة من القرن العشرين، وبدايات القرن الحاضر، سوف تبلغ ايديولوجية الحرب في الاطروحة الأميركية مبلغها الاقصى[34]. ثم اننا لنجد بالمعاينة التفصيلية كيف ستهبط الميتافيزيقا من عليائها، لتمارس ما لا حصر له من صنوف الغَلَبة على عوالم الأرض المختلفة. حتى اذا أَزِفَت الالفية الثالثة استحالت الارض العربية والاسلامية الواسعة ولما تزل، حقولاً خصيبة لنهاية التاريخ وبداية الجغرافيا..

---

(33) هيكل، المصدر نفسه.

(34) محمود حيدر، الدولة المستباحة، من نهاية التاريخ الى بداية الجغرافيا، شركة رياض الريس للكتب والنشر، بيروت الطبعة الاولى 2004، راجع المقدمة.

الفصل السادس

فلسفة الفوضى

التمرينات الاخيرة للمحافظين الجدد

نسعى في هذا الفصل إلى الإضاءة على التحولات التي شهدتها الاستراتيجية الأميركية العليا مع وصول المحافظين الجدد إلى السلطة مطلع القرن الجاري. ولسوف يتم التركيز على الحلقة الأكثر مدعاة للسجال في هذه الاستراتيجية، وهي تلك التي شاع الكلام عليها بما سُمِّي بـ"نظرية الفوضى الخلاَّقة".

المعروف عن هذه النظرية أنها وجدت ديناميّاتها الفعلية بعد زلزال الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001. وهي تقوم على فلسفة سياسية تفترض وجود خطر داهم من عدو مجهول يتهدد الأمن القومي الأميركي في كل لحظة. كما تقوم على افتراض ألاَّ يكون التهديد بالضرورة، حاصلاً بالفعل من دولة أو من منظمة إرهابية لكي تخاض ضده الحرب الوقائية، وإنما يكفي أن يتم تصوُّره من جانب مراكز التخطيط الاستراتيجي في البيت الأبيض والبنتاغون للمبادرة إلى تلك الحرب.

ولكي تأخذ هذه الاستراتيجية مسارها التطبيقي، عكف كثيرون من منظِّري ومفكِّري المحافظين الجدد على وضع فلسفة متكاملة لتبرير الحروب. ولعلَّ نظرية "الفوضى الخلاَّقة" التي شكَّلت إحدى أهم وأبرز منجزات هؤلاء، إنما تعني في حقيقتها السعي الاستباقي نحو تفكيك كل المواقع والجغرافيات المفترض أنها تشكِّل مصادر تهديد لأمن ومصالح أميركا في العالم.

ولئن كانت نظرية الفوضى الخلاَّقة تتأسس نظرياً على ثنائية التفكيك والتركيب، فذلك يعني أن الفكر الاستراتيجي الأميركي بصيغته الراهنة لم يعد

لديه اليقين إلاَّ بعالم تكون الفوضى فيه سبيلاً لإعادة تشكيله وفق مهمة أميركا في بناء العالم الجديد.

كيف ظهرت هذه النظرية في سياق التحقيق التاريخي لنظريات الهيمنة داخل الفضاء الاجمالي للفلسفة السياسية والأمنية لأميركا؟

أصلان للفوضى: ديني وفلسفي

ماذا لو استعدنا ما قاله مرة الروائي الأميركي هرمان ملفيل ونحن بصدد الكلام على نظرية "الفوضى الخلاقة"؟

سوف يكون لنا مما قال، المَثَلَ الذي يدفع الدراما الأميركية إلى حدودها القصوى، ويجعل من "بارانويا" الاستعلاء وتقديس الدماء أدنى إلى ميتافيزيقا سياسية تلتهم تاريخ العالم بحروبها المفتوحة.

يقول ملفيل: "لا نستطيع إراقة قطرة واحدة من الدم الأميركي، من دون أن يراق دمُ العالم كله. دمُنا نحن أشبه بطوفان الأمازون. إنه مؤلف من مئات التيارات النبيلة المترافدة في مجرى واحد.. نحن لسنا أمة، بمقدار ما نحن عالم. فما لم نكن قادرين على أن نزعم أن العالم كله هو لأبينا وسيدنا، مثل مُلك إبراهيم، يبقى نَسَبُنا ضائعاً في الأبوة الكونية الشاملة"...

على هذه الروح تتكئ الايديولوجيا الأميركية عبر الزمن. وعليها ستخاض حروب التدخلات في العالم.. من ضم فلوريدا العام 1819، مروراً بحرب الباسيفيكي التي انتهت بكارثة القصف الذري على هيروشيما وناكازاكي العام 1945، وصولاً إلى احتلال العراق، وتعميم فوضى لا قرار لها مع بداية القرن الحادي والعشرين.

نسعى هنا إلى تناول نظرية "الفوضى الخلاقة" على قاعدة ما تستمده من اللّاهوت الديني ذي المصادر الإنجيلية ـ التوراتية المشتركة. وكذلك مما تمنحه لها الفلسفة السياسية للحداثة وما بعدها، من تسديد وتبرير.

ترتبط نظرية "الفوضى البناءة" من وجه أساسي بفرضية تقوم على استحالة السلام في الوضع العالمي الجديد. فلئن كانت ثنائية القطبية قد حكمت النـزاعات الدولية بنوع من السلام السلبي، المحكوم بدوره بما يسمى بـ "توازن الخوف أو الرعب"، فسيكون من شأن الأحادية جعل هذا "السلام السلبي" أمراً شبه مستحيل. كان واضحاً أن الولايات المتحدة لم تكن تشعر بالرضى وهي تتولى مهمتها العالمية. فالنصر الذي تحقّق لها باضمحلال العدو الشيوعي السوفياتي، سيلقي بها في مواجهة مع ذات قلقة وعدو مجهول.

سوف يبيّن "ريتشارد رورتي"، الفيلسوف الأميركي المعاصر، في زحام السجال حول المهمة الأميركية، أن "فن تكوين الحقائق أهم من امتلاك الحقائق"... لكن سيأتي من يأخذ بمقالة رورتي أخذ اليقين، ليجعل من الفوضى المبثوثة في عوالم ما بعد الحرب الباردة، فناً لتكوين الحقائق، والسياسات، وأنظمة القيم.

هذه الأطروحة الفلسفية ستمضي بيُسر إلى حقول التوظيف السياسي. إذ على الولايات المتحدة حتى تستأنف الحفر في مسار الزمن الجديد أن تتصرف كما لو أنها تبدأ من نقطة الصفر. فلم تعد المهمة بعد خرافة "نهاية التاريخ" مركوزة في امتلاك الحقائق عن العالم. فالتاريخ العالمي كله، بحسب العقيدة الأميركية، صار طيّ الأرشيف الإجمالي لمؤسسة الأمن القومي. وغدا من واجب المكلّفين الجدد، صناعة تاريخ آخر للعالم، بعدما بلغت أميركا ذروة ادعاء امتلاك الحقيقة والقدرة على تشكيل حقائقها.

إن هذا التشريع الفلسفي ما فتئ حتى أخذ سبيله إلى حقول التطبيق، ثم امتدّ بوتائر غير مسبوقة إلى فضاءات جيو ـ استراتيجية بعيدة المدى، غير أن الولايات المتحدة وهي تمارس عملية السيطرة على بؤر الممانعة في العالم، ستأخذ بما رأت إليه على أنه "الصراط السويّ" لإنجاز أهدافها. الأمر الذي أدى بالمبدأ التقليدي المعروف "الحرب من أجل السلام" إلى "الحرب من

أجل الحرب". بدت هذه النتيجة مخالفة لأبسط قواعد وبديهيات الغاية من الحروب. لقد كان الحال في ما مضى يقوم على حقيقة، أنه لبلوغ السلام، يجب السيطرة على مسارات الحرب. وكان هذا يتطلب جهداً محسوباً، وعلى الأخص لجهة معرفة المحركات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، التي تدفع لنشوب الحرب. ولم يسبق أن تمَّ الفصل بين الحرب والسلام. ذلك أن جميع الحروب تهدف بالمبدأ إلى بلوغ السلام، حتى لو راح البعض في النهاية يدعوه نصراً والبعض الآخر يخلع عليه صفة الهزيمة. إن هذا، هو الفهم البدئي الذي دعا القديس أوغسطينوس ليقول: "إن السلام أهم من الحرب، لأننا لا نصنع السلام لنصل إلى الحرب، وإنما نصنع الحرب لنصل إلى السلام". وهذا يعني أن الحرب محكومة بمفهوم السلام، وهو الذي يضع حداً لها. لقد كانت القاعدة على هذا النحو في الماضي، إلا أنها أوشكت اليوم أن تتغير تحت أبصارنا ـ كما يقول المفكر الفرنسي آلان جوكس ـ بمعنى آخر بات لدينا انطباع بأن الناس يقومون بالحرب من أجل الحرب، وأنهم يوقدون نارها ليس من أجل الوصول إلى السلام، بل من أجل الوصول إلى هيمنة قمعية ثابتة[1].

لم ينأ الفكر الاستراتيجي الأميركي عن النظر إلى الحرب كغاية بذاتها. فالأصالة بالنسبة إلى هذا الفكر هي للحرب، وأما السلام، فهو أمر عارض، وحضوره في العلاقات الأممية إنما هو بقدر ما يقترب من كونه عاملاً مكمّلاً لمصالح الأمة الأميركية العليا. ولكي ينشئ حجته الفلسفية على وجوبية الحرب كمدخل يدعوه إلى "العوالم الفضلى"، وحّد الفكر الأميركي بين أميركا والعالم، بحيث صيغت المعادلة على نحو ما وضعه الباحثان البريطانيان

(1) آلان جوكس، من حوار أجرته معه مجلة "مدارات غربية" العدد الاول التجريبي، بيروت، أيار/ مايو 2004.

ضياء الدين سارادار وميريل وين ديفيس: "أميركا هي العالم، والعالم هو أميركا". وغالباً ما يستعيد زعماء البيت الأبيض صدى الكلمات المأثورة التي أطلقها القطب الإعلامي الشهير هنري لوس في شباط/ فبراير 1931، أي قبل عشر سنوات من دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية: "إن الأميركيين فشلوا طوال العقود الأربعة الأولى من القرن العشرين في التنبّه إلى مدى سيطرة بلدهم على مصير العالم، وهذا ما جعل المسار التاريخي للبشرية يأخذ منعطفاً بائساً"...

تجري هذه الكلمات مجرى السياق الايديولوجي نفسه، الذي تراكم على مدى قرون في الوعي الأميركي. فإذا كانت ايديولوجيا الفتوحات الأوروبية الاستعمارية في القرن التاسع عشر، تحرص على توصيل "رسالة الرجل الأبيض"، فإن العنوان الذي سيرفعه اليمين الأميركي الجديد الآن هو تعميم المثال الأميركي. وذلك تعبيراً عن إيمان راسخ هو بمثابة "القدر البيّن للشعب الأميركي" الذي يعني أن أميركا قبل أن تكون دولة أو قوة عظمى، هي فكرة رسالة عظيمة وحلم جميل حافل بالوعود.

استعادة اللّاهوت السياسي

على خلاف ما يظنّه البعض من أن البراغماتية التي أخذت بها الولايات المتحدة كفلسفة سياسية، قد حدَّت من ماضويتها وقطعت صلتها بـ"لاهوت التأسيس"، فقد أفضت التجربة الأميركية، مع نفسها ومع العالم على امتداد أجيال، شغفاً زائداً بالذاكرة. وفي كل لحظة تمارس أميركا فيها سياساتها، سنلاحظ جمعاً لافتاً بين الماضي والحاضر، وبين الموروث الديني المركب من عهدَيْ الكتاب المقدس، والخطب المأثورة للمؤسسين الأوائل. وبالتالي بين الميتافيزيقا السياسية المشحونة بجرعات هائلة عن رسالية الأمة الأميركية والبراغماتية السياسية شديدة الارتباط بتقنيات ما بعد الحداثة. وبناء على هذا

التركيب، تسعى أميركا إلى تكييف العالم مع رحلتها المدوية. وهي بهذا تبدو كأنها تملك الحظ التاريخي في عمليات التكييف ولو إلى حين. ذلك ما ذهب إليه صامويل هانتنغتون حين وصفها "بأنها مجتمع من الطراز الذي كانت تحكمه أسرة تيودور، إلا أنها قد تحرز نجاحاً في عالم يشبه عصر الملكة إليزابيت الأولى بصورة جديدة، وفيه صراعات شبه دينية، ودولة قبلية، ومغامرون في التجارة، وأساطيل حربية، وقتلة".

على هذا التوصيف تبدو أميركا كمرآة مكتظة بالمفارقات. لا منطق للعالم من دونها، أو من دون أن يكون له بها صلة الربط، والاشتراط، والإصغاء. يريد لاهوتها السياسي أن يمنحها مطلق الشرعية وهي تمضي إلى تكوين العالم الجديد على صورتها. كأن تكون على حقّ في أن تجمع المتفرِّق، وتفرِّق المجتمِعَ، ثم لتستأنف الجمعَ والفِرقَةَ حيثما شاءت لها عقيدة القضاء والقدر. فسنرى طبقاً لرؤاها التأسيسية أن الفلسفة السياسية الأميركية لم تفصل بين الديني والقومي، ولا بين أميركا وباقي العالم. كل شيء بالنسبة إلى فلسفة كهذه، أن كل العناصر المكوّنة للأمة ينبغي لها أن تتعيّن داخل الأوعية المتصلة المرصودة للاستثناء الأميركي. وحين تبلغ الايديولوجيا الأميركية أقصاها، سنلاحظ كيف تتحول عمليات التوظيف السياسي في مجالات نفوذها اللامتناهية إلى نشوء ما يسمى "الدين الجديد"، حيث يمتزج اللّاهوتي بالقومي وكلاهما بالسياسي والأمني، من أجل بقاء وغلبة الأمة المبعوثة لاستنقاذ العالم.

ولو عدنا إلى ايديولوجيا مرحلة التأسيس نجد أن أطروحة عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر في كتابه الشهير "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية" تشكل واحدة من أهم مرجعيات اللّاهوت السياسي الأميركي. في هذه الأطروحة، يسعى فيبر لإثبات أخلاق خاصة بالبروتستانتية الزهدية، حيث كان ذلك عنده ضرورياً لأجل تأمين قدرة الرأسمالية الغربية على النمو. ثم يكملها في كتابه اللاحق "الخلق الاقتصادي في الأديان العالمية"، ليبحث في الكيفيات

التي شكلت خلالها أديان عالمية كالكونفوشيوسية، والطاوية، والهندوسية، والبوذية حواجز أمام ظهور رأسمالية عقلانية شبيهة برأسمالية الغرب، ثم ليستنتج كيف أن اليهودية القديمة كانت، على العكس من ذلك، نقطة انطلاق عملية العقلنة التي ستبلغ ذروتها في الرأسمالية الحديثة. . . بهذا المعنى، يُعزى تشكّل أطروحة ماكس فيبر حول ضرورة تكوّن روح للرأسمالية، إلى الأخلاق الكالفينية (نسبة إلى اللّاهوتي البروتستانتي جون كالڤن). عندما تحدّثت الكالفينية عن حضورية اللّاهوت في ولادة الرأسمالية، لاحظت أن هذه الولادة تيسّرت في القرن السادس عشر، بفضل تراكم أولي مسبق، اقتضى شحنات بيّنة من العنف المرعب. وشرح ذلك أن الكائنات البشرية التي تتحرك، انطلاقاً من مصالحها، يمكنها أن تقترف أعمالاً عنيفة في منتهى القسوة ضد نظرائها. والتاريخ يذكّرنا بذلك باستمرار كما يقول المفكر الأميركي من أصل أرجنتيني روبن دري، ولكن البشر لا يمكنهم الاعتراف أمام أنفسهم بأن ما يفعلونه غير إنساني، وغير عادل، ويشكل انتهاكاً للحقوق الأساسية للأشخاص الآخرين، بل إنهم يحتاجون إلى تسويغ ذلك، وإضفاء الشرعية عليه أمام أنفسهم أيضاً. غير أن العنف الإجرامي الذي اقتضاه تراكم الرساميل، والذي كان شرطاً مسبقاً لولادة الرأسمالية، ما كان من الممكن له أن يُمارَس إلا من قبل أشخاص تسكنهم قناعة عميقة بأن ما يقومون به هو واحد من المهمات الأكثر أهمية وتعالياً في التاريخ[2].

ولأن أحداً لا يمكنه سواء كان فرداً أم جماعة أم دولة أمة، أن يتحمّل لفترة طويلة ارتكاب أفعال إجرامية، كالمجازر الجماعية من دون مسوّغات قوية وعميقة، فقد امتلأ اللّاهوت السياسي الأميركي بمخزون هائل من المسوّغات. كان الدين حاضراً على الدوام للوفاء المطلوب. كان مستعداً ليقول للرأسمالي

(2) روبن دري، لاهوت الغلبة، الجذر الديني الفلسفي لليبرالية الجديدة، راجع "مدارات غربية" العدد الثالث، أيلول/سبتمبر _ تشرين الأول/أوكتوبر 2004 المقال فصل من كتاب صدر في بونس آيرس العام 1994، تعريب د. جاد مقدسي.

بأنه "مقدّر لك"، أو بأنك مرصود لاستكمال عملية الخلق التي تركها الخالق من دون أن ينجزها بشكل كامل. وعلى ذلك، أصبح التوسع في بناء المصانع، والتوفير، والاستثمار العقلاني والمنهجي، وكذلك إخضاع الأشخاص الآخرين، بمن فيهم النساء والأطفال للعمل المنهِك، إكمالاً لعملية الخلق التي بدأها الخالق نفسه، وتمجيداً لله، وتحقيقاً للغاية التي من أجلها خلق الله العالم والإنسان. وعلى ما يتكئ عليه اللّاهوت السياسي الأميركي، مما منحته له البروتستانتية بأطوارها واجتهاداتها المختلفة، يسود اليقين بأن الله كان حاضراً في ولادة الرأسمالية ومهتماً بشكل حيوي، بهذه الولادة.

القضاء والقدر.. أيضاً وأيضاً

كان جون لوك المنظّر المعروف لثورة 1688 يعرف سرّ الكالفينية المُسيَّسة جيداً، ويعلنه بكل ما أوتي من وضوح: "إن الله الذي أعطى الأرض شراكة للبشر، أعطاهم العقل أيضاً لاستخدامها بالشكل الذي يقدم لهم أكبر الفوائد في الحياة، ويتلاءم بالشكل الأفضل مع مصلحة الجميع. فلقد لعب لاهوت القضاء والقدر الكالفيني، وفقاً لمقولات ماكس فيبر، دوراً مهماً في ولادة الرأسمالية، بحيث يقرّر هذا اللاّهوت أن الخلاص يكون مقدّراً للبعض، والعقوبة للبعض الآخر، وذلك بفعل القضاء الإلهي الأبدي، وأن أحداً لا يمكنه تغيير هذا القضاء. ولأن هذا الاعتقاد يصعب تحمّله بالنسبة إلى شخص جدي في إيمانه، ابتدع اللّاهوت الكالفيني سبيلاً للالتفاف على هذه الصعوبة. فقد اعترف بأن القضاء لا يمكن تغييره، إلا أن كل شخص يمكنه أن يرى علامات تدلّه على ما هو مقدّر له من الخلاص أو العقاب. فإذا كان هذا الشخص يمتلك رأسمالاً فيوظفه بطريقة عقلانية ومنهاجية، ثم يأتيه النجاح، فإن هذا النجاح يكون علامة دالّة على الخلاص"[3].

(3) راجع روبن دري، المصدر نفسه.

وسيظهر من فلاسفة ومفكري الليبرالية الجديدة من ذهب إلى "أدلجة" هذا "اللّاهوت القدري" وتقديمه كسلاح للاستخدام. من هؤلاء دانييل بيل الذي لفت إلى "ضرورة وجود علاقة متعالية، تربط بين الأفراد بما فيه الكفاية، ليصبحوا قادرين، في حال الضرورة على تقديم التضحيات الضرورية بأنانيتهم". تلك "العلاقة المتعالية"، أي الدينية، يجب أن تحتل الموقع المخصّص للعقلانية، وهي التي ستعطي الشعوب معنى التضحيات التي ستطلبها منهم الليبرالية الجديدة.

أما إيفرينغ كريستول فيُظهر شغفاً غير مسبوق لدى الحديث عن موقع الدين في النضال خلال المرحلة الليبرالية الجديدة. فهو يرى في الدين "اليهودي/ المسيحي" الذي أخرجته البروتستانتية الزهدية، كمصدرٍ مُلهِمٍ لـ "الرأسمالية الليبرالية" بالذات، ويبدي أسفه لأن الكنائس تحوّلت إلى ما يشبه المؤسسات الخاصة والطوعية اليوم، ما أفقدها الدعم العام وجعلها عاجزة عن مواجهة خصومها.

ولكن جمعاً من المنظّرين الليبراليين الأميركيين، يمضي إلى أبعد من ذلك بكثير، فيرفع حضورية الدين في مسيرة الرأسمالية الليبرالية الجديدة، إلى مقام المقدس. هذا ما رمى إليه مايكل نوفال، حيث يصوغ لاهوتاً حقيقياً للرأسمالية الديمقراطية فيشبّهه بالثالوث المقدس: ثلاثة نظم في نظام واحد: اقتصاد تسيطر عليه السوق، وتنظيم سياسي يحترم الحقوق الفردية في الحياة، والحرية في السعي نحو السعادة.. علاوة على مجموعة من المؤسسات الثقافية التي تحركها شعارات مثل الحرية والعدالة للجميع[4].

ولو رجعنا في هذا الصدد، إلى جون لوك، لكان لنا منه ما يضيف حجة فقهية جديدة لتغطية عبثيّات الليبرالية الأميركية الجديدة. فهو يرى "أن الملكية

---

(4) روبن دري، مصدر سبقت الإشارة إليه.

الخاصة مصدرها الله، لأنه خلق العالم للجميع، ولكنه أعطى لكل إنسان العقل وقوة العضلات لكي يحصل عن طريق العمل، على القسم الذي يريده لنفسه. فالله وعقل الإنسان، يأمرانه بتملّك الأرض، أي بوضعها في حالة تكون فيها مفيدة للحياة، عبر إضافة شيء من ذاته إليها. وهذا الشيء هو العمل". وتبعاً لهذه الحجة، سيكون من الضروري للإنسان، من أجل تملّك الأرض، أن يبعد عنها أولئك الذين يعارضونه، أي الفلاحين. وهذا الاعتقاد مبرّر تماماً، بحسب الفلسفة النيوليبرالية، ذلك لأنه يترجم إرادة الله، خالق العالم. وهكذا يغدو العنف، الناشئ في المناطق التي شكلت المجال الجغرافي الذي ستظهر فيه الرأسمالية، مبرراً من وجهة النظر الدينية اللّاهوتية. وإلى ذلك، فإن النهب الواسع النطاق لأميركا وآسيا وإفريقيا، صار ضرورياً أيضاً من أجل ولادة الرأسمالية. وبسبب من هذا، سيتبيّن لنا كيف يتم إضفاء الشرعية على الفظاعات التي اقتضتها أعمال النهب. وعلى المجازر التي ذهب ضحيتها خمسون مليوناً من السكان المحليين خلال فترة لا تزيد عن خمسين عاماً، وبالتالي سيظهر لنا كيف يتمّ تشكيل الذات القادرة على اجتراح مثل هذه البطولات؟

هكذا كان الدين ضرورياً من أجل إنجاز المقدمات اللّاهوتية المؤسسة للفوضى الخلاقة. يذهب ناقدو الليبرالية الجديدة، إلى بيان واقعة تاريخية شديدة الوطأة والأهمية حيث تتكشّف كيفية توظيف المقدس الديني في التأسيس ذي الطابع العنفي التدميري لأميركا. والواقعة، كما أوردها مفكرون أميركيون، تشير إلى أن بابا الفاتيكان و"باسم سلطة الله العظيم التي أعطيت له بوصفه "وريثاً لبطرس، وخليفة "ليسوع المسيح"، قد أعطى أراضي أميركا لملوك إسبانيا ليحقّقوا فوقها "مجد الإيمان الكاثوليكي"، وليبحثوا فيها عن خلاص النفوس، وليسعوا إلى سحق الأمم الوثنية، وإجبارها على اعتناق المسيحية"[5].

(5) راجع روبن دري، المصدر نفسه.

ليست أطروحة "أميركا هي العالم، العالم هو أميركا"، التي أخذ بها كل رؤساء الولايات المتحدة، منذ التأسيس إلى اليوم وبأشكال مختلفة، مجرد وسيلة ايديولوجية جزئية. ولو رأينا إلى عمق الأطروحة في الفكر الاستراتيجي الأميركي، لوجدنا أنها هي الايديولوجيا الاختزالية نفسها في حدّها الأعلى. ذلك أن عالمية أميركا هي قضية لاهوتية عقائدية من قبل أن تكون شأناً متعلقاً بالحاجة إلى التمدد الجيو ـ استراتيجي. ذلك أن سلام أميركا هو سلام العالم كله، وحربها هو حرب العالم كله. وبهذا المعنى لا تنهض أطروحة الفوضى في اللاشعور السياسي الأميركي إلاّ على إزالة الاختلاف بين أميركا والعالم. ثم على إعادة تشكيل هذا العالم على صورتها.

والبادي من العلاقة التواصلية بين لحظة التأسيس والأزمنة المتعاقبة، أن شعور أميركا بنفسها اليوم، هو نفسه شعورها يوم وضع مؤسّسوها الأوائل مهمتها العظمى قبل نحو خمسة قرون. أي أنها أمة مبعوثة للبشرية. وإلى ذلك يظهر في شريط المشاهدة الطويل، كأن أميركا أمة لا تزال في طور التأسيس، من إبراهام لينكولن إلى جورج دبليو بوش. الكلمات التي ترسلها إلى العالم هي هي. وخطاب استعظام الذات هو نفسه. وثمة ما يشبه اليقين لدى الذين يتابعون المسار التاريخي للسلوك الأميركي السياسي والدبلوماسي أن كل الذين "اعتمروا" البيت الأبيض من الجمهوريين والديمقراطيين، لم يفارقوا تلك اللغة التي لا ترى إلى العالمين إلا بوصفهم أغياراً لا سبيل لهم إلى نعمة الخلاص.

لقد عُدّ ما يسمى بـ "المثالية الجديدة" التي برزت في أميركا مع نهاية الثنائية القطبية، كوريث شرعي للبروتستانتية على أكثر من مستوى. فهي وليدة مسارين: أحدهما أوروبي قديم، والآخر أميركي أكثر قرباً ومعاصرة. تعبّر هذه المثالية الليبرالية ذات الأصل البروتستانتي عن مبدأ تقليدي يقضي بأن ينال الناس حقوقهم على مستوى العلاقات الدولية، وذلك تحت تأثير تيارات فلسفية

نظّرت لـ "لاهوت الحرب"، كما دعت إلى ضرورة خضوع النظام الدولي للضوابط لكي يصبح أكثر ثباتاً[6].

لكن "لاهوت الحرب" الذي سيؤول إلى تبرير نظرية الفوضى في السياسة الخارجية، يقوم على اعتقاد راسخ في الوجدان الأميركي العام مؤداه، كما يقول الكاتب والفيلسوف الأميركي إمرسون (1802 ـ 1882)، أن أميركا هي "أكبر هبة من الله إلى هذا العالم". وهو ما يفصح عن عقدة التفوّق والغلبة التي تشعر بها الولايات المتحدة تجاه الأمم الأخرى. وهي عندما تعود إلى الكتاب المقدس لتأكيد مهمتها الخلاصية للبشرية، فإنما تريد أن توحي للعالم بأن كل ما تفعله به، إنما هو بلوغ "البشارة" أو "الخبر السار" الذي يكفل للدول والمجتمعات أمنها وسعادتها.

على هذه الروحية ترتكز الممارسة الايديولوجية الأميركية. وهي روحية رسولية مدّعاة يمتزج فيها السياسي بالديني من دون تفاوت، بينما لا تزال مستمرة منذ عهد الاستيطان.

الكارثة المقدسة

على مدى أكثر من أربعة قرون، ظلت "فكرة أميركا" تخطف روح الدين وتطوّعه لأهدافها الامبراطورية الثلاثة التي استعارتها من فكرة إسرائيل التاريخية وهي:

- اجتياح أرض الغير.
- استبدال سكانها بسكان غرباء، أو حمل من يعصي منهم على الموت.
- استبدال ثقافتها، وتاريخها، بثقافة المحتلين الغرباء وتاريخهم[7].

---

(6) آريال كولونوموس، ماذا لو أصبح العالم بروتستانتياً؟ ترجمة جورجيت حداد، "مدارات غربية" العدد الأول أيار/ مايو (2004).

(7) منير العكش، تلمود العم سام، الاساطير العبرية التي تأسست عليها أميركا، رياض الريس للكتب والنشر، 2004، ص 11.

هذه الأهداف الثلاثة كانت نتيجة للمكوّن الايديولوجي الديني الذي تعكسه الروح الرسالية المدّعاة، والتي تقول بأحقية إشراف أميركا على صوغ العالم طبقاً لمشيئتها. وهي الروح الرسالية نفسها التي غالباً ما تتمظهر في التاريخ من خلال نزعتين قياميتين مترابطتين: الأولى: نزعة الشبق الامبراطوري لإعادة صياغة العالم، باعتباره "قدر أميركا المتجلّي" (Manifest Destiny) الذي رسمته العناية الإلهية ورعته.

الثانية: النزوع إلى فكرة إسرائيل كمقدمة لنزول القدس السماوية. ولطالما كان الحلم الامبراطوري ولا يزال، يلهب حماسة المؤمنين بفكرة إسرائيل الذين يعتبرون أنفسهم أجدر الشعوب بالإمبريالية، والذين لم يعشقوا شيئاً في هذا العالم أكثر من التنبؤ بالدمار الماحق لممالك العالم.

هنالك إذاً، محلّ متقدم من الزواج بين الدين والايديولوجيا في أميركا. وذلك على نحو يكاد يتحوّل فيه الدين إلى ايديولوجيا بحتة. إنه الزواج الذي يتم بالضبط، في اللحظة التي يتم استدعاؤه فيها ليلبي حاجة الفاعل، وتوفير شروط سيادته على ظروف الزمان والمكان. كان الكاتب والإعلامي الأميركي بل مويرز (Moyers) دقيقاً في التوصيف عندما ذهب في العام 2004 إلى القول بأنه للمرة الأولى في تاريخ الولايات المتحدة، تستأثر النزعتان الايديولوجية واللّاهوتية بحكم البلاد وتحتكران السلطة. لكنه يضيف "عندما تتزاوج هاتان النزعتان لا تكون ذريتهما دائماً سيئة، لكنها دوماً تكون عمياء" (. . .)[8]

وكان ويليام برادفورد حاكم مستعمرة بليموث، يرى أن نشر الأوبئة بين الهنود عمل يدخل السرور والبهجة إلى قلب الله. أما كوتون ماذر وهو أحد أبرز أنبياء أرض كنعان الجديدة فيقرر أن المعجزات الإلهية هي صورة عن

(8) ضمن كلمة ألقيت بعد تسلم مويرز الجائزة السنوية الرابعة لمواطن البيئة العالمي، كلية هارفرد للطب 1/ 12/ 2004، نقلاً عن www. commonondreams.com.

رغبات المستوطنين وطموحاتهم. فلطالما توحدت القدرة الإلهية مع الشعب المختار. ويضيف أنه بعد أن ظن الشياطين (الهنود) أن بُعدهم عن العالم سينقذهم من الانتقام استطاع الله أن يحدد مكانهم ويرسل قديسيه الأبطال من إنكلترا ومعهم بعض الأوبئة السماوية القاتلة التي طهّرت الأرض منهم. ذلك أن الله يفسح مكاناً لشعبه في هذه المجاهل إذ هو يقتل الهنود بأوبئة من أنواع مدمّرة لا يعرف لها البشر مثيلاً إلا ما تحدثت عنه التوراة(9).

سوف نرى كيف انداحت الأطروحة الأميركية إلى أقصى أمداء حضورها الايديولوجي حين دخل التديين السياسي كعامل مقرر وحاسم في دفع لاهوت القوة والعنف إلى ذروة الاستخدام. فلقد كشف استطلاع للرأي أجرته مجلة تايم وشبكة (سي.إن.إن) العام 2000 "أن نحو ستين في المائة من الأميركيين مؤمنون بأن التنبؤات في سفر الرؤيا سوف تتحقق. ولذا تأتي كلمة (Apocalypse) ومعناها دمار العالم ونهايته، مرادفة لكلمة (Revelation)الرؤيا. ويؤمنون أيضاً بأن هذا العالم وهذا الزمان ينتهيان عندما يعود المخلّص ابن الله ليحمل البرَرَة الصالحين المسيحيين المولودين من جديد إلى الجنة، ويلقي بالخطّائين الآثمين (باقي شعوب العالم) في نار جهنم الأبدية"(10).

من الفوضى حتى نهاية العالم

ولبيان آلية توظيف هذا الاعتقاد الديني في حقل الممارسة السياسية نشير إلى أن ثمة لاهوتيات وطوائف عديدة ومتشعبة تؤمن بهذه الفلسفة الانقضائية التدميرية. لكن الأكثر نفوذاً على الصعيد السياسي هم أولئك المعتنقون لأفكار

---

(9) غسان غصن، الخطر الأميركي الأشد تسيّس الدين أم تديّن السياسة، شؤون الأوسط، العدد 118، ربيع 2005.

(10) غصن، المصدر نفسه.

اللّاهوتي الأنجلوإيرلندي جون نيلسون داربي الذي نشر في منتصف القرن التاسع عشر فكرة التفسيرات الحرفية للكتاب المقدس. وهي التفسيرات التي قدّمت ترتيباً زمنياً مفصلاً لنهاية العالم الوشيكة. لقد قسم داربي التاريخ إلى مرجعيات تحدّدها كيفيات التدخّل الإلهي. وأعطى سفر الرؤيا في العهد الجديد أهمية لم يعرفها من ذي قبل. كما بشّر بقرب تحقيق النبوءات لجهة عودة اليهود إلى فلسطين والمجيء الثاني للمسيح الذي يليها[11].

لم ينأ فريق المحافظين الجدد عن هذا اللّاهوت. فثمة كثيرون منهم يؤمنون بذلك ويزعمون أنهم باعتماد استراتيجية "الفوضى الخلاقة" إنما يمهّدون السبيل للقيامة الكبرى للمخلّص. ومنهم من ذهب إلى مخالفة داربي واتهامه بأنه يحرّف النصوص الكتابية ويشوّهها.

هؤلاء الذين خالفوا داربي سمّوا بـ"إعاديي البناء" وأيضاً بـ"السياديين". وهم لا يبنون إيمانهم بعودة المسيح على أساس النبوءات الكتابية، وإنما على الفعالية السياسية. ففي رأيهم أن المجيء الثاني للمسيح لن يحدث، قبل أن يهيئ العالمُ مكاناً له.

يرى "الإعاديون" الذين يتمثل الحكام الحاليون للولايات المتحدة، الكثير من آرائهم الميتافيزيقية، أن الخطوة الأولى لتهيئة العودة (عودة المسيح) هي "مَسْحَنة" أميركا، وبالتالي "مَسْحَنة" العالم كله. أحد كبار منظريهم وهو جورج غرانت يقول: إن النية الرئيسة للسياسات المسيحية هي ضمان الغلبة على الأرض لملكوت المسيح. ويتفق الأميركيون المناهضون والمعادون لمثل هذه المبادئ على أن الحركة المعروفة باسم اليمين المسيحي أو "المتديّن"، تمثل أكبر خطر منفرد على قضية الفصل بين الدين والدولة. ذلك لأن منظمات هذه الحملة اللّاهوتية، الايديولوجية الشرسة تسعى جاهدة إلى فرض الآراء المسيحية الأصولية عبر إجراءات حكومية على جميع الأميركيين، وتالياً على قطاعات

(11) المصدر نفسه.

كبيرة في العالم. فتحقيق السيادة المسيحية يتطلب إلغاء الفصل الدستوري بين الدين والدولة.. والاستعاضة عن النظام الديمقراطي بحكومة ربّانية (ثيوقراطية) تحكم بالقانون التوراتي. كما يوجِبُ إنهاء جميع البرامج الاجتماعية الحكومية، لكي تتولى الكنائس هذه الرعاية. يقول غرانت استطراداً "إن فتح العالم هو ما كلّفنا المسيح بإنجازه. علينا اكتساب العالم بقوة الإنجيل، وعلينا ألاّ نقبل بأي شيء أقل من ذلك. إذ فقط عندما يتم الفتح الشامل يمكن للمسيح أن يعود"[(12)].

هكذا تبدو أميركا اليوم، مسحورة بنفسها إلى حدود الغواية القاتلة. وحتى الذين نظّروا لها بوصفها الدولة الكاملة، أو الدولة العالمية المنسجمة بحسب التعبير المستعار من هيغل، سيكون لهم غير باب مفتوح على التشاؤم. صحيح أنها ستكون بفضل قوتها واقتدارها وعظمتها آمنة، لكنها ستفقد روحها، وستكف أميركا عن أن تكون "المدينة الواقعة على جبل" كما يقول تشارلز وليام ماينز. وسوف تصبح بدلاً من ذلك ـ كما يضيف ـ أمة مرقّعة تقسمها الولاءات والأعراق، يسكنها شعب يفزعه السفر إلى الخارج، ومغادرة البيوت داخل الوطن"...

هل يعني هذا أن يدخل الأميركيون عصراً جديداً من التشاؤم؟

سؤال أخذ يحفر مجراه العميق بعدما بلغت نظرية "الفوضى الخلاقة" شوطاً بعيداً مع المحافظين الإنجيليين الجدد. وبعد زلزال الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، لم يعد السؤال مجرد افتراض.. لا بل إن أميركا المحافظة الجديدة حتى وهي تتطيّر من نشوة نصرها في الحرب الباردة، لم يغب عن نفسها المشحونة بالقلق وارد التشاؤم، والهلع، من اليوم التالي.

---

(12) المصدر نفسه.

لاهوت الحرب العالمية الرابعة

ينبري عدد من العاملين في الميدان الاستراتيجي، إلى توصيف سلوك الولايات المتحدة تجاه العالم بأنه ممارسة للحرب العالمية الرابعة بامتياز. فإذا كانت الحربان العالميتان - الأولى في بداية القرن العشرين والثانية في منتصفه - على وجه شَبَهٍ مشتركٍ من نواحٍ ونتائج عديدة، فإن الحرب الثالثة هي ما عرف بـ «الحرب الباردة» (1945 - 1990). أما الحرب العالمية الرابعة فهي تلك التي لا تنفك تجتاح عالم اليوم، وتكتسي ألواناً وآليات لا حصر لها.

لقد خلع السياسيون والاستراتيجيون الأميركيون على هذه الحرب أوصافاً عدة: «الحرب الشاملة على الإرهاب»، «الحرب الاستباقية»، «الحرب اللامتكافئة»، «الحرب ضد الفوضى»، «الحرب الدائمة» و«حرب الجيل الرابع»..

غير أن هذه الأوصاف والتسميات على الجملة، تندرج في وعاء استراتيجي واحد، راحت تظهر معالمه بقوة بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001. وأياً تكن التأويلات التي أخذ بها الخبراء منذ ذلك الوقت، فإن الوظيفة المرصودة للحرب العالمية الرابعة تقوم - بحسب الاستراتيجي البلجيكي ف.ب. هويغيه - (F.B. Hoyghe) على ثلاث مزايا:

- المزية الأولى: استراتيجية ومادية، وهي تعني حرمان الخصم من قواه، من قَبل أن يتمكن من الوصول إلى الولايات المتحدة وذلك عبر تدمير قواعده الخلفية.

- المزية الثانية: رمزية ورادعة: وتعني، توجيه رسالة قوية للإرهابيين وللديكتاتوريين، وإفهامهم أن الولايات المتحدة سترد على أي ضربة. وبالتالي إحباط مشاريعهم ومنع انتشارها عبر الخوف من القوة العظمى.

- المزية الثالثة: ايديولوجية وسياسية: وتعني نشر الديمقراطية في العالم. ذلك أن ترويع أعداء أميركا ليس سوى مقدمة لنشر الحكم الصالح في الكرة

الأرضية كلها، وتعميم السوق وحقوق الإنسان. فالمشروع الحربي الأميركي يهدف، وفق التعبير المعتمد، إلى جعل العالم مكاناً أكثر أماناً للديمقراطية. وهذا يعني بشكل خاص جعل هذا العالم آمناً للولايات المتحدة[13].

إن هذه المزايا التي شكلت «الهندسة الأخلاقية» للجيل الأخير من حكام الولايات المتحدة، كانت جاهزة لتبرِّر حروبهم على عوالم، كان من المستحيل تكييفها أو مطابقتها، لقواعد العمل الأميركي في العالم إلاّ بالقوة.

لكن المحافظين الجدد لا يكتفون بإشهار الحرص على أهمية، ووجوبية، مثل هذه الاستراتيجية، بل إنهم يقطعون شوطاً إضافياً في الطريق الذي يمنح «جنونهم الحربي»، بُعْدَه الرسولي. وثمة اعتقاد راسخ لدى هؤلاء يقوم على الادعاء بأن هناك استثنائية أميركية قوامها، أن ما لا يحقّ لسواها في القانون الدولي وشرعة الأمم المتحدة، إنما هومباحٌ لها. لذا لا ينفكون يعلنون أنهم يريدون الامبراطورية. ولكن - كما يزعمون - هي أمبراطورية خيِّرة لا تسعى إلى اغتصاب أية أرض، ولا إلى ظلم أحد. إنهم يكررون أيضاً، أن على الولايات المتحدة، الدفاع عن مصالحها، (ولكن هذه المصالح تتوافق - وأيضاً، حسب زعمهم - مع تحرير البشرية، وبالتالي مع منطق التاريخ...

نقّاد الحرب الاستباقية

على الرغم من التبريرات الايديولوجية للحرب العالمية الرابعة، بأشكالها المختلفة، فقد بقيت عرضة لعواصف لم تهدأ من النقد، وإطلاق الأوصاف المذمومة على مقدماتها ونتائجها. ومن أبرز ما قيل على لسان نقّاد الحرب الاستباقية الأطروحات التالية:

---

(13) ف.ب. هويغيه، الجنون الاستراتيجي في الحرب العالمية الرابعة، انظر "مدارات غربية"، العدد الثاني، تموز/يوليو-آب/أغسطس 2004، نقلاً عن دورية (Observations d'infostrategie).

- إنها حرب غير قابلة للتطبيق قانونياً، لجهة أن ليس لها علاقة بحق الدفاع المشروع، الواردة في المادة 51 من ميثاق الأمم المتحدة، والذي يفترض وجود أمر طارئ، وغياب أي خيار آخر، أو رد يتناسب مع الخطر.

- إنها حرب قد تكون عدوانية. وهي كذلك في كل الأحوال، إلا أن الجانب الأخطر فيها، أن بإمكان دول أخرى، أن تسمح لنفسها، وعلى أساس المبدأ نفسه، التذرع ببيرل هاربر على هواها.

- إنها حرب قد تدفع إلى عكس ما يصبو إليه فاعلوها، أي إنها تجعل «منظمات الإرهابيين»، و«الدول الشريرة»، تعمل بسرعة أكبر.

- إنها حرب قد تمنح بعض الأشخاص حق ضرب هذا النظام أو ذاك، من دون مراقبة شعبية أو دولية.

- وإنها قد تكون كارثية على صورة الولايات المتحدة، إذ تمنع حلفاءها من اتباعها في هذه المقامرة، ثم إنها تثير كل المعارضات في وجه أميركا التي تبدو أنها تستعمل حق القوة.[14]

إلى هذه اللائحة من المآخذ المبررة بصورة واسعة، يضاف مأخذ آخر، وهو يظهر في قضية أسلحة الدمار الشامل في العراق، والتي لم يفلح الاحتلال بعد فترة طويلة من العثور عليها.

لكن من يقنع الجيل الأميركي الرابع، ممثلاً بطبقة المحافظين الجدد، بعدم الاندفاع نحو المزيد من الجنون؟

لا أحد، على ما يبدو، بإمكانه أن يمارس على ذلك الجيل، عملية إقناع بالوسائط المنطقية. فالمسألة هنا، تتعدى مثل هذه الوسائط، ولا سيما أن الحرب الاستباقية بطبعها، وطبيعتها، وعناصرها الذرائعية، هي إجراء غير عقلاني. وبالتالي، فلا تصح معها العقلانية. فالأفكار التي تؤلف بمجموعها استراتيجية هذا النوع من الحرب، هي غالباً ما تقود أصحابها إلى معضلة

(14) هويغيه، المصدر نفسه.

مستحيلة. وبالتالي، غالباً ما تكون النتيجة تدميرية: إن أفكاراً كهذه، سوف تقود إما إلى فقدان ماء الوجه، مما يشجع أعداءهم على اغتنام لحظات الوهن، أو الضعف، أو التراجع وممارسة ضربات موجعة، وإما إلى القيام بمهمة مستحيلة، قوامها: إزالة حتى فرضية الشر. فإذا كانت طبيعة نظام ما، أو نيّاته السيئة، تشكل الخطر الداهم، فمن الواجب إذّاك تطهير الأرض منه أو الوقوع في الهلاك.. إن ذلك هو بالضبط، ما مضت إليه «المحافظة الأميركية الجديدة» منذ ما بعد سقوط الاتحاد السوفياتي. حتى إذا وقع زلزال الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، بلغ جنون الجيل الرابع الأميركي، ضفاف الهاوية...

وإذن، ما الصورة التالية التي سنختبر علاماتها في المشهد المستأنف؟

النصر أو الإبادة

عندما كتب ريتشارد بيرل، الذي لقّبه، المعجبون بأفكاره، بـ «أمير الظلام»، «ليس من حل وسط لأميركا، إما النصر وإما الإبادة»، لم يكن كلامه هذا، من قبيل الغلواء الساذجة. كان يعني في العمق حقيقة الممارسة التي ينبغي على الولايات المتحدة ألاّ تحيد عنها، وهي تؤسس للقرن الحادي والعشرين.

كان بيرل يرمي، إلى ما سبق للفيلسوفة الألمانية حنّة أرندت (Hannah Arendt)، أن رمت إليه، وهي تلاحظ مسارات حرب فيتنام: «يجب أن نعمل ليس على غزو العالم، بل على التفوق في معركة تستهدف عقول الناس»... وكانت تقول «إن هذا الشيء هو أمر جديد في هذا الكمّ الهائل من الجنون البشري الذي سجله التاريخ»...

المعلقون على كلمات ريتشارد بيرل الأثيرة، ذهبوا في الاستدلال إلى «بؤرة المعنى»، فوجدوا أن المحافظين الجدد، باقتناعهم، أن على الولايات المتحدة، إزالة محور الشر أو الزوال، وبتغذيتهم خطاب السيطرة المطلقة باسم وضعية الضحية، إنما يضعون أنفسهم عن قصد في السياق الصوفي، بينما هم يُتهمون غالباً باللاأخلاقية.

مثل هذه الإشارة، تنطوي على أهمية خاصة، لجهة تشكّل العمارة الايديولوجية المركبة للآّهوت السياسي الأميركي، وللاهوت المحافظين الجدد بصفة مخصوصة. فالغلو السياسي الذي يطفو على سطح الزمن الأميركي الجديد، ويكسو لغة «حكماء البيت الأبيض»، يترجم تلك العمارة الايديولوجية في ذروة مراتبها.

قد يكون من السخف إرجاع خطاب الحرب الشاملة ضد «الإرهاب» و«الدول المارقة»، إلى «سذاجة» مزعومة، أو إلى «وحشية» أميركية. فالحقيقة أن فعل مثل هذه السياسة لا يعاني من قلّة التمحّص بقدر ما يعاني الغلو الايديولوجي. فالايديولوجيا، على ما هو معروف، هي في بعض المجالات قناع للمصالح. وهي التي تحدد أيضاً، ما يعتبره كل واحد، أنها مصالحه. ثم إنها تقود أحياناً إلى توسّع في الوسائل بالنسبة إلى الغائيّات، وبالتالي إلى مقاومة مثلث الإرهاب والاستبداد والتكنولوجيا المنتشرة لأسلحة الدمار الشامل. وبهذا المعنى فإن في الايديولوجيا التي تمثّل أهواء ومصالح الجماعة البشرية، جانباً احتفالياً - كما يبيّن آلان بيزونسون (Besanson)، المتخصص في الشؤون الشيوعية: فهي (أي الايديولوجية) على ما يقول - تدّعي إقامة حقيقة أكثر واقعية من الحقيقة، وذلك بقوة الخطاب وحده. وهذي هي بالضبط، حقيقة المحافظين الجدد. وسيبدو هذا الملمح بعضاً يسيراً من جنون «الجيل الرابع» الذي ينطلق بلا هوادة في مسار يشبه الحرب المفتوحة على الأبدية[15].

حرب مفتوحة على الأبدية؟

يلخّص الاستراتيجيون الغربيون التفكير الاستراتيجي، لجيل الحرب العالمية

---

(15) Patrick Bacanan, The American Conservative, March 24, 2003.

الرابعة (G.W.O.T) بمجموعة من المبادئ، سبق وأكد على وجوبية تطبيقها عدد من لاهوتيي المحافظين الجدد. وهذه المبادئ هي:

أولاً: العدو فريد ومطلق وإنه هؤلاء: الإرهابيون، السلفيون، الشيعة، الاستبداديون، البعثيون، الأنظمة الإسلامية، الديكتاتوريات ما بعد الشيوعية، وهي كلها متساوية - بنظر المحافظين الجدد - لأنها تؤلّف الخطر نفسه.

ثانياً: لا فرق بين النية العدائية والقدرة العدائية. بين التنفيذ والنيّة، بين الجريمة والسلاح. فالحرب دائمة. من هنا، ضرورة الوقوف على كل الصعد ضد أي خطر متوقع، سواء جاء من عدو معلن، أم من منافس محتمل.

ثالثاً: الكرة الأرضية هي ساحة المعركة. لم يعد هناك منطقة محميّة (أرض الولايات المتحدة لم تعد مقدّسة). فالخطر، خصوصاً الإرهابي، قد يأتي من كل مكان من دون أن تُكبح عوامله باعتبارات السيادة أو توازن القوى. على العكس، يجب القيام - بحسب هؤلاء - بالهجوم على أرض الخطر في العالم العربي والإسلامي، وزعزعة الأنظمة السيئة.

رابعاً: السلاح، يجب احتكاره. وإذن يجب القيام بالحرب للقضاء على الأسلحة. من هنا، أهمية مسألة أسلحة الدمار الشامل.

خامساً: الخطر يناقض متطلبات الأمن المطلق. من هنا، الضرورة المزدوجة، للمراقبة الشاملة والقدرة على الرد ضد كل المخاطر. وهذا يقود إلى هوام العلم بكل شيء، كما يقوم على الشعور بامتلاك قوة كلية القدرة والجبروت.[16].

ببساطة شديدة، تبدو عقيدة «الجيل الرابع»، عقدية مركبة. فهي تخلط - كما رأينا - بين العناصر (المبادئ) الخمسة (العدو، نية العدو، الأرض، السلاح، والخطر)، ضمن مفهوم واحد. وبصورة أوضح، فإن هذا المفهوم،

---

(16) انظر باتريك بوكانان (أيضاً)، برنامج المحافظين الجدد، "المستقبل"، الجمعة، 11 نيسان/ أبريل 2003.

مفهوم يرمي إلى إزالة كل الأخطار المحتملة دائماً وفي كل مكان. وبما أن توازن القوى لا يزال بصورة واسعة لمصلحة أميركا، والعدو لا يمكن ردعه بالخوف من العقاب، كما كانت حال الاتحاد السوفياتي، فإن المعركة ليس لها في الواقع سوى هدفين: الزمن والصورة.

الزمن: لأنه يجب العمل بسرعة قبل فوات الأوان.

والصورة: فلأن المحافظين الجدد مقتنعون بأن 11 أيلول/سبتمبر، هو ثمن الخطأ الماضي في عدم القدرة على ترويع العدو[17].

جنون «الجيل الرابع» سيتجاوز ومن خَلَفَه من أجيال الحاكمين بامتلاك الكلمات وبممارسة تلك الكلمات. فقد جعل الجيل المذكور للزمن الجديد لاهوته الخاص. اللّاهوت الذي يقوم على تقديس ما وضعه المؤسسون الأوائل، من رؤية رسالية لولادة أميركا، وكذلك على تقديس كل سلوك وممارسة تفضي إلى الغاية، ولو كلّف ذلك سقوط ملايين الضحايا.

في أثناء الحرب الباردة، لم يكن توازن الرعب نظرية جرى وضعها لتحقيق الاستقرار والسلم الدوليين، بل كان في حقيقته أمراً واقعاً. وبنتيجة هذا الواقع، رأينا كيف تم حفظ السلام بين القوى الكبرى. وهكذا فإن «نظرية الكتل» التي أفرزتها حركة الاستقطاب في مرحلة توازن الرعب لم تكن هي الأخرى، مجرد نظرية. وإنما كانت مظهراً يعكس التحولات في توازن النزاع الدولي[18].

مع نهاية الحرب الباردة، وسقوط التوازن لمصلحة الأحادية، سوف ينفتح فضاء العالم ليخرج التفكير الامبراطوري الأميركي من «هدوئه القسري» إلى جنونه الظاهر. وعلى هذا النحو لم تكن رحلة تقسيم العالم وفق معادلة الخير والشر سوى ترجمة لبلوغ اللّاهوت السياسي الأميركي الدرجة القصوى من اللاعقلانية. صحيح أن هذه المعادلة هي حصيلة تحولات واقعية لمسار التطور

---

(17) بوكانان، المصدر نفسه.

(18) بوكانان، المصدر نفسه.

العالمي، إلا أنها «المعادلة» الأقل ثباتاً في التاريخ، ذلك لأنها تشق سبيلها بواسطة القوة المحضة. وتبعاً لسياق كهذا، فمن غير المقدّر أن يفلح العالم المكتظ بعوامل الصدام، في العثور على منطقة الاعتدال والتسوية والتوازن.

حرس من الأكاذيب

أكثر ما يحمل اللّاهوت السياسي الأميركي على الغبطة، حين يجد من مأثورات الحداثة، ما يبرِّر له أفعاله، ويضفي عليها صفة المشروعية. ومع صعود المحافظين الجدد سيأتي من يستعير من موروث الحرب العالمية الثانية، ما يؤدي قسطاً من هذه المهمة. كان على وزير الدفاع دونالد رامسفيلد وهو ينشئ ذرائعيته لحرب العراق، أن يتذكر هذه الكلمة الشهيرة لونستون تشرشل قالها الأخير في العام 1944: «إن الحقائق الاستراتيجية تحتاج في كثير من الأحيان، لأن تكون محميّة من جانب «حرس من الأكاذيب».

هذه المأثورة، التي ستتحول في الثقافة السياسية للمحافظين الجدد، إلى ما يشبه الأطروحة، ليست بعيدة من فلسفة التبرير الذي هو سمة راسخة في التاريخ الأميركي. وهو ما سيُظهر لنا، بما لا يقبل الغموض، الطريق الذي تمتزج فيه الأكاذيب السياسية بالحقائق الاستراتيجية.

كثيرون ممن يأخذون بهذه الاستعارة الذرائعية، هلّلوا لرامسفيلد في كشفه الجديد، لكن بالنسبة إلى ناقديه، سواء في واشنطن أم في بقية عواصم الغرب، فإن هذه الأطروحة تعيد استثارة تاريخ الفلسفة الحديثة أكثر مما تستثير تاريخ الحرب العالمية الثانية.

مع ذلك، فإن الأخذ بها من جانب فريق البيت الأبيض، يجري على سبيل دفع الحجة، بعدما بلغ سيل الانتقادات والتّهم حداً غير قابل للتراجع. ففي خلال الأعوام التي تلت سقوط بغداد شاعت عبارة «حرس من الأكاذيب»، للتدليل على دور الأجهزة الاستخباراتية والإعلامية، في إقناع الرأي العام،

بدوافع الحرب، وتبرير نتائجها رغم موجات الاستنـزاف والخسائر التي يتعرض لها جيش الاحتلال، سياسياُ وعسكرياً ومعنوياً.

لقد امتلأت الفضاءات الإعلامية بما لا حصر له من الوثائق، والصور، والمعلومات حول وجود أسلحة الدمار الشامل، وحول علاقة نظام صدام حسين المنهار بتنظيم القاعدة، وبأحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، لكن سيأتي بعد أسابيع قليلة من داخل مراكز القرار في الولايات المتحدة، من يرى إلى كل ذلك على أنه محض «أكاذيب». وسيمضي المفكر والباحث الفرنسي أوليفييه روا (Olivier Roy) ليلخّص قناعات واسعة في الرأي العام الغربي، بالقول: «إن أهداف الحرب التي أعلنت عنها واشنطن لا يظهر فيها أي تماسك منطقي. أما أفضل الحجج الفكرية الدافعة للحرب فهي كانت على العموم التكتم والنكران»...[19]

سعت إدارة المحافظين الجدد إلى توسيع دوائر التضليل تحت شعار «الاتحاد من أجل السلام». ومؤدّى هذا الشعار الذي يطوي في ثناياه آليات مبتكرة من الديماغوجية السياسية المحكمة، هو إعادة إنتاج قناعات لدى الجمهور الأميركي، تبرِّر الانتقادات الجادة من قبيل «بوش يكذب»، أو «هناك أميركيون يموتون». صحيح أن هذه القضية بمجملها أثارت مسألة أخرى متصلة بسابقتها، إلا أنها قد تكون أكثر إقلاقاً أيضاً، وهي الجذور الفلسفية للايديولوجيا التي تقف على رأس «الثورة المضادة البوشية»[20]. يجمع مؤرخو الممارسة الساسية الأميركية، على وجود شغف لافت لدى قادة الولايات

---

(19) هويغيه، المصدر نفسه.

(20) جون ميسون، الاكاذيب الورعة للمحافظين الجدد، «مدارات غربية»، العدد الثاني مصدر سبق ذكره، نقلاً عن مجلة Critique - No 682 Mars 2004. Paris.

العنوان الاصلي للمقال: - Guerre d'Irak et guerre culturelle: Les pieux mensanges'néo conversateurs. John. G. Mason.

المتحدة، قوامه، صناعة الأكاذيب، وتشكيل حرس من المفكرين والإعلاميين، ومراكز الأبحاث لتسويغها وتسويقها.

لقد غدت الولايات المتحدة في قلب عولمة متطلبات التبرير - كما يلاحظ آريال كولونوموس - فالدولة الأميركية هي وريثة تاريخ طويل في المجال «الأخلاقي». وطبقاً لتاريخها «الطهراني» الذي أضَفَتْهُ عليها البروتستانتينية الزهدية، حرصت على الاضطلاع بدور «منارة الإنسانية» على حد التعبير الذي استخدمه جون فوستر دالاس في الستينيات. وفي مرحلة متأخرة ستلعب عناصر جديدة في المجتمع المدني دوراً رئيسياً في صعود قوي لتلك النظرة المثالية المتجددة[21].

ولئن كانت النـزعة التبريرية سمة مميزة للاستثناء الأميركي، فهي ظاهرة دولية عامة، بل هي مطلب دولي تفترضه شروط الهيمنة الجيو - استراتيجية.

في أثناء الحرب الباردة، كانت مصلحة أعضاء الكتلة الواحدة، تكمن في التغاضي عن أخطاء حلفائها للحفاظ على مصالحها المشتركة، ومنع الكتلة الثانية من استغلال خلافاتها. أما الآن، فإن الظهور البيِّن للمجتمع المدني أرغم الدول والمؤسسات على تقديم حسابات حيال أشكال الرقابة الجديدة هذه، وأصبحت معارضة المجتمع المدني ذات صفة عالمية وميزة للتعددية الليبرالية. فلقد وُضعت بواسطة هذه الرقابة، دول كثيرة في قفص الاتهام بسبب من موقفها تجاه العديد من الجماعات المتضررة، أو التي كانت ضحية لسلوكياتها[22].

أما بالنسبة إلى أميركا على وجه الخصوص، فقد اتخذت ايديولوجية التبرير لديها مناحٍ استثنائية، وذلك طبقاً للمنسوب العالي جداً من ايديولوجية الهيمنة.

---

(21) آريال كولونوموس، مصدر سبق ذكره.

(22) هويغيه، الجنون الاستراتيجي في الحرب العالمية الرابعة، مصدر سبقت الاشارة اليه.

كثيرون من مؤرخي سياسة أميركا الخارجية حلّلوا «المسارات الأخلاقية» لهذه الدولة، فأدرجوها ضمن استمرارية هيمنتها.

من هؤلاء، المؤرخ تومي سميث، الذي ذهب في طرحه إلى حد اعتبار أن «الويلسونية»، وهي تصور أخلاقي لسياسة تتطلع إلى جعل العالم ديمقراطياً، تشكل الخيط الأحمر في تاريخ أميركا للقرن العشرين. وبحسب سميث، أن الرئيس رونالد ريغان، رغم كونه من المحافظين، في حين كان ويلسون ديمقراطياً، من أنصار القوة والسياسة المتشددة، تجاه الاتحاد السوفياتي. كان خير مثال على حداثة هذا الموروث. ثم جاء جورج دبليو بوش، ليؤكد هذه الأطروحة. أما في خلال رئاسة كلينتون فقد استوحى القادة الأميركيون دوراً مباشراً من الأخلاقية الزائفة، ليمنحوا أميركا صفة «القوة المهيمنة الخيِّرة»[23]. مع حرس هائل من الأكاذيب، أيضاً، وأيضاً...

(23) نعوم شومسكي، من يدير العالم. راجع «مدارات غربية» العدد الثاني تموز/يوليو-آب/ اغسطس 2004. ترجمة غسان رملاوي، نقلاً عن موقع Zmag. org,7/6/2004

الفصل السابع

نقَّاد الامبراطورية المعصومة

كيف يمكن ان تُرى أميركا باعتبارها دولة خارج الزمان وداخلة في تفاصيل حركته في الوقت عينه؟

بقدر ما قرأت أميركا نفسها، بما هي اطروحة لاهوتية اصطفاها الله لتنشئ على الارض مدينته الفاضلة، بقدر ما استثارت حولها وفيها، كمية هائلة من عواصف النقد. وما ضاعف من احتدام الخطاب النقدي لإشكاليات الظهور الأميركي على العالم، ان هذا الظهور جاء في الأحقاب الأخيرة من القرن الماضي على نصاب الانتصار والغَلَبة. ولقد اصطلح الفلاسفة السياسيون على حكمة مفارقة طالما تردّدت حين يخرج المنتصر على الملأ، وهو ينظر إلى عالم صار كله طوع يديه. إذ عليه في حال كهذه ان يسارع إلى مهمتين كبريين دفعة واحدة:

- ان يمتلئ حتى الثمالة بالنصر الذي احرزه.

- وأن يجعل من نصره حقلاً يبتني عليه نظاماً مستقراً، حتى لا يؤدي خلاء العالم من الضوابط إلى فوضى عارمة تطيح ما انجزه، وتحوّل نصره إلى هزيمة.

تقول الحكمة: ينبغي ان يبكي المرء في أمسيات النصر، لان المنتصر غير قادر ابداً على مقاومة إغراء تكرار عمله". مشكلة أميركا، انها على امتداد تاريخها الطويل من مراكمة الانجازات كانت تخلط بين الحقائق والاوهام إلى الدرجة التي تكاد تغفل فيها عن التمييز بين اغواءات النصر وسبل المحافظة عليه. ولسوف ينتج من ذلك، ان نظرية صناعة الحقائق التي اخذ بها معظم القادة الأميركيين في تعاملهم مع قضايا العالم، نشأت على الجملة من اعتقاد لاهوتي مؤداه ان بالإمكان الاستمرار في السيطرة على العالم، وإعادة تشكيله،

ولو من طريق القوة الجائرة والخداع وصناعة الاكاذيب. وعلى الرغم من معرفتهم بحقيقة ان عيب المخادع، وصاحب القوة الجائرة، يكمن في تكرار حيلة حقق نجاحاً بواسطتها، فإن قادة البيت الابيض أُخِذُوا بسحر انتصاراتهم ووقعوا في ظلامة تكرار الحيلة. كان يقال ان التعرض للخداع اكثر من مرة هو امرٌ غير مقبول، وان الاكذوبة لا تنجح إلاّ مرة واحدة. والمثل الذي ضربه الفاتحون الكبار بيِّنٌ وجليٌ في هذا المجال: انهم يلعبون ويربحون ثم لا يلبثون إذ يلعبون من جديد وبالطريقة ذاتها، حتى يخسروا، ذلك لانهم كشفوا لعبتهم امام الخصم. وقد لاحظ عدد من استراتيجيي الحرب ان الحيلة الفعلية هي المحافظة على امور ممكنة متعددة في الوقت نفسه، انها (الحيلة) تنوّع غير متوقع من القرارات، يستطيع إلحاق الفشل بالنظام الذي اعتاد الخصم عليه. وثمة من هؤلاء من يمضي إلى تأويل اكثر عمقاً ودلالة، فيرى انه منذ اختراع حجر القدح، وحتى اختراع البارود، لم تكن الحروب تضع في الرهان سوى المحدود. ومع قبولنا ايضاً بأنه كان بوسع احد الخصمين القضاء على الآخر وتدميره، والتعرض للضعف بسبب انتصاره، فإن المنتصر لم يكن معرضاً للإبادة. ويذهب التأويل المشار إليه، إلى انه لا بد من مواجهة هذه الامكانية اللاّمعقولة، هذا الانتحار الطارئ او الإرادي. ذلك ان اللاّمتناهي السلبي يدخل في الحساب. وعندها لا يؤدي فقط إلى إدانة وإبطال الوسيلة التي تخاض بها الحرب، بل ويؤدي أيضاً إلى إدانة وإبطال الهدف الذي اندلعت بسببه كل الحروب، فالتكلفة إذّاك، تفوق الربح، الامر الذي يجعل الحرب نموذجاً ساطعاً للحماقة والخطأ[1].

نقد ماهية أميركا

اين أميركا مما مرّ معنا من تأويل حيال التعامل مع جدلية النصر والهزيمة؟

(1) جون غيتون - الفكر والحرب - ترجمة الهيثم الايوبي واكرم ديري - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - الطبعة الثانية - 1988 - ص 112 - 113.

الوجه الآخر لصورة الولايات المتحدة لا يظهر على ما يظهر، إلا في مجال النقد. ففي زمن مبكر من القرن العشرين الماضي، اي في حقبة التحولات العظمى التي جعلت أميركا على رأس المنظومة الدولية، اخذ الخطاب النقدي سبيله إلى التداول.

ثمة اربعة مواضع نقدية فلسفية تعرض فيها الفيلسوف الالماني مارتن هايدغر إلى دلالة أميركا في افق تاريخ الوجود. وسنجد هذه المواضع مطروحة على أرض التداول في العام 1935 ضمن الفصل الاول من كتابه الشهير "مدخل إلى الميتافيزيقا". حيث يعلن ان "روسيا وأميركا إنما هما من وجهة نظر الميتافيزيقا، نفس الامر. نفس الجنون المخيف للتقنية التي لا قيد لها[(2)]. في معرض مطارحاته التي تفيد في ايضاح العلاقة الماهوية بين أميركا والحرب، يقول هايدغر: «نحن نعلم اليوم، ان العالم الانغلوساكسوني للأمركة قد قرر تدمير اوروبا. وذلك يعني تدمير الوطن. اي تدمير البدء الخاص بالعنصر الغربي. ولأن البدئي ـ حسب هايدغر ـ لا يقبل ان يُقضى عليه فإن دخول أميركا في هذه الحرب الكوكبية ليس دخولاً في التاريخ، بل هو الفعل الأميركي الاخير للاّ تاريخية الأميركية وتخريبها لذاتها (. . .) واللافت هنا، عند هايدغر انه وضع حداً للإحتفاء المعاصر بظهور أميركا، سواء لجهة الاحتفاء الفلسفي بها بوصفها ظاهرة طريفة في افق فلسفة التاريخ (مع هيغل)، او لجهة الإحتفاء الحقوقي بها بوصفها ظاهرة سياسية اعطت لمثال الديمقراطية واقعة عينية (توكفيل). لقد اراد هايدغر ان يضع حداً للصورة «الحديثة» لأميركا في الخيال الاوروبي، وان يرسم صورتها ضد الاوروبية (anti - européene) وضد الحديثة (anti - moderne). اي ان أميركا التي «أَوْرَبَت» (من اوروبا) العالم الجديد، انقلبت فجأة الى خطر حاسم على الوجود الماهوي لأوروبا. وذلك يعني الإنقلاب على «الوطن» الاصلي للغرب. وهنا مرة اخرى تنكشف الصلة الجوهرية بين ماهية أميركا وماهية الحرب ولذا سنجد من يأخذ بمثل هذه

(2) Heidegger, Introduction à la métaphisique. Paris: GallÁ Coll, Tel, 1976, PP. 48 - 49.

الأطروحة الهايدغرية ليقرِّر: ان اساس أميركا هو الحرب بما هي «نزع للإقليمية» (déterritorialisation) عما هو «بدئي» في ارض ما. وبهذا المعنى تبدو أميركا في معركة جذرية دائمة مع «المكان»، وكل حروبها هي حروب مكانية[3].

لقد وصف هايدغر دخول أميركا في الحرب العالمية الثانية، بأنه «الفعل الأميركي الأخير للاّ تاريخية الأميركية وتخريبها لذاتها كما رأينا. كما لو انه ينزع الستارة عن حال التفارق والانفصال الحاد عن موطن النشأة الاولى. وهو ما يدل عليه النزوع اللاّواعي باتجاه القتل الرمزي لاوروبا، لكن مع وجوب التواصل معها على قاعدة الاستلحاق والتبعية والهيمنة. ذلك ان هذا الفعل هو نوع من الرفض لما هو بدئي، وبالتالي قرار من اجل ما لا بدء له. وفي هذه الدالة لا تكون «الامركة» مجرد صفة جغرافية هنا، وانما هي «قرار ميتافيزيقي ازاء الموجود، حيث يتخذ من «التقنية»، بما هي تدبير حسابي يستفز الموجود، نمط تأويله لمعنى وجودنا في العالم. ولذلك لا تعني اللاّتاريخية في ماهية أميركا مجرد فقدانها لتاريخ طويل مثل العالم القديم، بل ان اللاّتاريخية هنا، مكانية: اي انها تتعلق بالعنصر البدئي الذي يؤدي [في السؤال عن معنى وجودنا في العالم] دور مفهوم «الوطن». وهكذا فإن «لاتاريخية أميركا» تعني بحسب الفلسفة الناقدة، "لا وطنية العالم" الذي تقيمه بدلاً من الذي تريد تدميره. وإذن فإن «رفض ما هو بدئي لا يعني رفض ما وقع في بداية تاريخ الغرب، بالمعنى الكرونولوجي، بل هو رفض لما لا يكف عن البدء في افق الانسانية الحالية، ونعني به «الوطن» الانساني لاوروبا بوصفه نمطاً مخصوصاً من «المكان - السكن» و«المكان - الانتماء» الى نمط، من السؤال عن معنى الوجود في العالم (...) وباختصار، ان حرب أميركا ضد العنصر البدئي هي حرب ضد

(3) فتحي المسكيني - الفيلسوف والامبراطورية- في تنوير الإنسان الاخير - المركز الثقافي العربي - بيروت - الرباط 2005 ص 84

الوطن، بمعنى انها حرب ضد «ما كان» انجزه التاريخاني الغربي الذي لا يكفّ عن الإقبال الى انفسنا من جهة المستقبل[4].

مفارقتا القدرة والوهن

ما الذي يعنيه مثل هذا التأويل الفلسفي في مقام نقد سلوك أميركا تجاه العالم؟

لو نأخذ الحقبة العالمية المتأخرة مسرحاً للإجابات المفترضة، لوجدنا ما لا حصر له من الاختبارات. حيث سيكون لنا مناسبة أخرى للإضاءة عليها.

ظهرت الولايات المتحدة الأميركية مع نهاية الحرب الباردة في أواخر الثمانينات. كأنَّها تدخل في مجهول عالمي. وبعد نحو عقد من السنوات سيتحول أحد أوجه هذا المجهول إلى عدو غريب ممتلئ بالمفارقات. عدوٌّ يجمع بين الحقيقة والخرافة. إنَّه العدو نفسه الذي سيضرب قلب نيويورك وواشنطن في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر من العام 2001. بعض الخبراء الاستراتيجيين الأميركيين وصفوه بالعدو اللاَّمتكافئ الذي دفع أميركا إلى أن تخوض معه حرباً لا متكافئة. بينما وجد هؤلاء أنَّ الحرب غير المتكافئة "اللاَّمتوازية"، هي أخطر الحروب التي تواجهها الولايات المتحدة لأنَّ طرفها الآخر مستورٌ ومخفي وهو لا يظهر إلى العلن بأسلحته المعلنة.

قبل الحادي عشر من أيلول/سبتمبر أصبحت أميركا على أحوال مختلفة. وتقديرها لذاتها وهويتها، وكذلك للآخر وهوياته المتعددة والمتفارقة هو أيضاً تقدير مختلف. لكن ثمة منطق داخلي شديد الصرامة ظل يربط بين الماقبل والما بعد في التقدير الأميركي.

يبيِّن صمويل هنتنغتون في مقالته " تآكل المصالح القومية الأميركية" أنَّ مفارقة ظهرت بعد سنوات من انتهاء الحرب الباردة تتعلَّق بقوة أميركا. طرفها

(4) المسكيني - المصدر نفسه ص 84-85.

الأول يتمثل بكون الولايات المتحدة هي القوة الوحيدة العظمى في العالم. ولديها أعظم اقتصاد، وأعلى مستوى من الرفاهية، ومبادؤها السياسية والاقتصادية تتضاعف في جميع أنحاء العالم. وهي تنفق على الدفاع أكثر مما تنفقه جميع الدول الكبرى الأخرى مجتمعة، ولديها القوة العسكرية الوحيدة القادرة على التصرُّف بشكل فعَّال في أنحاء العالم كله تقريباً، وهي تسبق كثيراً أي بلد آخر في التكنولوجيا، وتبدو متأكِّدة من أنَّها ستحتفظ بالصدارة في المستقبل القريب. والثقافة الشعبية الأميركية ـ على رأي هنتنغتون ـ استطاعت اكتساح العالم واختراق أبعد المجتمعات وأكثرها مقاومة. وباختصار فإنَّ التفوق الاقتصادي والايديولوجي والعسكري والتكنولوجي والثقافي الأميركي هو تفوُّق كاسح. أما الطرف الآخر للمفارقة الأميركية فهو الشعور المتزايد بعدم قدرة أميركا على موازاة التفوق بالنفوذ على الصعيد العالمي. وفي هذا يضيف المفكِّر الأميركي أنَّ البلدان الكبيرة والصغيرة، الغنية والفقيرة، الصديقة والمعادية، الديمقراطية والاستبدادية، تبدو على الجملة قادرة على مقاومة صنّاع السياسة الأميركيين وتهديداتهم. وفي قضايا حماية الصناعة الوطنية، والعقوبات والتدخل، وحقوق الإنسان، وانتشار أسلحة الدمار الشامل وحفظ السلام وغير ذلك، يستمع المسؤولون في الحكومات الأجنبية بأدب إلى مطالب أميركا وتوسلاتها، وربما يعربون عن اتفاقهم بصفة عامة مع الأفكار التي تقدم، ثم يفعلون ما يريدون في هدوء. وقد أشار جوناثان كلارك في مجلة "فورين بوليس في سنة 1996 إلى أنَّ هذه البلدان " تتبع ما يستقر عليه رأيها، ويشمل هذا البلدان الكبيرة والصغيرة. ويقدم كلارك جملة من الأمثلة فيذكر أنَّ سنغافورة البالغة الصغر تحدَّت الضغط الأميركي الشديد في عام 1994، وواصلت عقاب مراهق أميركي ضرباً بالعصا. ونجحت كوبا المفلسة المعزولة في تغيير سياسة الهجرة الأميركية. وتحدَّت بولندا مطالب أميركا بعدم الاستمرار في إبرام صفقة أسلحة مع إيران، وقاوم الأردن ضغط واشنطن بقطع روابطه التجارية مع العراق، كما رفضت الصين المطالب الأميركية بشأن حقوق الإنسان، وعجزت

الولايات المتحدة عن تحقيق أهدافها بشأن السياسة التجارية مع الصين واليابان، وعجزت عن إغراء روسيا بفرض قيود على نقل الأسلحة والتكنولوجيا إلى الصين وإيران. وأخفقت في ضغطها على الفلسطينيين والإسرائيليين لكي يكونوا أكثر اتفاقاً معاً وعجزت عن حمل الصرب والكروات والمسلمين على التعاون تعاوناً له مغزى في البوسنة. وعجزت عن تحقيق إصلاح اقتصادي ـ كما تريد ـ في اليابان. وفي حين لا تزال الولايات المتحدة قادرة بوضوح على الاعتراض على أي عمل دولي مهم ونقضه، إلاَّ أنَّ مقدرتها على إقناع بلدان أخرى بالتصرف على النحو الذي ترى أنها يجب أن تتصرَّف عليه، لا تتناسب مع صورتها باعتبارها "القوة العظمى الوحيدة في العالم"[(5)].

إذا كانت هذه الأمثلة وسواها تعكس إلى حد بعيد حال التفارق بين امتلاك القوة والعجز عن ترجمة هذه القوة إلى نفوذ مبرم، فإنَّ الأمثلة ستتزايد في مرحلة لاحقة وخصوصاً بعد زلزال 11 أيلول/ سبتمبر 2001.

ولكن سيكون لهذه المفارقة (بين مدى قوة أميركا وعدم فاعلية تأثيرها) تداعيات بين النخب الأميركية. حتى بين تلك الفئة من المنظِّرين والمفكِّرين الذين سوَّغوا لـ"أمركة العالم" بعد نهاية الحرب الباردة.

مقولة الوطأة الثقيلة

هذا بول كينيدي المؤرِّخ والأستاذ في جامعة ييل ومؤلِّف كتاب "صعود واضمحلال القوى العظمى" يعود ليطرح سؤاله اللاّفت أمام طلابه ومريديه: لماذا تبدو وطأتنا ثقيلة على الكرة الأرضية؟ ففي سؤاله ذاك، بدا كينيدي كما لو أنه يتبنى تساؤلاً مشابهاً طرحه خبراء في شؤون البيئة ومفاده: بأي حقٍ يضع الأميركيون بصمات أقدامهم الثقيلة هذه على أرض الله؟" وهو يعلِّق على ذلك فيقول: كان ذلك تساؤلاً ثقيلاً هو الآخر، ربما لأنه صحيح لدرجة كبيرة: نحن

(5) The Erosion of American National Interests.

نمثل أقل قليلاً من 5 في المئة من سكان العالم، ولكننا نمتص 27 في المئة من إنتاج العالم من النفط. ونخلق ونستهلك 30 في المئة من الناتج الأهلي العالمي، وننفق 40 في المئة من كل الإنفاق العالمي على السلاح. وتقول إحصائياتي ـ والكلام لبول كينيدي ـ إنَّ ميزانية وزارة الدفاع الأميركية (البنتاغون) تساوي ميزانيات الدفاع لأكبر تسع، أو عشر دول من حيث إنفاقها العسكري. وهذا لم يحدث مطلقاً عبر التاريخ كله. وهو يمثل من دون ريب وطأة ثقيلة. إذ كيف يمكننا أن نفسرها ونبررها لأنفسنا ولبقية العالم؟ وماذا نستطيع أن نفعل إزاء هذا الوضع إذا كان ثمة ما يمكن أن نفعله؟

ثم بعد تحليل ومراجعة لآرائه السابقة سنجد بول كينيدي يصل إلى الاستنتاج التالي: لقد أنصت العالم لويلسون وروزفلت وكينيدي لأنهم رفضوا نزعة " أميركا أولاً" وها هو يسأل بمرارته المعهودة لدى كثرة من نظرائه الحاليين عما يعنيه ذلك الإحساس العميق بعدم الركون لمنجزات القوة الأميركية؟؟. .

سوف يمضي كينيدي وهو يستذكر درس الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر إلى توصيف الوضع الأميركي بشكل أكثر صراحة ليبيِّن أنَّ أميركا لن تكون كما كانت عليه قبل ذلك اليوم. والتحول الذي طرأ على إدارة الرئيس جورج بوش سيظل تحولاً مستديماً يلقي بظلاله على كافة الإدارات. وبالطبع فلا يقتصر التحول عنده على السياسة وحدها، فيرى أنَّ المفاهيم التي اعتادها الأميركيون عن الأمن ومصادر التهديد قد تغيَّرت كما تغيَّرت ملامح مدينة نيويورك. وحدث التحول ذاته بدرجة كبيرة في علاقات أميركا بالكثير من دول العالم. وتمَّ نشر قوات الجيش الأميركي في أماكن ما كانت لتخطر بالبال (آسيا الوسطى والغربية والشرق الأوسط). ويخلص كينيدي إلى التحذير من أنَّ الطريقة الأميركية في الحياة معرَّضة للتهديد من قبل أعداء بشريين خارجيين دون شك، لكنها مهدَّدة كذلك بما نفعله نحن إزاء كوكبنا. وعليه يجدر بنا كمواطنين في هذا العالم المضطرب المعقَّد وغير المتكافئ أن نكون مفتوحي الذهن والقلب لمشكلات إنسانية أخرى. وأن نعمل من أجل تقاسم الأحزان والحلول مع غيرنا من سائر

البشر. . وعلينا ـ وهذا هو الأهم ـ أن نتذكر أننا لم نوضع كأميركيين على ظهر هذا الكون لكي نمارس قضايا السياسات بصورة أحادية الجانب، وكأنَّ لا شيء آخر عداها في الكون(6).

خرافـة مناوأة الإمبريالية

حين ينقد أميركيون، لهم مكانتهم في تسييل العقل الاستراتيجي سلوك الإدارة، سوف يبدو لهذا النقد وزناً خاصاً. لا سيما لجهة الوقوف على اتجاهات جديدة في تفكير النخب المشكِّلة للمجتمع السياسي.

في كتابه "مفارقة القوة الأميركية" (The Paradox of American) يسعى المفكِّر الأميركي البروفسور جوزيف ناي إلى ضرب من المعالجات تتعدى الرؤى المسطحة لتنقد حال أميركا بعد الحادي عشر من ايلول. لكن ما يضفي على هذه الرؤى النقدية جدواها، وحرارتها الخاصة، أنها تصدر عن شخصية أميركية شاركت في صنع وصياغة القرارات الاستراتيجية. فقد عمل جوزيف ناي مساعداً لوزير الدفاع خلال عهد الرئيس بيل كلينتون، كما شغل قبلها منصب رئيس مجلس المخابرات القومي فضلاً عن كونه عميداً لكلية كينيدي بجامعة هارفرد.

الأسئلة التي يرسلها الكاتب ويمضي في الإجابة عليها هي أسئلة تتعلق بمفاهيم كبرى طفقت تتحول لترسم مستقبل أميركا ودورها. منها: ما الدور الذي يجب على أميركا أن تلعبه في عالم متغير. حيث أصبحت الأرض كلها تمور باضطرابات سياسية وجيو ـ استراتيجية وأمنية يستحيل عليها الاستمرار طويلاً في ضبطها أو إدارتها أو احتوائها؟.

ما هي عوامل التحدي ومصادر التهديد التي ستواجهها أميركا في القرن الواحد والعشرين، وهل يمكن أن تواجه بمفردها فيما تقود العالم اليوم بمفردها؟

---

(6) راجع "لوس أنجلوس تايمز" ـ 9/ 9/ 2002.

جل فكرة جوزيف ناي تؤول إلى إظهار قلق وجودي أخذ يجتاح "الأمة الأميركية" منذ ما قبل السقوط المدوّي لبرجي نيويورك. واللافت أنَّ ناي يلجأ إلى تقديم مَثَلٍ جزئي وطريف ليدلَّ على ما بلغه تفكير النخبة الأميركية من شعور بسوء العاقبة: " في عام 2000 أطلق شاب من الفيليبين ما سُمِّي في حينه فيروس المحبة الشهير من جهاز حاسوبه المتواضع. فكان أن عَبَرَ الفيروس شبكات الإنترنت ليصل إلى أخطر الدوائر الاستراتيجية والعسكرية في الولايات المتحدة. وبلغت تكاليف التصدي له والأضرار الناجمة عنه 15 مليار دولار". ثم يعلِّق على هذا الحادث فيقول: " صحيح أنه كان تصرفاً سلبياً، وربما كان تخريبياً، ولكنه كان برهاناً جديداً على أنَّ بإمكان فرد موهوب وشبه مجهول، حتى في بلاد العالم الثالث أن ينال من استحكامات الدولة الأعظم في كرة الأرض، وأن يحوّلها في لحظة ما إلى كيان مستضعف أمام قوة التمكين المستمدة من ثورة المعلومات".

سوف يمضي البروفسور ناي إلى درجة أكثر عمقاً في رؤية الأحوال الأميركية بعد الحرب الباردة، وبخاصة بعد زلزال الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر. ففي مناقشته للمقولة الامبراطورية، يلاحظ أنَّ أميركا غير مهيَّأة لتحتل مثل هذا المقام. هو يعترف بأنَّ النصر العسكري الذي تحقق في العراق قد رسَّخ نظاماً دولياً جديداً، حيث لم يحدث منذ أيام "روما" أن هيمنت أمة ما بقوتها على الأمم الأخرى بهذه الصورة. لكنه سيرى بعين النقد الصارم إلى أولئك الذين راحوا يروِّجون مصطلح "الامبراطورية"، ويتعاملون معه كما لو كان حقيقة لا تقبل الشك. مع ذلك، لننظر كيف علَّل جوزيف ناي مقالته النقدية في هذه النقطة:

لا شك لديَّ في أنَّ هؤلاء الذين يرحّبون علناً بفكرة الامبراطورية الأميركية يخطئون في فهم الطبيعة الأساسية للرأي العام الأميركي. فالمحافظون الجدد من أمثال "ماكس بوت" على سبيل المثال، يذهبون إلى القول إنَّ الولايات المتحدة يجب أن تقوم بتزويد الدول التي تسودها الاضطرابات بذلك النمط من الإدارة الخارجية المستنيرة التي ميَّزت يوماً الإنجليز الواثقين من أنفسهم بصورتهم

التقليدية التي يرتدون فيها بنطلونات الفروسية والقبعة، وذلك على رغم أنَّ المؤرخ البريطاني "نيال فيرجسون" يشير إلى أنَّ أميركا الحديثة تختلف عن بريطانيا القرن التاسع عشر في شيء جوهري "وهو معاناتها المزمنة من قصر الوقت" أي رغبتها في القيام بكل شيء بسرعة وفي أقصر وقت ممكن.

وقد يذهب البعض الاخر إلى القول، إنَّ الولايات المتحدة هي امبراطورية فعلاً لا قولاً، وإنَّ الأمر لا يستلزم سوى الاعتراف بما هو قائم. بيد أنَّ هذا بالطبع قول مغلوط لأنه يقوم بالخلط بين سياسات "الهيمنة" وسياسات "الامبراطورية". صحيح أنَّ الولايات المتحدة تتفوق من حيث القوة على جميع الدول الأخرى بصورة لم تتح حتى للامبراطورية البريطانية في ذروة قوتها، إلاَّ أنها تتمتع بدرجة أقل من السيطرة والتحكم فيما يجري داخل الدول الأخرى، مقارنة بما كان عليه الوضع بالنسبة لبريطانيا في الفترة التي كانت تحكم فيها ربع الكرة الأرضية تقريباً. ويكفي هنا أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر أن المدارس، ونظام الضرائب، ونظام الانتخابات وكذلك العلاقات الخارجية لدولة مثل "كينيا" كان يتم التحكم فيها وإدارتها من قبل موظفين بريطانيين. وسوف يتبيَّن لنا الفارق بين أميركا وبريطانيا بوضوح، إذا ما عرفنا أنَّ الولايات المتحدة ليس لها مثل هذا القدر من السيطرة، حتى بالنسبة لموضوعات كانت أقل شأناً مثل الحصول على أصوات دول مثل المكسيك وشيلي لتأمين الحصول على قرار ثانٍ يخوِّل الولايات المتحدة خوض الحرب ضد العراق. كما أن أنصار "الإمبريالية الجديدة" لا يقولون لنا شيئاً بصدد السبب الذي يجعلهم متأكدين من أن أميركا قد أصبحت امبراطورية بالفعل، وهو ما يدفعنا إلى القول إنَّ كلمة "امبراطورية" هنا ذات معنى مجازي لا حقيقي. ولكن المشكلة بالنسبة للمعنى المجازي الذي نحن بصدده، هو أنه يعني ضمناً أن واشنطن تتحكَّم بالفعل في مقدرات الأمم الأخرى، وهو شيء ليس حقيقياً، كما أنه يعزِّز الإغراءات القوية السائدة في صفوف الإدارة نحو العمل "الآحادي"[7].

---

(7) جوزيف ناي ـ أميركا غير مهيَّأة لتكون إمبراطورية ـ "واشنطن بوست" ـ 28/ 5/ 2003.

وعلى رغم ايديولوجيتها الراسخة التي ارتبطت بها منذ نشأتها والقائمة على "مناوأة الاستعمار" فإننا نجد أن الولايات المتحدة استعمرت دولاً في أميركا الوسطى ومنطقة الكاريبي وكذلك في الفيليبين. ولكن التجربة الاستعمارية لم تكن أبداً شيئاً مريحاً بالنسبة للأميركيين، خصوصاً إذا ما عرفنا أن تلك التجربة لم يتح لها ـ سوى في عدد محدود من الحالات فقط ـ أن تكون سبباً مباشراً لتأسيس دول ديمقراطية. وهنا يجب علينا أن نعرف أن الامبراطورية الأميركية ليست شيئاً مرتبطاً أيضاً بالإفراط في التمدد الاستعماري" الذي يكلِّف جزءاً كبيراً من الناتج القومي الإجمالي، لأنَّ المقدار الذي قمنا بتخصيصه من ناتجنا القومي الإجمالي للإنفاق على ميزانيتنا العسكرية خلال الحرب الباردة يفوق بكثير المقدار الحالي. بالإضافة إلى ذلك فإنَّ عملية "التمدد المفرط" في حالتنا هذه ستكون نابعة من الحاجة إلى القيام بدور الشرطي في عدد يتزايد باستمرار من الدول الهامشية، بدرجة ربما تزيد عما يمكن قبوله من طرف الرأي العام الأميركي، خصوصاً أن نتائج استطلاعات الرأي تشير إلى ضآلة القبول الشعبي لفكرة الامبراطورية في حدِّ ذاتها.

وفي الحقيقة ـ يضيف ناي ـ إنه من الأفضل أن نسمي مشكلة خلق امبراطورية أميركية بأنها مشكلة "تمدد إمبريالي أقل مما يجب". يمكننا فهم ذلك إذا ما عرفنا أنَّ الرأي العام الأميركي والكونجرس لم يظهرا حتى الآن ما يدل على أنهما على استعداد لإنفاق جدي على أدوات بناء الأمم وإنشاء الحكومات، بشكل يفوق إنفاقهما على القوة العسكرية. ويكفي لنا في هذا السياق أن نعرف أنَّ مجمل الميزانية المخصصة لوزارة الخارجية، ولوكالة الولايات المتحدة للإنماء الدولي، لا تزيد على واحد في المئة فقط من الميزانية الفيدرالية العامة، في حين أن الولايات المتحدة تنفق على ميزانيتها العسكرية أموالاً تزيد على ذلك بمقدار خمسَ عشرة مرة. وليس هناك سوى القليل من الأدلة التي تشير إلى أنَّ ذلك سيتغير في عصر الخفض الضريبي، والعجز في الميزانية. وهناك نقطة أخرى بالإضافة إلى ذلك وهي أن القوات المسلحة مصمَّمة في الأساس لخوض المعارك وليس للقيام بدور الشرطي، وأن

الإدارة قامت بخفض مقدار الأموال المخصصة للتدريب على عمليات حفظ السلام، وتتحاشى عمليات بناء الأمم، وقامت أيضاً بوضع تصميم لقوات مسلحة مخصصة لاقتحام الأبواب، وضرب ديكتاتور ثم العودة مرة أخرى إلى الوطن، بدلاً من البقاء وتحمل عبء العمل الأثقل وطأة والمتمثل في بناء نظام حكيم وديمقراطي[8].

فلسفة الخروج على القانون

لقد أثارت مطالعات جوزيف ناي جدلاً مثيراً ومناقضاً في صفوف عدد من المفكِّرين والخبراء الأميركيين. وظهرت التعليقات على أطروحاته بين مؤيِّد ومعترض، إلاَّ أنَّ الفئة الغالبة من بين هؤلاء من أسَّس على كل تلك الأطروحات ما يشبه المسار السياسي والثقافي الجديد ذي النزعة الانتقادية الصريحة. فالكاتب الأميركي طوني يوت سيعلِّق على أفكار ناي ويمضي مساحة أبعد في تبنِّيها والبناء عليها. رأى يوت أنَّ الولايات المتحدة باتت في الفترة الأخيرة، تحديداً بعد 11 أيلول/ سبتمبر مواطناً دولياً عاصياً على القوانين، ذلك أنها تتردد في الانضمام للمبادرات أو الاتفاقيات الدولية، سواء بخصوص ارتفاع درجات حرارة الأرض، أو الحرب البيولوجية، أو العدالة الجنائية، أو حقوق المرأة. فالولايات المتحدة إحدى دولتين فقط (الثانية هي الصومال) لم تصدقا حتى الآن على اتفاقية حقوق الطفل لعام 1989، كما سحبت الحكومة الأميركية ـ حكومة جورج بوش الثاني ـ توقيعها على معاهدة روما الخاصة بإنشاء المحكمة الجنائية الدولية، وأعلنت أنها لم تعد ملتزمة باتفاقية فيينا الخاصة بقانون المعاهدات التي تحدد التزامات الدول كي تظل في المعاهدات التي لم تصدق عليها بعد. وأقل ما يوصف به موقف الولايات المتحدة من الأمم المتحدة ومنظماتها أنه بارد. ولا بد من الإشارة في هذا الصدد إلى مطالبة السفير الأميركي لحقوق الإنسان بالفض المبكر للمحاكم التي شكَّلت

(8) جوزيف ناي ـ المصدر نفسه.

لأغراض بعينها في رواندا ويوغوسلافيا السابقة ـ رغم أن هذه المحاكم، جزء لا يتجزأ من اية حرب جادة ضد الإرهاب العالمي، وأنفقت الولايات المتحدة نفسها ملايين الدولارات لرشوة بلغراد كي تقدم سلوبودان ميلوسيفيتش لمحكمة لاهاي.

يلاحظ الناقد الأميركي طوني يوت مع عدد من النقاد الغربيين الآخرين أن هذه التناقضات في سلوك أميركا توحي بالنفاق، وربما كانت تلك هي أكثر التهم التي توجه للولايات المتحدة شيوعاً. وهي جميعاً أكثر إزعاجاً لأنه لا يمكن الاستغناء عن أميركا، سواء أكانت منافقة أم لا. فبدون المشاركة الأميركية لن تعدو معظم الاتفاقيات الدولية كونها حروفاً ميتة لا روح فيها. ويبدو أن القيادة الأميركية مطلوبة حتى في الحالات التي يكون فيها لدى البريطانيين والأوروبيين الوسائل لحل المشكلة بدون مساعدة أحد، كما كان الحال في البوسنة فيما بين 1992 و1995.

ويبيِّن هؤلاء أنه في أعقاب الحادي عشر من أيلول/سبتمبر مباشرة، خفَّت حدة الخطاب الأحادي الخاص بحكومة بوش، لتسهيل البحث عن حلفاء في الحرب ضد الإرهاب. لقد كان الأمر الذي أثار الاستياء في ذلك الخطاب هو الشكل أكثر منه المضمون. فمعظم حلفاء أميركا يشكِّكون في حكمة استعداء الدول الغربية لإيران. ومع ذلك فإنه بعد أربعة أشهر فقط من إعلان الحكومة حرصها على إقامة التحالفات والتعاون الوثيق مع أصدقائها في الكفاح ضد العدو المشترك، لم يشر كلام بوش عن كفاح أميركا الكوني ضد قوى الظلام إلى حلفاء أميركا. وأثار ذلك قدراً كبيراً من الاستفزاز.

ويرى طوني يوت تبعاً لما رآه قبله جوزيف ناي أن العلاقات الدولية في الوقت الراهن تشبه مباراة للشطرنج ثلاثي الأبعاد شديدة التعقيد. فعلى أحد المستويات هناك نفوذ عسكري صلب، وهو مجال تسيطر عليه الولايات المتحدة بلا منازع. وعلى المستوى الثاني هناك نفوذ وتأثير اقتصاديان، وفي هذا المجال يمثل الاتحاد الأوروبي بالفعل تحدياً للولايات المتحدة في التجارة، وتنظيم

الاحتكارات، ووضع المعايير الصناعية، ويتفوق على أميركا في الاتصالات والسياسة البيئية وأشياء كثيرة أخرى. يضاف إلى ذلك وجود لاعبين آخرين.

وفي المستوى الثالث هناك الأنشطة غير الحكومية المتنوعة والمنتشرة التي تشكل عالمنا، أي تدفق العملات، والهجرة، والشركات متعدية القومية، والمنظمات غير الحكومية، والهيئات الدولية، والتبادل الثقافي، ووسائل الإعلام الإلكترونية والإنترنت والإرهاب. ويتصل الفاعلون غير الحكوميين ويعملون عبر هذا المجال الذي لا يخضع بالفعل للتدخل الحكومي، ونفوذ أية دولة، عدا الولايات المتحدة، يمكن إحباطه وتحييده بأيسر ما يمكن. ذلك أنَّ مشكلة المسؤولين عن تشكيل السياسة الأميركية وتوصيفها في الوقت الراهن هي أنهم يلعبون في المستوى الأول وحسب، حيث تنحصر رؤيتهم في القوة الضاربة العسكرية(9).

سوف يذهب ناي ورفاقه إلى تقديم ما يشبه النصائح لاستراتيجية نجاة. تواجه قسوة التعقيدات الدولية من هذه النصائح أنه إذا أرادت أميركا الحصول على الدعم الخارجي والاحتفاظ به، فسوف يتعيَّن عليها أن تتعلم ممارسة ما يسميه ناي بـ"النفوذ الليِّن". فالكلام الكبير عن الامبراطورية الأميركية هو مجرَّد وهم في اعتقاد ناي، إذ يُضاف وهم تاريخي مضلل آخر إلى "فيتنام" و"ميونيخ" في كتالوغ الأشباه التي يساء استخدامها. والآن يسمع المرء في واشنطن تباهياً عالي الصوت بالأحادية القطبية والهيمنة، ولكن ناي يقول إنَّ الواقع هو أن نجاح التفوق الأميركي لن يعتمد وحسب على القوة العسكرية أو الاقتصادية، بل كذلك على النفوذ الليِّن الخاص بثقافتنا وقيمنا، وعلى السياسات التي تجعل الآخرين يشعرون بأنهم استثيروا وأن مصالحهم أُخذت في الاعتبار. وقد يبهر التحدث عن الامبراطورية أبصارنا ويجعلنا نظن خطأً أن بإمكاننا المضي بمفردنا.

والنفوذ الليِّن، طبقاً لاستخدام ناي، يشبه إلى حدٍّ كبير الفكر السليم.

---

(9) طومي يوت ـ النيويورك ريفيو أوف بوكس ـ أيلول/ سبتمبر 2002.

وكان ينبغي أن يبدو كذلك لكل حكومة من الحكومات الأميركية بعد الحرب، من هاري ترومان إلى جورج بوش الأب. فإنك إذا أردت أن يرغب الآخرون في ما ترغب أنت فيه، وجب عليك أن تجعلهم يشعرون أنهم داخل اللعبة. ويتعلق النفوذ الليِّن، على سبيل المثال، بالمصداقية والسمعة الطيبة. وهذا ما لا يبدو حاضراً في السلوك الأميركي المتناقض.

ولكن إذا كانت أميركا تبدي عدم ثقة في الآخرين، فقد يحين الوقت الذي يردّون فيه الكيل لها بأعظم منه، كما يجمع نقّاد أميركا وناصحوها[10].

جيولوجيا السيادة

لقد اتسعت مساحات النقد الأميركي لأميركا المحافظة، لتشمل عدداً من كبار منظِّري سيادة أميركا على العالم ومسوِّغي حروبها المباشرة وغير المباشرة. هذا هنري كيسنجر الوزير الأسبق للخارجية، وهو المعروف كواحد من أبرز صنّاع القرار والمخططين للسياسات العليا، يظهر تشاؤمه مما وجده أميركياً بعد سقوط برجي نيويورك. فقد لاحظ أنَّ هجمات 11 أيلول/سبتمبر جسدت تحدياً زلزالياً لمفهوم السيادة الذي ظل الأساس القانوني للنظام الدولي منذ معاهدة ويستفاليا عام 1648. وتمثلت مبادؤها المنظمة في أن السياسة الخارجية هي قضية دول تعتبر متساوية قانونياً وملزمة بعدم التدخل في الشؤون الداخلية، لبعضها البعض.

في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر دخل العالم مرحلة جديدة كشفت فيها المنظمات الخاصة غير الحكومية، على أنها قادرة على تهديد الأمن الوطني والدولي بهجمات سرية، ما ولَّد جدلاً بين المفهوم التقليدي للسيادة، والتكيف الذي تتطلبه التكنولوجيا الحديثة وطبيعة التهديد الإرهابي.

لقد كانت قاعدة أسامة بن لادن على أرض دولة قومية ـ كما يقول كيسنجر

(10) محمود حيدر ـ جوزيف ناي قارئاً مستقبل الولايات المتحدة الأميركية ـ النقّاد ـ بيروت العدد 130 ـ تشرين أول/أوكتوبر 2002.

ـ غير أن قضيته لم تكن قضية قومية، وكان أفراد عاملون رفيعو الانضباط ينتشرون في مختلف أنحاء العالم، بعضهم على أراضي أقرب حلفاء أميركا، بل داخل أميركا نفسها. وكانوا يتمتعون بالدعم المالي والتنظيمي من عدد من الدول ـ في الغالب الأعم من أفراد خاصين يزعمون أنهم ليسوا تحت سيطرة حكوماتهم. وأقيمت قواعد تدريب للإرهابيين في عدد من الدول، ولكن، في مناطق حيث أمكن للحكومات، ظاهرياً، أن تتبرأ من السيطرة، أو أنها لا تتمتع بالسيطرة فعلاً، كما هو الحال في اليمن أو الصومال أو ربما أندونيسيا. وفي هذا الإطار جرى تحدي النظام الدولي القائم على سيادة الدولة القومية عبر تهديد يتجاوز الحدود القومية، وتتعيَّن مكافحته على منطقة السيادة لدول أخرى في قضايا تتجاوز الدولة القومية.

ربما كانت نقطة الألم الأكثر عمقاً في ما ذهبت إليه رؤية كيسنجر للأحوال السيادية لأميركا بعد زلزال مانهاتن، هي تلك المتصلة بالأساس الذي ينهض عليه الأمن القومي الاستراتيجي. ذلك أن التحدي غير المنظور الذي ضرب السيادة الأميركية في عقر دارها أفلح الساعون إليه في أن يجعلوا الصراع يتخذ الشكل الذي يلائم اختراق السمات الخاصة للدولة الأميركية. ذلك أن أميركا ـ كما يبيِّن كيسنجر ـ لم تعتبر نفسها قط، ببساطة، دولة واحدة بين الدول الأخرى. فقد جرى التعبير عن روحها القومية باعتبارها قضية شاملة تماثل انتشار الديمقراطية، باعتبارها السبيل الرئيسي للسلام[11].

هيمنة مطلقة.. عزلة مطلقة

حتى فرانسيس فوكوياما المشتهر بتفاؤلية مفرطة حيال صورة أميركا للقرن الحادي والعشرين سنجده يعود القهقرى إلى ضرب من سوداوية موازية بعد تفجيرات مانهاتن. ففي محاضرة ألقاها في جامعة مالبورن بإستراليا بمناسبة مرور عام على ذكرى 11 أيلول/سبتمبر، يقول إنَّ السمة المميزة للشخصية

(11) هنري كيسنجر ـ زلزال السيادة ـ واشنطن بوست ـ 9/ 9/ 2002.

الأميركية الآن هي أن أميركا صارت بعد ذلك التاريخ مطلقة الهيمنة ومطلقة العزلة، ويضيف: لقد انبثق بعد 11 أيلول/سبتمبر تعاطف هائل وعفوي مع الولايات المتحدة ومع الأميركيين في كل مكان في العالم. ولكن مع ظهور الهيمنة العسكرية الأميركية خلال طرد منظمة القاعدة وطالبان من أفغانستان، ومع صياغة مبدأ الرئيس بوش حول الضربات الوقائية ضد "محور الشر"، بدأت تظهر نزعات من العداوة المستجدة لأميركا. ولا يمكن أن يكون الأميركيون مسؤولين عن اعتقاد غالبية العالم أن القوة الأميركية، وليس الإرهابيون المزودون بأسلحة الدمار الشامل، هي التي تزعزع الاستقرار العالمي. ولا تنتشر مثل هذه الآراء في أي مكان في العالم مثلما تنتشر وسط حلفاء أميركا الأوروبيين. لقد خاضت الولايات المتحدة الحرب الباردة كقائدة للديمقراطيات الغربية، منطلقة من قيم ومؤسسات مشتركة. فما الذي يحدث هنا؟ هل ما يزال " الغرب " موجوداً كمفهوم ذي معنى؟ يتساءل فوكوياما ويجيب: في اعتقادي إن اختلافات عميقة بدأت في الظهور بين الديمقراطيات الغربية حول موضوع الشرعية الديمقراطية على المستوى الدولي، وأن هذه الخلافات ستسبِّب آلاماً عميقة في تعامل الولايات المتحدة مع العالم خلال السنوات المقبلة. ولذلك فإنَّ التغلب على العقبات، والحيلولة دون أن تصبح معارضة السياسات الأميركية هي النزعة الطاغية في السياسة الدولية، ينبغي أن تكون هي الهموم بالنسبة لواشنطن[12].

انعـدام الثقـــة

في السياق الانتقادي إيّاه، لم يكن البروفسور ج. جون إكنبري، اقل غيرة على أميركا، أو أقل تحيُّراً في اختيار السبيل الذي ينبغي على إدارة البيت الأبيض اتباعه وهي تواجه عالماً مملوءاً بالفوضى والجموح والغضب. ففي

(12) راجع ملف " النقّاد " الأسبوعية ـ مفكِّرون أميركيون يتحدثون عمّا بعد زلزال مانهاتن ـ العدد (126) ـ 23/ 9/ 2002.

الحقبة التي تلت الحادي عشر من أيلول/سبتمبر لم تتوضح معالم رؤية أميركا لنظام دولي مستقر. وذلك باستثناء تعريف بوش الثاني للصراع على أنه صراع بين الخير والشر. وبحسب إكنبري، أن العالم رأى واشنطن تتخذ خطوات حازمة لمحاربة الإرهاب، إلاَّ أن أحداً لم يملك بعد فكرة واضحة عن برنامج بوش لنظام عالمي أقوى وأفضل. وسيوضح هذا الفشل سبب الاختفاء السريع للتعاطف وإبداء النيّات الحسنة نحو الولايات المتحدة بعد 11 أيلول/سبتمبر. فالصحف التي أعلنت ذات مرة: " إننا جميعاً أميركيون" أخذت تبدي عدم ثقتها بأميركا. والرأي السائد هو أن الولايات المتحدة تبدو مستعدة لضرب الإرهاب والأنظمة الشريرة، ولكنها لا تريد استخدام قوتها في المساعدة على بناء نظام عالمي أكثر استقراراً وسلماً، بل هي تقلل من أهمية قواعد المجتمع الدولي بدلاً من تعزيزها. وبالتالي، فإنَّ التفكير النيوإمبريالي يبدو في نظر بقية العالم وكأنه يتمحور حول ممارسة السلطة وليس القيادة.

أما أهداف أميركا الاستراتيجية السابقة، توازن القوى الواقعي والتعددية الليبرالية، فقد كانت توحي بوجود قوة عظمى ناضجة تسعى للاستقرار وتحقِّق مصالحها بطرائق لا تهدد مواقع الدول الأخرى. إنها استراتيجيات الإشتمال والتطمين. أما الاستراتيجية النيوإمبريالية الجديدة فتقدم الولايات المتحدة في شكل مختلف تماماً: دولة تعيد النظر في الثوابت لتستفيد من وضعها الحالي المتقدم وتبني نظاماً عالمياً تكون فيه هي صاحبة الكلمة الفصل. ولكنها، بخلاف الدول المهيمنة في الماضي، لا تسعى للتوسع الإقليمي أو السيطرة السياسية المباشرة في أوروبا وآسيا. فليس لدى أميركا، كما لاحظ بوش، في خطابه في وست بوينت الرغبة في تشييد "امبراطورية تريد أن تتوسع على حساب الأمم الأخرى.. ". ولكن حجم القوة التي تمتلكها مقابلة بقوة الآخرين، ومبدأ الضربات الوقائية، ومكافحة الإرهاب اللذين تتبناهما يشعران الدول والشعوب في العالم بالقلق.

ويمكن أن تكون الكلفة مرتفعة جداً، فلعل آخر ما تريده الولايات المتحدة

هو أن يسأل الديبلوماسيون الأجانب وزعماء الدول أنفسهم: كيف يمكننا أن نقوِّض ونحتوي ونرد على القوة الأميركية. فبدلاً من أن تخترع الولايات المتحدة استراتيجية كبرى جديدة، عليها أن تنفخ الروح والحياة والزخم في استراتيجيتها القديمة المبنية على الاعتقاد بأنَّ شراكات أميركا الأمنية ليست مجرد أدوات مفيدة، ولكنها عناصر أساسية في نظام سياسي عالمي تقوده الولايات المتحدة وينبغي الحفاظ عليه. وهي شراكات تمثل رافعات لها وتمنحها المزيد من الشرعية وسهولة التعامل. إنَّ المفكرين النيوإمبرياليين مطاردون من شبح الإرهاب الكارثي، ويسعون لتغيير راديكالي لدور أميركا في العالم. ويغذي هذا الإغراء الإمبريالي قوة الولايات المتحدة الطاغية وظهور تهديدات إرهابية مخيفة. ولكن إذا أخذنا بمنطق الرؤية الاستراتيجية الكبرى الجديدة إلى أقصاها بذلك ما سيجعل من العالم مكاناً أكثر خطورة وأكثر انقساماً ويجعل الولايات المتحدة أقل أماناً[13].

عبادة الأبطال أو الضحايا

يتحدث الأميركيون اليوم، في شيء من القلق عن وجه أميركا الآخر. الوجه المتخفي وراء شعور حاد بالريبة. والممتلئ بأسئلة لا حصر لها، عما لا يمكن، منذ الان، معرفة ما ينتظر وحدانية سيطرتها على العالم. وما يستحيل إدراك أي منقلب ستواجه قسوته وتحدياته وهي تدخل فضاءات القرن الحادي والعشرين.

وهناك من استرسل في البحث عن مناطق الضعف ليرى مأسوية وجه أميركا الآخر، بوصفه الوجه المقابل، الممتلئ بحيوية الشعور بالغَلَبة والتفوق...

(13) ج. جون إكنبري ـ طموح أميركا الإمبريالي ـ " شؤون الأوسط " العدد (110) نقله إلى العربية غسان رملاوي: عن Foreign Affairs sep. oct. 2002, vol 81- no5.
إكنبري هو أستاذ كرسي بيتر ف. كروغ "للجيوبوليتيك والعدالة الكونية في جامعة جورج تاون بالولايات المتحدة الأميركية.

إنَّ استشعار الخوف في زمن الامتلاء بالنصر يبيِّن هول الأعباء التي ألقيت على عاتق الولايات المتحدة الأميركية بعد الحرب الباردة.

كيف يتبدَّى الوجه الآخر للدولة والمجتمع في أميركا؟

قدم "روبرت هيوز" الأميركي من أصل استرالي توصيفاً درامياً للسيرة الذاتية الأميركية باعتبارها سيرة تقوم جوهرياً على ثقافة التباكي. فالولايات المتحدة ـ برأي هيوز ـ تحولت بعد صدمة فيتنام من عبادة الأبطال إلى عبادة الضحايا. وقد كان من الطبيعي أن تنطلق هذه السيرورة من غيتوات الأميركيين السود لأنهم ضحايا فعليون. ولكن " صناعة الضحايا" ما لبثت أن ازدهرت لتعم شتى الأسر الإثنية التي يتألَّف منها المجتمع الأميركي: الإيرلنديين والإيطاليين والهنود والإسبانيين والعرب والمسلمون بوجه عام.

ويذهب "روبرت هيوز " إلى ما هو أشد أثراً على مقبل المجتمع والدولة ليرى، أن ما هو قيد التفتيت والسحق في الواقع، ليس الفرد الأميركي، بل العقد الاجتماعي الأميركي نفسه، ذاك أن أميركا هي بالتعريف بلد " البوتقة ". إذ لولا "البوتقة" لما أمكن قط للأفواج المتتالية من ملايين المهاجرين من شتى بقاع الأرض أن تشكل "أمة" ولكن البوتقة لا تعني بالضرورة انصهاراً مذيباً للفروقات كلها. فالولايات المتحدة هي أيضاً أمة الاختلافات. وفي الوقت الذي يجمعها نمط حياة واحدة، فإنها لا تملك من خيار آخر غير أن تعيش مع اختلافاتها، والحال فإنَّ "ثقافة التباكي" السائدة منذ مطلع الثمانينيات لا تنتج ضحايا فقط، بل تحوِّل الاختلافات إلى حواجز وحدود على مستوى الهوية. فالضحية لا تستطيع تأسيس نفسها كضحية إلاَّ بالإحالة إلى فردوس ضائع. ومن هنا ظاهرة العودة إلى "الجذور" تماماً كما في رواية "اليكس هالي" التي تحمل العنوان نفسه. والجذور هي دوماً ارتداد إلى اصل أول، نفي سابق على التمازج، وبالتالي هو نفي لـ"البوتقة". من هنا اتهام روبرت هيوز لـ"ثقافة التباكي" بأنها " انفصالية تقوم استراتيجياً على فكرة "البلقنة"، أي على إعادة بناء "الحدود الإثنية" داخل التعددية الثقافية التي ينبغي أن تكون للهوية

الأميركية بمثابة النسخ المغذي. أما صراع اليمين واليسار الذي لا يزال يدور بضراوة لفظية، على مسرح الثقافة الأميركية، بين "المحافظين" و"الليبراليين" فهو ـ حتى بعد سقوط الشيوعية ـ لا يدور إطلاقاً في صالح تلك التعددية الثقافية.

وحـدة أميركـا: الشك الواقعي

بعض الذين أوَّلوا هيوز رأوا فيها تشاؤماً من مستقبل الدولة والمجتمع في أميركا. ولديهم في هذا المجال شواهد كثيرة. منها مثلاً في العام 1982 حيث شهدت لوس أنجلوس أسوأ نماذج العنف الاجتماعي ـ العنصري في التاريخ الأميركي. فكان ذلك مثالاً فريداً لإطلاق أسئلة الانهيار والخوف، حيث استحالت مدينة الملائكة (بحسب الاسم الإسباني للوس أنجلوس) مدينة تسكنها الشياطين والأشباح. ومنها كذلك في الأعوام اللاحقة وخصوصاً الآثار الاجتماعية والاقتصادية والأمنية والسايكولوجية التي نتجت من أحداث 11 أيلول/ سبتمبر 2001.

كانت هذه الأحداث المدويّة إشارة حاسمة للمراجعات التي حصلت في تفكير النخب الأميركية على اختلافها. فلم تنحصر المراجعات في النظر إلى العامل العنصري كأحد أبرز عوامل الخلل في تكوين المجتمع الأميركي. بل أكثر من هذا فقد تمَّ دحض مزاعم التيارين الديمقراطي والجمهوري القائلة بأنَّ العنصرية قد انحسرت إلى حد كبير، ولم تعد ظاهرة مركزية إثر الإنجازات القانونية والسياسية التي حققتها حركة الحقوق المدنية في الستينيات والسبعينيات.

يومئذٍ ذهب كثيرون من المحللين والباحثين إلى أن الدولة والمجتمع الأميركي محتَّمٌ عليهما في التسعينيات أن يدفعا استحقاقات ما سمي "ثورة ريغان" الاجتماعية والاقتصادية في الثمانينيات. فكان حصاد هذه الثورة مغامرة كبرى في هاوية الإنفاق العسكري الهائل، وأنظمة ضرائبية رفعت من ثروة

الأغنياء، وخفضت من مخصَّصات الخدمات الاجتماعية والنفقات الخيالية (تقدر بمئات المليارات) التي ترتبت على المواطن الأميركي بسبب إفلاس عدد كبير من مؤسسات الإقراض. وهذا أدى إلى زج البلاد في جحيم اقتصادي كان من الطبيعي أن يكون مستهل ضحاياه الفقراء... منهم على الخصوص الأقليات العرقية وتحديداً الأقلية السوداء.

وتتسع دائرة الجدال لتشمل الكلام التاريخي على مدى حصانة وحدة التنوع الأقوامي والثقافي والحضاري في الولايات المتحدة الأميركية. ففي خلال العقود الأخيرة جرت مساجلات حول المقرَّر المدرسي والجامعي، وحول إدخال هذا التعدد اللغوي والأقوامي في المناهج. فكانت هذه من أبرز الظواهر على الصعيدين الفكري والثقافي. والمؤرخ الأميركي آرثر شلزنغر في كتابه "عدم وحدة أميركا" لم يكن داعية انفصال عندما طالب بأن يكون للحركات النسائية والأفريقية والأميركية اللاتينية مناهجها المدرسية وكتبها النابعة من تجاربها. ذلك على الرغم من أنَّ اتجاهاً كهذا يشكل على الأغلب تهديداً للمشروع الأميركي التقليدي المرتكز أساساً على مبدأين:

ـ مبدأ هيمنة الأنكلوساكسون البروتستانت على المجتمع والدولة والمؤسسات.

ـ ومبدأ هيمنة المقولة الأميركية على العالم.

سـؤال اليوم التالي

سؤال المقبل أو سؤال عما يمكن أن يحمله "اليوم التالي" على أميركا يتقدم على ما سواه من الأسئلة التي تسكن الفكر السياسي الأميركي اليوم. فالمجتمع والدولة مستغرقان في تعيين ملامح الولايات المتحدة، وفي الصورة التي يمكن، ويجب أن تتمثلها، وهي تدخل في الألف الثالث الميلادي.

كل ظواهر الحياة تبدو قابلة للسجال وعمليات الاستقطاب. من سياسة البيت الأبيض في شؤون الأسعار والتقديمات الاجتماعية لذوي الدخل المحدود "إلى النمو المطرد للتيار الأيكولوجي (البيئوي)" وصولاً إلى مطارحات النخب

في مهمة ودور أميركا في العالم، وجوهر هذين المهمة والدور في زمني ما بعد الحرب الباردة والحادي عشر من أيلول/ سبتمبر.

الأسئلة كبيرة وخطيرة، بقدر ما هي طبيعية، فالدولة التي أحرزت نصراً مدوياً على المؤسسة الشيوعية في شرق أوروبا، لا يسعها إلاَّ أن تملأ الفراغ الذي أحدثه مثل هذا الانتصار، وعلى النطاق العالمي ككل. غير أن ملء الفراغ نفسه، فكرة تبعث على الحيرة والقلق، واستيلاد الأسئلة، وإشارات الاستفهام. ذلك أنَّ الأمر يتعلَّق بشروط التكيف مع الواقع العالمي الجديد. وهي شروط تُلزم قبل أي شيء، وجوب الاعتراف بأنَّ النصر كالهزيمة له ثمن. وغالباً ما يكون ثمنهُ باهظاً. إذ على المنتصر أن يفي بضريبة تتصاعد باستمرار، كلما كان له وحده الأمر والنهي في تشكيل أو إعادة تشكيل، منظومة العلاقات الدولية.

الهواجس التي تمكث النخب الأميركية ضمن دوائرها، تتصل عموماً، بالمهمة التي على الولايات المتحدة ان تؤديها إزاء نفسها وإزاء العالم في آن. وفي الهواجس تساؤلات لم يُجَب عنها بعد:

ـ كيف يمكن لأميركا أن تقود العالم؟ وكيف يمكنها القبول بعالم متعدد الأقطاب؟

ـ ثم كيف لها أن تتكيَّف وشروط زعامتها الدولية، في عالم زاخر بالتناقضات واللاّيقين. وفي مناخ عالمي مملوء بركام هائل من النزاعات، والتوترات، والأهواء الايديولوجية، وكذلك الفوضى العارمة في الاقتصاد والسياسة والاجتماع والأمن؟

ليس من اليسير بلوغ أجوبة وافية عن أسئلة وتساؤلات من هذا النوع. حتى رموز الفكر السياسي الأميركي، سواء أولئك الذين في السلطة بصفة مستشارين للرئيس، أو الذين يعملون بصفة شبه رسمية في مراكز التخطيط الاستراتيجي. غير متفقين في الغالب على سياق واحد من الأجوبة والاحتمالات. بين هؤلاء وأولئك، المتشائم الذي لا يرى لمقبل الدولة الأميركية إلاَّ ما توقعه لها المفكر الاقتصادي بول كينيدي قبل بضع سنوات، في كتابه "صعود وسقوط القوى

الكبرى"، وفيه أنَّ الامبراطوريات تنهار بعد أن تتعاظم وتقوى، حينما تتجاوز التزاماتها حدود قدراتها. وفي تقدير أنصار هذا الرأي، أنَّ الولايات المتحدة الأميركية اليوم، هي تمثيل نموذجي لنظرية كينيدي. وحجتهم في ذلك أنَّ أميركا سارت في طريق الانحدار، بعدما أصبحت تستنزف نفسها في التزامات عسكرية واقتصادية وسياسية واسعة فوق طاقتها. إنه الطريق نفسه الذي مشته قبلها الامبراطوريات الإسبانية والفرنسية والبريطانية والروسية. وفي المقابل فإنَّ للمتفائل وجهة رأي معاكسة. حيث يتبدى له المقبل الأميركي مضيئاً، وحيوياً ويتمتع بمخزون ضخم من عناصر التجديد والدوام. من هؤلاء زبيغنيو بريجنسكي الذي مَثّل في خلال الستينيات والسبعينيات إلى الثمانينيات من القرن العشرين تيار التفاؤل بتميز استثنائي.

ولكن على الرغم من اختلاف الاجتهاد وتنوعه في أوساط الفكر السياسي الأميركي، فثمة ما يوازي الإجماع في تلك الأوساط على قدرة أميركا في تمثُّل مبدأ التكيُّف مع أي وضع جديد. فكيف إذا كان هذا الوضع وضعاً تاريخياً بعيد المدى... لقد أظهرت النسبة الأعظم من آراء ونظريات ومقولات النخب الأميركية المختلفة، أنَّ ثمة ميلاً نحو تجديد نظام الحياة. حيث لا تقتصر الدعوة لهذا التجديد، على الحيز السياسي وحسب، وإنما على الأحياز كلها، ولا سيما منها الاقتصادي، والاجتماعي، والأخلاقي.

لعلَّ بريجنسكي أحد أبرز الذين لاحظوا قيمة التجديد وضروراته التاريخية. ومنذ فترة طويلة، تعود إلى ثلث قرن مضى، راح يفصح عن الفجوة التاريخية التي عاشتها أميركا في مرحلة الانتقال من العصر الصناعي التقليدي إلى عصر ما بعد الحداثة، أو العصر التكنوتروني، حسب التعبير الذي حمل عنوان كتابه الشهير"بين عصرين ـ أميركا والعصر التكنوتروني"[14]. لقد تحدث فيه كيف فعلت الثورة التكنوترونية فعلها بالايديولوجيات، فمسختها، وأماطت عنها هالة

(14) زبيغنيو بريجنسكي ـ بين زمنين ـ أميركا والعصر التكنوتروني ـ ترجمة وتقديم محجوب عمر ـ دار الطليعة ـ بيروت ـ ط1 تموز/يوليو 1980 ـ ص24.

القداسة، ثم راحت تجعل الناس عبيداً مقهورين لتقنيات الاستهلاك وأنماطه. إنَّ الأمر المتناقض، الذي التقطه العقل التحليلي عند بريجنسكي، هو أن الإنسانية في مرحلة الانتقال المشار إليها، تصبح أكثر وحدة، وأكثر تفتتاً في الوقت نفسه. ناظراً إلى الآخر على أنه الحركة الدافعة الرئيسية للتغير المعاصر. لقد انضغط الزمان والمكان بشكل جعل السياسات العالمية تكف عن الاتجاه نحو أشكال من التعاون أكبر وأكثر تداخلاً، وكذلك نحو تفسخ القناعات المستقرة والولاءات الايديولوجية(...) إنَّ الإنسانية ـ بحسب هذا المنظِّر الايديولوجي الأميركي ـ تصبح أكثر اندماجاً وتقارباً، حتى مع ازدياد الاختلافات في ظروف كل مجتمع على حدة. وفي ظل هذه الظروف فإنَّ التقارب، بدلاً من أن يقوي الوحدة، أدى إلى نشوء توترات تزداد حدة بشعور جديد بالاحتقان العالمي.

وليس ثمة شَبَهٌ لافت في توصيف صورة العالم بين الستينيات والتسعينيات ومستهل الألف الثالث؟ إنَّ هذا يُظهر كما لو أنه قوانين تاريخية تحكم مراحل الانتقال، حيث الاضطراب، والتردد والفوضى، وفقدان سياقات التعبير، هي سمات مميزة، وطابعة لتلك المراحل.

اطروحـات قلقة

لم يكتفِ نقّاد أميركا من الأميركيين، بما استغرقت فيه إدارتهم بعد الحادي عشر من ايلول (سبتمبر) 2001. لقد استعادوا الماضيين القريب والبعيد ليدلّوا على التراجيديا الأميركية في إدارة العالم. فحين ذهبت أميركا مذهب السيادة على القارات الخمس، عبر مسار جيوـ استراتيجي حاد الصورة بعد الحرب الباردة، بدا كما لو أنَّ مذهباً كهذا سيملأ خواءها الفطري إلى السيطرة. من دون أن تعلم أن الانتصار له أكلافه الباهظة، بل قد يكون الأشد وطأة عليها من أكلاف الهزيمة.

لقد كشف الرئيس الأميركي جورج بوش في خطاب الكونغرس غداة زلزال الحادي عشر من أيلول/سبتمبر عما يمكن وضعه بالصدمة السايكو ـ استراتيجية للأحوال الأميركية قال: سبق للشعب الأميركي أن شاهد حروباً في السابق.

لكن هذه الحروب اندلعت خارج أراضيه منذ 136 سنة، باستثناء ذاك الذي حصل يوم أحد من عام 1941. لقد سقط في صفوفه ضحايا من جرّاء هذه الحروب. لكن هذه الأخيرة، لم تسقط يوماً في مركز مدينة كبرى في صباح يوم هادئ..

هذا الكلام لبوش يعني أنَّ الصدمة المُشار إليها، سيكون لها أثر راديكالي على سياق التفكير الأميركي الاستراتيجي. وهو ما نلحظه من التعليقات والمواقف التي أعقبت السقوط المدوّي لبرجي نيويورك. ففي محاضرة نظمها كورت كامبل (Kurt Kampbell) نائب رئيس مركز الدراسات الاستراتيجية والأمن الدولي(*) وشارك فيها الجنرال برنت سكوكرفت وزبيغنيو بريجنسكي، أوجز الأخير أبعاد التحول الاستراتيجي للسياسات الأميركية في سبع نقاط هي:

ـ إنَّ الحرب على الإرهاب هي حرب متعددة الوجوه وسوف تؤدي إلى فتح أكثر من جبهة.

على الولايات المتحدة ألاَّ تحصر تعريفها للعدو في شخص أسامة بن لادن أو في تنظيمه، وألاَّ تجعل أمر القبض عليه قضيتها المحورية.

ـ للغوص في أعماق أي حرب شاملة وطويلة في أفغانستان آثارها السلبية بالنسبة إلى مصالح الولايات المتحدة الإقليمية(**).

ـ إنَّ الحرب ضد الإرهاب ليست حرباً دينية ضد الإسلام، وينبغي التفريق بين الأصولية الإسلامية وبين الإرهاب.

ـ لا بد من التمييز بين الدول التي قد يرى أهل القرار أنها تأوي الإرهاب. فمنها من يدعمه ومنها من يأويه ومنها من يتجاهله، فإن عاديناه على

(*) وضع بريجنسكي نصائحه المبيَّنة في النص المشار إليه قبل الحرب على العراق واحتلاله. ويبدو أنَّ ما حذَّر منه لجهة الاحتلال المباشر لأفغانستان ينطبق بصفة نموذجية على العراق بعد سقوط بغداد حيث بدأ الجيش الأميركي يعيش حرب استنزاف يومية أدَّت إلى خسائر فادحة في الجنود والعتاد، بينما انعكس الأمر على المجتمع الأميركي بالمطالبة بمغادرة العراق بأسرع ما يمكن. وكذلك وهو الأهم، بعودة عقدة فيتنام لتملأ مناطق السجال السياسي في الولايات المتحدة .

الجملة (كما يقول بريجنسكي) اتسع نطاق أعداء الولايات المتحدة، وتعسَّر على هذه الأخيرة إدارة المعركة.

ـ على المجتمع الأميركي أن يعيد تنظيم نفسه من أجل الاستعداد لتحمل ضربات جديدة مماثلة لاعتداء 11 أيلول/سبتمبر.

ـ لا بد من إعادة النظر في الرؤيا السياسية للولايات المتحدة من خلال تفهُّم متطلبات المجتمع الدولي ومن خلال البحث عن أسباب الخطأ.

ثم يبيِّن بريجنسكي وسكوكروفت معاً الوجه الجديد للعدو، والذي لم يعد من الممكن حصره في دولة ما، أو في جيش تقليدي ما. فالمعركة أصبحت غير تقليدية، إذ تواجه فيها الولايات المتحدة عدواً شرساً وقادراً على ضرب مراكزها. لكنه ليس متمثِّلاً في قوة ظاهرة واضحة المعالم يمكن تحديد تموقعها الجغرافي. فموقعه (العدو) لا يتناسب مع مواقع الدول وسياسته لا علاقة لها بالسياسات الرسمية للدول التي تواجه عدوان الولايات المتحدة بشكل مباشر كالعراق وبصورة غير مباشرة كإيران وكوريا وسوريا ولبنان الخ.. لهذا السبب حذّر الاستراتيجيون الأميركيون من المبالغة في الحديث عن بن لادن وإمارة أفغانستان ثم أخذوا يحذِّرون من أنصار صدام حسين بعد احتلال العراق، ذلك أن عدم المبالغة من شأنه أن يغني عن كشف الوجه الحقيقي للتهديد الراهن[15].

سوف نجد في مناخ الجدل الداخلي الأميركي حول مقولة العدو ما يفصح عن الرؤية الأقصوية لموجبات الأمن القومي الأميركي. وهو ما ذهب إليه وزير الدفاع السابق دونالد رامسفيلد الذي وصف حرب أميركا في العالم، بأنها حرب لن تنتهي باحتلال منطقة ما، ولا بانهزام قوة عسكرية معادية، وإنما تتطلَّب عملية ضبط سياسي، أمني، استخباري على المدى الطويل.

ذلك ما سيفصح عنه فيما بعد الاختبار الأميركي بعد احتلال العراق، غير أنَّ صيغة الاحتلال المباشر لهذا البلد المترامي الأطراف، والذي ينطوي على

---

(15) فؤاد نهرا ـ متغيرات السياسة الاميركية إزاء العرب ـ "شؤون الأوسط" العدد (105) شتاء 2002.

حيوية جيو ـ استراتيجية فريدة ستعمِّق الجدل الأميركي الداخلي وتطلقه إلى أجل لا متناه. ذلك انَّ نظرية الاحتلال بأضلاعها المختلفة التي طرحها رامسفيلد أعادت المجال الإقليمي إلى واقع استعماري كلاسيكي لم تنجُ أعظم الإمبرياليات قوة وقدرة من حصاده المريع.

إستئناف النقد

بعد بضع سنين على اطروحته الشهيرة «نهاية التاريخ والانسان الاخير» سيكون للبروفسور فرانسيس فوكوياما مطالعات اكثر نضجاً وتوسعاً في نقد مقولات ومسالك المحافظين الجدد. هو يعترف مسبقاً انه كان مأخوذاً بالسحر الايديولوجي لهذه النخبة التي بدا وكأنها تسللت الى عرش البيت الابيض في لحظة سهو تاريخي. لكنه سيبيّن بعد فترة قصيرة من تجربتها في الحكم، ان لحظتها قد مرّت، وانه لا بد للولايات المتحدة من اعادة تحديد مفاهيمها الاستراتيجية وفلسفتها السياسية بعد غزو العراق.

لعل ابرز التأسيسات النقدية التي يسوقها فوكوياما حول المحافظين الجدد تلك التي يضعها ضمن اربعة مبادئ يتصفون بها وتميِّزُهم عن مدارس الفكر الاخرى في ميدان السياسة الخارجية. وهذه المبادئ (الموضوعات) هي:

اولاً: الإيمان بأن طبيعة نظام الحكم مهمة للسلوك الخارجي، وهذا رأي تمسك به المحافظون الجدد تمسكاً اكثر ثباتاً بكثير من الرأي الواقعي البديل، الذي يرى ان كل الدول تسعى الى القوة بغض النظر عن نوع نظام الحكم. وقد رأى المحافظون الجدد الاوائل المعادون للستالينية الى الحرب الباردة بوصفها صراعا على الايديولوجية وعلى القيم. وهو واقع استمر حتى سنوات ريغان، وكان محوره يدور حول الكيفية التي يتم التعامل فيها مع الاتحاد السوفياتي. وأما التيار الشتراوسي (نسبة الى الفيلسوف اليهودي الالماني ليو شتراوس) في المحافظية الجديدة، فقد رأى ايضاً الى نظام الحكم بوصفه مبدأ مركزياً منظّماً للسياسة.

ثانياً: الإيمان بأن قوة أميركا قد استخدمت ويمكن ان تُستخدم من اجل

أغراض أخلاقية، وان الولايات المتحدة تحتاج الى أن تبقى منغمسة في الشؤون الدولية. وهناك بعدٌ واقعي للسياسة الخارجية لدى المحافظين الجدد، وهو يقع ضمن فهم قوامه، أن القوة ضرورية في الغالب لتحقيق الأغراض الأخلاقية، وعلى الولايات المتحدة بوصفها القوة العالمية المهيمنة، مسؤوليات خاصة في مجال الأمن. وكان هذا صحيحاً في البلقان في التسعينات من 1990، مثلما كان صحيحاً في الحرب العالمية الثانية، وفي القتال ضدهتلر.

ثالثاً: عدم الثقة في مشاريع الهندسة الاجتماعية الطموحة. في حين أن النتائج المشؤومة لجهود التخطيط الاجتماعي هي موضوع ثابت في فكر المحافظين الذين يربطون نقد الستالينية في الأربعينيات مع ارتياب في شأن «المجتمع العظيم» في الستينيات.

رابعاً: إرتياب في مشروعية القانون الدولي وفي فاعليته، وفي مشروعية مؤسساته وفي فاعليتها، وفي تحقيق الامن او العدالة. وفي حين دُعيَ المحافظون الجدد بالويلسونيين، فإن وودرو ويلسون نفسه كان سعى الى ترويج الديمقراطية من خلال إنشاء عصبة الامم. والحلم في ان يتجاوز سياسة القوة واستبدال القانون الدولي بها هو حلم يشارك فيه اليوم الليبراليون الأميركيون والكثيرون من الاوروبيين. ويتفق المحافظون الجدد في هذا الخصوص مع الواقعيين في ان القانون الدولي هو اضعف من ان ينفذ القواعد ويضبط العدوان. وهم ينتقدون الامم المتحدة انتقاداً شديداً سواء أكانت وسيطاً، أو منفذاً للعدالة الدولية. على ان عدم الثقة بالامم المتحدة لا يمتد بالنسبة لمعظم المحافظين الى جميع اشكال التعاون المتعدد الاطراف. فمعظم المحافظين الجدد على سبيل المثال، ميّالون ميلاً مؤيداً لحلف ويؤمنون بالعمل الجماعي المشترك المستند الى المبادئ الديمقراطية المشتركة[16].

(16) فرانسيس فوكوياما - اميركا على مفترق الطرق، ما بعد المحافظين الجدد - مكتبة العبيكان - الرياض - السعودية 2007 ترجمة محمد محمود التوبة (ص 74 - 75)

دحض نظرية «الهيمنة الخيّرة»

لقد كانت المبادئ الاربعة المذكورة محل إجماع ومشاركة واسعة، ليس فقط من جانب المحافظين الجدد، وإنما إيضاً من جماعات مهمة اخرى تنتشر عبر طيف الحياة السياسية الأميركية. ولعل مبدأ السياسة الخارجية المستندة الى الديمقراطية، والداعية الى التعاون من اجل خير الأمم، هو مبدأ كان مشتركاً وتبنّاه كثيرون من الحزب الديمقراطي، ذلك بأنه يعكس الإيمان بالأهداف الأخلاقية النهائية للقوة الأميركية. في حين كان التشاؤم حيال الهندسة الاجتماعية امراً مشتركاً بين الديمقراطيين واليمين المحافظ. غير ان ما يشير اليه فوكوياما في تحليله لاختبارات المحافظين الجدد (قبل بلوغهم البيت الابيض وفي اثنائه) يبيّن أن هؤلاء كانوا ميّالين بعد انهيار الشيوعية الى ضربٍ من الغلواء في تقدير مستوى التهديد الذي يواجه الولايات المتحدة. ففي اثناء الحرب الباردة اتخذوا على هذا النحو - والكلام له - الرأي المظلم من التحدي الذي طرحه الاتحاد السوفياتي واعتبروه تهديداً عسكرياً، وشراً اخلاقياً معاً. وبعد انحلال الاتحاد السوفياتي، وبروز أميركا بوصفها القوة الكبيرة الوحيدة في العالم استمر كثيرون من المحافظين الجدد في رؤية العالم مسكوناً بتهديدات خطيرة وغير مقدّرة حقّ قدرها (. . .) وكمعظم الأميركيين كان لدى المحافظين الجدد منذ البداية احساس قوي بالاستخدامات الأخلاقية الممكنة للقوة الأميركية. وهي الطرائق التي سبق ان استخدمت طوال تاريخ الجمهورية لمقاتلة الاستبداد، ولتوسيع الديمقراطية. ولكن الإيمان بإمكانية ربط القوة والاخلاق جرى تحويله الى مغالاة هائلة في التشديد على دور القوة، وعلى وجه التخصيص القوة العسكرية منها، بوصفها وسيلة لتحقيق الاهداف القومية لأميركا(17).

في اللحظة التي وطأت اقدامهم مركز صناعة القرار سوف تنتقل فلسفة

(17) فوكوياما - المصدر نفسه ص 90

المحافظين الجدد السياسية من طور التنظير من بُعد، الى طور الاختبار المباشر. فلقد بات الحلم بالنسبة اليهم واقعاً عيانياً. وآن لهم ان يوظفوا جل مخزونهم الايديولوجي المؤجلّ ضمن إجراءات بلغت ذروتها على ارض الشرق الاوسط الواسع.

كثيرون من ايديولوجيّيهم نبّهوا في اواخر التسعينيات الى ان على الولايات المتحدة ان تستخدم قوتها العسكرية لتأكيد نظـرية «الهيمنة الخيّرة» وخصوصاً على الاجزاء المهمة من العالم من الناحية الاستراتيجية. وحين غزت ادارة بوش العراق. لم ترَ نفسها تتصرف انطلاقاً من المصلحة الذاتية الضيقة، بل بصفة كونها تقدم خيراً كونياً عاماً. ولعل إيمان الإدارة بدوافعها الطيبة انما يشرح الكثير من فشلها في توقع رد الفعل الدولي السلبي جداً على الحرب. وينقل فوكوياما عن مانكور اولسين في كتابه «منطق العمل الجماعي الصادر في العام 1965، قوله «إن اعمال الخير العامة يتم توفيرها في الغالب من طرف واحد او من جانب فاعل مفرد هو اقوى من الآخرين بكثير، ويسمح للاّعبين الآخرين بالركوب المجاني، لأن الفاعل يمتلك مصلحة قوية في تأمين تلك الاعمال الخيّرة. ثم يعلق فيقول ان كثيراً من الناس جادل في كون هذا الموقف هو نفسه موقف أميركا في مواجهة حلفائها في كل من اوروبا وآسيا في اثناء الحرب الباردة. وقد انتج هذا الموقف مَيلاً عقلياً احادي الوجه من جانب اعضاء ادارة بوش عند الذهاب الى غزو العراق، وبهذا المعنى فإن الإدارة المذكورة لم تقم بالانقطاع عن النماذج السابقة للسياسة الخارجية الأميركية الا بأقل مما اوحى به الكثيرون»[18].

لقد ظهرت اطروحة «الهيمنة الخيّرة». . ولا سيما بعد ان قطعت مسافة يسيرة في حقول التجربة، وكأنها تمشي بسرعة مذهلة نحو خيبات متواترة. فقد اخفقت ادارة بوش ومعها سائر احياز المحافظية الجديدة، الثقافية والفكرية والسياسية في توقع ردة الفعل العالمي على الحرب قبل دخولها.

(18) فوكوياما - المصدر نفسه ص 136

كان ثمة اخفاق واضح من جانب النخب الأميركية، وخصوصاً منها المؤثرة على مركز القرار، في تصور الاتجاهات التي ارتكزت عليها معاداة أميركا. وخصوصاً في الفترة ما بين نهاية الحرب الباردة واندلاع حرب العراق. ولقد بدا ان الأميركيين اعتادوا على صورتهم غير المحبوبة في اثناء الحرب الباردة، وكان من اليسير ان تُستبعد التجليات الجديدة للشعور بمعاداة الأميركيين بوصفها تفشياً جديداً لعداوة مألوفة من جانب الجناح اليساري لقوة الولايات المتحدة ولأهدافها[19].

تبعاً لهذه المقدمة سوف تبدو الفكرة القائلة إن الإدارة الناجحة للحرب الباردة هي عامل تسديد لنظرية الهيمنة الخيّرة، مجرد فكرة غير منطقية في عالم التحولات الجيو - استراتيجية الحضارية. ذلك بأنها فكرة تحتوي على عيوب بنيوية وتناقضات تجعلها بلا سَنَد. وبالتالي لا يمكن الدفاع عنها لتكون قاعدة طويلة الأمد من اجل تصوّر مفاهيم السياسة الخارجية الأميركية. وها هو فوكوياما يبيّن ثلاثة اسباب ذات طابع إشكالي تظهر بطلان نظرية «الهيمنة الخيّرة».

اولاً: تقوم «الهيمنة الخيّرة» على الإيمان بالاستثنائية الأميركية، تلك التي يجدها معظم غير الأميركيين ببساطة دعوى غير قابلة للتصديق. واما فكرة ان الولايات المتحدة تتصرف على مسرح العالم تصرفاً نزيهاً، هي فكرة ليست موضع تصديق واسع لانها في معظمها مشكوك في صحتها وصدقها. وفي الحقيقة يستحيل ان تكون صحيحة اذا وفّى القادة الأميركيون بمسؤولياتهم تجاه شعبهم. فالولايات المتحدة قادرة اذا صدقت على التصرّف تصرفاً كريماً في توفير اعمال الخير. وهي اقرب الى تحقيق مثل هذا التصرف شرط مطابقة مُثُلُها العليا مصالحها الخاصة. لكن رأياً كهذا يعود ليقول إن الولايات المتحدة هي قوة كبيرة ايضاً، ولها مصالح غير متصلة بأعمال الخير العالمية. وهذا يوجب على الرؤساء الأميركيين ان يحموا المصالح الاقتصادية التي غالباً ما تكون

(19) فوكوياما - المصدر نفسه ص 144

مصالح ضيقة لدوائر انتخابية خاصة. وعليهم ايضاً ان يكونوا قَلقِين على امدادات الطاقة، كما عليهم ان يستجيبوا لطلبات الدوائر الانتخابية العرقية المتنوعة داخل الولايات المتحدة، في حين يحتاجون الى التعاون المبذول من طائفة متنوعة من البلاد بغض النظر عن الكيفية التي تعامل بها هذه البلاد مواطنيها. هناك الكثير من اعمال الخير العامة العالمية، ابتداءً من حفظ السلام الافريقي، الى تخفيف انبعاثات الفحم، والتي تجدها الولايات المتحدة شاقة جداً فلا تستطيع ان توفرها.

ثانياً: مع «الهيمنة الخيّرة» يبرز الافتراض المسبق لمستوى عالٍ من القدرة من جانب القوة المهيمنة. وكثيرون من نقاد ادارة بوش في اوروبا والشرق الاوسط قبل حرب العراق لم يناقشوا الحرب على اسس نظرية مجردة معيارية (اي انها لم تكن لتحظى بقرار ثان من مجلس الامن)، بل انهم، يتساءلون عما اذا كانت ادارة بوش تفهم حقيقة ما كان منطوياً ضمناً في التحول السياسي الشرق اوسطي الذي كانت أميركا تضطلع فيه؟ وفي هذه المخاوف كان النقاد ذوي بصائر فعلاً.

ثالثاً وأخيراً، هي أن المشكلة مع «الهيمنة الخيّرة» تكمن في السياسات المحلية الأميركية. فهناك حدود صارمة لاهتمام الشعب الأميركي بالشؤون الخارجية، والرغبة في تمويل مشاريع تقع فيما وراء البحار وليس فيها منافع واضحة بالنسبة للمصالح الأميركية. لقد بدّلت أحداث 11 سبتمبر الحسابات في عدة اتجاهات، ووفّرت الدعم الشعبي لحربين متتاليتين في الشرق الاوسط، وساهمت في زيادة الإنفاق على الدفاع. ولكن قابلية هذا الدعم للدوام الطويل هي قابلية غير مستيقنة: فعلى الرغم من ان معظم الأميركيين يريدون ان يعملوا ما هو ضروري لجعل مشروع اعادة بناء العراق ينجح، فإن عواقب الحرب لم تزد الشهية الشعبية نحو تدخلات اضافية مكلفة. وهناك مشكلة اضافية اعمق تكمن في حقيقة ان الأميركيين يشعرون في قرارة انفسهم انهم ليسوا شعباً امبراطورياً. فالهيمنة الخيّرة نفسها تتصرف بلا رحمة، ذلك ان الأميركيين

يحتاجون الى قوة لا تأتي بسهولة الى شعب راضٍ رضاً معقولاً عن حياته الخاصة وعن مجتمعه[20].

بريجنسكي مستأنفاً نقده

في كتابه الصادر تحت عنوان «فرصة ثانية» يؤكد زبيغنيو بريجنسكي مستشار الامن القومي في عهد الرئيس كارتر على اهمية عامل الوقت في حسم مسألة اضطلاع الولايات المتحدة بقيادة العالم، محذراً من ان الاوضاع المتردية في العراق واحتمالات توسيع دائرة الحرب في الشرق الاوسط عبر مهاجمة ايران ستؤدي الى ان تذكر كتب التاريخ ان عمر الولايات المتحدة كقائدة للعالم كان قصيراً جداً.

وعلى طريقة تقييم اداء الطلاب بمنحهم علامات دراسية، قوّم بريجنسكي ممارسة ثلاثة رؤساء في حكم البيت الابيض في مجال السياسة الخارجية، ووضع الولايات المتحدة في موقع قيادة العالم، حيث منح بوش الاب الدرجة الاعلى وهي «بي»، بينما حل كلينتون ثانياً بمنحه درجة «سي»، واخيراً جوج بوش الابن الذي منحه علامة «اف»، وهي تعني الرسوب في الامتحان. ويعتبر بريجنسكي انه على الرغم من ان بوش الاب كان اول قائد احادي للعالم، الا انه لم يحرك خبرته ومهارته الدبلوماسية العالية بهدف بلورة رؤية استراتيجية واضحة تدرك وتلائم تاريخية المرحلة والفرصة، فيما افتقر اداء كلينتون، الذي يصفه بريجنسكي بأنه الاذكى والاكثر استشرافاً للمستقبل، الى الثبات والاستمرارية في استخدام قوة وقدرات الولايات المتحدة في ترسيخ قيادة العالم.

اما عن بوش الابن، فيقول بريجنسكي، انه يتسم بالشجاعة ورباطة الجأش

---

(20) فوكوياما - المصدر نفسه ص 152

لكنه يفتقد فهم ومعرفة تعقيدات السياسة الخارجية، فضلاً عن سيطرة الافكار العقائدية على طريقة تفكيره.[21]

التحولات العالمية العشرة

وفي سياق مطالعاته النقدية لسلوك المحافظين الجدد، يلاحظ بريجنسكي عشرة تحولات رئيسة شهدها العالم منذ العام 1990 أي خلال انحسار التنافس الدولي، حيث لم تستطع السياسة الخارجية الأميركية الاستفادة منها او التفاعل معها على النحو الافضل، وهي انهيار الاتحاد السوفياتي، والانتصار الأميركي العسكري في حرب الخليج الاولى في 1991، واتساع حلف «الناتو» شرقاً بانضمام المزيد من دول اوروبا الشرقية ليصبح بذلك اكثر التجمعات الدولية تأثيراً ونفوذاً على الساحة العالمية.

ومن بين التحولات الاخرى، دخول مفهوم العولمة حيّز التطبيق من خلال تأسيس منظمة التجارة العالمية، وصندوق النقد الدولي، اضافة الى الازمات المالية للنمور الآسيوية في التسعينيات، فضلاً عن حرب الشيشان، والحملة على كوسوفو، ومنطقة البلقان، وانتخاب فلاديمير بوتين رئيساً لروسيا، وغض الطرف من جانب الولايات المتحدة وغيرها عن الانشطة النووية الهندية والباكستانية.

ويصل بريجنسكي في تعداده للتحولات العالمية العشرة الى هجمات الحادي عشر من ايلول/سبتمبر وانقسام الحلف الاطلسي ازاء الحرب في العراق، وفشل الاتحاد الاوروبي في تطوير هويته السياسية ونفوذه، والانطباع الذي ساد العالم في مرحلة التسعينيات بالتفوق العسكري الأميركي، واوهام واشنطن من ان تفوقها العسكري واتساع نفوذها قد تحطما على صخور الفشل في العراق، مشدداً على ان الشرق الاوسط قد اصبح في الوقت الراهن مقياس نجاح او فشل قيادة الولايات المتحدة للعالم.

---

(21) الكلام المنسوب لبريجنسكي نقلاً عن موقع «تقرير واشنطن» - راجع ايضاً «السفير» البيروتية - الخميس 5 نيسان/ابريل 2007

ويقارن بريجنسكي بين صورة الولايات المتحدة في العالم في العام 1989 عند سقوط حائط برلين وانهيار الاتحاد السوفياتي، حين كانت صورتها مقبولة في كافة انحاء العالم بلا منافسة او كراهية، والوضع الذي استقرت عليه حالياً، حيث باتت مشاعر العداء لواشنطن القاسم المشترك بين معظم شعوب العالم. ويصف حرب العراق بالكارثة الجيوبوليتيكية التي صرفت الانتباه والموارد من مجابهة الارهاب في افغانستان وباكستان، وادت الى زيادة التهديدات الارهابية الموجهة ضد الولايات المتحدة بإثارة مشاعر الاستياء وتوفير تربة خصبة لتجنيد المزيد من الارهابيين، معتبراً انه لن يكون للولايات المتحدة ما هو اسوأ من تبنيها سياسة ينظر اليها العالم على انها امتداد للحقبة الاستعمارية.

واللافت أن بريجنسكي أفصح هذه المرة عن تشاؤم بيِّن حيال المستقبل المنظور لأميركا. وهو المعروف بأنه صاحب الفلسفة المتفائلة التي اسست نظرياً وايديولوجياً لسقوط الشيوعية.

ثم يخلص بريجنسكي الى ان الموقف المتدهور لوضع الولايات المتحدة في العالم الآن سيحتاج لسنوات من العمل الجاد والخلاق لإعادة الاعتبار لشرعية ومصداقية الولايات المتحدة كقائدة للعالم. وذلك يعني ضرورة ان يتحلى الرئيس المقبل للولايات المتحدة بمهارات دبلوماسية استراتيجية، وغير تقليدية كي يصوغ سياسة خارجية تتناسب مع التحولات الكبرى منذ نهاية الحرب الباردة ودخولنا عصر العولمة[22].

بوش مسحوراً بالمحافظية الجديدة

لقد قيل الكثير عن صلة الرئيس جورج بوش الثاني بالمحافظين الجدد. منهم من اعتبره عضواً اصيلاً في التيار، ومنهم من رأى اليه كشخصية عارضة عليهم. غير ان اختباراته على مدى ولايتين متتاليتين في البيت الابيض تمنح

(22) المصدر نفسه

الباحث فرصة ادراك الخط البياني لعلاقة الرئيس بالمزاج الايديولوجي والسياسي والديني لهؤلاء. خلال حملته الانتخابية، وتحديداً في الاشهر الاولى بعد استلامه منصب الرئاسة، كانت افكار بوش في السياسة الخارجية تميل بوضوح نحو افكار جيمس بايكر وبرنت سكوكروفت وليس المحافظين الجدد. الا ان هذا الامر سوف يتبدّل بسرعة مدهشة بعد حادثة 11 ايلول/ سبتمبر 2001 . وهي الحادثة التي وجد المحافظون الجدد فيها فرصتهم لجمع الناس حول افكارهم واقناع الرئيس بها. فبعد تسعة ايام فقط وقف الرئيس بوش امام اجتماع مشترك لمجلس النواب والشيوخ ليعلن ان «اية دولة، في اية منطقة، عليها الآن ان تتخذ قرارها الصارم: إما معنا وإما مع الارهابيين». على هذا النحو سوف يتبنى بوش فكرة ان المشكلة في العالم هي «الصراع بين الخير والشر». وفي خطاب ألقاه في تشرين الثاني/نوفمبر 2001 في قاعدة فورت كامبيل وسع دائرة الشر لتشمل كل من يوفر ملاذاً (او ملجأ) للارهابيين (من دون تعريف الارهاب) اذ اعلن «ان لدى أميركا رسالة الى دول العالم: اذا وفرتم ملجأ للارهابيين فأنتم ارهابيون». وفي خطاب حالة الاتحاد الذي ألقاه امام الكونغرس في كانون الثاني/ يناير 2002 اعلن الرئيس بوش ان ايران، والعراق، وكوريا الشمالية هي الدول التي يتشكّل منها «محور الشر» وانه لن يسمح لها بالحصول على اسلحة نووية او بيولوجية او كيماوية. وفي حزيران/ يونيو من السنة نفسها ألقى خطاباً في اكاديمية وست بوينت العسكرية، حيث ادخل فكرة اخرى من افكار المحافظين الجدد عن «الضربة الاستباقية»، وتبنى في هذا الخطاب ايضاً فكرة «الهيمنة» فرأى ان لدى «أميركا قوة عسكرية غير قابلة للتحدي وستبقى عليها، هكذا - مما سيجعل سباق التسلح من دون جدوى وسيحصر المنافسة في اطار التجارة والسعي وراء السلام». وختم فكرته بالقول إن «الحقيقة الاخلاقية هي نفسها في كل الثقافات، وفي كل وقت وكل مكان»، مضيفاً تبعاً لنهج فوكوياما في كتابه «نهاية التاريخ» «ان القرن العشرين انتهى بمثال واحد للتقدم» اي المثال الغربي والأميركي.

كل هذه الافكار وغيرها من افكار المحافظين الجدد اصبحت سياسة أميركا الرسمية عندما دخلت في وثيقة البيت الابيض حول «استراتيجية الامن القومي» التي صدرت في 21 ايلول/ سبتمبر سنة 2002، اي بعد حوالي سنة فقط من الهجوم على مركز التجارة العالمي والبنتاغون. لقد احتوت الاستراتيجية المشار اليها على افكار الاحادية وتهميش الامم المتحدة والتحالفات الآنية، والهيمنة، واستعمال القوة، وغيرها وسميت هذه الافكار مجتمعة بـ«عقيدة بوش». بعد ذلك بقليل سيعلن السيناتور الديموقرطي جوزيف بايد رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ في حينه ان المحافظين الجدد استطاعوا الاستيلاء على قلب الرئيس وعقله، وهم الآن يسيطرون على اجندة السياسة الخارجية الأميركية»[23].

وثمة من المشتغلين في الشؤون الأميركية من يذهب مسافة ابعد في تحديد معايير صلة القربى، ليبيّن السمات الرئيسة لسياسة المحافظين الجدد الخارجية التي تبناها الرئيس بوش بعد حادثة 11 ايلول / سبتمبر 2001 . وهي على الشكل التالي:

اولاً: الهيمنة (Hegemony): ان الولايات المتحدة - بعد انهيار الاتحاد السوفياتي - هي القوة العظمى الوحيدة في العالم، وعليها ان تثبت وتدعم هيمنتها على العالم لتكون هذه الهيمنة دائمة (أو لأطول مدة ممكنة)، وخيّرة في آن واحد. Permanent and benevolent global hegemony، وان تعمل على اعادة بناء العالم على صورتها، وان تمنع بالقوة إذا لزم الأمر، أية دولة من الهيمنة الاقليمية، أو من منافستها على مركزها في قيادة العالم. وهذا امر ينطبق على الدول الكبرى مثل الصين والهند وروسيا والمانيا واليابان.

ثانياً: القوة العسكرية (Military Force): تتطلب هذه الهيمنة ان تتابع

(23) رياض طبارة - صعود المحافظين الجدد وافولهم وتداعياتهما السياسية- السفير البيروتية - 14/ 5/ 2007

الولايات المتحدة تدعيم قوتها العسكرية وتوسيع انتشارها في العالم واستعمالها للوصول الى الهيمنة العالمية الدائمة الخيّرة، وتمكينها من القيام بعدة حروب في آن واحد، اذا تطلب الأمر، ويتضمن ذلك تطوير اسلحة نووية وبيولوجية محددة الاهداف كما سبق ذكره.

ثالثاً: الاحادية (Unilateralism): ان التغيير في ميزان القوى العالمي جعل النظام العالمي في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية بالياً، لا سيما لجهة صلاحيات مجلس الامن. لذا على أميركا ان تتعاون مع مجلس الامن فقط عندما يساندها المجلس، والا فعليها ان تتصرف منفردة او مع اي تحالف يتقرر حسب الحالة والحاجة. وفي مقال لريتشارد بيرل في جريدة الغارديان الانكليزية في آذار/ مارس 2003 بعنوان «الحمد لله على وفاة الامم المتحدة»، يترك بيرل للامم المتحدة المساعدات الانسانية وان تكون منبراً للثرثرة على ضفاف نهر الهدسون». «اما ان تترك القرارات السياسية والعسكرية لدول امثال سوريا والكاميرون وانغولا وروسيا والصين وفرنسا فهذا يشكل برأيه خطراً كبيراً».

رابعاً: الاستباقية (Pre - emption) ان قوة الولايات المتحدة العسكرية سنردع اية دولة من القيام بمواجهة عسكرية معها، ولكنها لن تزيل اخطار العمليات الارهابية كتلك التي حصلت في 11 ايلول/ سبتمبر 2001. لذلك يجب على الولايات المتحدة ألا تنتظر حصول مثل هذه الهجمات قبل ان تتحرك بل عليها ان تستبق الامور وتقوم بضرب اية دولة غير صديقة، قد تشكل خطراً عليها اذا هي اقتنت اسلحة دمار شامل، او آوت مجموعات ارهابية قد تضرب الداخل الأميركي.

خامساً: تغيير انظمة الحكم (Regime Change). ان عملية اعادة تنظيم العالم ودمقرطته ومنع الاعمال الارهابية ضد الولايات المتحدة واصدقائها، والحفاظ على الهيمنة العالمية الدائمة والخيرة، لا بد وان تتطلب تغيير بعض الانظمة المعادية ليس فقط في البلاد «المارقة» كبلاد «محور الشر» مثلاً بل ايضاً في بلدان اخرى كالصين.

سادساً: الإستثنائية (Exceptionalism): عندما يعترض البعض على ان مبدأ

الضربة الاستباقية وتغيير انظمة الحكم سيوصلان العالم الى الفوضى، اذا ما دخل في القانون الدولي، يرد المحافظون الجدد بالقول ان هذا المبدأ لا ينطبق سوى على الولايات المتحدة، القوة العظمى الوحيدة في العالم راعية السلام الأميركي (Pax Americana)[24].

قد تكون هذه الموضوعات الستة سبباً في هبوط الممارسة الأميركية الى منحدرات الخيبة، الا ان التخلي عنها ومفارقة حقولها المقدسة يبدو عملاً في غاية المشقة. فالامر في هذه الحال سيمكث لحقبة غير قصيرة في تلك المنطقة الرمادية بين الهبوط والرغبة في استئناف الهيمنة وعلى غالب التقدير فإن مثل هذا الحال ستدوم إلى أجل غير منظور، حتى بعد وصول أفكار المحافظين الجدد الى حافة القبر...

وأنّى كان مآل الحادث العالمي الجلل، فلم يعد لدى اصحاب نظرية «الهيمنة الخيّرة» على ما يبدو، متسع اضافي من ايديولوجيات التبرير. ذلك بأن معاينة نتائج الاختبارات المدوية لحروب الخيبة التي خيضت قبل وبعد الحادي عشر من ايلول/سبتبر2001، تدفع الى اليقين بحقيقة الاضطراب الذي اصاب عالم صناعة الافكار الأميركية التبريرية لحروب المستقبل. مع ذلك، ثمة، على ما يلوح في العقود الآتية، ضروبٌ جديدة من استراتيجيات الاحتواء والغلبة قد لا تحتاج يومئذٍ الى مبرّر يذكر...

(24) رياض طبارة - المصدر نفسه.

خاتمة

أميركا بوصفها امبريالية دينية

كل الكلام الذي يجري حول مهمة أميركا في العالم يظل محفوفاً بالنقص ما لم يتعلق بالأصل الروحي والفلسفي الذي قامت ولادتها عليه.

لقد ذهبنا الى تظهير هذا الاصل فسمّيناه «لاهوت الغلبة». وهذا توصيف انطولوجي (وجودي) للظاهرة الأميركية، لا يفارق حقول التجربة.

وأما الصفة الرسالية لأميركا فهي ليست مجرد عارض لفظي أملته شروط تسويغ الهيمنة على العالم، بل انها تعكس الهندسة الفلسفية لكائن جوهري بدا كما لو أنه حطّ بصورة استثنائية على «أرض الله».

حين فارق العالم القرن العشرين احتدم السؤال حول ماهية أميركا. وبهذه المفارقة تحولت تلك الدولة الظاهرة الى حيّز مولّد للأسئلة. ثم اشتد وقع السؤال الى الحد الذي لم يعد بمقدور التفلسف السياسي أن يستأنف حراكه من دون الاتصال بحاضرية أميركا في أزمنة العالم.

غاية هذا الكتاب هي الاقتراب من أميركا بوصفها اطروحة سياسية دينية. وفي مسعى كهذا وجدنا ان نأخذ بسؤال يستتر حيناً ثم يظهر حيناً آخر، إلّا انه ينطوي على شيء من الإغواء الفلسفي: ما هي أميركا؟

لا ريب في أن السؤالَ فلسفيٌ بامتياز. لأنه يسعى الى الجواب عن ماهية ظاهرة متموضعة في زمان ومكان محددين. وضمن حدود هذا التعريف أمكن النظر إلى أميركا كتعيُّن تاريخي. وبالتالي، كظاهرة سارية في الزمان وراسخة في المكان. أي عن واقع وحقيقة في آن. وأميركا تُبدي تحيُّزها إلى الأمرين معاً، ولو اختلفا من جهة المعنى والمفهوم. فالواقع او «الواقعية» في التداول الاصطلاحي الحديث، يطلق على ذات الواقع ونفس الامر. وكلما قلنا في

ظاهرةٍ ما، على أنها واقعية، عنينا بهذا نفس امر تلك الظاهرة. اما الحقيقة فهي في المصطلح الفلسفي ترادف «الصدق» او «الصحة» التي تطلق على القضية الذهنية حيث تطابق الواقع. في حين ان «الخطأ» او «الكذب» فيطلقان على القضية التي لا تطابق الواقع.

ولقد فسر الفلاسفة القدماء والحديثون مفهوم الحقيقة او الصدق او الصحة بالتفسير الذي تقدم. اي انهم كلما وسموا فكرة ما بالحقيقية او الصحيحة، او الصادقة، ارادوا مطابقتها للواقع. واذا قالوا خاطئة او كاذبة ارادوا بذلك عدم مطابقتها للواقع.

مؤسس المذهب الوضعي اوغست كونت يقرِّر «ان الحقيقة هي عبارة عن الفكرة التي تتفق عليها جميع الاذهان في زمان واحد». فاتفاق جميع الاذهان في زمان واحد مؤشر على الحقيقة لديه، بل هو يذهب الى ابعد من ذلك ليقول إن الحقيقة ليست سوى ذلك.

لكن وليم جيمس الفيلسوف الأميركي وعالم النفس ومؤسس المدرسة النفعية (البراغماتية) فلديه تعريف تبدو فيه الفلسفة ذات مهمة عيانية مباشرة. فها هو يعرِّف الحقيقة بنحو آخر ليرى اليها على انها عبارة عن الفكرة التي لها اثر عملي نافع. وهكذا وضع مفهوم النافع والمفيد مرادفاً لمفهوم الحقيقة. فالفائدة العملية ليست مؤشراً على الحقيقة، وانما هذه الاخيرة ليست امراً آخر سوى النافع والمفيد.

سوف نتوقف عند هذا التعريف للحقيقة، كونه يعني اصل الاطروحة التي ذهبنا الى مقاربتها في هذا الكتاب. اي ان أميركا واقعة تاريخية وفكرة تبادلتا سَيْريَّة تفاعل، وتبلور، ونضوج، ليولد من جراء تلك السَيْريّة مكانٌ هو ادنى الى مسرح فسيح للملحمة الفلسفية الدينية منه الى التشكّل الجيو - سياسي الكلاسيكي.

يشبه سؤال ما هي أميركا، سؤال ما هي اليونان بأنحاء ما. لكن لكل من السؤالين سَمْتُه الخاص. فإذا كان السؤال الأميركي مستدعى من كونه يترجم موضوعة جيو سياسية دينية، فالسؤال اليوناني يُنظر اليه كتمثيل لمقولة

ميتافيزيقية. لكنهما يشتركان ويتقاطعان على مهمة التأسيس لتاريخ. من اجل ذلك فإن سؤال ما هي أميركا ينبغي ان يُسمع بما هو تنويع خافت ومشكّل للسؤال الرومانسي «ما هي اليونان». ذاك الذي ظل يحرّك الفلسفة الاوروبية من كانط الى فوكو ودولوز، مروراً بهيغل وشيلنغ الى نيتشه وهايدغر وهوسرل. (. . .) وهكذا فإن الفلاسفة الذين تصدوا للدلالة الفلسفية لأميركا بوصفها شكلاً نظرياً هو مدعاة للتفكير الجوهري في ماهية الانسان الحالية. وليس فضولاً جيو - سياسياً عادياً، فلقد ارتقت أميركا منذ هيغل الى رتبة مقوّم من مقومات جغرافية الروح التي صارت تتحكم اليوم في بنية الانسانية الحالية. ولذلك فإن أميركا هي «مفهوم» بالمعنى القوي للتسمية: بيد ان ما هو مثير حقاً في هذه الدلالة هو كون أميركا ارتبطت في كل مرة بمسألة الحرب: ذلك ان السمة الحاسمة لأميركا بالنسبة الى عدد غير يسير من فلاسفة الحداثة وما بعدها، هي العلاقة المفهومية والماهوية والجيو - فلسفية بالحرب[1]. ولذا فليس شيئاً من دون دلالة فلسفية ان يرى هيغل الى أميركا بوصفها حرباً تؤدي مهمة ماهوية في مسيرة الروح. وهو الاجابة بذلك كان يتوخى على السؤال الجوهري المتعلق بالاصل الروحي لأميركا، اي بالحرب التي خاضها الرجل الابيض ضد الساكن الاصلي.

التأويل الهيغلي لأميركا

الذين مضوا في تأويل الجواب الهيغلي وجدوا ان أميركا قامت على حكم قيمة حضاري وميتافيزيقي يقضي بتفوق الانسان الاوروبي على الانسان الهندي والافريقي. . . قالوا إنها ليست حرباً أداتية حول الحكم، او حرباً دينية حول المقدس، بل هي حرب من اجل تحقيق نزعٍ محضٍ للاقليمية و«الوطنية» التي

---

(1) فتحي المسكيني، الفيلسوف والامبراطورية، في تنوير الانسان الاخير، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2005، ص 76.

يتمتع بها الساكن الاصلي في ارضه... ان الامر يتعلق حسب هؤلاء بحرب بدائية معاصرة، وجدت في سيادة الذات الحديثة على الموضوع اساسها الاخلاقي[2].

غير ان ما هو مفارق في منطق النشأة الأميركية، أنها قامت ايضاً واساساً على الانسلاخ عن أصلها، والبدء بأصل جديد. كما لو كانت ميتافيزيقا التأسيس محمولة على محو تاريخ غير جدير بالذكر، وإثبات تاريخ ممتلئ بالجدوى.

ذلك ما سوف يُمنح الفيلسوف الالماني مارتن هايدغر عناية فلسفية خاصة. لقد رأى ان العالم الانكلوساكسوني للأمركة قرر تدمير اوروبا. ما يعني برأيه، تدمير الوطن. اي تدمير البدء الخاص بالعنصر الغربي. وهذا ما يفسره كلام ارنست رينان (1823 - 1892) حول ضرورة نسيان ما يمكن تسميته بالأخطاء التاريخية، باعتبار ان مثل هذا النسيان هو امر جوهري لولادة الامم الحديثة.

هل يعني هذا أن الجذرية التي حكمت لاهوت التأسيس هي العصب الذي يرفد ويغذي الشعور العميق بالفرادة والاستثناء؟

لم تشهد القيامة الأميركية، لا في ازمنتها الابتدائية، ولا في تطوراتها اللاحقة، اي انفصال بين الديني والدنيوي. كان ثمة تركيب وتداخل وتناسج في غاية التعقيد بين النزعات التي تؤلف الشعور الإجمالي لساكني الارض الجديدة. فالإيمان الديني الذي اخرجه الطهرانيون الانكليز على صورة منظومة لاهوتية تستجيب لحاجات السكان الروحية والمعنوية، لم ينفصل في حركته عن الشعور القومي. والكلام على الميتافيزيقا السياسية التي تسِمُ النشأة الأميركية هو كلام ينتسب الى الرؤية الماهوية لأميركا. ذلك ما حدا بـ«دو توكفيل» لكي يستنتج من وحدة الدين والسياسة ظهور احدى اكثر ركائز الديموقراطية غرابة في التاريخ السياسي الحديث.

ولنا كذلك ان نتبيّن السياق اياه، مما دلّت عليه خاصية الوطن الأول لأميركا. فسنرى كيف تمكنت بريطانيا العظمى من ان تحتوي قيم الحداثة

(2) المسكيني، المصدر نفسه، (ص 79).

والديموقراطية والعلمنة، في ظل عيش مديد مع سلطة روحية. حيث قيّض للملكة ان تضطلع بزعامة الدولة والكنيسة في آن.

قد تُحمل الظاهرة الأميركية في بعدها الميتافيزيقي - السياسي على سيرة الكنيسة المؤسسة في القرون الميلادية الأولى. فهذه الكنيسة شكّلت نمطاً تاريخياً من تآلف الجماعة الدينية والجماعة السياسية. وانبثقت من الالتقاء المعقّد للجماعة الدينية المسيحية بالدولة الامبراطورية الرومانية. وفي فترة تاريخية لاحقة، تحديداً مع انهيار الامبراطورية الرومانية الغربية، اعتمدت الجماعة الدينية المسيحية نفسها، الجهاز السياسي، والهيكلية الادارية والقانونية للدولة الامبراطورية حيث تحولت في خلال هذه العملية الى ديانة خلاصية مطبوعة بالبنية السياسية للدولة الامبراطورية.[3] . . . .

لا شك بأن مثل هذا الطراز الكنسي - الامبراطوري لن يظهر في النطاق التاريخي المسيحي الحديث بيسر. ربما باستثناء الديانتين الخلاصيتين العالميتين الاسلام والبوذية اللتين آلفتا بين الدين والسياسية، لم يكن ثمة متسعٌ في الغرب الاوروبي المسيحي لأمثلة مشابهة.

لكن في أميركا سيعثر اللّاهوت السياسي على منطقة تفكير يتموضع فيها الايمان الديني ضمن مؤسسات الدولة والمجتمع. هذه المنطقة هي نفسها التي سُمّيت بما يُعرف بـ«الدين المدني». وإذا كان هذا المفهوم ارتبط اساساً بأعمال جان جاك روسو، فإن تطوراته اللاحقة ستتخذ نَسَقاً أكثر وضوحاً وتحيُّزاً على يد عالم الاجتماع الأميركي روبرت بلاَّ. ففي نظرية الاخير يرتبط مفهوم الدين المدني ارتباطاً وثيقاً بتقليد الفضيلة الجمهورية وعدم ثقته بالتقليد السياسي الليبرالي. وحول الوضعية الخاصة للدين الأميركي فإن التقليد الجمهوري يتحد بالتقليد الكالڤيني للجماعة السياسية والدينية الميثاقية، وكذلك بالتقليد الوظيفي المعياري الدوركهايمي، وتصوره لفردية وظيفية اخلاقية في مواجهة فردية مختلفة

(3) خوسيه كازانوفا، الاديان العامة في العصر الحديث، المنظمة العربية للترجمة، 2006، ص 78.

وظيفياً ونفعية وانانية. ولئن اتكأت الرؤية الكلاسيكية حول الدين المدني عند روسو على نقد اضلاع مثلثه النظري وهي «دين الكاهن»، و«دين المواطن»، و«دين الانسان»، فإنه سيجد حلاً لمعضلة الالتقاء بين الديني والسياسي من خلال تأكيده على الحق الحديث في الحرية الدينية، وحرية الرأي السياسي في آن. وهاتان الحريتان لا يمكن لأي حاكم - حسب روسو - ان يختصرهما او يسيطر عليهما.

رغم ذلك فإن مثل هذا الحل سيجد من ينقده في شدة. الأمر الذي سعى اليه كل من ماكس ڤيبر ودوركهايم في فترات لاحقة، من خلال اقتراح نظرية سوسيولوجية للاندماج المجتمعي المنبني على اخلاقية علمانية علمية قد تصلح لتكون ديناً مدنياً للمجتمعات الحديثة. غير ان هذه المحاولة لم تفعل سوى انها أعادت انتاج التوترات القديمة، والتي لم تجد لها حلاً بلغة سوسيولوجية جديدة - كما يقول عالم الاجتماع المعاصر خوسيه كازانوفا - غير ان نظرية روبرت بلاّ حول الدين المدني، كانت برأيه نظرية متميزة، لأنها تستند الى اسس تجريبية. ولأنها ايضاً واساساً تنطلق من مقدمة منطقية مفادها ان السياسة الأميركية تاريخياً تبدو كأنها تشتمل على ما يشبه الدين المدني. لكن كازانوفا لا يلبث ان يرسم علامات استفهام حول نظرية بلاّ، ليرى ان المرء وإن قَبِلَ بالمقدمة التي تعتبر ان السياسة الأميركية كانت مندمجة في وقت من الاوقات داخل دين مدني مؤلف من تركيبة خاصة تقوم على المبادئ التوراتية الطهرانية والجمهورية والليبرالية النفعية والدينية - الاخلاقية، فقد اصبح بديهياً اصلاً في الفترة التي صاغ في خلالها بلاّ نظريته، أن أي شيء تبقى من هذا الدين المدني اصبح غير ذي صلة على نحو متزايد بقواعده الاولى (...) وهكذا، سرعان ما أقرّ بلاّ نفسه بأن «الميثاق» الوطني قد «انحلّ» وأن أي تذمر عادي لن يعيد الميثاق القديم مجدداً. وفضلاً عن ذلك، فالمبادئ الثلاثة التي تشكّل معاً الدين المدني الأميركي، والتي لا تختلف في بعض جوانبها عن الاديان الثلاثة لدى روسو، تجسد مجدداً المعضلات نفسها.

عودة القومية الحادة

كان لصدمة الحادي عشر من ايلول/سبتمبر 2001 ما يشبه «الأثر الجيولوجي» في النفس السياسية الأميركية. فلسوف نرى إثرئذٍ ما هو اقرب الى اعادة تشكيل الذات الأميركية على نحو ما تشكّلت عليه في نشأتها الاولى. سيمتلئ التفكير الاستراتيجي بطائفة من قواعد النظر والسلوك بدت للوهلة الاولى كما لو كانت انقلاباً على ميراث الديموقراطية الأميركية بأجمعه:

أولاً: النزعة القومية الحادة احتلت مرتبة وازنة في مكوّنات التفكير الجديد للإدارة الأميركية. حتى انها باتت احدى خاصّيات المفارقة الايديولوجية للمحافظين الجدد.

ثانياً: إن ما طَفا على سطح الاطروحة الأميركية وهي تلج فضاءات القرن الحادي والعشرين، جاء تكثيفاً لعقيدة أميركية طاعنة في الزمن. والعقيدة على ما يبيّن نُظّار الفلسفة السياسية هي رزمة العوامل المكوّنة لإيمان الأميركي برسالته التي ينبغي ان يُكتب لها الحضور المستدام في الزمان والمكان العالميين.

ثالثاً: كل شيء يدخل نطاق الرسالية الأميركية يروح يتحول الى ركن من اركان العقيدة. فالدين والقومية والوطنية، والثقافة، والفلسفة، ناهيك عن الاستراتيجيات السياسية والعسكرية، هي على الجملة، تؤلف ما يسمى الاطروحة الأميركية. ولأن المآل الاخير لهذه الاطروحة هو ما يصح تسميته بالفكرة الأميركية فإن كل ما يتعلق بأصول هذه الفكرة وفروعها هو بعين ذاته ترجمة للاطروحة بأكملها.

وعلى ما يبيّن بعض علماء الاجتماع فإن الاطروحة الأميركية هي نفسها العقيدة الأميركية، وهي نفسها كذلك الايديولوجية الأميركية. بذلك تكون الاطروحة مجموعة مقترحات ومسائل بشأن أميركا تقدمها الأمة لنفسها وللعالم الخارجي. وهكذا تنقشع الصورة: «الأميركيون من كل الاصول القومية، والطبقات، والاديان، والمعتقدات والألوان، لديهم عامل مشترك: مثال اجتماعي هو الروح العامة للجماعة، وعقيدة سياسية (. . .) ولقد كان الكاتب

الأميركي رالف والدو ايمرسون يعرّف الالتزام بالمبادئ الأميركية للحكم على انها شكل من اشكال اعتناق الدين. وهذه الاطروحة او العقيدة او الفكرة، بما يرافقها من اساطير قومية، تشكل الاساس الذي بُنيت عليه القومية المدنية الأميركية، وتجعل من الوجه العلني للولايات المتحدة نموذجاً للقومية المدنية بامتياز. وعلى المستوى النظري، فإن كل من يتقبَّل «الاطروحة» او «الفكرة» الأميركية يمكنه ان يصبح أميركياً، بصرف النظر عن اللغة والثقافة والاصل القومي، مثلما كان يمكن لأي شخص ان يصبح سوفياتياً إذا تقبَّل الشيوعية(4).

غير أن مفارقة الاطروحة الأميركية تكمن في واقع ان أي تكوين من تكويناتها له سَمْتٌ خاص يطابق روح أميركا. قومية الأميركيين لم تظهر على نصاب ما ألِفَتْهُ اوروبا حين أطلقت إمبرياليتها الحديثة. إن قومية أميركا من طراز تركّب على عمومية المفهوم وخصوصية المكان. بل يمكن القول إن القومية الأميركية مفارقة للمفهوم ومتحدة معه في الوقت عينه. تعني القومية الأميركية الولاء للفكرة: وهذه الاخيرة تعني ان أميركا بوصفها رسالة حضارية هي في آن، جغرافيا ذات بُعد ميتافيزيقي. وعلى هذا النحو يستلزم الولاء للفكرة موالاة حاملي تلك الفكرة باعتبارهم الصنف البشري الخاص المؤهل لحمل هذه الرسالة. وهم- بحسب التنظير العقائدي الأميركي- الانكلوساكسون البيض البروتستانت (Wasp).

رابعاً: ربما كان العنصر الاهم والمميز في القومية الأميركية انها قومية منفتحة، احتوائية، متسعة، ولكن بقيادة ومآل عنصريين...

ذلك ما يطابق التوصيفات التي ذهبت الى اعتبار مبادئ الاطروحة الأميركية عقلانية وكونية في الآن نفسه... وان الأميركيين ينظرون اليها، ويتعاملون معها، بما هي حقيقة قابلة للتطبيق على الشعوب والمجتمعات في اي مكان وزمان. وهذا ما اشار اليه الكسيس دو توكفيل مرة أخرى بقوله: إن الأميركيين مجمعون على المبادئ العامة التي يجب ان تحكم المجتمع البشري كله. والذين

---

(4) David Frun, *Read Right* (New York: Basic Books 1994, P, 130.

جاؤوا من بعده من الايديولوجيين الأميركيين، كانوا على نحو كبير من الوضوح حين رأوا أن قدر أميركا باعتبارها أمة، أن لا تكون لديها ايديولوجيات، بل ان تكون هي نفسها ايديولوجيا».

لقد كان ثمة حرصٌ لا يقربه الوهن من جانب «حكماء أميركا السياسيين» على تأكيد العوامل الجوهرية للعقيدة الأميركية ولو على سبيل التبشير. وهي الايمان بالحرية، والدستور، والقانون، والديموقراطية، والفردانية، والمساواة الثقافية والسياسية. وهذه الحزمة من الفضائل بقيت في جوهرها النظري على ما هي عليه سحابة التاريخ المديد من عمر أميركا. والمعروف ان مثل هذه الحزمة تجد جذورها بصورة اساسية في عصر التنوير، فضلاً عن كونها مشتقة من التقاليد البريطانية: فلسفة جون لوك الليبرالية، فضلاً عن قناعات اقدم بكثير من دور القانون و«حقوق الرجال البريطانيين الاحرار»...[5]

ولو كان لنا ان نقرأ المزيد مما كُتب في الاطروحة الأميركية، ولا سيما في وجهها القومي، لوجدنا الكثير من علامات الذهول والتساؤل.

يروي عالم الاجتماع الكندي من اصل سلافي ساكفان بيركوفيتش انه اكتشف في أميركا مئات الطوائف والفِرَق، ولكل منها شكله المختلف عن البقية، لكنها كلها تؤدي المهمة نفسها. وهذا الإجماع الايديولوجي - كما يقول - يجري توظيفه بكل الإغراء الأخلاقي والعاطفي كأنه رمز ديني. «ولقد منحه هذا الاكتشاف - كما يعترف هو نفسه - بعض احساس انثروبولوجي بالدهشة لوجود مثل هذه الرمزية القبلية»... وهذا هو الشيء الذي يحمل كثيرين منّا على ترجيح ان تكون الولايات المتحدة في بداية القرن الواحد والعشرين اكثر مجتمع ايديولوجي على وجه الارض[6].

من جهته، وعلى جاري عادته في التنظير الايديولوجي لـ«الامركة» يرى

---

(5) اناتول ليفن، اميركا بين الحق والباطل، تشريح القومية الاميركية، ترجمة د. ناصرة السعدون، المنظمة العربية للترجمة، بيروت 2008، ص 130.

(6) اناتول ليفن، المصدر نفسه، ص 133.

صامويل هنتنغتون انه من الممكن التحدث عن مجموعة من الافكار السياسية التي تشكل اطروحة «الامركة». وهذه الاطروحة بنظره لا تشبه في شيء النزعة البريطانية او الفرنسية او الألمانية او اليابانية. فـ«الامركة» عند هنتنغتون، يمكن مقارنتها بالايديولوجيات والاديان الاخرى. بمعنى ان رفض الافكار الاساسية لهذه العقيدة يجعلك «غير أميركي»... ان هذا التماهي للقومية مع العقيدة او القيمة السياسية يجعل الولايات المتحدة عملياً حالة فريدة من نوعها» (...) ولذا فإن ما هو غير اعتيادي في أميركا على هذا الصعيد هو الاجماع الكلي على الايمان بهذه المبادئ القومية الموجهة(7).

مرجع هذا التصريح ان أميركا بالنسبة اليهم راسخة في ايمانها بنفسها. اذ حين يمجّد الأميركي مبادئ دولته ومؤسساتها وقوانينها فإنه لا يفعل ذلك من باب الدفاع الوطني، بل ليقين لديه ان هذه المبادئ يمكن، بل وينبغي تطبيقها على المجتمعات البشرية كلها. إن ذلك اليقين مرجعه الى عقيدة القدر الخاص التي يؤمن بها الأميركيون حيال بلدهم.

صحيح ان جميع الامم لديها ما يكفي من الزعم بأنها الشعب المختار، لكن لا يوجد امة في التاريخ الحديث تهيمن عليها فكرة ان لها مهمة خاصة في هذا العالم كأميركا. ولذا فليس من العجيب في شيء ان يتحدث الأميركيون دوماً عن عراقة دولتهم باعتبارها اقدم دولة حديثة في العالم، وبالتالي اقدم جمهورية، واقدم ديموقراطية، واقدم نظام فيديرالي، بل واقدم دستور مدوّن، كما يتباهى الأميركيون بأن لديهم اقدم احزاب سياسية حقيقية.

الدين المدني

إن الانسحار الأميركي بالنفس لا يعود الى النجاحات التي حققتها أميركا لتصير دولة عالمية وحسب، وانما ايضاً واساساً الى الينبوع الميتافيزيقي الذي يرفد مثل هذا الانسحار ويغذيه ويمنحه القوة والدوام.

---

(7) اناتول ليفن، المصدر نفسه، ص 132.

خامساً: قد يكون من اهم مصادر قوة العقيدة لما يسمى بالقومية المدنية في المجتمع الأميركي، أنها تقوم على الجمع بين التراث الهائل للتنوير الاوروبي، والتيارات الدينية البروتستانتية، والتقاليد الأميركية القديمة (...) وحين بدأ «الخط الرئيس» للبروتستانتية في الولايات المتحدة يتجه اكثر فأكثر نحو الليبرالية والتسامح في القرن العشرين، راح يتشكل في الوقت نفسه تيّاراً من البروتستانتية الغامضة اصطلح على تسميته بالدين المدني. وهو ما يمكن النظر اليه على انه منطقة التوسط بين التنويرية العلمانية والتديّن البروتستانتي.

ان هذا "الدين المدني" الذي هو حصيلة توافق وطني مدين لإيمان مؤسسي الجمهورية بالله. اولئك الذين اكدوا على الاهمية المركزية للدين من اجل ديمومة الجمهورية من دون تخصيص ماهية هذا الدين. لكن من المؤكد انهم قصدوا نوعاً من انواع البروتستانتية. وهو ما سيترجمه الرئيس آيزنهاور في قوله الشهير «ليس لحكومتنا اي معنى ما لم تتأسس على الشعور بالإيمان الديني العميق. ولا يهمني ما يكون هذا الدين»[8].

لم يأتِ ما اوردناه من كلام آيزنهاور في مسرى التظهير الايديولوجي كما قد يبدو من ظاهر الخطاب، وانما في فضاء توصيف واقع الحال التاريخي للبنية الأميركية. فالتأسيس الديني في هذا المقام يدخل في ذات الاطروحة الأميركية ولا يمكن النظر اليه كأمر عارض عليها. وهو ما يستجليه القول: إن أميركا هي موطن اعمق ايمان ديني محافظ في العالم الغربي واوسعه انتشاراً، وهو بالتالي يشمل مجموعة مهووسة بآمال ألفية (Millenarian) مجنونة ومخاوف وكراهيات. وهاتان الظاهرتان - كما يبيّن علماء تاريخ وانثروبولوجيا غربيون - تترابطان بشكل وثيق. وقد اظهر استطلاع للرأي اجراه "معهد بحوث بيو للاستطلاع" عام 2002، ان الولايات المتحدة تبدو في مطلع القرن الحادي والعشرين اقرب الى العالم النامي منها الى الدول الصناعية من حيث الايمان الديني. ذلك بالرغم من ان غالبية المؤمنين في الولايات المتحدة ليسوا من الاصوليين

(8) ورد ايضاً في استشهادات وإحالات أناتول ليفن، المصدر نفسه، ص 144.

البروتستانت، بل من الكاثوليك، ومن التيار الرئيسي البروتستانتي الاكثر ليبرالية. لقد ظلت اهمية الدين في أميركا المعاصرة حالاً نمطية واضحة منذ بدايات القرن التاسع عشر. وهو ما لاحظه دوتوكفيل حوالي 1930، يوم كان الايمان الديني بين الشعوب الاوروبية مهتزاً إثر عقود عدة من التنوير والثورة الفرنسية، بينما بقي الايمان الديني الأميركي متوقداً وشاملاً(9).

سادساً: في ما يتصل بالإشكال البنائي للاطروحة الأميركية والمتمثل بالتلاؤم بين مركزية الدين ومركزية العلمانية، فيعود الى الروح العلمية للمؤسسين الاوائل. اولئك الذين خاضوا اختبارات مركبة ومعقدة افضت الى ظهور ما سبق واشرنا إليه حول «الدين المدني». ان معنى هذه الصيغة جاء كثمرة لخليط عجيب من لاهوت مسيحي بروتستانتي ذي طابع صوفي، ومن علمنة آتية من خلاصات الحداثة الاوروبية التنويرية. ولقد تأكد هذا المعنى من خلال اجراءات المصالحة بين الدين والعلمانية ادت الى مزجهما في وعاء ثقافي ومعرفي واحد. فقد اتاح التحرر من المسيحية التقليدية الكاثوليكية وكذلك التحرر من العلمانية الحادة ذات النموذج الاوروبي-الفرنسي بخاصة، إلى انتاج الدين الأميركي من دون ان يسبغ على مؤسسات الدولة والمجتمع الصفة الثيوقراطية.

لاهوت الغَلَبَة، كميتاستراتيجيا أميركية

لقد سعينا في ما سلف من فصول الى الإشتغال على الخريطة المعرفية للأطروحة الأميركية، وجلاء مفارقاتها. فلقد وجدنا من المفارقات ما حَمَلَنا على جعلها حقلاً لأسئلة لا تني تتوالد، وتنمو، وتؤسس لأزمنة جديدة، منذ نشوئها حتى أيامنا الجارية.

لعل ما يضاعف من خطوط التوتر الآخذة في الإمتداد عبر الزمن، أن أميركا آلت إلى كينونة ضاجّةٍ بقلق مقيم. كأنما وهي تسطّر نجاحاتها وانتصاراتها، لم تغادر خشيتها من عالم يوشك على الإنفلات والتشظّي.

(9) Tocqueville, *Democracy in America,* P. 51.

لقد بدت الصورة الأميركية كما لو كانت تعكس ما قاله مرة احد الحكماء: إن على المرء أن يبكي في أمسيات النصر. لأن المنتصر غير قادر ابداً على مقاومة إغراء تكرار عمله. لكن ملحمة القوة التي أخذت بها أميركا لكي تنجز غَلَبَتَها، كانت متأتية من متسام عَقَدي ولاهوتي، أكثر مما تفترضه المألوفات الاستراتيجية لدولة/ أمة طامحة للتمدد في ما يتعدى جغرافيتها الوطنية.

كان ثمة، ما هو فوق قومي، وفوق استراتيجي، يحكم، ويوجِّه، ويغذِّي، ويسدِّد إغواءات السيطرة الأميركية على العالم. ذلك هو الوضع الذي وجدنا ان نضعه ضمن مصطلح «الميتاستراتيجيا». ولنا هنا أن نشير، ولو بوجه مقتضب الى هذا المصطلح:

عندما وُضع مفهوم «الميتا- ستراتيجيا» كمصطلح في علم الحروب والصراعات الكبرى، لاحظ واضعوه مركزية الإيمان الديني، وحضور الإعتقادات الغيبية في الزمن السياسي. وهذا يعني أن نشوء هذا المفهوم ما كان ليتحصَّل خارج نطاق الحراك العام. وبالتالي فإن «الميتا- ستراتيجيا» هي وليد موضوعي واقعي، ينمو، ويتطور، ويتكامل، ضمن سَيرِيَّة الإلتقاء الحميم بين الإيمان الديني، ومنظومة الأفكار التي تعكس المصالح السيادية العليا للأمة.

في التجربة التاريخية للغرب لم تَغِب حضورية اللاَّهوت اليهودي والمسيحي عن مشاغل النخب التي تولّت قيادة هذه التجربة. لقد لاحظ الفيلسوف الألماني لودفيغ فيورباخ هذه السمة في مقالته المعروفة «ضرورة إصلاح الفلسفة»، فرأى أن عصور الإنسانية لا تتميز إلا بتغيّرات دينية، ولا تكون الحركة التاريخية أساسية إلا إذا كانت جذورها متأصّلة في قلوب البشر. وسنلاحظ استطراداً، أن فيورباخ، فعل كمن جاء قَبْلَه، مثل هيغل وكانط وسواهما، فلم يروا إلى القلب إلا بوصفه المكان الأخير للمعرفة، والى النظر إليه ليس كصورة من صور الدين، وإنما هو جوهر الدين وعينه.

وكما سبق وبيَّنا في فصل أسبق، فلقد لعب لاهوت "القضاء والقدر" حسب الإنجيلي الفرنسي جون كالڤن، دوراً مهماً في ولادة الرأسمالية. حيث يقرر هذا اللّاهوت "أن الخلاص يكون مقدّراً للبعض، كما تكون العقوبة مقدَّرة

للبعض الآخر. لكن إذا كان هذا البعض يمتلك رأس المال، ووظَّفه بطريقة عقلانية، ثم حصّل بواسطته النجاح، فذلك يكون، بحسب اللاَّهوت المشار إليه، علامة دالَّة على الخلاص".

في المجال الذي مورست فيه لاهوتيات الغَلَبَة الأميركية عبر الزمن، كانت الميتا-ستراتيجيا - حاضرة حضور العين. ولو نحن أخذنا المشهد الأخير لسياسات الهيمنة سنرى مثلاً، كيف أن إدارة الرئيس جورج بوش نجحت، [مدفوعة برغبة الانتقام التي تلت صدمة 11 أيلول/سبتمبر 2001 في جَمْعِ ثلاثة عوامل قوية في الشعور القومي والديني لدى الأميركيين:

- العامل الأول: الرغبة في القيام بهجوم مضاد سريع عندما تعالج هجوماً أو تغسل عاراً. وهذه الروحية ليست حكراً على أميركا.

- العامل الثاني: القناعة بأن أميركا بلد مختار من الله، وان استخدامات قوته لها ما يبررها.

- العامل الثالث: إن هذه القناعة ترتبط بدورها بما يمكن اعتباره الصيغة الدنيوية للإيمان مثلما ترتبط بمكانة أميركا التي قرَّرها الله. وهي مكانة متأتية من فكرة تقوم على أن الولايات المتحدة الأميركية هي حاملة لواء الحرية، والنموذج الأمثل عن الديموقراطية، وكذلك لديها القدرة، ولها الحق، وعليها واجب نشر قيمها في سائر العالم. إنه الإيمان الذي لم يتوانَ بوش ومناصروه عن التعبير عنه خلال الحملة الانتخابية عام 2004[10].

هذي هي المنطقة المعرفية التي ابتنَيْنَا عليها سَعْيَنا لتظهير فلسفة أميركا السياسية. عنينا بها منطقة الدين التي تستمد من الطهرانية الإنكليزية لاهوتها السياسي والثقافي والايديولوجي. وذلك ما كان لنا معه وقفات معمَّقة في سياق هذا الكتاب.

نعود مجدداً إلى الكسيس دوتوكفيل الذي بيّن بعمق هذه النقطة. وكان يرى أنه لدى الكلام على أميركا والأميركيين ينبغي اعتبار الدين بوصفه المؤسسة

(10) راجع الفصل السادس من هذا الكتاب.

السياسية الأولى. ولسوف تأتي البحوث التاريخية لتُجمع على حقيقة مركزية قوامها: حاضرية اللأَّهوت الديني في الأطروحة الأميركية. فلقد صار مألوفاً الكلام على حدوث انقلاب درامي في استقطاب «فكرة أميركا» لروح الدين، بالتوازي مع ما عُرِف بـ «الصحوة الكبرى» Great Awakenning في المستعمرات الإنكليزية (1720– 1740). وهذه الرؤية تبدو متساوقة مع ما يُقرَّر بأن في الولايات المتحدة ديناً أميركياً متميِّزاً عن كل المذاهب المسيحية، وأنه منذ القرن الثامن عشر والبروتستانتية الإنكلوساكسونية، تنأى وتنفصل عن أشكالها التقليدية المؤسساتية، لتستوي ضمن أشكالها الجديدة على نحو يرضي النزعات الفردية، ثم تعيد صياغتها لتناسب مجتمعات لا تعبد إلاّ السوق.

قطيعة انثروبولوجية

ربما لم يشهد مجتمعٌ او أمةٌ ضرباً من القطيعة الأنثروبولوجية كمثل ما عَهِدَته أميركا. فقد كان على الساكنين الجدد من الإسبان والإنكليز أن يصوغوا وعياً جماعياً خلاصته، أن لا تاريخ لأميركا إلاّ بهم. وأن هويتهم لا تولد، وتنمو، وتتبلور، إلاّ داخل هذا المكان الجديد.

صحيح أن الشعور القومي حاضرٌ بقوة لدى الأميركي، إلاّ أنه لا يظهر في الخطاب اليومي إلاّ على شكل إشارات، ثم يعود ليسطع في الفضاء العام، في اللحظات التي يرتفع فيها منسوب الإحساس بخطر وشيك. وبهذا المعنى يمكن إعتبار القومية الأميركية، قوة معنوية كامنة ومستترة. لكنها لا تلبث أن تنفجر بقوة هائلة حين يتبين أن أميركا أمام خطر محدق.

لقد كان على المستوطنين أن يمرُّوا في تجربة مصالحة مع الأرض التي حلّوا فيها للتوّ. ولم يكن أمامهم إلاّ ما يشبه خيار العبور البرزخي الشاق من طور الغربة إلى طور السكينة. ينبغي لهم أن ينشئوا زماناً غير الذي سبق مجيئهم إلى أرض الميعاد. وأن يعيدوا هندسة المكان على قياس الأحلام التي غالباً ما تتصور الأمكنة على تمام المدن الفاضلة. فلم يكن ليُفتح بابُ الكلام على

أميركا بوصفها «مدينة فوق جبل»، إلا في سياق جعل الجغرافيا تمثيلاً واقعياً للإيمان الديني[11].

لكن الإطروحة الأميركية ستواجه، تبعاً لمهمتها التأسيسية مشكلة الوصل والفصل بين زمان ومكان انصَرَما إلى غير رجعة، وزمان ومكان ينبغي لهما أن يؤلِّفا بداية تاريخ جديد.

يظهر التاريخ الأميركي كشريط لمشاهد ايديولوجية متصلة. فلسوف يتبدى لنا الأمر كما لو أن معرفة تاريخ أميركا وإدراك مزاياه، يفترض بالضرورة الفهم المعمَّق للنزعة القومية التي تكونت بشكل أساسي كما مرَّ على قواعد تمتزج فيها تلك النزعة بالعقيدة الدينية، ثم ليشكلان معاً البناء الايديولوجي للثقافة التاريخية الأميركية.

تهافت الدولة الكاملة

بدأت أميركا أطروحتها بالايديولوجيا. ومع هذا فقد عَصَفَ الوهنُ بها، ليحلَّ العقلُ والعلمُ والتكنولوجيا محلها. لكن الغريزة الايديولوجية ظلت كامنة في الروح الأميركية، الا أنها قد تعود وتنفجر في اللحظة التي يشعر فيها أحفاد المؤسسين، أن أمة أجدادهم لا تزال ظمأى إلى ما يمدُّها بأسباب القوة والإستمرار.

إذا كانت أميركا تأسست بالايديولوجيا، فإن إعادة تأسيسها لا يبدو أنه سَيُحصَّل إلاّ بالايديولوجيا. ولقد أدرك الرواد الذين أسسوا لثورات القرن العشرين الكبرى، ضرورة عدم الركون للدولة بعد الثورة. أي أن ديمومة فكرة القيامة التاريخية للأمم، لا يمر إلا عبر بث حيوية لا ينضب ماؤها داخل اوصال الايديولوجيا. بل ان هذا على ما تبيَّن هو السبيل لإعادة إنتاج النشأة الاولى للفكرة على نشآت متعاقبة ودائمة. وتشكل التجربة التاريخية الأميركية في

---

(11) يمكن العودة الى الفصل الأول من هذا الكتاب، حيث بيّنا على التفصيل إشكاليات هذه السيْرية التاريخية.

ميدان حلولية الدين في السياسة، والايديولوجيا والاستراتيجيات العليا، أعلى درجات تظهير الميتاستراتيجيا. حيث لم تعد الميتافيزيقا والأخلاق، مع سَيْريَّات المثال الأميركي معزولة داخل الضمائر الفردية. ولم تعد متوقفة على الأديان. فهي ستغادر سر الضمائر، وتندرج في التجربة السياسية وفي القضايا الدولية والحسابات الاستراتيجية. لقد هبط المطلق إلى الأرض حتى غدا كل ما في المتعالي الديني سارياً في الثنايا والتفاصيل واللحظات. وبدا بوضوح لا يقبل الشك، أن الأشياء والكلمات لم تعد ذات معنى، ما دامت خارج نطاق الإستعمال.

***

لقد ذهبنا في هذا الكتاب، إلى تسييل سؤال الدولة في أميركا. وكان لنا أن نوصل الفلسفي بالسياسي ليكوِّنا أمراً واحداً. ذلك أنَّ المفاهيم الملساء لم تعد تجدي وهي تمكث بصمت في الأمكنة النائية من عالم الفكر. صارت المفاهيم في قلب الإختبار الحي. وما عاد بالإمكان المفارقة او الإنقطاع او الفصل. لم يعد هنالك من جدار فاصل بين الفكرة والحدث. فالدولة بقدر ما هي قضية فلسفية، هي قضية سياسية. وبقدر ما هي منبسطة على فضاء التاريخ اللاّمتناهي، هي حاضرة في كل آن وكل لحظة. فلئن حَضَرَ البشري حَضَرَتِ الدولة، وقيامُها وهبوطُها أمران متعلقان بجدل لا نهاية له بين الإنسان والإنسان، وبين الإنسان والزمن.

إذا كانت السيادة المستباحة في العقود القليلة المنصرمة هي المظهر الأكثر جلاء للدولة/ الأمة، فإنَّ أميركا كدولة فاعلة في التحول العالمي هي دولة «مستبيحة» بإمتياز. من هنا ينشأ المعنى الأميركي للعالم، إذ حين يُرى العالمُ بعين أميركية، لا تبدو سيادة الغير على نفسه إلاّ خروجاً على سيادة أميركا على نفسها. ولسوف تكون المعادلة على الشكل التالي: إنَّ سيادة دولة ما على شعبها في نطاق جيو- سياسي محدَّد، سيترتب عليها، حكماً، الإنزياح،

والمفارقة عن مصالح أميركا ونفوذها في العالم. إنَّ هذا التأسيس الشمولي للدولة الأميركية لم يبتديء بعد نهاية الحرب الباردة، ولا بعد زلزال الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001، وإنما مع أول غيث من الشعور الأميركي بأنَّ العالم آيل بحتمية «القضاء والقدر» إلى الإنضواء تحت ظلال الدولة المخلِّصة العظمى.

«أميركا هي العالم، العالم هو أميركا». هي القاعدة الميتاستراتيجية التي تقوم عليها الهندسة المعرفيَّة لهذا البلد. كان المؤرِّخ الألماني أريك هوبزباوم يقول عن القرن العشرين إنه قرن أميركي. لكننا بعد برهة، سنسمع من المحافظين الجدد، وفي مستهل القرن الواحد والعشرين، أن على أميركا، أن تحكم العالم سحابة القرن الجاري. وسيجد هذا الإعتقاد من القبْليات ما لا حصر له. مثلما سيجد القارئ كم للميثولوجيا الأميركية من قدرات في التحكم بمسارات السياسة، والأمن، والإقتصاد، والثقافة، واستراتيجيات الحروب[12].

***

اضأنا في الفصول السابقة من هذا الكتاب على مهمة أميركا في عالم ما بعد الحداثة. ودخلنا إلى مناطق السجال حول النوع السيادي الذي تمارسه على العالم، والذي سيبلغ ذروته بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. ولقد وقعنا على منطقة ثالثة في السلوك الأميركي السيادي. وهي منطقة تراوح بين خصائص الإمبريالية التقليدية والإمبرياليات الأسطورية (القديمة). فلا يظهر في السلوك الأميركي كمثلٍ ما درجت عليه الإمبرياليات المعروفة في أوروبا في خلال القرنين المنصرمين، أي السعي إلى السيطرة على الأسواق وفرض قوانينها على بلاد بعيدة. فلم يرَ هذا السلوك إلى العالم إلاَّ بصفته إمتداداً للمجتمع وللأمن القومي الأميركي ببعده الجيو- استراتيجي.

---

(12) انظر مقدمة كتاب المؤلف محمود حيدر "الدولة المستباحة ـ من نهاية التاريخ إلى بداية الجغرافيا"، دار رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 2004.

أميركا اليوم تريد أن تحكم العالم. وهي تعكف على إنجاز هذه المهمة بآليات وأساليب وذرائع لا حصر لها. إلاَّ أن مثل هذا الهدف لا يني يرواح بين الافتراض والحقيقة. وضمن هذه البرهة الإنتقالية ستسعى أميركا إلى تكييف العالم مع رحلتها المدوية. ولن يغرب عنا القول إنه قد قُيِّض لها أن تملك «الحظّ التاريخي» في عمليات التكييف ولو إلى حين. فالولايات المتحدة التي وصفها صامويل هنتنغتون بأنها مجتمع من الطراز الذي كانت تحكمه أسرة تيودور، قد تحرز نجاحاً في عالم يشبه عصر الملكة إليزابيت الأولى بصورة جديدة، وفيه صراعات شبه دينية، ودولة قَبَلية، ومغامرون في التجارة، وأساطيل حربية، وقَتَلة...

إنَّ هذا التوصيف الذي يُخلع على أميركا حتى من الذين نظَّروا لها بصفتها الدولة الكاملة، سيكون له غير باب يمكن أن يُفتح على التشاؤم. صحيح أنها ستكون بفضل قوتها واقتدارها وعظمتها آمنة، ولكنها ستفقد روحها، وستكف أميركا عن أن تكون «المدينة الواقعة على التل»، كما كان يصفها لاهوتيُّوها الأوائل، وسوف تصبح بدلاً من ذلك، أمَّة مرقَّعة، تقسمها الولاءات والأعراق، وسوف يسكنها شعب يُفزِعُه السفر إلى الخارج، أو مغادرة البيوت داخل الوطن.

هل يدخل الأميركيون عصراً مضاعفاً من التشاؤم؟

في مستهل القرن الواحد والعشرين لم يعد السؤال مجرد افتراض. لقد ظهر بوضوح لا يقبل الشك، أن وارد التشاؤم قد انسلَّ إلى النفس السياسية-الأميركية ولمّا يفارقها بعد...

فهرس الأسماء

(أ)

إبراهيم (النبي) 10، 250
أبوت، فرانسيس 44
آدامس، جون 152، 174
آدورنو 102
آرمسترونغ، كارين 22، 40، 84-87، 111، 113، 147
أرندت، حنّة 268
آرون، ريمون 95
أريسطو 16
اشكروفت، جون 78
أفلاطون 16
اكسون، اندريه 151
إكنبري، ج. جون 234-235، 296، 298
الأكويني، توما 91
إمرسون، رالف 46، 150،260، 330
أوسوليفان، جون لوي 148، 150
أوغست (كونت) 324
أوغسطينوس (القديس) 252
أولسين، مانكور 310
إيراسموس 93
آيزنهاور، دوايت 222، 333
إيكو، امبرتو 226
ايلاند، رود 29، 35
ايمس، انتنيل 154
الأيوبي، الهيثم 280

(ب)

بابا الفاتيكان 31، 85، 258
بار، آرون 54
باوثملي، جاكوب 37
باي، منكسن 136-137، 139، 156
بايكر، جيمس 316
باين، توماس 152، 174
برادفورد، ويليام 29، 261
بريجنسكي، زبيغنيو 18، 101، 124-125، 127، 129، 221-222، 303-306، 313، 315
بريستلي، جوزيف 68
بسمارك 96
بلّا، روبرت 328
بلان، ارنو 222
بن لادن، اسامة 294، 305
بن، ويليام 38
بو، ادغار 150

بوت، ماكس 288
بوتين، فلاديمير 314
بورستين، دانيال 107
بوش، جورج (الأب) 174، 294
بوش، جورج (الابن) 10-11، 78، 80، 135، 141، 158، 174، 176، 187، 223، 208، 234-235، 237، 239، 244، 259، 275، 286، 291، 297، 313، 315، 336
بوغنون - موردان، ميشال 108، 143، 145، 213
بوكانان، باتريك 177- 179، 187-188، 270
بولارد، جوناثان 188
بولس (القديس) 110
بونهوفر، ديتريش 102-103
بونيفاس، باسكال 211
بيركلي، جورج 154
بيركوفيتش، ساكفان 331
بيرل، ريتشارد 176-180، 268، 318
بيزونسون، آلان 269
بيفردج، ألبرت 161، 241
بيكون، فرانسيس 55
بينتون، رولاند 200
بينيت، بيل 177
بيومي، علاء 80

(ت)

تاون، جورج 298
تايلور، بيتر 123-124
تراشي، دافيد 105
ترنر، جاكسون 160
تروتسكي، ليون 143
ترومان، هاري 177، 294
تشارلز (الأمير) 32
تشارلز (الأول) 33
تشرشل، ونستون 272
تشيني، ديك 176
التوبة، محمد محمود 308
تونغ، ماوتسي 143
تيار دي شاردان 101

(ج)

جاسبر، ديفيد 91، 93-94
جاك (الأول) 32
جاكسون، آندرو 118، 133
جتكر، فاضل 131
جرام، فرانكلين 78
الجورا، محمد 22، 85
جوكس، آلان 252
جونز، بوب 66
جونسون، سكوب 179
جوني، علي 226
جيفرسون، توماس 54، 68، 111، 113-114، 117، 131، 133، 151، 174، 223
جيمس، ويليام 44، 46، 324

(ح)

حجار، بسام 23
حداد، جورجيت 31، 83، 260
حديفي، منصور 59
حسنين، هيكل محمد 218، 242
حسين، صدام 180، 273، 306
حمّاد، مازن 26
حنا، الياس 233
حيدر، محمود 126، 169، 191، 245، 294، 340

(خ)

الخميني (الإمام) 143

(د)

د. تورو، هنري 150
د. روكفلر، جون 46
د.اسحق، ستيفن 179
داربي، نيلسون 75
داو، لويرنزو 114
داود (النبي) 173
درايفوس، جان مارك 182
دري، روبن 109، 255-258
دو توكفيل، آلكسيس 23-24، 57-58، 143، 214، 281، 326، 330، 334، 336
دوايت، تيموثي 112
دوايت، مودي 67
دوركهايم، (عالم الاجتماع الألماني) 50، 95، 328
دولاي، توم 166
دولس، افري 105
دولوز، جيل 325
دويتشر، اسحق 169
ديبورا، روجي 143
ديري، أكرم 280
ديكارت، رينيه 146

(ر)

رابين، اسحق 180
راسل، ميد وولتر 66-67، 199
رامسفيلد، دونالد 176، 272، 306
رايس، كونداليزا 176، 244
رملاوي، غسان 235، 275
روا، أوليفييه 273
روبرتسون، بات 78
رودجر، جون 35
رورتي، ريتشارد 251
روزفلت، تيودور 215، 217، 219، 286
روزفلت، فرانكلين 131، 141، 217، 224
روسو، جان جاك 58، 223-224، 328
ريغان، رونالد 158، 174، 193، 223-224، 300

(ز)

زفينغلي، هولدريش 85
زكاء الله، محمد عارف 89
زميتاي، موريس 179

(س)

سارادار، ضياء الدين 226، 253
ساندر، بيرس تشارلز 44-45
ستالين، يوسف 218
سكوكروفت، برنت 305-306، 316
سميث، تومي 122، 157، 275
سميث، جو 170
سنبورغ، فلو 102

(ش)

شارون، آرييل 187
شاليان، جيرار 222
شتراوس، ليو 307
شكسبير، ويليام 150
شلزنغر، آرثر 301
شوقي، رياشي 45
شومسكي، نعوم 275
شونسي، رايت 44
الشيخ حسين، عقيل 182
شيرر، غلين 76
شيري، كونراد 81، 83
شيلنغ (الفيلسوف الوجودي الالماني) 325

(ط)

طبارة، رياض 317، 319

(ع)

عبد الناصر، جمال 143
العكش، منير 153، 170-172، 174، 201، 260
عمر، محجوب 101
عمران، بطاح شادي 209

(غ)

غالتنغ، جوهان 229
غالي، بطرس بطرس 229
غرانت، جورج 76، 263
غراهام، بيلي 81
غروسمان، زولتان 228
غرين، غراهام 208
غصن، غسان 74، 166-167، 262
غيتان، نيكول 31، 33-34، 83، 147-148، 150، 152
غيتون، جون 280

(ف)

فالويل، جيري 78
فايث، دوغلاس 177، 179-180
فرانكلين، بنيامين 55، 68، 174
فريدريك (الأكبر) 166

فريدمان، لي 171
فريدمان، موري 78
فريدمان، ميلتون 32، 79
فلنت، كولن 123-124
فورتي، برونو 102-103
فوستر، دالاس جون 157، 274
فوكس، جورج 38،40، 42
فوكو، ميشال 325
فوكوياما، فرانسيس 18، 230، 240، 295-296، 307-309، 311، 316
فولتير (الشاعر الفرنسي) 55
فيبر، ماكس 94-96، 98-100، 254، 328
فيربانكس، تشارلز 179
فيرجسون، نيال 289
فيسك، جون 150
فيورباخ، لودفيغ 147،335

(ق)

قانصو، وجيه 91

(ك)

كارتر، جيمي 143، 313، 223
كارنوف، ستانلي 242- 244
كارنيجي، آندرو 46
كازانوفا، خوسيه 51-53، 114، 327-328
كالڤن، جون 31، 33، 66، 85، 88، 90، 93، 255
كانط، إيمانويل 38، 46، 146، 169، 223، 325
كروثامر، تشارلز 210
كروموبل، أوليفر 33، 36، 66
كروندن 40-41، 43، 46، 49، 54، 56
كريجي، بيتر 200
كريستول، إيفرينغ 257
كلاركسون، لورانس 37
كلاوزفيتز (الفيلسوف السياسي) 16، 239
كلينتون بيل 83، 174، 223-225، 287
كنوكس، بولك جيمس 31، 151
كوب، أبتسر 37
كوبرنيكس (العالم والفيلسوف) 73
كوتون، جون 37
كوتون، ماتر (القس) 106
كورت، هابتون 32
كوكس، هارفي 105
كولبرت، جايمس 179
كولومبوس، كريستوفر 12، 21-22
كولونوموس، آريال 157-159، 161، 260، 274
كوين، جايمس 104
كيالي، ماهر 169
كيركباتريك، جين 177
كيري، هنري تشارلز 133
كيسنجر هنري 18، 178، 239، 294-295

كينغ، مارتن لوثر 84، 86، 88، 92، 177، 197
كينيدي، بول 285-286، 302-303
كينيدي، جون 221-222

(ل)

لالاند (الفيلسوف) 191
لاند ريتشارد 74
لانسلوت (لاهوتي وواعظ انغليكاني) 30
لانغدون، هارفرد صموئيل 174-176
لود، وليام 33
لوس، هنري 225
لوك، جون 55، 130، 256-257، 331
لويس، هـ. لافام 208-209، 211-212
لوينبرغ، روبرت 179
ليفن، آناتول 331-332
ليمان (القسيس) 83
ليند، مايكل 180
لينكولن، ابراهام 10
لينين، فلاديمير ايليتش 143، 218

(م)

م- كروندن، روبرت 26-27
ماديسون 117
ماذر، كوتون 173، 199، 261
مارتي، مارتن 116
مارك، درايفوس جان 181
ماكغوفرن 177
ماكينلي، ويليام 244-245
مالتوس 175
ماهن 152
مايسي، دوغلاس 77، 79
المسكيني، فتحي 282، 325
المسيح (يسوع) 21، 41، 49، 67-68، 71-76، 88، 93، 104، 113، 166، 173، 197، 258
المسيح الزائف 37
مكيافيللي، نيقولو 223-224
ملفيل، هرمان 10، 250
منصور، كميل 190-191، 195، 198
مور، توماس 223
مورغان (الكابتن) 242
موسوليني، بنيتو 217-219
موسى (النبي) 82، 173، 175
مويرز، بل 261
ميسون، جون 273
ميلوسيفيتش، سلوبودان 292

(ن)

نابليون (الثالث) 242
نابليون 36
ناي، جوزيف 287-289، 291، 294
نتنياهو، بنيامين 166، 180
نحميا (التوراتي) 174
نهرا، فؤاد 306
نوح (النبي) 68
نوركيست، جروفر 79
نوفال، مايكل 177، 109-110، 257

نيتشه (فريدريك) 325
نيغري، انطونيو 131، 133، 206، 216-217
نيكسون، ريتشارد 212
نيلسون، داربي جون 263
نيوتون، اسحق 55

(هـ)

هابرماز، يورغن 230
هاردت، مايكل 131، 216-217
هارفرد (اللّاهوتي) 73
هاغي، جون 75، 198
هاكليوت، ريتشارد 24
هالي، آليكس 299
هايدغر، مارتن 281، 325-326
هتشنسون، آن 34-35، 37، 41
هتلر، أدولف 218-219
هرقليدس 16
هلمز، جس 11، 80
هنتنغتون صامويل 245، 283-284، 332، 341
هوبز باوم، أريك 230، 340
هوبز، توماس 16، 125، 223
هودغسن، غودفري 134-135
هوركهايمر، ماكس 102
هوسرل (الفيلسوف الوجودي الألماني) 325
هوفمان، ستانلي 176
هويغيه، ف.ب. 274، 265-266
هيروهيتو (الامبراطور الياباني) 218
هيغل 14، 95، 146-147، 264، 281، 325
هيفونيه، باتريس 59
هيوز، روبرت 299

(و)

واشنطن، جورج 82، 152، 242
ورهسر، ديفيد 179
وفالويل، جرام 78
ولد المختار، حسن 224
ولسون، جايمس.ك. 177
ولسون، ودرو158، 177، 207، 217، 219، 275
ولفوويتز، بول 176-177، 235
وليام، ماينز تشارلز 264
ونثروب، جون 34-35، 106، 173
الوود، كريستوفر 94
وولمان، جون 42
ويتمان، والت 150
ويزلي، جون 38
وين ديفيس، ميريل 226، 253
ويندل، هولمز اوليفر 46

(ي)

اليزابيت (الأولى) 27، 341
اليزابيت (الملكة) 254
يعقوب (النبي) 173
يوت، طوني 291-292

فهرس المصطلحات

(أ)

الإبادة الجماعية 241
الاحادية 318
الاحتوائية 145
الإحيائية 118
الأخلاق البروتستانتية 15، 37، 68، 94، 97، 143، 208، 239، 254، 328، 339
الأداتية 194، 195
الأديان العالمية 254
إرادة الله 34، 154، 172
الأربعة الكبار 222
الأرثوذكسية 108
الارستقراطية 49، 58-59، 133
أرض الله 285، 323
أرض الميعاد 25، 82، 170-172، 184، 261، 337
الارهاب 140، 183، 270، 292، 297-298، 305
الأزلي 148-149
الاستثنائية 160، 318
استراتيجيا 11، 140، 166، 178، 180، 189، 191، 193-194، 234-237، 249، 315، 317، 319، 335
الاستعلاء 137، 165
الاستعمار الجديد 153، 220
الاستقلال 86، 139
الاستيطانية 15، 134، 147، 165
إسرائيل الجديدة 170-171
الأسرار الالهية 52، 87
أسطورة 55، 68، 124، 146، 330
الإسلام 22-69، 85-85،187-188، 305، 245، 305، 327
اصطفائية 75
الأصولية الدينية 13، 64-66، 76، 115، 305،
الأطروحة الأميركية 108، 130، 139، 264، 282، 288، 330، 331-332
إعاديي البناء 76، 263
الإغريق 22
الاغواء الفلسفي 323
الاغيار 165
الأفلاطونية الحديثة 22
الاقطاعية 133

الأقلية السوداء 301
إله الطبيعة 82
الامبراطورية 52، 131، 208، 215، 220، 227، 240، 242، 244، 266، 277، 288، 327، 293
الامبريالية الجديدة 16، 161، 223، 321 ، 289
الامبريالية الدينية 18، 215، 221، 227-228
الأمة 123 125، 205، 252
الأمم المتحدة 229
الأمن القومي الأميركي 249، 251، 295، 306
أمير الظلام 268
الآميش 184-185
الانتقائية 78
الانتهازية 231
انثروبولوجيا 63، 134، 331، 333، 337
الانجاز الالهي 107
الإنجيل 37، 64-65، 71، 90-92، 94، 166، 197، 264
الإنجيلية - التوراتية 13، 54، 65، 70، 159، 197، 250
انطولوجي 323
الأنظمة الشمولية 102
الأنكلوساكسونية 147، 161، 172-173، 281، 301، 326
الأوليغارشية 149
الايديولوجيا الاشتراكية 10-11، 14، 76، 97، 102-103، 107، 122-123، 130، 142، 156، 160-161، 165، 167، 187، 213، 226، 231، 240، 250، 253، 259، 261، 284، 316، 336
الايديولوجيا الأميركية 18، 28، 33، 112، 152، 158، 188، 220، 222، 224-225، 245، 274، 331،
الايـمـان 47-48، 50، 100-101، 105، 118، 135، 168، 311، 333

(ب)

البابوية الرومانية 211
البراديجم 234
البارانويا 10، 166، 211، 250
البراغماتية 13، 43، 46-49، 253، 324
بربرية 24
البروتستانتية الأميركية 27، 31-32، 34، 38-39، 40، 49، 58، 64-65، 66، 69-70، 99، 106، 110، 118، 257، 274، 333-334، 340
البريّون 24
البشارة 260
البعثيون 270
البلقنة 299

بنو إسرائيل 152، 200
البوذية 69، 97، 99، 229، 327

(ت)

التاريخ 9، 121، 126، 147، 153، 243، 245، 272، 333
التأويل 9، 16، 87، 91، 110، 125، 152، 225، 280، 283، 325
التبشيرية 80-83، 138-139، 156، 244
التجسيد المسيحي 110، 146
تحييد العقل 39
التدبيرية 75
تدريب فلسفي 47
التديُّن 13-14، 56، 100، 167
التراث اليهودي 107، 169، 185
التراجيديا 304
تركيب ذهني 171
التروتسكية 177
التشكّل الجيو - سياسي 324
التصوّف 10186، 107، 334
التعايش السلمي 124، 223-224
التعددية الثقافية 299
التَقَوية 117، 223
التمثُّل الميتافيزيقي 184
تنصير الشعب 116
التنوير 26، 58، 130، 152، 156، 334-335
التوتاليتارية 144-145
التوراة 107، 165، 184، 197، 262
التيار التقدمي 63، 67، 301
التيار الشتراوسي 79، 307
تيارات فلسفية 259

(ث)

الثالوث 68
ثقافة الاستيطان 208
ثقافة التباكي 299
ثنائية الخير والشر 181
الثورة الأميركية 127، 129-130
الثورة التكنو-الكترونية 129
الثورة الدائمة 143
الثورة الفرنسية 36، 101، 113، 128، 334
الثورة المضادة البوشية 273
ثورة المعلوماتية 142
ثورة ريغان 300
الثورة في الثورة 143
الثيوقراطية 51، 63

(ج)

الجاهلية 9
الجحيم 69
الجذور 299
الجغرافيا 9، 100، 121، 126، 160، 162، 205، 243، 245، 338
جغرافية الروح 14، 325

الجمهورية 10، 36، 116، 133، 176، 216، 259، 300
الجناح اليساري 311
الجنة 74، 110
الجنساوية 104
جوقة الأساطير 136
الجيل الأميركي الرابع 267، 269-271
الجيو . استراتيجي 10، 178، 220، 224، 239، 251، 259، 287، 304، 307، 311، 340
جيو- سياسي ديني 168، 324، 339
الجيولوجيا 72
جيولوجيا السيادة 294

(ح)

الحاضرية 11، 337
الحداثة 9، 21-22، 52، 64، 90، 101-102، 127، 158، 168، 253، 281، 325، 334
الحرب الاستباقية 201، 231، 233، 265-266، 316، 318-319
الحرب الأهلية 207، 217، 243
الحرب الباردة 143، 157، 187، 213، 215-216، 220، 224، 226، 238-239، 251، 264-265، 271، 283، 299
الحرب البيولوجية 291
الحرب الدائمة 265
الحرب الشاملة 233
الحرب العالمية الثانية 122، 272، 308
الحرب اللامتكافئة 265
الحرب الوقائية 249، 265
حركات الاصلاح 118
حركة الاصلاح البروتستانتي 55، 84، 86، 88، 93
حركة الحقوق المدنية 79، 300
الحروب الاستعمارية 135
الحرية 13، 56-57، 116، 127، 136، 160
الحزب الجمهوري 78
حصرية النص المقدّس 92
الحضارة الإسلامية 229
الحظ التاريخي 254، 341
الحق الإلهي 149، 165
حق الحرب 200
حق النقض 229
الحقائق الاستراتيجية 272
الحقائق التكوينية 189
الحقبة الاستيطانية 160
حقوق الانسان 284
حكماء أميركا 331
حكومة المحافظين الجدد 135
حكيم 291
الحلف الاطلسي 108
الحملات البروتستانتية 117

(خ)

الخطبة الدينية 29
خطة الله 27، 46، 197
الخطيئة 37، 69، 110
الخلاص 88، 256، 336

(د)

الداروينية السياسية 68، 72، 241
دراما الوعي الاوروبي 103
الدراماتيكية 187
الدستور الديمقراطي 43، 208
دمقرطة 117
دِنومينيشن 39
الدنيوي 13، 326
الدول المارقة 230، 234، 267، 269
دول مارقة 227
الدولة 54، 63، 66-67، 123، 125-127، 137، 143، 151، 154، 169، 171، 199، 205، 264، 288، 295، 327
ديالكتيك الهيمنة 11، 132
الديانة البابوية 40
الديانة المدنية 82
الديماغوجيا 226، 273
الديمقراطية 10، 24، 46، 49، 58-59، 80، 136-137، 148، 156، 181، 160، 193، 205، 208-209، 234، 238، 259، 291، 295-296، 300، 308، 331، 332
الدين 9-10، 13، 15، 17، 50-53، 56-57، 109، 197 ، 111، 114، 142، 146-147، 250، 254، 261، 326، 328-329، 335
دين الإنسان 328
الدين القيِّم 24
دين الكاهن 328
الدين المدني 58، 115، 327-328
الدين المسيحي الجديد 13، 84
دين المواطن 328
الدينومينشن البروتستانتية 112
الذرائعية 156، 231، 267، 272

(ر)

الرؤية الماهوية لأميركا 153، 326
الراديكاليين 29
الرأسمالية 94، 97، 100، 109- 110
الرايخ الثالث 218
ربّانية (ثيوقراطية) 264
الربوبية الجمهورية 117
رسالة الرجل الأبيض 224
الرسالية 162
روح أميركا 11، 93-94، 82، 175، 212، 260، 323، 329-330
الرومانسية الأميركية 26

(ز)

الزمن الدهري - التاريخي 52، 82، 98
زمن الله الأبدي 50-52

(س)

السبعة الكبار 108
سبي بابل 173
سفر التثنية 175
سفر التكوين 104
سفر الرؤيا 74، 263
السلطة العلمانية 126
السلطة الكهنوتية 29
السوسيو- تاريخية 181، 224، 328
السيادة 76، 132-133، 141، 205، 207، 234، 236، 263
سيرورة 205، 213
سيرورة ديالكتيكية 146
السَيْرِيّة 17، 25، 30، 53، 59، 85، 105، 114، 123، 165، 324، 335، 338-339
سيف روحي 50
سيف زمني 50

(ش)

الشخصية القومية 125، 145، 181، 186
الشرق الأوسط 139
الشركة المقدَّسة 52
شعب الله المختار30، 82، 106، 108، 152، 154، 170، 200، 332
الشيطان 67، 75، 173
الشيعة 270
الشيوعية 139-140، 221، 224، 251، 270، 300، 309، 315

(ص)

الصاحبيُّون 38، 42، 40، 55
صك الغفران 69، 87، 159
الصلة الجوهرية 281
صهيون الجديدة 108، 170، 197
صورة الله 104
الضربة الاستباقية 316، 319

(ط)

الطائفية 82، 112، 118
طالبان 296
الطاوية 97، 99، 255
الطبقة الوسطى 47
الطرائقيون 38، 111
طرفية 194
طريق الرب 83
الطهرانية 12، 24، 26-35، 39، 41-42، 54، 81، 147، 159، 170، 336

(ع)

العالم 21، 51-52 ، 158، 216، 225، 281 ، 326
عبادة الأبطال 298-299
العبودية 58

العثمانيين 173
العدو اللاَّمتكافئ 283
العرب 195، 245
العرق المختار 161، 188
عصر الأنوار 102
العصر التكنوتروني 124، 148، 303
العصر العقلاني 21-22، 39، 51، 55، 57، 86، 93، 96-97، 112، 124، 144، 146، 174، 192-193، 222، 233-234، 256، 267، 287، 330، 336
عصر النهضة 132
العقوبة الاخروية 87
العقيدة 28، 87، 107، 136، 138، 143، 148، 170، 172، 175، 239، 317، 329
العلاقة الماهوية 281
العلاقة المتعالية 109
العلاقة بالمعنى 171
علاقة تداولية 50
العلم 45، 55-56، 95، 72، 101
العلمانية 13-14 50-53،56، 58، 64، 69، 105، 109-110، 112-113، 115-117، 146، 328، 334
العماء البدائي 45
العماليق 200
العناية الإلهية 81-82،149، 151، 214، 261
العنصرية 79، 167
العنف 124
العهد الجديد 74، 174
العهد القديم 171
العولمة 131، 157، 216، 252، 315

(ف)

الفاشي . النازي 217،224
الفاعل الديني 144
الفرادة 165، 331
الفكر 49، 54، 95، 207، 249، 252، 330
فكرة إسرائيل 199-200
فلاسفة الاستيطان 135
فلسفة 249
فلسفة استثنائية 240
فلسفة التأويل 91
فلسفة التبرير 230
فلسفة التنوير 112
فلسفة الحرب 15، 203، 205، 291
الفلسفة السياسية 16، 33، 45-46، 51،56، 148، 162،178، 194، 210-211، 250، 254، 258،262، 282، 323، 329
فلسفة المكان 14، 119
فلسفة الولادة 12-13، 21
الفهم الذاتي 93
الفوضى البناءة 251
الفوضى الخلاّقة 263-264
الفيديرالية 150

الفيزيائية المقدسة 176
فينومينولوجيا الروح 9، 146

(ق)

القاعدة الميتاستراتيجية 340
القانون 31، 48، 82، 114، 266، 238، 304، 308، 319
القَدَرُ المتجلِّي 14، 44، 82، 99، 147-148، 152-153، 161
القدرة الإلهية 9، 99، 256، 262
القدس السماوية 261
القديسون 89
القربان المقدس 86
القرن الخاطف 101
القضية الذهنية 324
قضية هرمينوطيقية 94
قلب الله 261
القوة 98، 144، 158، 275، 317
القومية الأميركية 9-10، 14-15، 23، 121-123، 125، 130، 134، 136، 138، 140، 142، 155، 199-200، 337، 239، 329-330
القيامة الأميركية 109، 154، 326
القيم الدينية 127

(ك)

الكاثوليكية 27، 40، 173، 229، 334
الكارثة المقدسة 260، 315
الكالفينية 40، 65 ، 98 ، 256
الكتاب المقدس 14، 28-29، 67، 72، 89، 104، 166، 197، 253
الكرونولوجي 282
كريستولوجية 92
كلمة الله 94
الكنيسة 28، 48، 54، 64، 70-71، 101، 117، 199، 327
الكهانة 55، 89، 91
الكواكرز 29، 39
الكوسموبوليتية 223، 330
كومنولث مقدّس 89
الكونفوشيوسية 97، 99، 229، 255

(ل)

اللاّادرية 46
اللاّانفصاليين 29
اللاّتاريخية 282
اللاّعقلانية 53، 259، 271
اللاّمتناهي الديني 12
اللاّمتوازية 283
لاهوت "القضاء والقدر" 94، 335
اللاّهوت 12، 15، 28، 51، 87، 92، 94-95، 99-100، 103-104، 111، 152، 170، 167، 201، 212، 250، 253، 257-258، 262-263، 271، 326-327، 335

لاهوت التماهي 181
لاهوت الحرب 260
لاهوت الحرب العالمية الرابعة 265
لاهوت الغَلَبة 16، 18، 96، 323، 336
اللاّيقين 302
اللوثرية 65، 68
اللوح المحفوظ 168
اللوغوس 22
الليبرالية 9، 13، 69، 77، 101، 109، 123-124، 122، 140، 143، 157، 177، 214، 220، 230-231، 234، 238، 257، 328، 333
اللّيتورجيا 104

(م)

المؤسسة الشيوعية 302
ما بعد الحداثي 101
المارسيلياز 127
الماكيافيللية 16، 209
ماهية أميركا 280، 323
مباركة إلهية 99
المتشيِّعين 57
المتعالي 146، 168
المثالية السياسية 102، 142 ، 259، 274
مجاهدة 89
المجتمع المدني 70، 105 ، 133-134، 157، 159، 274
مجتمع ايديولوجي 331
المحافظون الجدد 16، 18، 57، 177، 187، 197، 232، 268، 288، 307-308، 316، 319
المحرقة 182-183، 187
المحكمة الجنائية الدولية 141
المختارون 89
المخلِّص 74، 172، 262
المدن الفاضلة 25
مدينة الله 223، 300، 338
مذهب البراءة 117، 192، 211
المذهب العملي 13، 43، 195
المذهب النوراني الكالفيني 66
المذهب الوضعي 324
مذهب مونرو 109
المسيحية 21، 43، 59، 64، 67-68، 74، 78، 84-85، 101، 115، 229
المشيخية 65، 68
المصير الظاهر 14، 44، 82، 148، 150-151
المُضْمَر المذهبي 193
معاهدة روما 291
المعصوم 65
المعمدانيون 39، 65، 68، 111
المقدَّس 50، 146، 149، 153، 178، 237، 241، 243، 258، 325
المقولة الأميركية 97، 219، 231، 301، 303

المملكة البابويَّة 52
مملكة السلام 73
المملكة اليهودية 179، 184
منظومة لاهوتية 326
المورمون 185
الموساد 188
الموشور 107
المولودون 167
الميتاستراتيجيا 335-336، 339
الميتافيزيقا 9، 14-15، 47، 50، 56، 75، 98، 118، 162، 188، 201، 243، 245، 250، 253، 263، 326-327، 339
الميثولوجيا 21، 39، 84، 147

(ن)

الناتو 314
النادي الميتافيزيقي 45
النازية 185، 218-219
النزاع العربي-الإسرائيلي 190
النزعة الأخلاقية 232
النزعة التبريرية 157
النزعة المادية 113
النص المقدس 98
النصوص الكتابية 263
النظام التصنيفي 52-53
نظام فيدرالي 332
النظرية 17، 65، 73، 167، 271، 249، 303، 309
النفس السياسية 341
النفعية المقدسة 153-154
النفوذ الليِّن 293
نهاية التاريخ 154، 201، 251، 307، 316
نهاية الزمان 170، 201
نور الحقيقة الحي 149
النور الداخلي 41
النيوامبريالية 238، 297

(هـ)

هرمجدّون 75
الهندسة الاجتماعية 309
الهندسة الأخلاقية 266
الهندسة الفلسفية 323
الهندوسية 69، 97، 99، 255
الهنود الكنعانيين 173
الهولوكوست 170، 181
الهوية 26-27، 29، 130، 161، 186
هيرمينوطيقا الكتاب المقدس 14، 87 ، 90
الهيمنة 216، 274، 310-312، 317، 319

(و)

الواقعية 102، 232، 323، 238
الوثنية 258
الوجود الماهوي 281
الوحدة 139

الوحوش الاسطورية 125-126
وحي سماوي 244
الوضعاني 168
الوطنية 134، 155، 239، 329
الوعد الإلهي 245
الولاء 124، 156
الولسونية 158-159

(ي)

اليسار العالمي 220
اليقين 144-145، 332
اليمين 76-78، 180، 209، 253، 309
يمين مسيحي جديد 115
يهود 183
اليهودية 21-22، 69، 78، 84-85، 97، 99، 166، 171، 180، 184، 197، 255، 263
يوم الاستقلال 182
يوم الدين 45
يوم الدينونة 67
يوم الشكر 81

صدر للمؤلف

- اللّايقين السلمي، أحوال لبنان بعد الحرب، دار الفارابي، بيروت، 1997.
- تحولات المشروع الإسرائيلي في لبنان، منشورات المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، بيروت، 1998.
- الأرض المغلولة، مزارع شبعا هل هي لبنانية؟ ملف «النقاد» شركة رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 2000.
- نهاية الجدار الطيب، سيرة الاحتلال الإسرائيلي للبنان، شركة رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 2001.
- نهاية الجدار الطيب، بالفارسية، ترجمة سيد حسين موسوي، مركز البحوث والدراسات الاستراتيجية للشرق الأوسط، طهران، إيران، 2003.
- لغة التماس، دراسات في نقد الشعر، دار الكتاب الحديث، 1995.
- ايديولوجيا الصوت والصورة، بالعربية والفارسية والإنكليزية، مركز الإعلام للدراسات والأبحاث، طهران، إيران، 1996.
- الدولة المستباحة ـ من نهاية التاريخ إلى بداية الجغرافيا، شركة رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 2004.
- فلسفة التعرُّف، لقاء المسيحية بالإسلام، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت 2009.

كتب مشاركة

- الديمقراطية والمشروع النهضوي، المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، 1994.
- الاحتلال الإسرائيلي للبنان، المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، 1993.
- الإعلام ونظام القيم، مؤسسات الإمام الصدر للدراسات، بيروت، 2003.
- الانتصار المقاوم وتداعياته الاستراتيجية، المركز الإسلامي للدراسات الفكرية، بيروت، 2007.

المحتويات

الإهداء 7

مدخل 9

الفصل الاول: طبائع أميركا الاولى 19

فلسفة الولادة 21

لحظة تكوين الهوية 26

التأسيس الطهراني لأميركا 30

ثقافة الحرب الأهلية 36

أركان الإيمان «البراغماتي» 47

جدلية الميتافيزيقي- العلماني 50

اختراقات العلمنة 53

الفصل الثاني: أميركا بما هي دولة دينية 61

مثلث الأصولية والليبرالية والإنجيلية 63

الأصولية و"مَسْحَنَة العالم" 74

المرجعية التبشيرية 80

البروتستانتية هي الأصل 84

هيرمينوطيقا الإصلاح 87

الهرمينوطيقا البروتستانتية والحداثة 90

لاهوت "القضاء والقدر" 94

اللّاهوت النقدي: "أمركة الإيمان" 100

العلمانية المتديِّنة 109
سَيْرِيَّات التكيُّف 114
الفصل الثالث: فلسفة المكان 119
مفارقات الهوية القومية في أميركا 121
ثمانية أعمدة للقومية الأميركية 123
فكرتا القومية والدولة الأمة 124
ثلاث سمات سيادية مميزة 131
صناعة الوعي القومي 134
قومية على حدِّ الاستثناء 136
الايديولوجيا كتجلٍّ لوحدة الدين والقومية 142
"المصير الظاهر" بوصفه عقيدة قومية 148
الذرائعية الأخلاقية 156
الجغرافيا المقدسة 160
الفصل الرابع: فلسفة أميركا الإسرائيلية 163
القيامة هي نفسها 165
اليهودية السارية في الزمن 168
عقيدة "الاختيـار"! 172
الفيزيائية المقدسة عند المحافظين الجدد 176
لاهوت التماهي بـ "الهولوكوست" 181
شَبَهٌ تكويني تُظهِرُهُ ايديولوجيا الإقصاء 188
المسافة والوهم 189
في المذهب الاستراتيجي الأميركي 191
في رؤية العرب 195
توراتية "الانجيليين الجدد" 197
وحدة النشأة والمآل 199

الفصل الخامس: فلسفة الحرب 203

التأسيسات الايديولوجية للهيمنة 205

«الغير» هو الجحيم 207

فلسفة الاستهتار بـ"الغير" 210

لاهـوت الاقتدار 212

مدَّعى «العالم هو أميركا» 225

فلسـفة التبريـر 230

سبعة عوامل استراتيجية 233

ذكاء توتاليتاري 239

الفصل السادس: فلسفة الفوضى 247

التمرينات الاخيرة للمحافظين الجدد 249

أصلان للفوضى: ديني وفلسفي 250

استعادة اللّاهوت السياسي 253

القضاء والقدر.. أيضاً وأيضاً 256

الكارثة المقدسة 260

من الفوضى حتى نهاية العالم 262

لاهوت الحرب العالمية الرابعة 265

نقّاد الحرب الاستباقية 266

حرس من الأكاذيب 272

الفصل السابع: نقَّاد الامبراطورية المعصومة 277

نقد ماهية أميركا 280

مقولة الوطأة الثقيلة 285

خرافـة مناوأة الإمبريالية 287

فلسفة الخروج على القانون 291

جيولوجيا السيادة 294

هيمنة مطلقة. . عزلة مطلقة 295
انعــدام الثقـــة 296
وحــدة أميركــا: الشك الواقعي 300
إستئناف النقد 307
دحض نظرية «الهيمنة الخيّرة» 309
بريجنسكي مستأنفاً نقده 313
التحولات العالمية العشرة 314
خاتمة: أميركا بوصفها امبريالية دينية 321
التأويل الهيغلي لأميركا 325
عودة القومية الحادة 329
الدين المدني 332
لاهوت الغَلَبَة كميتاستراتيجيا أميركية 334
قطيعة انثروبولوجية 337
تهافت الدولة الكاملة 338
فهرس الأسماء 343
فهرس المصطلحات 350
صدر للمؤلف 361